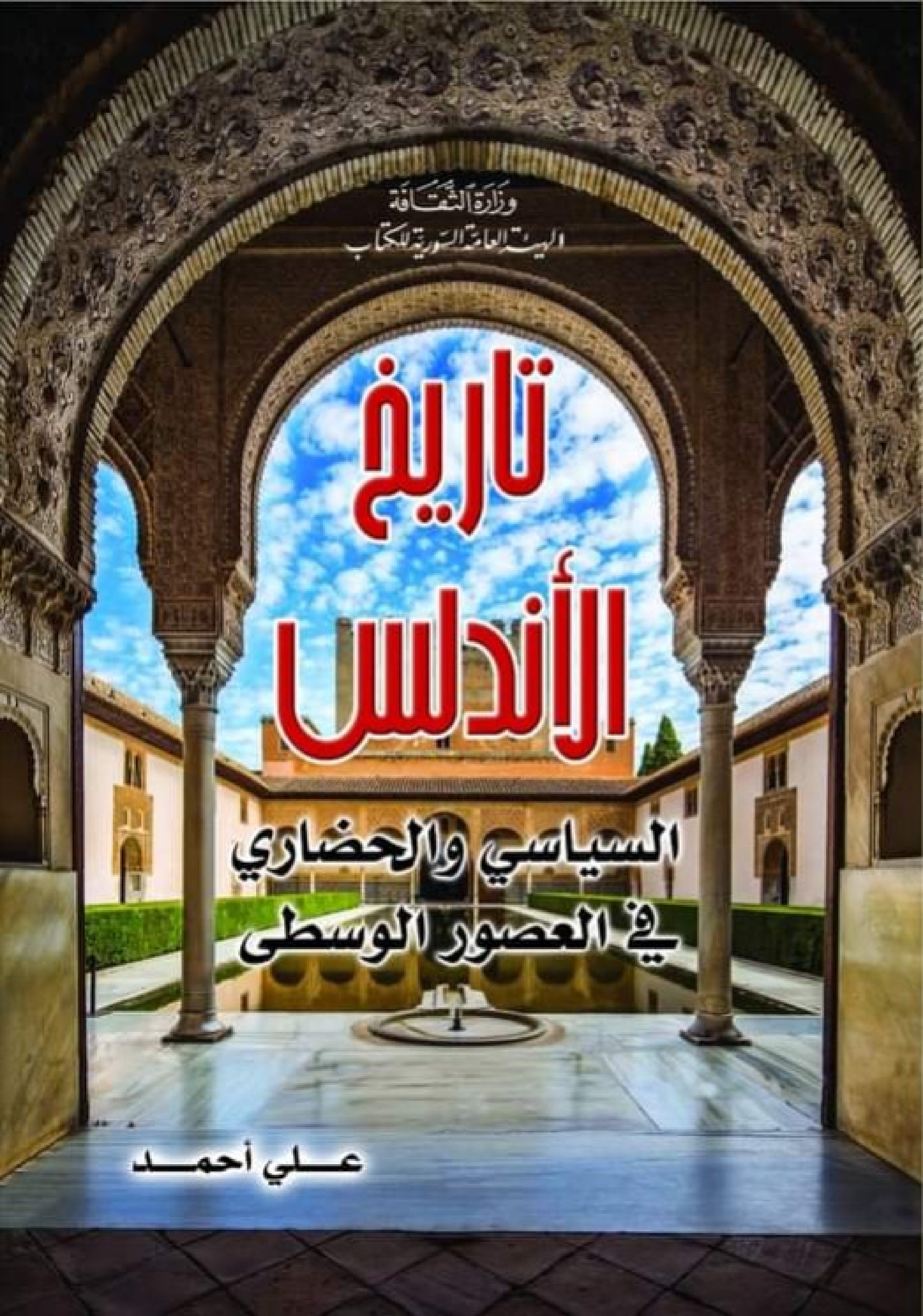


وزارة الثقافة

الهيئة العامة السورية للكتاب

تاريخ الأندلس

السياسي والحضاري في العصور الوسطى

علي أحمد

تاريخ الأندلس

السياسي والحضاري في العصور الوسطى

- ١ -

تصميم الغلاف:

عبد العزيز محمد

علي أحمد

تاريخ الأندلس

السياسي والحضاري في العصور الوسطى

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٢م

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر
(بالضرورةِ) عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

مُقَدِّمَة

ما زالت الأندلس، وستبقى ربما إلى حين طويل، تشغل في الذاكرة العربية حيزاً مهماً حافلاً بالتواريخ والأحداث والإنجازات الحضارية العامة، وكذلك بالأفراح والمسرات إلى جانب التعثر والهزيمة واليأس، الأمر الذي جعل هذه البلاد محطة تستقطب اهتمام الدارسين والمتذكرين والباحثين على الدوام.

والأندلس لا تحظى بهذا الاهتمام لأنها فُقدت وضاعت فحسب، بل لأنها كانت من أهم البلاد، التي عاش العرب فيها عيشاً بعيداً عن التعصب والتكتل والتقوقع، فأبدعوا في كل مجالات الحياة العامة، وبرهنوا على عظمة الأمة العربية، هذه العظمة التي تجسدت في معاملة غير العرب من إسبان ويهود وأوروبيين معاملة توافرت فيها كل شروط الاحترام والتقدير لإنسانية الإنسان، بغض النظر عن جنسه ولونه وعقيدته، وقد وصلت هذه المعاملة إلى ذروة التطبيق والممارسة على أرض الواقع، في الوقت الذي كانت فيه دولة العرب في الأندلس من أقوى وأزهى وأعظم دول العالم على الإطلاق.

كذلك لأنها كانت أرض خير وعطاء لم يشهد تاريخ العصور الوسطى نظيراً لها، فقد عاش على هذه الأرض الطيبة علماء ومبدعون

وفنانون، أصبحوا بعلومهم وإنتاجهم الإبداعي رواداً عالمين، أفادوا العالم برمته من خلال ما أبدعوا وابتكروا. فعلى هذه الأرض عاش أول إنسان في تاريخ العالم فكَّر في الطيران على هيئة طير، وكان فكره هذا محطة انطلاق نحو آفاق بعيدة في مجال الطيران، هذا الإنسان العظيم هو عباس بن فرناس. وعلى هذه الأرض عاش ابن رشد صاحب الفلسفة العقلانية، الذي استطاع أن يرسم للعالم برمته طريق الفوز والنجاة بالانتقال من حياة الليل والظلام إلى بحبوحة النور والعلم، حينما أصر على تجذير أسس الاعتماد على العقل والتجربة في المجتمع بديلاً عن أسس الاعتماد على الغيبيات والمجاهيل. وعلى هذه الأرض أيضاً عاش الزرقالي الفلكي القرطبي المشهور، الذي أدهش الأوروبيين بإنجازاته العلمية الفلكية. وعلى هذه الأرض عاش كذلك علماء بارعون في الزراعة نقلوا إليها وإلى أوروبا العديد من الزراعات، التي لم تكن معروفة قبل الوجود العربي في القارة الأوروبية.

كذلك لأنها كانت المعين الرئيس، الذي زود القارة الأوروبية بأسباب نهضتها وتقدمها، هذه الأسباب التي تجسدت في انتقال كل المعارف العلمية العربية المزدهرة إليها، وهي معارف جمة في الطب والصيدلة والفلك والهندسة والزراعة والفلسفة والعمران، وما إلى ذلك. فقد كانت الأندلس منذ نهاية عصر الإمارة الأموية، تشكل محطة كبيرة لكل المهتمين بالثقافة والفكر، جُمعت فيها كل معارف العرب المشارقة، وكذلك كل إبداعات الأندلسيين أنفسهم، الذين تميزوا وتألقوا في العديد من ميادين العلم والثقافة.

ونهتم بالأندلس العربية أيضاً، لأنها عبّرت بجدارة عن رسالة العرب الحضارية والإنسانية، فهي في نظر الأوروبيين حتى اليوم المثل الرائع، الذي يجب أن يكون عليه عرب هذه الأيام، من اهتمام بالعلم والفكر والمعرفة، ومن معاملة طيبة يحترمون من خلالها كل الناس بعيداً عن الطائفية والمذهبية والعرقية والإقليمية، ومن اعتبار من كل ما جرى على أرضها من خلافات كبيرة، أدت إلى ضرب المشروع العربي النهضوي فيها، ومن ثمَّ خروج العرب منها بالغلبة، بعد أن تفرقت كلمتهم وماتت هممهم وفضلوا الطائفة على مجموع الأمة، وتعلقوا بالفرع دون الأصل، وسلكوا طريق التعصب ضد بعضهم وضد الآخرين.

أيضاً فإننا نهتم بالأندلس، لأنها الأرض التي جرت فوقها أحداث ومواجهات شبه مستمرة، نجح العرب في القضاء عليها حينما كانت صفوفهم موحدة وكلمتهم محترمة، وفشلوا أمامها حينما تمزقت وحدتهم وتبددت جهودهم وتفرقت كلمتهم.

كل هذه الأمور في حلوها ومرّها، نراها في هذا الكتاب مفصلة بأسلوب بعيد عن التهويل والمبالغة، اللذين اعتاد البعض الاعتماد عليهما. وقد ابتعدنا كثيراً عن التفصيل في الأمور السياسية، وحاولنا جاهدين أن نفصل في الأمور العلمية والحضارية، ذلك لأنها أساس شهرة العرب في فترة وجودهم في الأندلس في العصور الوسطى، ودليل ذلك أن ما خلفوه في مجال العمارة والهندسة في ميادينها المختلفة. يشكل اليوم أحد أهم مصادر الدخل في إسبانيا، ونعني هنا قصر بني الأحمر بغرناطة، وقصر بني عباد بإشبيلية،

ومسجد قرطبة الكبير، وغيرها من الأماكن المعمارية المنتشرة في كل أنحاء إسبانيا. فهذه القصور وغيرها من مواقع المدن العربية الخربة، تستقطب عدداً كبيراً من السياح الأوروبيين وغيرهم، الأمر الذي يجعلها من مصادر الدخل القومي الإسباني، الذي يتنامى ويتطور باستمرار بعد أن اكتشفت الحكومة الإسبانية أهمية هذا المصدر، الذي لا يكلف أيّ مجهودات أو مبالغ كبيرة.

نتمنى أن نكون قد وفقنا إلى حد ما في هذا الجزء المهم من سلسلة تاريخ العرب في العصور الوسطى في المجالين السياسي والحضاري.

الفصل الأول

جغرافية الأندلس وحالتها العامة
قبل الفتح العربي

الأندلس هي ما يعرف اليوم بدولتي إسبانيا والبرتغال تقريباً، أي أن الأندلس هي الجزء الأوسط والجنوبي من شبه الجزيرة الإيبيرية، وتقع في الزاوية الجنوبية الغربية من القارة الأوروبية، وتصل مساحتهما إلى نحو ٦٠٠ ألف كيلو متر مربع. وتُعد إسبانيا بشكل خاص من أجمل البلدان الأوروبية، وبخاصة في الوسط والجنوب، حيث يسود الاعتدال في الطقس والمناخ، ويزيد من هذا الجمال ما خلفه العرب في العصور الوسطى من آثار عظيمة في فنها وعمارتها في العديد من مناطق الوسط والجنوب الإسباني، الأمر الذي ساعد على تنشيط الحركة السياحية في إسبانيا.

تسمى الأندلس بعدد من الأسماء التي تتصل بحقب تاريخية معروفة، فقد سماها اليونانيون إيبريا ومن ذلك يقال شبه الجزيرة الإيبرية، وسماها الرومانيون هسبانيا، ومنها اشتق اسمها الحالي إسبانيا، وسماها العرب واندلوس نسبة إلى الواندال، الذين كانوا يسيطرون عليها، ومنها انطلقوا لاحتلال المغرب الكبير، ومع مرور الزمن تطور الاسم واستقر على لفظ الأندلس.

والأندلس عبارة عن شبه جزيرة، تحيطها المياه من جميع جهاتها باستثناء الزاوية الشمالية الشرقية، التي تشكل الحدود البرية الوحيدة التي تصلها بفرنسا.

فالبحر الأبيض المتوسط يحدها من الجنوب والشرق، والمحيط الأطلسي يحدها من الشمال والغرب. وعلى الرغم من وجود بوابة برية تصل الأندلس بأوروبا عن طريق جنوب فرنسا، فإن ذلك لم يؤثر في إسبانيا ذلك التأثير الكبير على مختلف الصعد، كما أثر انفتاحها الكبير على المحيط والبحر المتوسط إبَّان فترة العصور الوسطى.

وهي، إضافة إلى ذلك، عبارة عن هضبة، تنحدر من الشرق إلى الغرب، وتتخللها مجموعة من السلاسل الجبلية الشاهقة الارتفاع. ففي الشمال نرى جبالاً عالية تسمى جبال (البرت) وربما تكون مشتقة من حيث تسميتها من كلمة Port كما يقول الدكتور أحمد مختار العبادي، التي تعني الباب أو الممر[١]، ويبدو ذلك صحيحاً إذا عرفنا أن هذه المنطقة هي المنطقة البرية الوحيدة التي تصلها بأوروبا عبر فرنسا. كما تسمى هذه الكتلة الجبلية أحياناً بجبال البيرينيه، وأحياناً بجبال البرانس. ويلي هذه الجبال إلى الغرب جبال الكانتابريك المجاورة لخليج بسكاي.

أما إلى الجنوب من جبال البرت والكانتابريك، فتقع سلسلة جبال سييرامورينا التي تسمى في المصطلح العربي جبال قرطبة، ويلي هذه السلسلة إلى الجنوب بالقرب من البحر الأبيض المتوسط سلسلة جبال سييرانيبادا، التي سماها العرب في العصور الوسطى جبال الثلج أو جبال شلير، من منطلق أن الثلج يكاد يغطيها معظم أيام السنة، وهي من أعلى جبال شبه الجزيرة الإيبرية على الإطلاق، كما أن وديانها تُعد من أعمق الوديان في أوروبا، وهذا ما جعلها في بعض الأوقات ملاذاً لبعض الثائرين على الحكومة الأموية في عصر الإمارة، كما سنرى فيما سيأتي من حديث عن هذا العصر.

وفيما بين هذه السلاسل الجبلية الهائلة، نرى العديد من الوديان (الأنهار) المهمة، التي تسير مواكبة حالة الانحدار في شبه الجزيرة الإيبرية بشكل عام،

---

(١) أحمد مختار العبادي . في تاريخ المغرب والأندلس طبعة دار المعارف ص١٩.

من هذه الوديان الوادي الكبير في الجنوب، وهو من أهم الوديان في إسبانيا، وعليه تقع مدينتا قرطبة وإشبيلية، وإلى الشمال من هذا الوادي نرى وادي آنه الذي تقع عليه مدينتا ماردة وبطليوس، أما في وسط شبه الجزيرة الإيبرية هذه فنرى وادي التاجة، الذي تقع عليه مدينة طليطلة التي كانت قبل الفتح العربي لإسبانيا من أهم مدن المنطقة، ذلك لأنها كانت عاصمة البلاد منذ القديم. وفي الشمال الشرقي نرى وادي أبرو، الذي تقع عليه مدينة سرقسطة[١] ومعظم هذه الوديان (الأنهار) دائمة الجريان طوال أيام السنة، وجميعها تصب في المحيط الأطلسي باستثناء نهر أبرو، الذي يصب في البحر الأبيض المتوسط في شرق البلاد.

استفاد العرب في العصور الوسطى من هذه الطبيعة الجبلية في تشكيل وبناء شبكة دفاعات قوية[٢]، ضد كل الهجمات التي كان الإسبان في الشمال ينفذونها بين الفينة والأخرى على امتداد زمن الوجود العربي في الأندلس في العصور الوسطى. ومن أهم مواقع العرب الدفاعية كانت مدينة سرقسطة في شمال شرق الأندلس، التي دعيت في زمن الحكم العربي بالثغر الأعلى أي أبعد النقاط الدفاعية عن العاصمة قرطبة، ثم مدينة طليطلة في وسط الأندلس على نهر التاجه، وكانت تسمى الثغر الأوسط، وهي المنطقة الدفاعية الثانية حتى سقوطها في يد الإسبان سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٦م، وكذلك مدينة ماردة ثم بعد ذلك بطليوس، التي كانت تسمى الثغر الأدنى لقربها من العاصمة قرطبة.

أما بخصوص مناخ الأندلس فهو مناخ البحر الأبيض المتوسط، أو كما قيل عنه في العصور الوسطى إنه مناخ الإقليم الشامي، وهو من أحسن المناخات التي تناسب الحياة البشرية والنباتية والحيوانية بشكل عام[٣].

---

(١) أحمد بدر . تاريخ الأندلس . طبعة دمشق ١٩٨٣ ص٨.

(٢) أحمد مختار العبادي . المرجع السابق ص١٩.

(٣) المقري التلمساني . نفح الطيب ج١ ص٦٥.

وفيما يتعلق بالوضع العام غداة فتح العرب الأندلس، لم يكن وضعاً قوياً، ذلك أنَّ إسبانيا برمتها، كانت تعاني من حالة ضعف كبيرة في الميدان السياسي والاجتماعي، وسبب ذلك أن المجتمع الإسباني كان منقسماً على نفسه عرقياً وطبقياً، ففي قمة الهرم الاجتماعي الإسباني كانت تتربع طبقة مكونة من الملك والنبلاء، وهذه الطبقة تتمتع بكل الحقوق، وفي يدها تتوضع معظم ثروات البلاد، ومع ذلك لم تكن الأمور بين أفرادها تسير على ما يرام، فكثيراً ما حصلت المؤامرات والدسائس بين أفراد هذه الطبقة، الأمر الذي انعكس سلباً على قوة الدولة وزخمها العام. يلي هذه الطبقة في التدرج الاجتماعي طبقة رجال الدين، وهي طبقة وجدت من مصلحتها التعاون مع طبقة الملك والنبلاء، وهذا أمر يكاد يكون معروفاً أو بالأحرى يميز طبقة رجال الدين من كل الأديان، لذلك نرى أن رجال الدين في إسبانيا تمتعوا بمكانة مرموقة في المجتمع، وكان نفوذهم غير محدود، ذلك لأن الدين في العصور الوسطى كان يشغل مكانة مهمة في حياة الشعوب بصورة عامة، حتى إن الكثير من الناس في هذه الفترة، كانوا يعتقدون أن باستطاعة رجل الدين أن يدخل من يريد الجنة أو النار، هذا بالإضافة إلى تأثير رجال الدين على الحكام(١).

يأتي بعد طبقة رجال الدين طبقة اجتماعية دعيت في التاريخ الإسباني الطبقة الوسطى، وهي طبقة كانت تشكل العمود الفقري في المجتمع الإسباني، لكنها لم تكن كذلك في الفترة التي دخل العرب فيها إسبانيا، فقد كانت قليلة العدد أثقلتها الضرائب فساءت أحوالها في كل الميادين. ثم تأتي بعدها طبقة كانت تعرف بالطبقة الدنيا، وهي أكثر من حيث العدد من كل الطبقات سابقة الذكر، لكنها أقل تمتعاً بالحقوق العامة والمساواة والعدالة والاحترام، فقد كان أفرادها يعملون في المزارع الخاصة بالملك والنبلاء ورجال الدين، وهم بمنزلة العبيد تماماً، لأن المزارع إذا ما بيعت كانوا يباعون على أنهم جزء منها، وبذلك تنتقل ملكيتهم من شخص إلى آخر.

---

(١) أحمد مختار العبادي. المرجع السابق ص٥٠.

أما الطبقة الأخرى فهي طبقة اليهود، الذين شكلوا أعداداً كبيرة في إسبانيا قبل دخول العرب إليها، وكانوا مكروهين ومنبوذين من كل الطبقات بسبب عقيدتهم الدينية التي تختلف عن عقيدة الآخرين، وكذلك لأنهم شغلوا دوراً سلبياً في الحياة الاجتماعية الإسبانية، حينما راحوا يروجون لأعمال الربا والابتزاز المالي من أجل تجميع أكبر قدر من رأس المال، والتحكم باقتصاد البلاد قدر المستطاع. وربما يعود الوجود اليهودي في إسبانيا إلى العصر الروماني، وكذلك إلى أصل شرق - أوروبي وأصل خزري، وهذا يعني أن أسلاف معظم اليهود المعاصرين، لم يأتوا من وادي الأردن وإنما من الفولغا، ولم ينحدروا من كنعان وإنما من القوقاز، وإنهم أوثق انتماء وراثياً إلى قبائل الهون والمجر منهم إلى ذرية إبراهيم وإسحق ويعقوب[١].

ومن ذلك يمكن القول، إن اليهود كانوا طارئين على شبه الجزيرة الإيبرية (إسبانيا) مثلهم في ذلك مثل اليهود في كل مكان، ولم تكن لهم صلة جنسية أو دينية بسائر سكان الأندلس، وكانت الحياة الاقتصادية كما ذكرنا في أيديهم وتحت سيطرتهم، يقدمون القروض والإتاوات والإغراءات للطبقات الحاكمة، ويبتزون الأموال من الطبقات المحكومة دون تفريق بين فقير أو غني أو بين محتاج أو متخم، ثم كانوا يقرضون المال للجميع بالربا والفوائد وما يتصل بذلك[٢].

كان اليهود في إسبانيا يعانون من حالة اضطهاد شديدة، وبخاصة من قبل رجال الدولة وكذلك النبلاء ورجال الدين، وكانوا بدورهم يقومون باضطهاد الطبقة الوسطى، فكانت الدولة تأخذ منهم القروض، ثم تدفعهم لتحصيلها من الشعب. من أجل ذلك لجأ اليهود في الأندلس إلى التسلط بالربا على أبناء الطبقة الوسطى خاصة. وقد جعل رجال الدين الإسبان اضطهاد

---

(١) يوسف فرحات . غرناطة في ظل بني الأحمر، طبعة أولى، بيروت دار الجيل ١٩٩٣ ص٨٧ إمبراطورية الخزر وميراثها . صدر عن مكتب دراسات فتح ١٩٨٠ ص٢٢٠.

(٢) عمر فروخ . العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، طبعة ثانية، بيروت دار الكتاب العربي ١٩٨١ ص١٧٩.

اليهود سياسة صريحة لهم، وحملوا الدولة على تبني تلك السياسة، وكانوا لا يبايعون ملكاً على إسبانيا إلا إذا تعهد بتنفيذ هذه السياسة. وكانت حجة رجال الدين في اضطهاد اليهود، هي أنهم قتلوا المسيح، وأنهم يأخذون الربا، ويعملون في النخاسة. وكانت الكنيسة قد أقرت سياسة الاضطهاد هذه في سنة ٦١٦م في أيام الملك سيسيبوت، الذي حكم في الفترة (٦١٢-٦٣١م) وكان روماني الهوى، وقد أعطى اليهود مهلة سنة يصبأون فيها إلى النصرانية وإلا أُخرجوا من إسبانيا بعد مصادرة ثرواتهم وأموالهم، فأظهر تسعون ألفاً منهم النصرانية، ولكنهم ظلوا يختتون أولادهم ويضمرون اليهودية. وحينما علم رجال الدين حقيقة هذا الأمر، قرروا في المجمع الرابع الذي انعقد عام ٦٣٣م في طليطلة ما يلي:

١- يترك اليهود البالغون وشأنهم، ولكنهم يسلمون أولادهم إلى الكنيسة في السنة السابعة من أعمارهم ليتربوا على النصرانية.

٢- لا يتزوج عزب يهودي إلا نصرانية، ولا تتزوج عزبة يهودية إلا نصرانياً وإذا رفض يهودي ذلك فإنه يستعبد وتصادر أمواله[١].

أدت هذه الشروط، وما آلت إليه من أحوال سيئة باليهود، إلى أن يعملوا على التخلص منها ومن عواقبها، فراحوا يتآمرون على الدولة الإسبانية بشتى الوسائل، دون أن يفكروا في أمر وماهية الدولة المقبلة، التي تخلصهم من هذا الواقع الرهيب. وهذا ما جعلهم يميلون إلى الترحيب بقدوم العرب، لا حباً بهم ولا إيماناً بجدارتهم، ذلك لأنهم لا يحبون أحداً في الدنيا، بل لأنهم كانوا يأملون التخلص من ظلم الإسبان، المهدد لكل جوانب حياتهم، ولأن العرب اتصفوا في ذلك الحين بعدلهم وعفتهم وتسامحهم ومحبتهم وإنصاف المظلومين برفع الظلامات عنهم، من أي الناس كانوا ومن أي الانتماءآت.

---

(١) عمر فروخ . المرجع السابق ص٧٧ . ٧٨.

وحقيقة ما حدث، هو أن العرب لما وصلوا إلى الأندلس لم يضطهدوا اليهود دينياً، ولا كانوا يأخذون منهم أموالاً بغير حق كما يفعل القوط، وبذلك ارتفعت مكانتهم في ظل الحكم العربي[١].

وقد كانت إسبانيا برمتها تعاني من أزمة اقتصادية واجتماعية حادة قد لا نرى نظيراً لها في التاريخ الإسباني على الإطلاق، أسفرت عن نقمة الفلاحين والفقراء على حكامهم، يضاف إلى ذلك أن أزمة دينية حادة عصفت بالبلاد، كان سببها الحقيقي سيطرة رجال الدين الكاثوليك، ما أدى إلى اضطهاد اليهود وإلحاق الظلم بهم. وتخلصوا من هذا الوضع السيئ بأن قام العرب بعد أن وصلوا إلى الأندلس في أواخر القرن الأول الهجري / السابع الميلادي بتخليصهم من كل عناصر الاضطهاد والظلم، ذلك لأن الفاتحين العرب حملوا إلى الأندلس كما حملوا إلى غيرها من البلدان التي فتحوها، حملوا معهم أخلاق العروبة التي لا تعرف الظلم ولا إلحاق الأذية بالغير، بل ترفع الظلم والأذية عن الجميع. ومنذ ذلك الحين تمتع اليهود بنعمة الهدوء والاطمئنان والعيش الكريم طوال فترة حكم العرب في الأندلس، فلم يتعكر صفو حياتهم لحظة واحدة إلا حينما كانوا يقومون بأعمال شائنة تثير حفيظة العرب، الذين منحوهم مزيداً من المساعدة والرحمة والتسامح[٢].

وبالجملة يمكن القول، إنه عاش على الأرض الإسبانية عنصر قديم كان مؤلفاً من الإيبريين والكلت، ثم تعرض جنوب إسبانيا لتوطين اليونانيين والفينيقيين، حتى تمكنت روما من حسم الأمر لصالحها في سنة ٢٠٥ق.م، حينما وقعت إسبانيا كلها تحت السيطرة الرومانية التي استمرت فترة طويلة بلغت

---

(١) أرنولد توينبي . مختصر دراسة للتاريخ ج٣ ترجمة فؤاد محمد شبل، طبعة القاهرة، طبعة أولى ١٩٦٤ ص٣١٩ وما بعدها.

(٢) عمر فروخ . تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ط٤ بيروت، دار العلم للملايين ١٩٧٩ ص١٥٤.

سبعة قرون على التوالي، تعرضت في نهايتها لهجمات الأقوام الجرمانية، التي كان آخرها القوط أو كما يسمون أحياناً الويزيقوط، الذين حكموها بشكل مباشر عند سقوط الإمبراطورية الرومانية سنة ٤٧٦ م. وتمكن هؤلاء الجرمان من الامتزاج مع السكان الإسبان الأصليين بعد اعتناقهم الكاثوليكية. ومع ذلك، كانت إسبانيا تعاني في أواخر القرن السابع الميلادي من مشكلات اجتماعية ودينية واقتصادية وسياسية إلى غير ذلك[١].

(١) أحمد بدر . تاريخ الأندلس ص٨.

الفصل الثاني

فتح العرب الأندلس

كان فتح الأندلس في نهاية القرن الأول الهجري / السابع الميلادي استمراراً طبيعياً لعملية الفتوح بشكل عام، ذلك أن العرب كانوا قد درجوا على هذا الاستمرار في العديد من المناطق التي فتحوها، فحينما فتحوا الشام والعراق تطلعوا لفتح المناطق المجاورة في إيران وغيرها، وحينما انتهوا من فتح مصر تطلعوا إلى فتح المغرب الكبير، وحينما أُنجزت عملية فتح المغرب، تطلعوا لفتح شبه الجزيرة الإيبيرية، التي غدت بالنسبة لهم خطراً على منجزاتهم ووجودهم في المغرب، خاصة وأنهم كانوا يعرفون أن الرومان والفاندال، لم يحتلوا المغرب الكبير في العصور القديمة إلا بعد أن احتلوا إسبانيا، ورأوا أنه ليس بعيداً على القوط الجرمان الذين كانوا يحكمون إسبانيا، أن يهاجموا المغرب الكبير لضرب الوجود العربي الجديد، الذي أصبح وجوداً قوياً يثير خوف الآخرين. لذلك فقد كان فتح الأندلس مرتبطاً ارتباطاً كبيراً بفكرة تأمين الحماية للمغرب الكبير من الخطر القوطي. يضاف إلى ذلك عوامل أخرى متفرقة ساعدت كثيراً على إقرار البدء بعملية فتح الأندلس بعد فترة وجيزة من إنجاز عملية فتح المغرب الكبير، وهي عوامل محلية على صعيد المغرب وخارجية على صعيد الأندلس. فعلى صعيد المغرب كانت قد تكونت لموسى بن نصير قوة عسكرية كبيرة، كذلك كان يوليان حاكم سبتة عاملاً مساعداً على القيام بهذه العملية، كما سنرى في الفقرات التالية. أما على صعيد الأندلس فقد وجدت عوامل مهمة جداً، مثل

الانشقاق في البيت القوطي المسيطر على البلاد، والتنازع على العرش، ثم التنافر الذي كان قائماً بين كل طبقات المجتمع الإسباني، فالنبلاء كانوا منقسمين إلى قسمين، وكل قسم يسعى بكل الوسائل للتقرب من البيت الحاكم، ورجال الدين كانوا قد أصبحوا لا يهتمون إلا بمصالحهم الشخصية والخاصة، وهذا ما دفعهم إلى معاملة الناس كما يعاملهم النبلاء. أما الطبقة الوسطى فقد كانت تعاني من حالة يأس وقنوط ونفور بسبب الاضطهاد الديني والاستبداد السياسي والاستغلال الاقتصادي، وبخاصة أن هذه الطبقة كانت مكلفة بدفع الضرائب والإتاوات. وبذلك كانت الفرصة مواتية للتحرك باتجاه إسبانيا، فأخذ العرب يبحثون عن سبب مباشر يمكن الاعتماد عليه لبدء التحرك العام.

تعددت الروايات والأحاديث عن الأسباب التي شجعت العرب على البدء بعملية فتح الأندلس. تقول الرواية العربية إنَّ الذي شجع على ذلك بشكل كبير، كان يوليان حاكم سبتة، الذي قام بتشجيع العرب على غزو الأندلس بوازع شخصي من أجل الانتقام لشرفه الذي دنسه الحاكم في إسبانيا لذريق، وقصة ذلك هي أن يوليان كان قد أرسل ابنته فلورندا إلى القصر الملكي القوطي بطليطلة في مهمة من أجل تحصيل العلم على عادة الطبقة الراقية في العصور الوسطى في أوروبا، وحينما رآها لذريق وقع في حبها فاعتدى على شرفها، ولما سمع يوليان سحب ابنته بهدوء بعد أن أضمر الشر والحقد. وتزيد الرواية أن لذريق طلب صقوراً من يوليان بعد هذه الحادثة، فرد عليه يوليان بقوله، سأهديك صقوراً لم تر العين نظيراً لها، ويقصد بهذه الصقور العرب. وقيل إن يوليان اتصل بموسى بن نصير والي المغرب، وأقنعه بغزو شبه الجزيرة الإيبرية، وبدأ بذلك بعد الحصول على موافقة الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك.

هذه الرواية لم يجدها أحد في المصادر الإسبانية المعاصرة للفتح، لكن مع مرور الأيام دخلت في الروايات الإسبانية، وكذلك في الأدب الإسباني، وتطور الأمر فاختلطت بالتاريخ الإسباني المسلم في إسبانيا، وبدأ الكتاب

الإسبان يستغرقون في وصف جمال فلورندا، وأنها كانت تهوى السباحة في نهر التاجه، الذي تقع عليه مدينة طليطلة التي كانت قد أُرسلت للتعلم فيها، وكيف أثارت حب لذريق حينما رآها تستحم في النهر المذكور، فاعتدى على شرفها. ومعظم المؤرخين في الفترة الحديثة والمعاصرة يرفضون هذه الرواية بأنها السبب الرئيس في فتح العرب الأندلس.

أما الرواية الثانية فهي الرواية التي تذكرها المصادر الإسبانية المعاصرة، وهي أن الملك الإسباني وقلة Althila حينما عزل عن الحكم، اتصل بيوليان حاكم سبتة وطلب مساعدته، فأشار عليه بالاتصال بموسى بن نصير والي المغرب، وقيل إن الاتصال قد حصل مع موسى بن نصير، وبنتيجته تم الاتفاق على أن يقوم موسى بالمساعدة في رد حكم الملك الإسباني من مغتصبيه. وهي رواية أكثر قرباً إلى الواقع من الرواية السابقة، ذلك لأنها ترتبط بأحداث واقعية تماماً، منها أن يوليان كان من أنصار، وربما من أتباع الملك وقلة المخلوع، ذلك أن زوجة يوليان هي ابنته، وهذا سبب توجه يوليان للسعي المتواصل لإقناع القيادة العربية في المغرب بغزو الأندلس من أجل استرجاعها بعد أن اغتصبها لذريق وحزبه، لكن يوليان على ما يبدو كان يجهل تماماً أن العرب، الذين خرجوا من بلادهم للجهاد، لم يكونوا مستعدين لأن يضحوا بأنفسهم وجهودهم وأموالهم من أجل ملك غيرهم.

لكن الأقرب إلى الواقع أن فتح الأندلس، لم يكن بهذه السهولة التي تصورها الروايات، وخاصة الروايات العربية، التي صورت فتح الأندلس بأنه عملية كبيرة، قدم العرب فيها أعمالاً استثنائية، وبذلوا فيها جهوداً جبارة، لا يمكن أن يقوم بها بشر عاديون، ذلك أن العناية الإلهية حسب الروايات العربية كانت إلى جانبهم، حتى أدت بهم في نهاية الأمر إلى النصر المؤزر، على الرغم من قلة عددهم مقارنةً مع عدد الإسبان[(١)]. لكن الذي حدث كان غير ذلك تماماً، فلم يكن فتح الأندلس مجرد صدفة عابرة، أو أنه تم بفعل بطولات خارقة لقلة قليلة من الجنود،

---

(١) ابن الأثير . الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٦٩ وابن خلكان . وفيات الأعيان ج٤ ص٤٠٣.

دعمتهم العناية الإلهية، بل كان نتيجة حتمية لتخطيط القيادة العربية في المغرب الكبير، التي كان يمثلها آنذاك موسى بن نصير والخليفة الوليد بن عبد الملك في العاصمة المركزية للدولة الأموية دمشق. وهي سمة بارزة لكل أعمال الفتوح التي تمت في المشرق والمغرب قبل فتح الأندلس(١). والدليل على ذلك، ما قام به موسى بن نصير من عمليات استطلاعية قبل الشروع بعملية الفتح الكبيرة، حينما طلب من يوليان الذي كان مهتماً بتنفيذ هذه العملية، أن يقوم باستطلاع الأمور جنوبي الأندلس، فأرسل يوليان عدة مراكب إلى هناك، وعادت بعد فترة وهي محملة بالسبي والغنائم، ومع ذلك لم يقتنع موسى بن نصير بهذه الحالة، فكلف أحد قادته، وهو طريف بن مالك، بتنفيذ أعمال استطلاعية جنوبي الأندلس سنة ٩١هـ/٧١٠م، ونجح طريف بالانتقال إلى هناك وعاد محملاً بالغنائم الكثيرة، التي جمعها من المكان الذي يدعى باسم طريف Tarifa حتى اليوم(٢). وهذا ما شجع موسى بن نصير أكثر من أي وقت مضى على البدء في عملية إرسال القوات العسكرية إلى الأندلس، هذا في الوقت الذي كانت فيه حكومة القسطنطينية تعاني من فوضى مستشرية.

من أهم الإشكالات في هذه المرحلة قضية انتقال الجيوش العربية من المغرب إلى الأندلس، هل انتقلت على سفن عربية أم على سفن يوليان، التي قدمها من دون شروط مسبقة أو أي مقابل كما يقول المؤرخون في القديم والحديث؟ إن نظرة واقعية إلى هذه القضية، تبين بوضوح أنه ليس من المعقول أن يعتمد موسى بن نصير على مساعدة يوليان في نقل جيشه إلى الأندلس، ذلك أن الدولة الأموية في هذا الوقت كانت في أوج مجدها وقوتها، فقد تمكنت من إنجاز فتوحات عظيمة في وسط آسيا وغيرها، معتمدة في ذلك على قواها الذاتية الخالصة، التي كانت كبيرة جداً، ولولا ذلك لما تحققت تلك النجاحات،

---

(١) ابن عذاي . البيان المغرب ج٢ ص٦.

(٢) المقري . نفح الطيب ج١ ص٢١٤ وما بعدها.

ومن هذه القوى كانت القوى البحرية، التي بدأت تظهر بقوة في المغرب منذ فترة حكم حسان بن النعمان الغساني الذي حرص على تقوية أسطوله في غرب المتوسط للوقوف في وجه الأسطول البيزنطي، الذي كان مسيطراً تماماً قبل ذلك على هذه المنطقة من المتوسط، وهذا ما يجعلنا نرفض حقيقة الروايات القائلة باعتماد موسى بن نصير على سفن يوليان، رغم أن بعض المؤرخين يقول إنه كان وفياً للقضية العربية بصورة عامة منذ وصول عقبة بن نافع إلى المغرب الأقصى، انطلاقاً من أنه يتحدر من أصل مغربي من قبيلة غمارة، التي تشكل أهم فرع من فروع القبيلة المغربية الكبيرة مصمودة.

ولا نرى أفضل من رأي الدكتور أحمد مختار العبادي في هذه القضية، إذ يقول إن الرأي الصائب في هذه المسألة، هو أن موسى بن نصير اعتمد في فتح إسبانيا على أساطيله العربية، التي تحت سيطرته وقيادته المباشرة على طول السواحل المغربية، ذلك لأنه من المستبعد أن يكون موسى بن نصير قد عهد إلى شخص أجنبي هو يوليان، بأن يتفرد في نقل جيش الفتح إلى الأندلس، وهو أمر في غاية الخطورة والأهمية(١).

مهما كان واقع الأمر فقد عيّن موسى بن نصير طارق بن زياد قائداً عاماً للجيش الذي أُرسل لفتح الأندلس، وطارق بن زياد كما هو معروف من أصل مغربي، ومع ذلك اختاره موسى بن نصير لهذه المهمة، على الرغم من وجود شخصيات مشرقية كانت تتفوق عليه في الخبرة والمكانة والتأييد. فلماذا حصل ذلك، وما هدف موسى بن نصير من هذا التعيين؟ نقول في مستهل الإجابة عن هذا السؤال، إن هذا الإجراء من القائد موسى بن نصير، كان لفتة ذكية للغاية، ذلك أنه أراد من خلاله أن يقول للمغاربة برمتهم، إن قادة الفتح لا يفرقون بين مشرقي ومغربي في أي ميدان من الميادين، وهي مسألة كانت قد ترسخت في نفوس الكثيرين من المغاربة، بعد الذي

---

(١) أحمد مختار العبادي . المرجع السابق ص٥٦ . ٥٧.

كان قد حصل في زمن عقبة بن نافع، الذي لم يستطع أن يقدر الأمور، كما فعل حسان بن النعمان ومن قبله أبو المهاجر دينار، ومن ثم موسى بن نصير بعد ذلك، فلم يتمكن عقبة من تحقيق المساواة بين المشارقة والمغاربة، فسقط قتيلاً بسبب هذه السياسة على يد كسيلة زعيم قبيلة أوْربة، الذي ثار على عقبة لتفضيله المشارقة على المغاربة في كل المعاملات. يضاف إلى كل ما تقدم، أن معظم الجيش الذي فتح الأندلس، كان من المغاربة.

كان نزول طارق بن زياد في جبل Mons calpe، الذي أخذ اسم طارق بن زياد منذ ذلك الحين فأصبح اسمه جبل طارق. وجبل طارق من أهم المناطق الاستراتيجية في جنوب الأندلس، ذلك لأنه يشكل صلة الوصل بين إسبانيا والمغرب، فلا تتجاوز المسافة بينه وبين منطقة العبور عند الطرف المغربي أكثر من عشرين كيلو متراً. وكان قبل ذلك من أهم المناطق في جنوبي الأندلس، وما يزال حتى اليوم، وسيبقى في المستقبل. وقد أدرك الفينيقيون هذه الأهمية منذ أن وصلوا إلى المغرب في العصور القديمة، فأقاموا على هذا الجبل عدة أبراج للمراقبة، ودافعوا عنه بصرامة وقوة ضد أي عدوان خارجي يستهدف السيطرة عليه[١]. وسار على نهج الفينيقيين الرومان والقوط، الأمر الذي يوحي بأن نزول الفاتحين العرب في هذا الجبل، لم يكن سهلاً أو أنه تم دون مقاومة[٢]. فقد دلت بعض الروايات التي أوردها المؤرخون على نزول الجيش العربي بجبل طارق، وأن هذا الجيش تعرض لمقاومة شديدة في هذا الجبل تمكن من التغلب عليها بسهولة[٣].

تلا ذلك مباشرة حسب ما رواه المؤرخون، مسألة إحراق السفن وخطبة طارق بن زياد في جنوده. فقد شاع أن طارق بن زياد أقدم على حرق كل السفن التي انتقل بها مع جيشه إلى الأندلس، حتى أن لا يفكر الجنود في أمر العودة إلى المغرب،

---

(١) الحميري. الروض المعطار في خبر الأقطار ص١٢١.

(٢) ابن الكردبوس. كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، طبعة جديدة ١٩٦٥ ص١٢.

(٣) ابن عذاري. المصدر السابق ج٢ ص١٣.

فيصمدون ويضحون بكل ما يستطيعون من أجل البقاء والنصر(١). لكن ما يصر عليه الكتاب في الوقت الحاضر أو الذين سبقوهم بفترة زمنية، أن هذه القضية لم تحصل أبداً، لأنه من غير المعقول أن يقدم طارق بن زياد على هذه العملية، ذلك أن السفن كانت ضرورة لا بد منها في الأندلس، التي تحاط بالمياه من معظم جهاتها، وقد يحتاجها الجيش العربي للتنقل من منطقة إلى أخرى بحسب ما تفرضه تطورات العمليات العسكرية، أضف إلى ذلك أن أعداد العرب الذين دخلوا الأندلس، لم يكونوا يشكلون ذلك العدد الكبير الذي يدعو للطمأنينة في كسب المعارك المتوقعة، الأمر الذي يجعل بقاء السفن أمراً في غاية الأهمية بالنسبة للفاتحين.

أما بخصوص الخطبة التي ألقاها طارق بن زياد إلى جنوده، فهي من الأمور غير المثبتة، ذلك لأنها جاءت على هيئة قطعة أدبية غنية في العبارات البليغة والجزلة، الأمر الذي لا يمكن لشخص كطارق بن زياد أن يبدعها لعدم تمكنه من اللغة العربية بصورة عامة. ويذكر أحمد مختار العبادي في هذا الشأن، أن هذا الكلام، وإن كان يبدو قريباً للمنطق والواقع، إلا أنه لا يمنع من أن يكون طارق بن زياد، قد ألقى هذه الخطبة إلى جنوده، ولكن باللسان المغربي الأمازيغي، ثم جاء بعد ذلك الأدباء العرب وترجموها إلى اللغة العربية ترجمة ممتازة، وهي عادة كان المغاربة يسيرون وفاقها ويطبقونها في العديد من المناسبات، وبخاصة حينما يكون القائد غير ضليع باللغة العربية، وهذا ما حصل في عصر الموحدين، وكذلك في عصر المرينيين(٢).

بعد كل هذا بقي طارق بن زياد في جبل طارق بضعة أيام، أمضاها في عمليات تحصينية، وبخاصة في الجزيرة الخضراء القريبة من جبل طارق، وهي أقرب منطقة إسبانية إلى المغرب يمكن العودة منها بسهولة، إذا حصلت تطورات غير متوقعة(٣). وهذه التحصينات في الجزيرة الخضراء تدل دلالة أكيدة

---

(١) ابن الكردبوس . الاكتفاء ص٤٦ الحميري . الروض المعطار ص٧٥.
(٢) أحمد مختار العبادي . المرجع السابق ص٦٤.
(٣) المقري . نفح الطيب ج١ ص٢١٧ وما بعدها.

على عدم إقدام طارق بن زياد على حرق سفنه، ذلك أنه كان يضع في حسبانه مسألة التعثر في عملياته الحربية مع الإسبان، وفي هذه الحالة تكون الجزيرة الخضراء أقرب منطقة تساعده على العودة بسهولة إلى قواعده التي انطلق منها في المغرب الأقصى.

في هذه الأثناء، كان ملك إسبانيا لذريق يخوض حرباً ضد معارضيه في شمالي إسبانيا، وحينما سمع بنزول العرب في إقليم شذونة بجنوبي الأندلس بقيادة طارق بن زياد، أوقف الحرب مع المعارضة على الرغم من أهميتها، لكن الأهم بالنسبة له ولكل مؤيديه كان إيقاف المدّ العربي جنوباً. وبالفعل فقد تحرك بكتلة جيشه الكبيرة في عَدَدها وعُدَدها بأقصى سرعة إلى شذونة، وحينما علم طارق بضخامة هذا الجيش قام على وجه السرعة بطلب نجدة جديدة من موسى بن نصير، الذي كان موجوداً في المغرب، وقد لبى موسى بن نصير طلب طارق، وفي وقت مناسب جداً، وقيل إنه أرسل إليه قوة عسكرية قُدّرت بخمسة آلاف جندي. وقد حدثت بين الطرفين معركة فاصلة في منطقة شذونة بجنوب غرب الأندلس، وكانت هذه المعركة طويلة إلى حدٍ ما، فقد دامت ثمانية أيام من القتال المستمر من يوم الأحد ٢٨ رمضان إلى يوم الأحد ٥ شوال من سنة ٩٢هـ/٧١١م[(١)].

اتفق معظم الذين كتبوا عن هذه المعركة الفاصلة، على أنها كانت قاسية للغاية، وسبب ذلك أن كلا الطرفين كان قد صمم على كسب هذه المعركة، ذلك أن الخسارة فيها تعني نهاية أو شبه نهاية، ولوقت من الزمن لا يمكن تحديده على وجه الدقة، للطرف الخاسر، وهذا ما حصل بالفعل للجانب الإسباني الذي هُزم في هذه المعركة، ما ساعد العرب على التقدم باتجاه أهم المناطق الإسبانية وبسرعة قياسية وبخسائر قليلة، كما استطاعوا بعد ذلك أن يحكموا إسبانيا ثمانية قرون متوالية.

---

(١) ابن عبد الحكم . فتوح أفريقيا والأندلس ص٩٦ طبعة الجزائر ١٩٤٨. المقري . نفح الطيب ج١ ص١٢١. مؤلف مجهول . أخبار مجموعة ص٩ وما بعدها.

إذا كان المؤرخون قد اتفقوا على أن المعركة كانت شديدة وقاسية، فإنهم اختلفوا حول مكان حدوث هذه المعركة، فبعضهم يقول إنها جرت شمال منطقة شذونة عند وادي لكّه بالقرب من شريش، التي كانت عاصمة شذونة أو قاعدتها كما يقال أحياناً، لذلك يسمونها أحياناً بمعركة مشريش أو وادي لكة. وبعضهم يقول إنها جرت في جنوبي مقاطعة شذونة بالقرب من إقليم البحيرة ووادي البرباط، ويضيفون إلى أن اسم وادي لكة، الذي تعرف هذه المعركة غالباً باسمه ما هو إلا تحريف عن اسم وادي بكة، الذي يطلق أحياناً على وادي البرباط. ويقول بعضهم الآخر، إن هذه المعركة جرت بالقرب من نهر سالادو. ويقول آخرون إنها جرت في مكان يدعى السواقي، إلى غير ذلك من أمور.

وقد انفرد من بين هؤلاء المؤرخين في عصرنا برأي ربما من خلال اطلاعه على مصادر ومراجع إسبانية، الدكتور أحمد مختار العبادي، الذي قال عن هذه المعركة المهمة في تاريخ الأندلس، إنها كانت أكبر وأعظم من أن تحدد بمثل هذه الأماكن المحدودة، فهي معركة واسعة النطاق، حشد فيها الإسبان كل ما يستطيعون من جنود وسلاح ومال، وكذلك فعل العرب الذين كانوا مصممين على النصر، الأمر الذي جعلها من المعارك الهائلة، التي لا يمكن أن يتسع لها نطاق جغرافي ضيق، ولهذا فمن المؤكد أن هذه المعركة جرت وقائعها العامة في جنوب مقاطعة شذونة وكذلك في شمالها، وامتدت حتى شملت أراضي هذه المقاطعة كلّها، وهذا ما يمكّن من أن نطلق عليها اسم معركة مقاطعة شذونة(١)، التي تضم كل المناطق التي سميت هذه المعركة بأسمائها مثل وادي لكة ووادي بكة والبحيرة ووادي البرباط والسواقي وشريش. وقد كانت هذه المعركة المظفرة كاليرموك في الشام وكالقادسية في العراق وكنهاوند في فارس، ذلك أنها وضعت حداً للحكومة الإسبانية التي كانت تحكم الأندلس، وبدأ حكم جديد هو الحكم العربي في هذه البلاد، أي كما حصل في الشام حينما انهارت حكومة وسيطرة بيزنطة فيها بعد

---

(١) أحمد مختار العبادي . المرجع السابق ٦٨ وما بعدها.

معركة اليرموك، وكذلك حصل في العراق حينما انهارت الحكومة الفارسية هناك، لذلك فالمؤرخون جميعاً يسمون هذه المعارك بالمعارك الفاصلة أي أنها وضعت حداً لوجود قديم وبدء وجود جديد.

ساعد النصر الذي أحرزه العرب في معركة شذونة على التقدم مباشرة باتجاه الشمال، وكانت وجهة الجيش العربي بقيادة طارق بن زياد نحو مدينة طليطلة، وفي الطريق إليها اصطدم الجيش العربي بفلول من الإسبان، كانوا قد تجمعوا بعد معركة شذونة ببلدة إستجة، التي تتوضع على الضفة الشرقية من نهر شنيل الذي يشكل رافداً مهماً من روافد الوادي الكبير. خاض العرب معركة أخرى مع الإسبان تعرف في تاريخ العرب في الأندلس بمعركة إستجة، صمد فيها الإسبان وقاتلوا قتالاً شديداً لكبح جماح التقدم العربي، ومع ذلك فقد خسروا المعركة وانهزموا شمالاً، فدخل العرب بلدة إستجة. وبخسارة هذه المعركة بدا أن القوط الإسبان فقدوا مزية الخطة الجماعية الدفاعية، وأصبحت كل مدينة أو بلدة من مدنهم وبلدانهم تحارب العرب وحدها، لكن طبقة النبلاء صممت على حرب العرب مهما كانت النتائج، فتجمعوا في العاصمة طليطلة وبدؤوا بوضع خطة حربية لمواجهة العرب. وفي المقابل، كان طارق بن زياد قد قرر التقدم إلى طليطلة، بعد أن تأكد له أن التوقف عن التقدم باتجاه الشمال بشكل عام، سيفسح المجال أمام القوط الإسبان لتجميع قواتهم والانقضاض على العرب، ذلك أن عنصر الزمن في هذه المسائل يكون بالغ الأهمية، فقام طارق بتقسيم جيشه إلى عدد من الفرق، أرسل فرقة منها بقيادة مغيث الرومي، الذي كان يمثل الخلافة الأموية في الأندلس فيقوم بنقل الأخبار كلّها عن التطورات في هذه البلاد، وفرقة أرسلها إلى مالقة، وفرقة إلى البيرة ثم إلى مرسية، وفرقة أخرى بقيادة طارق نفسه توجَّهت إلى طليطلة، ويقال إنه اعتمد في هذه الفرق أدلاء كانت لهم معرفة بمسالك وجغرافية الأندلس، زوده بهم حاكم سبتة يوليان الذي كان يشجع بقوة عمليات فتح الأندلس، أضف إلى ذلك أن طارق بن زياد اعتمد على اليهود الذين كلنوا يؤيدون أيضاً عملية دخول العرب إلى الأندلس، بعد أن تأكد أن حالة اليهود في الأندلس لن تتحسن إلا بمساعدة العرب، الذين عُرف عنهم في هذه الفترة عفتهم وإنسانيتهم

وعدالتهم واحترامهم كل الفئات. اعتمد طارق على اليهود في ناحية واحدة، تجسدت في تعريف العرب الفاتحين بمفاصل الأندلس، وما إلى ذلك، فنال يهود الأندلس احترام العرب الفاتحين الذين خلصوهم من حالة الظلم واليأس التي كانت تتحكم بكل حياتهم العامة في ظل الحكم القوطي، وستبقى هذه الأمور قائمة لصالح اليهود حتى نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، وهي من أفضل الفترات الزمنية التي عاشها اليهود في كل أنحاء الأرض، لأن العرب أمة قيادية مرموقة، استطاعت في الماضي أن تقود معظم شعوب الأرض من خلال تحقيق المساواة والعدالة والاحترام بين الجميع.

أما بالنسبة لمغيث الرومي فقد نجح بعد فترة غير طويلة في دخول مدينة قرطبة عن طريق الحيلة، حيث تمكن من فتح ثغرة في سور هذه المدينة، دخل منها جيشه الذي سيطر بسرعة على حاميتها. وكذلك نجحت الفرقة التي ذهبت إلى مالقة في السيطرة عليها، وعلى المنطقة بين قرطبة والبحر، دون مقاومة أو خسائر تذكر. وكذلك حصل في البيرة وما جاورها كمرسية وغيرها[١].

في الوقت الذي حصلت فيه هذه الإنجازات العسكرية، كان طارق بن زياد قد سار بمعظم كتلة جيشه إلى طليطلة، ذلك أن طليطلة هي العاصمة التي تُعد رمزاً مهماً من رموز الاستقلال الإسباني، والسيطرة عليها وإسقاطها تشكل ضربة قوية لهذا الاستقلال، وهو أمر كان طارق يعرفه تمام المعرفة كما دلت مجريات الأحداث، وقد تحقق ذلك بيسر وسهولة له، فدخل طليطلة بعد أن فر منها معظم سكانها[٢].

رغم هذه الانتصارات الكبيرة التي حققها الفاتحون العرب بقيادة طارق بن زياد، فإنهم ظلوا في حالة غير مستقرة، وسبب ذلك أنهم كانوا يتوقعون هجمات

---

(١) مؤلف مجهول. أخبار مجموعة ص١٢ وما بعدها. ابن عذاري. البيان المغرب ج ٢ ص١١. الحميري. الروض المعطار ص ٦٢ وما بعدها.

(٢) الروض المعطار للحميري ص ١٣٢ ابن عذاري. البيان المغرب ج٢ ص ١٧.

إسبانية مضادة بين الفينة والأخرى، ما جعل طارق بن زياد يتصل بموسى بن نصير في المغرب ويعلمه بواقع الحال. ولم يتأخر موسى بن نصير حتى استجاب لرغبة طارق، وكانت هذه الاستجابة بانتقاله بجيش جديد من المغرب إلى الأندلس، وقد حدث ذلك سنة ٩٣هـ/٧١٢م، وحينما وصل إلى الأندلس سلك مساراً غير المسار الذي سلكه طارق، فقد ذهب غرباً وتمكن في فترة قياسية من فتح عدد من الحواضر الأندلسية مثل ماردة وقرمونة وإشبيلية، ثم تابع شمالاً حتى وصل إلى طلبيرة حيث التقى بطارق بن زياد، وهي بلدة قريبة من طليطلة، ثم اتفقا على متابعة السير باتجاه المناطق الأندلسية في أقصى الشمال، وقد تمت سيطرتهما على سرقسطة ووشقة ولاردة، ووصلا حتى الحدود الفرنسية الجنوبية(١)، ومع ذلك لم تتم عملية فتح الأندلس، لأن مناطق كثيرة في شمال غرب البلاد ظلت في منأى عن سيطرة الفاتحين العرب.

وقد قيل عن هذه العمليات الناجحة أشياء كثيرة، وبخاصة قضية اللقاء الذي حصل في بلدة طلبيرة بالقرب من طليطلة بين موسى بن نصير وطارق بن زياد، ومعظم الذين بحثوا هذه القضية أشاروا إلى أن موسى قام بتعنيف طارق وتوبيخه دون أن يذكروا سبباً مقنعاً لذلك، لكن التفكير المنطقي وواقع حال العرب في جزيرة بعيدة، يساعدان على نفي ما جاء بشأن هذه القضية، فليس من المعقول أن يقدم موسى على توبيخ طارق، وهو الذي فعل شيئاً عظيماً يصعب على العقل تصديقه في بعض الأحيان، من خلال قوة صغيرة من الجنود لا يمكن مقارنتها بما كان لدى الإسبان من أعداد كبيرة، وما حصل فقد كان عكس ذلك تماماً، لأن ما جرى في الأندلس في هذه الفترة، كان بموجب خطة متقنة الإعداد والبرمجة، كان قد اتفق عليها كل من موسى وطارق، الأمر الذي أدى إلى تلك النجاحات الباهرة(٢).

---

(١) مؤلف مجهول . أخبار مجموعة ص ١٥ وما بعدها . ابن عذاري . البيان المغرب ج١ ص ٤٣.
(٢) ابن الأثير . الكامل في التاريخ ج٤ ص ٣٧٦ وما بعدها فتوح مصر ص ٢٠٧.

وبينما كان موسى بن نصير منهمكاً في تحضيراته العسكرية لفتح شرق الأندلس وشمالها الغربي، جاءه أمر الوليد بن عبد الملك بضرورة الحضور إلى دمشق، ومازال هذا الأمر لغزاً محيراً للجميع من حيث الأسباب التي دفعت بالوليد للإقدام عليه، وما قيل عن ذلك لم يكن مقنعاً، فقد قالوا إن السبب في ذلك أن موسى بن نصير كان يخطط لدخول فرنسا وإيطاليا واليونان ثم إلى آسيا الصغرى حتى يصل إلى الشام، وهو أمر وجده الوليد بن عبد الملك مستحيلاً على التحقيق بالاعتماد على القوة العسكرية التي كانت بإمرة موسى بن نصير، فأمره بالعودة إلى دمشق ومعه طارق بن زياد، حتى لا يقوم بهذه المغامرة التي قد تؤدي إلى فناء القوة العربية الموجودة في الأندلس، ومع ذلك فإن هذا التبرير يبقى ضعيفاً في حال غياب الوثيقة التي تفصح بلسان الوليد بن عبد الملك عن السبب الذي جعله يطلب من موسى بن نصير الحضور إلى دمشق. وقيل تصديقاً لما ذكرناه في هذا الصدد، إن الوليد بن عبد الملك كان قد أوصى ممثله في الأندلس مغيث الرومي، أن يعود بالعرب الموجودين في الأندلس إلى الشام في حال رفض موسى بن نصير ذلك(١)، لكن موسى الذي عُرف بوفائه لأسياده الأمويين، امتثل إلى أوامر الوليد بن عبد الملك، وترك الأندلس نهائياً سنة ٩٥هـ/٧١٤م، بعد أن عيّن ابنه عبد العزيز بن موسى والياً عليها، وأمره بمتابعة عمليات الفتح حتى النهاية، لأنه قد ترك معه جيشاً قوياً في عدده وتسليحه وتصميمه على الجهاد. واصطحب معه من الأندلس إلى دمشق طارق بن زياد ومغيث الرومي وغنائم جمة. وقد ذكر أنه مرّ بإشبيلية ومنها إلى تونس حيث أمر بتعيين ابنه عبد الله على المغرب، ثم انتقل إلى مصر ومنها إلى فلسطين، ولما وصل إلى بلدة طبرية بفلسطين، التقاه وفد سليمان بن عبد الملك ولي عهد الوليد بن عبد الملك، ونقل إليه رغبة سليمان بالبقاء في فلسطين ريثما يباغت الموت الوليد، أو على الأقل أن يتريث في المسير، ذلك أن سليمان كان متأكداً من أن الوليد لن تطول به

---

(١) ابن عذاري. البيان المغرب ج٢ ص ١٦ مؤلف مجهول. أخبار مجموعة ص ١٩.

الأيام، لكن موسى بن نصير لم يوافق على طلب سليمان فأسرع بالسير حتى وصل إلى دمشق قبل وفاة الوليد(١).

لكن الأيام لم تطل بالوليد بن عبد الملك بعد وصول موسى إلى دمشق، ولما جاء سليمان بن عبد الملك إلى الخلافة، لم يكن بحاجة إلى إيجاد حجة يستند إليها للانتقام من موسى وطارق، فنكبهما بلا رحمة، على الرغم من وفائهما العظيم للعروبة والإسلام، هذا الوفاء الذي نتج عنه فتح الأندلس، التي أصبحت إبَّان العصور الوسطى من أعظم بلاد الدنيا حضارة وثقافة ومعرفة على مدى الأيام، ذلك أن مخلفات العرب في الأندلس ما زالت حية ماثلة للعيان بشموخ وإباء، وستبقى إلى أمد غير معلوم، تنطق بمجد وفضل وشرف العرب. لقد قيل إن طارق بن زياد أمضى ما تبقى من عمره بمدينة دمشق رجلاً مجهولاً لا قيمة له، لأن سليمان بن عبد الملك لم يعطه أي منصب، على الرغم من إسهامه الكبير في صنع شيء عظيم من مجد دولة الأمويين في الأندلس. أما موسى بن نصير فإن معظم المؤرخين، لم يفصحوا عن مصيره في خلافة سليمان بن عبد الملك، الأمر الذي يؤكد أنه نكب في مدينة دمشق، رغم أن بعض الروايات تقول، إنه لم يمت في دمشق بل مات في أثناء تأديته فريضة الحج سنة ٩٧هـ/٧١٦م، وهي رواية غير موثوقة لأنها تقف مدافعة عن سليمان بن عبد الملك، الذي نكب أعظم قادة الفتح في الشرق والغرب الذين صنعوا مجد الدولة الأموية.

تابع عبد العزيز بن موسى سيرة والده في استكمال فتح البلاد الأندلسية، ففي شرق الأندلس فتح تدمير، التي ستدمر نهائياً في عصر الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط سنة ٢١٦هـ/٨٣١م، وتقام على أنقاضها مدينة جديدة دعيت مرسية(٢). وفي الغرب، في البرتغال اليوم، فتح يابرة وشنترين وقلمرية، ثم وطد الحكم العربي في البيرة ومالقة، ثم قام بتوجيه غزوات إلى طركونة

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص ٢٠.

(٢) العذري . المسالك والممالك، نشر عبد العزيز الأهواني ص١ وما بعدها.

في الشمال الشرقي، وكذلك إلى بنبلونة في الشمال الشرقي أيضاً، وإلى أربونة وما جاور هذه المناطق.

وقد بقيت المنطقة الشمالية الغربية، وهي التي كانت تسمى أشتوريس أو جليقية، بقيت بعيدة عن السيطرة لوعورة مسالكها وبرودة مناخها، وهذا ما ساعد فلول القوط المنهزمين أمام الفاتحين العرب، في أن يلتجئوا إلى هذه المنطقة الحصينة، وقد فشلت كل المحاولات العربية على قلتها في إخضاع هذه المنطقة، التي ستصبح بدءاً من نهاية القرن الأول الهجري / السابع الميلادي قاعدة مهمة لحركة الاسترداد التي استمرت في حرب الوجود العربي هناك، حتى تمكنت من استئصاله نهائياً في أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي.

وبذلك يكون العرب قد أنجزوا فتح جزء كبير من شبه الجزيرة الإيبيرية في مدة قصيرة، لم تتجاوز عدة سنوات. وسيبقى إنجاز فتح الأندلس من الأعمال الباهرة المثيرة للإعجاب والاستغراب على حد سواء إلى فترة طويلة قادمة، ذلك أن هذا الإنجاز لم يصطدم بتلك العثرات والإحباطات، التي حدثت في أثناء عملية فتح المغرب الكبير، التي استغرقت أكثر من سبعين سنة، وكلفت الكثير من الدماء والأموال والجهود.

الفصل الثالث

عصر الولاة في الأندلس

سمي عصر الولاة لأن حاكم الأندلس كان يسمى والياً، لأنه كان يحكم ولاية من ولايات الدولة الأموية. وعصر الولاة هو الفترة المعاصرة لحكم الخلفاء الأمويين في فترة حكمهم الأخيرة، وإن كانت فترة عصر الولاة قد امتدت لبضع سنوات بعد سقوط الدولة الأموية. وقد تميز عصر الولاة في الأندلس، على الرغم من سنينه القليلة، بالقلق والاضطراب والفشل في إحراز نجاحات في ميدان الفتح في شمال وشمال غرب الأندلس، وكذلك في الجبهة الأوروبية الأخرى، وأيضاً عدم التقدم في الميدان العلمي والثقافي، ولا بد أن الفتن التي حدثت في هذا العصر كانت السبب في كل ما حصل من فشل وإحباطات. هذا وقد كان والي المغرب الذي يتبع بدوره والي مصر يُعين ولاة الأندلس، وفي مناسبات نادرة كان يعيّنهم الخليفة الأموي في دمشق، كما سنرى في الصفحات التالية.

يمكن أن نبدأ دراسة ما حدث في هذا العصر منذ أن غادر موسى بن نصير الأندلس في سنة ٩٥هـ/٧١٤م عائداً إلى دمشق بطلب من الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك. وبذلك يكون أول الولاة في هذا العصر هو عبد العزيز بن موسى بن نصير، الذي عينه والده على الأندلس، وكان تعييناً موفقاً إلى حد كبير، لأنه لم يكن يقل عن والده إيماناً وطموحاً ووطنية واندفاعاً لتحقيق ما يمكن تحقيقه من إيجابيات في الأندلس.

ورغم أنه لم يستمر طويلاً في ولايته، فإنه حقق أشياء مهمة للغاية، ففي ميدان الفتوح تم في أثناء ولايته فتح بعض مناطق الشرق والشمال والشمال الشرقي والغرب في الأندلس، وكان في صدد متابعة الفتح في المناطق الجبلية في الشمال الغربي، هذه المناطق التي توضَّع فيها القوط المنهزمون الذين شكلوا نواة حركة سيكون لها الشأن الأكبر في عودة الأندلس للإسبان، حينما أمر الخليفة سليمان بن عبد الملك باغتياله، الذي نفذه بعض قادة عبد العزيز حينما كان يؤدي صلاة الفجر سنة ٩٧هـ/٧١٦م. وقد قيل عن سبب اغتيال عبد العزيز بن موسى بهذه الصورة البشعة والمأساوية، أنه كان بصدد الاستقلال بولاية الأندلس عن الخلافة الأموية، خاصة وإنه تأثر كثيراً بما جرى لوالده في دمشق على يد سليمان بن عبد الملك من إذلال ومهانة وفي نهاية الأمر الاغتيال. كما قيل إن السبب في ذلك أن زوجته أخيلونا، وهي أرملة لذريق حاكم الأندلس، الذي قتل في حربه مع العرب في أثناء الفتح في طليطلة وما حولها، كانت تحرضه على التشبه بالإسبان في بعض لباسهم، كذلك وعلى اعتناق الديانة المسيحية أيضاً(١).

وما قيل عن عبد العزيز بن موسى لم يكن في نهاية الأمر إلا تبريراً لتلك العملية الشائنة التي أمر بها سليمان بن عبد الملك، وهي العملية التي تجسدت باغتياله، وأفصحت عن حقد سليمان بن عبد الملك الكبير على موسى بن نصير وآله، وكذلك على كل قادة العرب ووجوههم، الذين صنعوا مجد الدولة العربية في ميدان الفتوح. ولم يقتصر الأمر على قتل عبد العزيز بن موسى، بل قام القتلة وهم حبيب بن أبي عبدة، وزياد بن النابغة التميمي، وزياد بن عذرة البلوي، بحمل رأس القائد المقتول إلى دمشق ورميه بين يدي سليمان بن عبد الملك، الذي قام بدوره باستدعاء موسى بن نصير من سجنه، وحينما حضر سئل فيما إذا كان يعرف هذا الرأس فقال: «نعم، أعرفه صواماً قواماً فعليه لعنة الله إن كان الذي قتله خيراً منه»(٢).

---

(١) مؤلف مجهول. أخبار مجموعة ص٢٠. ابن عذاري. البيان المغرب ج٢ ص٢٤.

(٢) ابن عبد الحكم. فتوح مصر ص ٢١٢، ابن عذاري. البيان المغرب ج٢ ص ٢٥.

ولا شك أن ما حصل كان وصمة عار في جبين سليمان بن عبد الملك ونقطة حالكة السواد في تاريخه على مدى الأيام، ذلك أن طرح الرأس بعد القتل بين يدي موسى بن نصير وهو أب للقتيل، يعبر عن كبير حقد وانتقام ونكاية، وهذا ما جعل المقري يقول في كتابه (نفح الطيب): «لا جرم أن الله لم يمتع سليمان بن عبد الملك بعد عبد العزيز بملكه وشبابه»[١].

وفي فترة ولاية عبد العزيز بن موسى، دخلت الأندلس مرحلة من الاضطراب وعدم الاستقرار، واستمرت هذه المرحلة ستة أشهر متوالية، حتى اتفق الأندلسيون العرب على تقديم أيوب بن حبيب اللخمي عليهم سنة ٩٨ هـ/٧١٦م، حتى يؤمهم بالصلاة ريثما يعين والٍ جديد معتمد من الخليفة الأموي، وقد حكم الأندلس فترة ستة أشهر، بنى في أثنائها قلعة أيوب جنوب سرقسطة في شمال شرق الأندلس. وتقع قلعة أيوب على مسافة خمسة وسبعين كيلومتراً إلى الجنوب من سرقسطة، وهي من المدن الكبيرة اليوم في المنطقة التي مازالت على اسمها القديم Calatayoud. وأيوب بن حبيب هو الذي أمر بنقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة، بحجة أن قرطبة مدينة مناسبة للحركة التجارية القادمة من المغرب وغيره وبالعكس، وستبقى قرطبة عاصمة الدولة العربية الموحدة حتى سقوط دولة الخلافة في الأندلس[٢]. وقيل إن قرطبة مدينة متوسطة في الأندلس، ما يساعد الحكام على ضبط الحواضر والمناطق الأخرى، لكن أمر نقل العاصمة لم يتم في زمن أيوب بن حبيب، بل تم في زمن الوالي الذي جاء بعده، وهو الحر بن عبد الرحمن الثقفي، الذي بقي في ولاية الأندلس حتى سنة ١٠٠ هـ/٧١٩م، وفي زمنه الذي لم يتجاوز أكثر من ثلاث سنوات، ظهرت نواة حركة الاسترداد الإسبانية بقيادة رجل كان يدعى بلاي، الذي استطاع أن يجمع عدداً من الرجال تحصنوا في جبال أشتوريش في منطقة جيليقية في شمال

---

(١) المقري . نفح الطيب ج١ ص١٨.

(٢) كان سقوط دولة الخلافة في الأندلس سنة ٤٢٢ هـ.

غرب إسبانيا وهي منطقة لم يتمكن عرب الأندلس من السيطرة عليها طوال حياتهم هناك، وذلك لمناعة هذه المنطقة من الناحية الطبيعية والجغرافية، وكذلك لأن الأوروبيين كانوا على الدوام يمدون معارضي الحكم العربي بكل وسائل العون والصمود بتحريض، من البابوية، الأمر الذي جعل الحر بن عبد الرحمن الثقفي غير قادر على فعل شيء إيجابي في هذه المنطقة.

لكن الوالي الذي جاء بعد الحر، وهو السمح بن مالك الخولاني، الذي عينه الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز بنفسه لثقته الكبيرة به، فقد تميز في مجال التحرك العسكري في جبال البرتات وجنوبي فرنسا اليوم، فغزا أربونة وسيطر عليها، ثم سيطر كذلك على مدينة تولوز في الشمال الغربي، ثم توجه نحو دوقية أكيتانيا التي كان يحكمها الدوق أود، والتقى به السمح بن مالك بالقرب من تولوز في معركة سنة ١٠٢هـ/٧٢١م، أسفرت عن هزيمة جيش السمح واستشهاده، وما تبقى من قواته انسحبت بقيادة عبد الرحمن الغافقي إلى أربونة، التي غدت منذ ذلك الحين قاعدة للفتح إلى ما يلي جبال البرتات.

وهنا ينبغي أن ننوه ببعض العوامل الإيجابية، التي أثرت في السمح بن مالك وبعض الولاة من بعده، حتى تحركوا بقوة واندفاع لمتابعة عمليات الفتح باتجاه الشمال الإسباني. من هذه العوامل أن منطقة البرينية أو البرانس كما تسمى أحياناً، كانت تُعد امتداداً للمناطق الإسبانية التي سيطر عليها العرب في الفترة السابقة، ذلك لأن تلك المنطقة لم يكن لها المعنى السياسي العام، الذي لها اليوم من أنها المنطقة الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا. كذلك فإن روح الجهاد والرغبة في نشر الإسلام واللغة العربية في أصقاع جديدة، كانت لاتزال حية في النفوس. هذا بالإضافة إلى تحطم تلك القوة التي غدت خطراً على الوجود العربي، وهي القوة التي استقرت في المنطقة الشمالية الغربية كما ذكرنا من قبل.

ويعد السمح بن مالك الخولاني من أهم الولاة في هذا العصر، ذلك لأنه هو الذي أقنع الخليفة عمر بن عبد العزيز بعدم سحب العرب من الأندلس.

فعمر بن عبد العزيز كان يعيش حالة قلق وخوف على عرب الأندلس، من أن يتعرضوا لأخطار أو نكبات بسبب انقطاعهم في جزيرة بعيدة جداً، هذا بالإضافة إلى أعدادهم القليلة. لكن السمح بن مالك، كما ذكرنا، كتب إلى عمر يخبره أن أوضاع العرب في الأندلس مشجعة على البقاء فيها ولا خوف عليهم، وكان عمر بن عبد العزيز يثق بالسمح فاقتنع بكلامه وأبقى على الوجود العربي في الأندلس[١]، وأمره بالقيام ببعض الإصلاحات، مثل تجديد القنطرة (الجسر) على نهر الوادي الكبير، وهي قنطرة كانت قد أقيمت في زمن الرومان، وحينما وصل العرب إلى الأندلس وجدوها قد تهدمت باستثناء أساساتها وبعض مفاصلها، فقام السمح بن مالك بإعادة تشغيل وإحياء هذه القنطرة سنة ١٠١هـ/٧٢٠م، وأصبح العبور ممكناً منذ ذلك الحين من قرطبة إلى ضاحيتها الجنوبية وبالعكس عبر نهر الوادي الكبير[٢]. وكذلك أجريت بعض الإصلاحات المالية، مثل تخميس الأراضي وما إلى ذلك. وكان من أهم الإصلاحات أيضاً أن أمر عمر بن عبد العزيز واليه السمح بن مالك، أن يوطن بعض العناصر العربية في أماكن معينة لتعريب هذه الأماكن، وهو ما أمر بمثله في مناطق أخرى في آسيا الوسطى[٣] على الرغم من أنه كان لا يفرق بين عربي أو غير عربي، بعكس كل الخلفاء الأمويين، الذين جعلوا من العروبة أساساً رئيساً للحكم حتى سقطت دولتهم، ما يدل دلالة واضحة على أن الجميع في الفترة الأموية، كانوا مقتنعين بضرورة سيادة العرب في كل مكان وصلوه، لأنهم كانوا الأداة الأساس لنشر الإسلام والثقافة العربية، التي ظلت طوال العصور الوسطى ثقافة العالم، انطلاقاً من تقدم العلوم العربية على غيرها من علوم الأمم الأخرى.

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٢٦ . مؤلف مجهول . أخبار مجموعة ص٢٣.

(٢) مؤلف مجهول . أخبار مجموعة ص٢٣ وما بعدها . ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٢٦ . المقري . نفح الطيب ج١ ص٣١٤.

(٣) مؤلف مجهول . أخبار مجموعة ص٢٤.

جاء بعد السمح بن مالك الخولاني إلى ولاية الأندلس الوالي عنبسة بن سحيم الكلبي، الذي حاول أن يستأنف عملية الفتح في الشمال، فسيطر على كل المناطق التي وصلها الولاة السابقون، ثم اتجه شرقاً حتى وصل إلى نهر الرون، ثم فتح إقليم البروفانس في الجنوب، ثم تحول شمالاً حتى وصل مدينة ليون فسيطر عليها، ومنها انطلق حتى وصل إلى مدينة أوتون في أعالي الرون، لكنه تعثر في طريق العودة فسقط شهيداً في سنة ١٠٧هـ/٧٢٦م[١].

بعد استشهاد عنبسة دخلت ولاية الأندلس مرحلة من الفوضى، توقفت فيها كل الأنشطة العسكرية في جبهة الشمال، وبقيت هذه المرحلة تسود الأندلس مدة أربع سنوات، حكم الأندلس في أثنائها عدد من الولاة مثل عذرة بن عبد الله الفهري، ويحيى بن سلميان الكلبي، وحذيفة بن الأحوص الأشجعي، وعثمان بن أبي نسعة، والهيثم بن عبيد الكلابي، ومحمد بن عبد الله الأشجعي. وقد انتهت هذه المرحلة الصعبة في صفر في سنة ١١٢هـ / أيار من سنة ٧٣٠م[٢] بمجيء الوالي المتميز عبد الرحمن الغافقي، الذي اشتهر بحماسه وطموحه في تحقيق المعجزات في الشمال الإسباني، وقد بدأ العمل من أجل ذلك بعد سنة من تعيينه حينما كلف عثمان بن أبي نسعة والي الأندلس السابق لفترة وجيزة، أن يشاغل العدو في منطقة أكيتانيا التي كان يحكمها الدوق أود، لأن عثمان بن أبي نسعة كان حاكماً على الجهة المقابلة المجاورة لهذه المنطقة، وقد رفض أن ينفذ أوامر عبد الرحمن الغافقي لعدة أسباب، منها أنه لم يكن معترفاً ضمناً بولاية الغافقي، وعزّ عليه أن يعمل تحت قيادته، ومنها أنه كان قد ارتبط مع الدوق أود حاكم أكيتانيا برابط الزواج والمصاهرة، فقد كان متزوجاً ابنة الدوق أود حينما طلب منه الغافقي أن يبدأ بحربه ، فعزّ عليه أن يدخل في حرب مع والد زوجته، التي كما تقول الرواية الإسبانية أنه كان يحبها إلى درجة الجنون، لجمالها وحسنها

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٢٧ . المقري . نفح الطيب ج١ ص١٤٥.

(٢) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٢٨ . ابن الأثير . الكامل ج٥ ص٢٣٢.

وروعتها، وهي التي عرفت بأسماء متعددة مثل مونوزا ونوميرانسة ولامباجية، وحينما وصل جواب عثمان إلى الغافقي، أرسل الأخير بعض السرايا العسكرية التي ظلت تلاحق عثمان حتى تمكنت من قتله(١).

أخرج عبد الرحمن الغافقي بعد ذلك جيشه لمواصلة عمليات الجهاد في فرنسا، فهاجم أكيتانيا ثم سيطر على مدينة بوردو، وحينما فشل الدوق أود حاكم أكيتانيا في صد الهجوم العربي بقيادة الغافقي، توجه إلى حاكم الدولة الفرنجية المجاورة التي كان يحكمها آنذاك شارل مارتل، وطلب مساعدته على وجه السرعة لصد المدّ العربي المتنامي، وقد استجاب شارل مارتل لطلب الدوق أود على الرغم من حالة عدم الوفاق التي كانت سائدة بينهما، ذلك أنَّ شارل مارتل كان يعرف تماماً أن سقوط حكومة الدوق أود وسيطرة العرب على أكيتانيا التي يحكمها، سيشكل خطراً كبيراً على المناطق الأوروبية التي تليها، ومنها الدولة التي يحكمها تحت اسم الدولة الميروفنجية، فخرج على وجه السرعة بجيش ألماني ضخم لصد التقدم العربي، والتقى الطرفان في موقع بين مدينتي تور وبواتييه في شهر رمضان من سنة ١١٤هـ/٧٣٢م، وجرت بينهما معركة شديدة استمرّت ثلاثة أيام، ولاح النصر في بدايتها للعرب، وجمعوا غنائم جمة. كان أمر حمايتها والحفاظ عليها من الأسباب التي قلبت النصر إلى هزيمة قاسية، وأدت إلى استشهاد الكثير من العرب، وفي مقدمتهم القائد الوالي عبد الرحمن الغافقي.

حملت هذه المعركة اسم بلاط الشهداء نسبة إلى طريق روماني، جرت عليه هذه المعركة، كان مبلطاً أي مرصوفاً بالبلاط على مسافة عشرين كيلومتراً إلى الشمال الشرقي من بواتييه، وهو طريق معروف كان يصل بين شاتلرو وبواتييه في مكان لايزال يدعى موسيه لا باتاي(٢).

---

(١) شكيب أرسلان. تاريخ غزوات المغرب، طبعة مصر ١٩٥٢ ص٨٩.

(٢) ابن عذاري. البيان المغرب ج١ ص٥١. نفح الطيب للمقري ج٢ ص٩.

معظم المصادر العربية لا تفصِّل في هذه المعركة، لأنها كانت مؤلمة للغاية. في حين أطنب الأوروبيون في الحديث عنها وجعلوها من المعارك العالمية الفاصلة، لأنها وضعت حداً فاصلاً أمام تقدم العرب باتجاه القارة الأوروبية، ويذكرون أن العرب لو أحرزوا النصر في هذه المعركة لوقعت معظم البلدان الأوروبية في قبضة العرب، كما حصل في إسبانيا، ولأصبحت أوروبا برمتها تدين بالإسلام، إلى غير ذلك من أمور تبتعد عن الواقع والتصديق، لأن العرب في إسبانيا، أو في غيرها لم يجبروا أحداً على الدخول في الإسلام، وبقي هذا الأمر، وبخاصة في إسبانيا متروكاً بحرية أمام الجميع. وإن المعاملة التي عومل بها الإسبان في ظل الحكم العربي كانت فريدة في عظمتها وإنسانيتها. وأشاد الأوروبيون بشارل مارتل، وأعطوه لقب مارتل أي المطرقة، وعدُّوه منقذاً ومخلصاً للأوروبيين من شرور العرب، وما يزال وربما سيبقى، يدرس على أنه بطل أوروبي دافع عن أوروبا وصان كيانها واستقلالها وحريتها، الأمر الذي جعل غيبون يعتب على رجال الدين لأنهم لم يجعلوا من شارل مارتل قديساً، جزاءً على عمله الوطني المميز، وكذلك الديني، كمنقذ للمسيحية من سيطرة الإسلام(١).

من جهة أخرى، فقد وجد الأوروبيون أمامهم متسعاً من الوقت، ليلصقوا بالعرب العديد من التهم الباطلة في سياق حديثهم عن معركة بلاط الشهداء. من هذه التهم الباطلة، ما قيل في صدد إقدام العرب على تهديم بعض الكنائس في مدينة تور وغيرها، مع أن الأمر كان غير ذلك تماماً، لأن هذه الكنائس كانت حينما وصل العرب إليها عبارة عن حصون دفاعية قوية، وهنا لا بد من الرد على المقاتلين فيها بكل الوسائل الحربية، لأن الأماكن الدينية لا يجوز أن تستخدم مهما كانت الظروف كمواقع عسكرية، هذا بالإضافة إلى أن العرب لم يكونوا وحدهم، الذين تعرضوا للكنائس المحولة إلى حصون حربية، بل سبقهم الجرمان الذين لم يتورعوا عن تهديم الكنائس في كل مكان وصلوا إليه، وكذلك كان شارل مارتل لا يتورع عن تهديم أيّ كنيسة في حال تهديدها لحكمه.

---

(١) CF. Edward Gibbon, the decline and fall of the Roman empere. London 1902-p17-18.

لم يتمكن العرب بعد معركة بلاط الشهداء من الاستفادة من درسها القاسي، فبدلاً من أن يذهبوا لتوحيد صفوفهم ونسيان خلافاتهم للتعويض عن الخسارة في هذه المعركة، راحوا يشتغلون في أمورهم الخلافية، وبخاصة القبلية والعصبية منها، الأمر الذي انعكس سلباً على حركة الفتح في الشمال والشمال الغربي، هذه الحركة التي توقفت نهائياً منذ ذلك الحين، وإن كانت قد حدثت بعض الغارات فإنها لم تكن ذات تأثير يذكر يمكن التوقف عنده، وهذا برمته لا يعود إلى هزيمة بواتييه بقدر ما يعود إلى أن الظروف التالية، لم تكن تساعد في معظم الأحيان، سواء كان ذلك في ميدان الاستعداد العربي العام أم في ميدان الجبهة الأوروبية، التي بقيت متوقدة ومتحفزة للوقوف ضد العرب في القارة الأوروبية، وتطور ذلك إلى مشاركة فعلية ضدهم من خلال دعم ومساندة حركة الاسترداد الإسبانية.

جاء إلى ولاية الأندلس بعد استشهاد عبد الرحمن الغافقي، عبد الملك بن قطن الذي ترأس حزب المدينة المنورة في الأندلس، وكان قد شهد موقعة الحرة في خلافة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان سنة ٦٣ هـ/٦٨٢ م، ونتيجة لما حصل في المدينة المنورة من استباحة وقتل وسلب من الجيش الشامي، فإن عبد الملك بن قطن كان ما زال يحمل الحقد على الشاميين، مما سيكون له تأثيره السلبي في الأحداث التالية[١]. لكن ولاية عبد الملك بن قطن الأولى لم تطل كثيراً فقد عزله عنها عبيد الله بن الحبحاب في أوائل سنة ١١٦ هـ/٧٣٤ م، وعين لها عقبة بن الحجاج، الذي قيل عنه إنه كان رحيماً برعيته محسناً للجميع ومحباً للجهاد في أرض العدو، ما جعله يمضي كل أيام ولايته في الجهاد في مناطق أربونة وبنبلونة وجيليقية، وما شجعه على ذلك أن كثيرين من سكان تلك المناطق كانوا ما يزالون على دين الوثنية، التي لا يحميها الشرع الإسلامي ولا يتهاون معها[٢]، لكن ما حدث أن الأمور لم تستمر على هذه الوتيرة، فقد جرت في عصر الوالي عبيد الله بن الحبحاب الذي كان يحكم المغرب، وفي الوقت نفسه كان مسؤولاً عن الأندلس ممثلاً بواليها، جرت وقائع لم تكن في

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٢٨ نفح الطيب للمقري ج١ ص١٦.

(٢) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٢٩.

الحسبان، فقد تفجرت على حين غرّة ثورة مغربية داخلية، كان لها تأثيرها البالغ على الأندلس، وهو أمر كان طبيعياً في ذلك الوقت، فما كان يحدث في المغرب كان يؤثر مباشرة على الوضع العام في الأندلس. وقد تفجرت ثورة المغاربة سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م بتأثير عدد من الممارسات الأموية الظالمة على المغاربة، التي كان في طليعتها أن الأمويين فشلوا في تحقيق المساواة والعدالة في صفوف المغاربة، لأن الأمويين كانوا يرون المغاربة برمتهم عناصر غير عربية، ومعروف أن العنصر العربي كان العنصر الوحيد المعول عليه في الحكم والإدارة دون غيره، وتبعاً لهذا الخطأ الفاحش الذي وقع فيه الأمويون في المغرب، حُرم المغاربة من كل ما كان يحصل عليه العرب من حقوق سياسية وقيادية واجتماعية، وبقوا في درجة دنيا في السلم الاجتماعي العام، الذي يشكل العرب قمته. فعلى الرغم من دخول المغاربة في الإسلام، فإن الأمويين كانوا يفرضون عليهم الجزية، ويصادرون أموالهم وثرواتهم بصورة شبه مستمرة، إلى غير ذلك من أمور مشابهة. وقد تزامن ذلك مع انتقال الخوارج إلى المغرب بعد أن فشلوا في تحقيق مكاسب سياسية في المشرق، ولما وصلوا إلى المغرب بدؤوا بإعلان مبادئهم العامة، التي تركز على العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص حتى في الشأن الخلافي أو الحكم بصورة إجمالية. ففي هذا الشأن، كان الخوارج في المغرب يروجون أن الحكم لا يقتصر على أفراد معينين، بل هو حق للجميع عن طريق الانتخاب بغض النظر عن جنس ولون وأصل الرجل المنتخب. وقد وجدت هذه المبادئ قبولاً عظيماً في صفوف المغاربة، الذين كانوا متعطشين للحرية والمساواة والمشاركة في الحياة العامة، فأعلنوا بتأثير ذلك ثورة عارمة ضد الحكم الأموي، الذي كان لا يقبل أيّ تعديلات في مبادئه التي تؤيد أحقية العرب في السيادة على الجميع.

تزعَّم الثورة الخارجية في المغرب ميسرة المتغري، نسبة إلى قبيلة متغرة الزناتية، وكان في بداية أمره يعمل سقاء في القيروان، فلقبه المؤرخون تبعاً لذلك بالحقير، وأحياناً بالفقير، وهي نعوت اعتاد المؤرخون على إطلاقها على أمثال ميسرة المتغري من العمال والحرفيين في حال تدخلهم في الشؤون السياسية. وفي أثناء وجود ميسرة في القيروان كان قد اطلع على مبادئ الخوارج، وحينما انتقل إلى

بلده طنجة بدأ ينشرها هناك. وبالعموم، فقد كان ناقماً على سياسية الأمويين العامة في المغرب الكبير، ورغم ذلك فإنه قد سلك مسلكاً دبلوماسياً في بداية الأمر، حينما ترأس وفداً من مؤيديه تألف من عشرة أشخاص، ذهب بهم إلى حاضرة الخلافة الأموية دمشق، ليعرض على الخليفة هشام بن عبد الملك معاناة المغاربة في ظل حكم الولاة الأمويين، وكان هشام بن عبد الملك مقيماً بقصره في مدينة الرقة السورية، فلم يتمكن ميسرة المتغري من مقابلته، ذلك أن هشام بن عبد الملك لم يكن يحب مقابلة الناس كثيراً، حتى الوفود السياسية، وكان يقوم بهذه المهمة في معظم الأحيان الأبرش الكلبي، الذي كان بمنزلة رئيس حكومة هشام، فعاد ميسرة المتغري إلى المغرب خالي الوفاض، مكسور الخاطر، وحينما وصل إلى المغرب أعلن الثورة ضد الأمويين، وتمكن من إلحاق الهزيمة بجيوش الدولة في منطقة طنجة شمال غرب المملكة المغربية اليوم، ثم فرض سيطرته على معظم أراضي المغرب الأقصى، وقد جعلته هذه الانتصارات السريعة يشعر بالغرور فادعى الخلافة وأساء معاملة مؤيديه، ما أدى بهم إلى الاتفاق على التخلص منه بالقتل، وتعيين شخص آخر عليهم هو خالد بن حميد الزناتي.

- تمكن خالد بن حميد الزناتي من متابعة مسيرة الانتصار على جيوش الدولة الأموية، وكانت ذروة هذه الانتصارات في معركة مشهورة جرت بالقرب من طنجة في سنة ١٢٣ هـ/٧٤٢ م، سميت بمعركة الأشراف لكثرة ما قتل فيها من أشراف القوم وكما تهم، وبخاصة من أتباع الأمويين. وحينما وصلت أخبار هذه الانتكاسات التي حلت بالقوة الأموية في المغرب الأقصى إلى مسامع هشام ابن عبد الملك، بادر على الفور بإرسال قوات كبيرة إلى حد ما، وضع على قيادتها كلثوم بن عياض القشيري أمير شرطة دمشق، وكانت هذه القوات قد جمعت من أجناد الشام الخمسة، وكذلك من جند مصر.

ورغم أن هذه القوات أرسلت من أجل ضبط الأمور المتفاقمة في المغرب الأقصى وغيره، فإنَّها لم تلق الترحيب المناسب من العرب الذين كانوا قد هزموا بالأمس، ولا من المغاربة الذين كانوا يؤيدونهم، وكادت أن تنشب الفتنة حتى تمكن

القادة من تسوية الأمور بهدوء وروية، ويبدو أن هذا التنافر هو الذي أدى إلى هزيمة جديدة لأنصار الأمويين أمام الثوار المغاربة، وسقط كلثوم بن عياض القشيري قتيلاً في هذه الحرب التي جرت على ضفاف نهر سبو سنة ١٢٣هـ/٧٤١م. ومن تبقى من أهل الشام لجأ إلى سبتة وتحصن بها، لكن حصاراً شديداً ألقي عليهم من المغاربة والأندلسيين على حد سواء، فالأندلسيون بقيادة عبد الملك بن قطن أسهموا إسهاماً كبيراً في التضييق عليهم، لأن معظمهم من أهل الشام، الذين يكرههم عبد الملك أشد الكراهية منذ وقعة الحرة بالمدينة المنورة، ورفض انطلاقاً من هذا الواقع أن يمدهم بأي عون، بل بادر إلى معاقبة كل الذين حاولوا مساعدتهم[١]. لكن هذه الحالة لم تدم طويلاً، ولم يتمكن عبد الملك بن قطن، من أن يستمتع بعذاب الشاميين المحاصرين في سبتة، لأن ولايته اضطربت أمورها هي الأخرى، فأعلنت فيها ثورة مماثلة لتلك التي وقعت في المغرب، وكادت تطيح بعبد الملك، الذي اضطر أن يغير موقفه حيال أهل الشام، وتطور الأمر به إلى طلب معونتهم لقمع الثورة في الأندلس، وقد وافقه الشاميون على ذلك بعد أن اشترط عليهم بعض الشروط، التي كان من أهمها أن يشتركوا معه في قمع ثورة الأندلس، ثم يختارون بعد ذلك إما أن يعودوا إلى المغرب أو أن يتوجهوا إلى المشرق على سفن أندلسية. ويبدو أن الثورة في الأندلس كانت مغربية خارجية ضد الأمويين، والدليل على ذلك أن الثوار كانوا قد اتفقوا على تقسيم قواتهم إلى ثلاثة أقسام، قسم يقوم بالهجوم على طليطلة، وقسم يهاجم قرطبة، والقسم الآخر يقوم بالهجوم على المحاصرين بسبتة من أهل الشام، ثم يتصلون بعد ذلك بالثائرين من إخوتهم في المغرب.

وهكذا، عبر بلج بن بشر الذي كان يترأس ما تبقى من أهل الشام حسب وصية هشام بن عبد الملك، إلى الأندلس بجميع من معه من قوات كادت تقضي من ضيق الحصار، وقد تمكن بالتعاون مع جماعة عبد الملك بن قطن، من أن يضع

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج١ ص٥١ وما بعدها . نفح الطيب للمقري ج١ ص١٤٦.

حداً للثورة المغربية في الأندلس في فترة قياسية. وحينما طلب عبد الملك بن قطن منهم أن يغادروا الأندلس إلى المغرب أو إلى غيرها حسب الاتفاق، الذي وافق عليه الشاميون والأندلسيون، رفض بلج بن بشر طلب عبد الملك، ودخل الطرفان في حرب حقيقية، فكان أن انتصر بلج بن بشر على الوالي الأندلسي وقتله، ونصّب نفسه والياً على الأندلس، وعُرف بلج وأصحابه بالشاميين أو الطالعة البلجية، تمييزاً عن الذين كانوا قد فتحوا الأندلس في زمن طارق بن زياد وموسى بن نصير، الذين عُرفوا بالبلديين لطول إقامتهم وتبلدهم في الأندلس[١].

كانت فترة ولاية بلج القصيرة من أحفل الفترات بالمشاكل والخلافات، فقد وقف البلديون برمتهم ضده ، ودخل معهم في حرب انتهت بمقتله، فخلفه حسب توصية هشام بن عبد الملك حينما أرسل القوة الشامية - سابقة الذكر - ثعلبة بن سلامة سنة ١٢٤ هـ/٧٤٢ م. وتمكن ثعلبة في البداية من أن يتحكم في أمور الأندلس، لكنه لم يستمر في ذلك بسبب اعتماده مبدأ العصبية القبلية، وكان يميل إلى اليمنية. هذا بالإضافة إلى مبدأ الإقليمية الذي استشرى كمرض عضال بين الشاميين والبلديين، وهكذا دخلت الأندلس في ولايته حرباً أهلية راح ضحيتها الكثير من البلديين والشاميين على حد سواء، وأصبح الأسرى في تلك الفترة يباعون في أسواق قرطبة كأيّ سلعة تجارية، وهو أمر لم يكن الأندلسيون قد اعتادوا عليه في الفترات السابقة، ما أثار كراهية الناس في الأندلس ضد ثعلبة بن سلامة[٢].

في الوقت الذي كانت تجري فيه هذه المآسي الإنسانية في الأندلس، كانت الاضطرابات السياسية قد بدأت في المشرق بعد وفاة الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، وسبب هذه الاضطرابات استفحال أمر الدعوة العلوية (العباسية فيما بعد)، وبخاصة في ولاية خراسان، وكذلك بسبب مجيء خلفاء ضعاف لم يتمكنوا من مواجهة هذه الأحداث، التي كانت تحتاج إلى العظام من الرجال

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج١ ص٥٦ . مؤلف مجهول . أخبار مجموعة ص٤٠ وما بعدها.

(٢) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٣٣ وما بعدها. مؤلف مجهول . أخبار مجموعة ص٤٥.

والسياسيين، فقد جاء إلى الخلافة الأموية بعد وفاة هشام بن عبد الملك الوليد ابن يزيد بن عبد الملك، الذي كان مشغولاً على الدوام في أمور النساء واللهو والشراب والغناء والشعر، وكان يلقب تبعاً لذلك بفتى بني أمية أو ظريف بني أمية، وقيل إنه كان شاعراً محسناً يقول شعراً جميلاً، ولم تطل مدة حكمه فقد اجتمع عليه الأمويون وقتلوه سنة ١٢٦هـ/٧٤٤م[١].

وهكذا غدت الخلافة الأموية في المشرق مشغولة بمشاكلها الداخلية، فلم تعد تلتفت إلى الأندلس الغارقة بالقتل وسفك الدماء، فلم يجد الأندلسيون أمامهم سوى التوجه إلى والي المغرب لإرسال من يجده قادراً على حلّ خلافاتهم، التي تفاقمت إلى درجة كبيرة، وكان والي المغرب آنذاك حنظلة بن صفوان، الذي لم يتأخر في الاستجابة لطلب الأندلسيين، فأرسل إليهم أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي، الذي استطاع أن يضع حداً لأعمال السبي والقتل، التي تسبب بها ثعلبة بن سلامة برعونته وعدم اتزانه، وأعلن سياسة جديدة قائمة على أساس العدل والمساواة بين الجميع بغض النظر عن عصبيتهم وإقليميتهم، وما إلى ذلك. وأتبع ذلك بتوزيع العرب في الأندلس على مناطق شبيهة بتلك المناطق التي جاؤوا منها في المشرق، فأنزل أهل دمشق في مقاطعة غرناطة لشبه غرناطة بدمشق وسميت دمشق الأندلس، وأنزل أهل حمص بإشبيلية لشبهها بحمص وسميت حمص الأندلس، وأنزل أهل قنسرين في جيان، وأنزل أهل الأردن في مقاطعة ريه أي في أرشذونة ومالقة، وسميت الأردن، وأنزل أهل فلسطين في شذونة وهي مقاطعة شريش، وسميت فلسطين، وأنزل أهل مصر في مكانين لكثرتهم، هما باجة في جنوب غرب الأندلس، وفي تدمير في جنوب شرق الأندلس، وقد هُدمت تدمير في عصر الإمارة وبني في مكانها مدينة مرسية[٢].

لكن أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي فشل في الاستمرار في البقاء حكماً بين الجميع، فلم يلبث أن عاد إلى طبيعته البدوية المعتمدة على العصبية القبلية،

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية ص٩٧.

(٢) المقري. نفح الطيب ج١ ص١٥٥. مؤلف مجهول. أخبار مجموعة ص٣١.

فتعصب لليمانية ضد القيسية، وتطرف في ذلك إلى حد كبير، فكرهه الناس وخاصموه. وبذلك عادت الخلافات القبلية بين عرب الأندلس من جديد، وبخاصة بين اليمنية التي كان يتزعمها أبو الخطار نفسه وبين القيسية التي كان يتزعمها الصميل بن حاتم الذي يعود بأصله إلى مدينة الكوفة، وقد انتقل إلى الأندلس مع جند قنسرين، وهناك اشتهر أمره في ميدان السياسة والزعامة على الرغم من أنه كان لا يعرف القراءة والكتابة، فقد عُرف بدهائه وحلمه وحسن تصرفه في أحرج الظروف وأصعبها، الأمر الذي أثار مخاوف أبي الخطار حسام، وظل يعمل بشتى السبل لإبعاده عن قرطبة، من ذلك أنه أمر بإهانته حينما كان ذات مرة قادماً إلى قصر قرطبة، فصبر على الإهانة صبر السياسي المحنك، لأنه كان يعرف أنه سيتمكن من الانتقام لكرامته في يوم من الأيام(١).

وبالفعل، فقد كانت هذه الحادثة سبباً في اندلاع حرب بين القيسية واليمنية، لم تنتهِ إلا بقدوم عبد الرحمن الداخل الأموي، الذي انتصر على آخر الولاة الأندلسيين وأعلن بداية عهد جديد يعتمد فيه الحاكم على ولاء الناس لشخصه، وهو ما سمي في تاريخ الأندلس بعصر الإمارة الأموية. وقد اندلعت حرب أهلية بين اليمنية والقيسية على نهر الوادي الكبير، وتمكنت القيسية بزعامة الصميل بن حاتم من إلحاق هزيمة كبيرة باليمنية في معركة دعيت معركة شقندة في جنوب مدينة قرطبة، ونتيجة هذا النصر الكبير للقيسية، قام الصميل بن حاتم بطرد أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي من ولاية الأندلس وقتله، وعيّن بدلاً منه يوسف الفهري، الذي كان الجميع تقريباً يوافقون عليه، وظل الصميل بن حاتم هو الحاكم الحقيقي للأندلس، لأنه هو الذي كان يوجه يوسف الفهري(٢).

وقد عظم شأن الصميل بن حاتم بعد معركة شقندة، التي كانت أكبر حرب أهلية في الأندلس من حيث قسوتها وخسائرها من الطرفين المتقاتلين،

---

(١) ابن خلدون . العبر ج٤ ص١٢٠ . ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٣٤ نفح الطيب للمقري ج١ ص١٤٧.

(٢) مؤلف مجهول . أخبار مجموعة ص٥٦ وما بعدها.

على الرغم من أن حالة صعبة من الجفاف والقحط عمت الأندلس مدة سبع سنوات على التوالي، ذلك لأنه ضحى في هذه السنين بمعظم ما كان يملكه، صرفه على الفقراء والمحتاجين والمنكوبين، فخاف منه يوسف الفهري وحاول أن يتخلص منه بإبعاده عن قرطبة، فأعطاه حكم سرقسطة عاصمة الثغر الأعلى، وحين وصوله إليها وجد المجاعة فاشية فيها، فأمر بإكرام الناس ونجدتهم دون تفريق بين يمانيين أو قيسيين، فأحبه الجميع[١].

في غضون ذلك كانت الدولة الأموية قد سقطت، وهرب عدد من أبناء الأمويين، كان منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، الذي انتقل إلى المغرب ومنه إلى الأندلس كما سنرى في بحثنا عصر الإمارة الأموية في الأندلس.

وعموماً، فقد كان عصر الولاة عصراً قلقاً، سادته كل أنواع الاضطرابات وعدم الاستقرار السياسي، كما كان عصراً متعثراً في ميدان الفتوح، لم ينجح الولاة في إحراز تقدم معين على الجبهة الشمالية في أوروبا أو في الأندلس على حد سواء.

كل ذلك أدى إلى حالة فقر شديدة في ميدان العلوم بعامة، فلم تظهر في هذا العصر أيّ بادرة علمية يمكن أن ننوه بها. ومع ذلك، فيمكننا أن نعدَّه عبوراً إلى عصور أكثر تألقاً وازدهاراً وتحضراً.

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٣٧. أخبار مجموعة ص٦٢ . ٦٣.

الفصل الرابع

عصر الإمارة الأموية في الأندلس

بدأ هذا العصر سنة ١٣٨هـ/٧٥٦م وانتهى سنة ٣١٦هـ/٩٢٩م، وقد سمي بعصر الإمارة، لأن الأمويين الذين حكموا طوال سنينه الأندلس، لم يقبلوا أن يلقبوا أنفسهم بالألقاب الخلافية، لأن الخلافة العباسية كانت في أوج قوتها، ويعدّها جميع الناس تقريباً في ذلك الحين، الخلافة الشرعية الوحيدة، واكتفوا تبعاً لهذا الواقع بلقب الأمير.

وقد كان عصر الإمارة الأموية في الأندلس تطوراً مهماً للدولة العربية هناك من النواحي كافة، فقد شكل نقلة نوعية على صعيد الحكم والسياسة، وكذلك على صعيد تقدم العلوم والإدارة العامة بشكل خاص، لذلك لا يمكن أن يقارن بعصر الولاة، الذي بقي فيه التقدم العلمي والسياسي أمراً شبه معدوم. لكنه من ناحية أخرى كان نكسة كبيرة للمشروع الوحدوي العربي، لأن الأندلس شكلت لنفسها، منذ بداية هذا العصر، كياناً مستقلاً في كل شيء عن الدولة العباسية، هذه الدولة التي حاولت في بداية أمرها، أن تعيد الأندلس إلى جسم الدولة العربية الواحدة، كما كانت في العصر الأموي، لكن محاولاتها باءت بالفشل، لأنها على ما يبدو لم تكن جادة، والدليل على ذلك أن المنصور العباسي، لم يكرر محاولته الأولى الفاشلة لاستعادة الأندلس، وكذلك فإن الخلفاء الذين جاؤوا بعده، لم يكن أمر الأندلس يعنيهم كثيراً.

لقد سقطت الدولة الأموية على يد العباسيين سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م، ومارس العباسيون على الأمويين سياسة غير إنسانية، حينما شرعوا يلاحقونهم ويقتلون كل من تقع أيديهم عليه، وكان المقتولون من الأمويين كثيرين إلى حدٍ ما، وقد قتلوا بغير حق، أو بالأحرى كان قتلهم ظلماً كبيراً، وكان وصمة عار في جبين العباسيين، ستلاحقهم مدى الدهر، لأن القتل بغير حق من أبشع الأعمال وأخطرها على المجتمعات البشرية. وكان من الذين نجوا من مجازر العباسيين عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل، الذي غادر دير حنا من أعمال قنسرين هارباً إلى دمشق، ومنها إلى فلسطين ثم إلى مصر، ومنها إلى المغرب، حيث بقي مدة خمس سنوات أمضاها في تونس والجزائر والمغرب الأقصى. وقيل إنه كان بصدد إنشاء دولة في المغرب، لكنه لم يتمكن من عمل شيء في هذا السبيل، وظل يتنقل من تونس إلى الجزائر إلى المغرب حتى ولدت عنده فكرة أخرى، تجسدت في العمل للسيطرة على الأندلس مستفيداً من ظروفها المضطربة، التي تفاقمت في الفترة الأخيرة من عصر الولاة، وكذلك من مؤيدي (موالي) الأمويين هناك. وبدأ عبد الرحمن الداخل أعماله على هذا الطريق، حينما أرسل مولاه بدراً إلى الأندلس، ليقيم تفاهماً مع موالي الأمويين، وكذلك مع أحد الفريقين المتخاصمين المتمثلين باليمانية والقيسية. وفي الأندلس التقى بدر أول الأمر بزعيم القيسية الصميل بن حاتم، وعرض عليه فكرة وكيفية دخول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس، وطلب مساعدته وتأييده في حال الموافقة، لكن الصميل بحسه السياسي العميق رفض ذلك قطعياً، لأنه كان يخشى من تطور الأمور ضده فيما لو أصبح الداخل زعيماً على الأندلس، وهذا ما ظهر واضحاً في جوابه المشهور لبدر وغيره من موالي الأمويين عن عبد الرحمن الداخل: «إنه من قوم لو بال أحدهم في الجزيرة لغرقنا في بحر بوله، وإن أول سيف يُسلّ عليه هو سيفي»(١).

---

(١) مؤلف مجهول. أخبار مجموعة ص٧٣.

أمام هذا الجواب الصارم لزعيم القيسية الصميل بن حاتم، توجه بدر إلى اليمانية، وكانوا يترقبون التطورات بدقة، حتى يمكنهم الانتقام من القيسية الذين سببوا لهم متاعب جمة منذ وقعة شقندة، التي كانت بمنزلة ضربة قاسية لليمانية. وهذا ما جعلهم يوافقون على دخول عبد الرحمن الداخل، ووعدوا بالوقوف إلى جانبه ضد كل من يعارضه في تحقيق برنامجه في الأندلس. وهذا ما شجع عبد الرحمن الداخل للعبور إلى الأندلس بسرعة، فنزل على ساحل الأندلس الجنوبي الشرقي في المنكّب، ومنطقة المنكب كانت من أهم تجمعات موالي الأمويين في الأندلس. ومن المنكب انطلق إلى قرطبة وتحت إمرته مجموعة كبيرة من اليمانية والموالي والمؤيدين. وبالقرب من قرطبة على ضفاف الوادي الكبير، كان لا بد من اللقاء مع جيش الصميل بن حاتم ويوسف الفهري الوالي الأندلسي، وكان ذلك في وقفة عيد الأضحى من سنة ١٣٨هـ/٧٥٦م. وقد لجأ إلى الحيلة والدهاء والمكر، بأن تظاهر أمام الصميل بن حاتم والوالي يوسف الفهري، أنه يريد الصلح، وبخاصة أن عيد الأضحى قد اقتربت أيامه، فوافق الوالي الأندلسي ومن ورائه الصميل بن حاتم على عرض عبد الرحمن الداخل، لكن عبد الرحمن حينما أصبح في قرطبة بعد عبور الوادي الكبير، قال إنه من غير الممكن أن يوافق على أي صلح إلا بعد الاعتراف به أميراً على الأندلس برمتها، فلم يوافقه الوالي الأندلسي يوسف الفهري على عرضه الجديد. وفي محلة المصارة بالقرب من قرطبة، جرت وقائع حرب بين الطرفين أسفرت في نهاية الأمر عن انتصار ساحق لعبد الرحمن الداخل(١). وتقع المصارة بالتحديد في جنوب غرب مدينة قرطبة على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير، والمصارة كلمة كانت تعني عند الأندلسيين منطقة من الأرض واسعة تشبه المرج في المشرق، وهي منطقة سهلية كانت مجاورة لبعض المدن الكبرى مثل قرطبة وغرناطة وإشبيلية وغيرها. وتعني كلمة المصارة من جهةٍ أخرى الغرفة،

---

(١) مؤلف مجهول . أخبار مجموعة ص٨٦.

التي كانت تبنى فوق الطابق الأرضي، التي تستقل استقلالاً تاماً عنه، وكانت في الأندلس تؤجر عادة للغرباء أو لغير المتزوجين من غير سكان الطابق الأرضي، الذين كانوا في العادة يتصلون ببعضهم من خلال القرابة.

تمكن عبد الرحمن الداخل بعد نصر المصارة من دخول مدينة قرطبة وإعلان نفسه أميراً على الأندلس، فبايعه الناس على ذلك بعد أن هرب والي الأندلس يوسف الفهري والصميل بن حاتم إلى مدينة غرناطة، وحينما سمع عبد الرحمن بوجودهما هناك غادر قرطبة إلى غرناطة وألقى حصاراً شديداً عليها، أسفر عن عقد صلح بينه وبين الوالي السابق يوسف الفهري والصميل بن حاتم، وعاد الجميع إلى قرطبة، واستقرت الأحوال إلى حين(١).

تلقب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام مؤسس الإمارة الأموية في الأندلس بعدد من الألقاب، فقد تلقب بالداخل ذلك لأنه كان أول من دخل من الأمويين إلى الأندلس واستطاع أن يقيم لنفسه حكماً لفترة طويلة، بدأت سنة ١٣٨هـ/٧٥٦م وانتهت سنة ١٧٢ هـ/٧٨٨ م، وتلقب أيضاً بصقر قريش، وهو لقب أطلقه عليه الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور، حينما تمكن من القضاء على العلاء ابن مغيث الجذامي، الذي كان المنصور قد ولاه الأندلس وأمره بحرب عبد الرحمن الداخل والقضاء على إمارته، لكن عبد الرحمن تمكن من قتل العلاء بن مغيث الجذامي، وأرسل رأسه إلى مكة المكرمة ورمي بالقرب من خيمة المنصور، الذي كان يؤدي فريضة الحج سنة ١٤٧هـ/٧٦٥م(٢).

وقد أثنى معظم المؤرخين على عبد الرحمن الداخل حتى يومنا هذا، ونسوا أنه تسبب في ضرب وحدة الدولة العربية، وأن جميع أعماله لا توازي شيئاً في مقابل هذا العمل السلبي، فمنذ أن وصل إلى الأندلس ترسخ في

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٤٧ . ٤٨. مؤلف مجهول . أخبار مجموعة ص٩١ وما بعدها.

(٢) ابن الكردبوس الاكتفاء في أخبار الخلفاء. نشره أحمد مختار العبادي ص٦٠ وما بعدها.

النفوس، بفعل الدعاية الأموية هناك، أن الأندلس يجب أن تبقى خارج الدولة العربية الواحدة، إلا إذا خضع الجميع لسلطة الأمويين، وهذا أمر كان مستحيلاً، ذلك لأن العباسيين كانوا في أوج قوتهم، وكذلك في أوج كراهيتهم للأمويين. وهكذا انفصل عبد الرحمن الداخل بالأندلس فأصبحت ولاية خارج سيطرة الدولة الواحدة، وخلع بذلك طاعة بني العباس إلى الأبد(١).

قام عبد الرحمن الداخل بنشر مبدأ جديد في صفوف عرب الأندلس، لم يكونوا يعرفون مثله على الأقل في حياتهم وممارساتهم، وهو أن الولاء لا يكون للقبيلة بل يكون لشخص الأمير، الذي يُعد الممثل الوحيد للجميع، وهو الذي يطبق القانون على الجميع دون انحياز لأحد لأصله أو لمكانته أو لقربه من الأمير، وبذلك يكون عبد الرحمن الداخل قد وضع حداً لذلك الماضي المأساوي، الذي عاشته الأندلس وعانت منه لأمد طويل، وهو عصر الولاة، الذي تحكمت به العصبية القبلية والخلافات الدامية الناتجة عنها، وبذلك يكون الداخل قد أحيا ذلك النهج، الذي سار عليه معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان في أثناء حكمهما خلفاء للدولة الأموية في المشرق(٢). ويعد هذا المبدأ الجديد من أهم منجزات عبد الرحمن الداخل على الإطلاق، ذلك لأنه شكل خطوة مهمة على طريق توطيد وحدة عرب الأندلس وتعاونهم في مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية على حدٍ سواء، في مكان بعيد ضمن قارة أوروبا، التي لم تمارس منذ ذلك الحين نشاطاً إيجابياً حيال العرب، والحق فإنه لو قدّر لهذا المبدأ أن يستمر طوال الوجود العربي في الأندلس، لكانت فترة هذا الوجود قد طالت إلى أمد أكثر من ذلك الأمد الذي أمضته هناك.

تعد الفترة التي أمضاها عبد الرحمن الداخل في حكم الأندلس من أصعب فترات حكم الأمراء والخلفاء الأمويين على الإطلاق، ذلك لأنها حفلت بالأحداث

---

(١) ابن الآبار . الحلة السيراء ج١ ص٣٥.

(٢) انظر حول ذلك كتابنا: تاريخ الأمويين السياسي والحضاري، الفصل الخاص بمعاوية وعبد الملك بن مروان.

الداخلية والخارجية، التي كاد بعضها أن ينجح في تقويض حكم الأمويين من أساسه. وقد استطاع الداخل أن يتخلص من هذه الأخطار ببراعة لافتة، الأمر الذي جعله من كبار الحكام الأمويين في الأندلس على الصعيد السياسي العام.

فعلى الصعيد الداخلي واجهته بعض المشكلات، التي كان هدف أصحابها الفوز بالسلطة والحكم. من ذلك أن الوالي الأندلسي يوسف الفهري ومعه الصميل بن حاتم ومجموعة من المؤيدين، حاولوا ضرب دولة عبد الرحمن قبل أن تقوى وتتوطد دعائمها واستعادة دولتهم البائدة، وقد حصل ذلك سنة ١٤٢هـ/٧٥٩م، حينما أعلن يوسف الفهري بتحريض من الصميل بن حاتم عصياناً مفتوحاً، وانتقل من قرطبة إلى ماردة التي كانت في ذلك الوقت ما تزال قاعدة الثغر الأدنى، وفيها تمكن من جمع جيش كبير من المغاربة الذين كانوا يكرهون الأمويين، وحينما التقى هذا الجيش بقوات عبد الرحمن الداخل هُزم شر هزيمة وقتل يوسف الفهري، واعتقل الصميل بن حاتم، ووضع في السجن، وقتل بعد فترة وجيزة بتوجيه من عبد الرحمن الداخل نفسه(١).

ولم تنته مشكلات القيسية بموت الفهري والصميل بن حاتم، فعلى الرغم من مضي سنين عديدة على وفاتهما، فإن أحد أنصارهما، وهو هشام بن عروة الفهري، أعلن ثورة في مدينة طليطلة سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م ضد حكم عبد الرحمن الداخل، الذي جاء بجيش إلى طليطلة وألقى عليها حصاراً شديداً، أجبر أهلها على طلب الصلح والعفو، فاستجاب لطلبهم مولى عبد الرحمن بدر، ولكن بشرط أن يسلموا قائد الثورة ومعاونيه، وقد تم له كل ذلك وانتهت هذه الثورة(٢).

أما أشد الأخطار التي واجهت حكم عبد الرحمن الداخل، فقد كانت من خارج الأندلس، من الخلافة العباسية، ومن القارة الأوروبية. فالخلافة العباسية

(١) مؤلف مجهول . أخبار مجموعة ص٩٠ وما بعدها. البيان المغرب لابن عذاري ج٢ ص٧٢.

(٢) مؤلف مجهول . أخبار مجموعة ص١٠١. ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٧٦.

كانت قوية في هذه الفترة، التي حكم فيها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، الذي اشتهر عنه الحزم في كل الأمور والاهتمام في أن تكون دولته واسعة الأرجاء على غرار ما كان في عصر الأمويين الميمون. ولعل أهم ما كان يشغله بعد مسألة توطيد سلطة العباسيين في الحكم على أرض الواقع، إنما هي الأندلس بعد أن سمع بسيطرة عبد الرحمن الداخل على أمور الحكم فيها، فقد كان بوده أن تكون الأندلس، كولاية في القارة الأوروبية، تحت سيطرة العباسيين، ولا بد من أجل تحقيق ذلك أن يقوم بضرب إمارة عبد الرحمن الداخل، فاتفق مع العلاء بن مغيث الجذامي الذي كان موجوداً بباجة في جنوب دولة البرتغال اليوم، وغرب الأندلس في العصور الوسطى، فعيَّنه والياً على الأندلس برمتها بموجب مرسوم خلافي أرسله إليه إلى باجة. وقد كان لذلك الإجراء وقعه المؤثر في نفس العلاء بن مغيث، الذي بدأ يدعو الناس في السر للطاعة والولاء للخلافة العباسية، وقد استطاع خلال فترة وجيزة أن يستقطب مجموعة كبيرة من المؤيدين، وبخاصة من العصبية اليمنية، التي كانت قد علقت الآمال الكبار على عبد الرحمن الداخل، لكن شيئاً من هذه الآمال لم يتحقق، على الرغم مما قدمته هذه العصبية له من خدمات جليلة في كافة الميادين، هذه الخدمات التي شكلت عاملاً مساعداً لوصوله إلى سدة الحكم، وكان في طليعة هذه الآمال أن يعطيهم الحرية الكاملة في الانتقام من القيسية، والاعتماد عليهم في كل شؤون الحياة السياسية، فلم يوافق عبد الرحمن الداخل كما هو معروف أن يكون مطية سهلة القياد في أيدي اليمنية، بل دعاهم للانصهار في بوتقة المجتمع الواحد الذي يتساوى الناس فيه في الحقوق والواجبات. وهذا ما دعاهم للوقوف مع العلاء بن مغيث الجذامي علهم يحققون شيئاً من أحلامهم في ظل حكمه في حال فوزه على عبد الرحمن الداخل.

أُعلنت ثورة العلاء بن مغيث الجذامي سنة ١٤٧هـ/٧٦٤م في مدينة باجة، وكان الثوار يحملون الرايات العباسية السوداء. ولم يجد عبد الرحمن مفراً من الدخول معهم في حرب فاصلة حتى لو كلفته حياته، لأنها كانت أخطر

حركة حتى الآن على مستقبل الحكم الأموي في الأندلس. وقد تعثر عبد الرحمن الداخل بادئ الأمر في قرمونة إلى الشرق من إشبيلية، لكنه لم يسمح لهذا التعثر أن يستمر، فقد جمع الكثير من الجنود وأفهمهم أن الأمر لا يحتمل التهاون أو التخاذل، فإما النصر والحياة وإما الهزيمة والموت، وسار في طليعتهم، الأمر الذي أثر فيهم كثيراً، وبخاصة في الإقدام والاندفاع والصبر في ميدان الحرب، وتمكن عبد الرحمن بقواته القليلة، بالمقارنة مع قوات الثائرين، أن يخترق صفوفهم وأن يعمل فيهم القتل، وكان في مقدمة الذين قتلوا قائد الثورة العلاء بن مغيث الجذامي، فأمر عبد الرحمن الداخل باحتزاز رأسه وحشاه بالملح والكافور لحفظه من الفساد والتعفن، ثم وضعه في وعاء ولفه باللواء العباسي، ثم أرسله مع بعض حجاج الأندلس إلى مكة المكرمة، حيث وضع أمام خيمة أبي جعفر المنصور، الذي كان موجوداً هناك لتأدية فريضة الحج، وحينما وقع نظر المنصور على الرأس تألم كثيراً وقال قولته المشهورة: «الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان»، الأمر الذي يستشف منه عدم متابعة المنصور لأمر الأندلس، وهذا ما حدث بالفعل فلم يُعرف أن المنصور قام بعمل شيء لتغيير الوضع القائم في الأندلس. وحينما عاد إلى العراق لم يتمكن من نسيان ظاهرة عبد الرحمن الداخل، الذي أمعن في التحدث من خلال حادثة إرسال رأس العلاء إلى مكة المكرمة، فقد سأل بعض جلسائه إن كانوا يعرفون من صقر قريش من الحكام؟ فأجابوه بأنه المنصور أمير المؤمنين، قال، ما قلتم شيئاً، فذكروا له أسماء أخرى مثل معاوية وعبد الملك بن مروان، قال، ما قلتم شيئاً، قالوا، فمن يا أمير المؤمنين؟ قال: صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر وقطع القفر، ودخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه، فمصَّر الأمصار، وجند الأجناد، ودوّن الدواوين، ونال ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته[1].

---

(١) ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص٩ وما بعدها.

أما الخطر الخارجي الثاني الذي كاد يطيح بحكومة الأمير عبد الرحمن الداخل، فهو الذي جاء من أوروبا من خارج إسبانيا، ومثله على أرض الواقع أشهر حاكم في أوروبا آنذاك وهو شارلمان ملك الفرنجة، الذي كان يلقب بشارل العظيم. وقد كان شارلمان مهتماً بتأمين حدوده الجنوبية وإحياء مشروعه الأوروبي، الذي كان يتمثل في تنشيط الإمبراطورية الأوروبية الغربية. ساعده في تحقيق مشروعه بعض الخونة العرب، الذين كانوا يفضلونه على عبد الرحمن الداخل، وقد كان ذلك تطوراً خطراً في حياة عرب الأندلس في تلك الفترة المبكرة من عمر الدولة الأموية. من بين هؤلاء الخونة يمكن أن نذكر أعظمهم من حيث مرتبته الاجتماعية والسياسية، عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي، وسمي بالصقلبي لأنه كان يشبه الصقالبة من ناحية لون بشرته وشعره، وكذلك سليمان بن يقظان الكلبي الذي كان حاكماً على سرقسطة في شمال شرق الأندلس، ويبدو أنه لم يكن على وفاق مع الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل، ففضل السقوط في مستنقع الخيانة لإسقاط حكومة هذا الأمير.

اتفق هذان الخائنان مع شارلمان على ضرورة أن يدخل بجيوشه من شمال الأندلس، ثم يتوجه إلى سرقسطة، فيسلمها له سليمان بن يقظان، وفي الوقت نفسه يأتي عبد الرحمن بن حبيب الفهري من جهة المغرب في أسطول بحري وقوة عسكرية من المغاربة، ويهاجم الساحل الشرقي الأندلسي، وينزل بقواته بمدينة تدمير (مرسية). وبذلك يكون عبد الرحمن الداخل قد وقع ضمن حصار مطبق.

وبالفعل، فقد نزل عبد الرحمن بن حبيب الفهري بقواته العسكرية على ساحل تدمير (مرسية) قبل أن يصل شارلمان في الوقت المتفق عليه. وهذا ما جعل عبد الرحمن الداخل يسارع في الهجوم على عبد الرحمن بن حبيب الفهري، وهي خطة استخدمها الداخل لمواجهة قادة المؤامرة على حكمه حتى لا يتحدوا ضده في جبهة واحدة، لا يمكن له أن يقف أمامها طويلاً. وهكذا نجح

الداخل في إلحاق هزيمة في صفوف القوات المتآمرة التي يقودها عبد الرحمن الفهري، الذي قتل نتيجة ذلك.

ولم يمض وقت طويل على هذه الهزيمة حتى وصل شارلمان قادماً من فرنسا إلى جبال البرتات قاصداً مدينة سرقسطة، وتقول الروايات إن ذلك كان سنة ١٦١هـ/٨٧٨م، وقد خرج الخائن سليمان بن يقظان لاستقباله خارج سرقسطة، لكن أهل المدينة من العرب شعروا بما يُراد لمدينتهم، فوقفوا موقفاً مشرفاً ترجموا من خلاله رفضهم القاطع لتسليم المدينة لشخص أجنبي هو شارلمان، على الرغم من الحصار الشديد الذي فرضه شارلمان على مدينتهم، ولكن هذا الحصار لم يؤد إلى سقوط المدينة بأيدي قوات شارلمان الغازية، ذلك لأن شارلمان فوجئ وهو في أوج حصاره لسرقسطة، أن القبائل الجرمانية من السكسون، كانت قد استغلت غيابه مع معظم جيشه خارج البلاد فأعلنت ثورة عارمة ضده في ألمانيا، ما اضطره لفك الحصار عن مدينة سرقسطة، والتوجه على وجه السرعة إلى بلاده لضرب ثورة السكسون ضده قبل أن تستفحل وتتفاقم. وحينما وصل شارلمان إلى جبال البيرينيه، تعرضت مؤخرة جيشه التي كان يقودها ابن أخته رولاند إلى هجوم كاسح من السكان المحليين، الذين كانوا يُعرفون باسم البشكنش، وقد تمكن هؤلاء من إبادة هذه المؤخرة برمتها، بما في ذلك القائد رولاند. ويقال إن أبناء سليمان بن يقظان ساعدوا في هذا الهجوم، ويقال أيضاً إن عبد الرحمن الداخل أسهم في هذا الهجوم من خلال تقديم الدعم بالمال والسلاح[١].

ومع مرور الأيام سببت هذه الكارثة التي حلت بمؤخرة جيش شارلمان في ظهور ملحمة تراجيدية، تثير في النفس لواعج الحزن والأسى للكثير من الأوروبيين، وبخاصة في فرنسا، وسميت ملحمة رولاند The song of Roland. وهي إضافة إلى طبيعتها الحزينة فإنها تشكل واحدة من الملاحم الوطنية

---

(١) العذري . ترصيع الأخبار ص٢٥. مؤلف مجهول . أخبار مجموعة ص١١٤.

الأوروبية في العصور الوسطى، التي تجسد بطولة رولاند وتشيد بها على أنها فريدة من نوعها في التاريخ الأوروبي.

وبذلك يكون حكم عبد الرحمن الداخل قد نجا من سقوط كان محتماً لولا عودة شارلمان إلى بلاده على حين غرّة، الأمر الذي جعله يحضر إلى سرقسطة ويفرض سيطرته عليها من جديد سنة ١٦٤هـ/٧٨١م. ومع ذلك فإنه حرص على تحسين علاقته بشارلمان، ذلك لأنه كان يخشى من عودته إلى الأندلس في وقت من الأوقات، وقد كان عبد الرحمن الداخل على حق في ذلك، لأن شارلمان كان من أقوى الحكام في القارة الأوروبية على الإطلاق على المستويات كافة.

بقي أن نشير إلى بعض الحركات الداخلية المتفرقة، التي لم تشكل ذلك الخطر الذي شكلته الحركات سابقة الذكر على الحكم الأموي في الأندلس، من ذلك ما قام به المغاربة في وسط وشمال الأندلس، وهي مناطق حرص العرب المشارقة على حشد المغاربة فيها، ليس لشيء سوى أن عرب المشرق كانوا في هذه الفترة قليلي نظر في ميدان التعامل مع المغاربة على قدم المساواة. فقد أعلن المغاربة في هذه المناطق معارضتهم للحكم الأموي، وكان يقودهم رجل يسمى شقيا بن عبد الواحد المكناسي. وعلى الرغم من أن هذه المعارضة استمرت من سنة ١٥١-١٦٠ هـ/٧٦٨-٧٧٧م، وعلى الرغم من انتصار هذه المعارضة في بعض المواجهات مع عبد الرحمن الداخل، فإنها لم تسفر عن نتيجة إيجابية لصالح المغاربة، وربما كان سبب ذلك أن صاحب هذه الحركة المعارضة، لم يتمكن من استقطاب جميع المغاربة في الأندلس تحت المظلة الفاطمية، التي أعلنها كستار لمواجهة الأمويين في الأندلس، وإذا صحَّ أنها كانت باسم الفاطميين فإنها أول حركة مناوئة للحكم الأموي من هذا القبيل(١).

أما الحركة المعارضة الأخرى فقد جاءت هذه المرة من داخل الأسرة الأموية، التي لم تكن على وفاق على ما يبدو في العديد من المسائل، فقد قام

---

(١) عبد العزيز سالم . تاريخ المسلمين ص٢٠٠.

أحد أولاد أخي عبد الرحمن الداخل واسمه المغيرة بن الوليد بن معاوية، قام بحبك مؤامرة لعزل عمه عن حكم الأندلس سنة ١٦٨هـ/٧٨٥م، لكن هذه المؤامرة اكتشفت في الوقت المناسب وقتل جميع من اشترك فيها[١].

وهكذا فإن عبد الرحمن الداخل أمضى الجزء الأكبر من حياته السياسية في قمع الحركات المناوئة الداخلية والخارجية، ونجح في ذلك إلى حد كبير، ما سمح بتوطيد أركان الحكم الأموي في الأندلس على أسس متينة وثابتة، وقد استمر عبد الرحمن الداخل في الحكم بعد القضاء على آخر مؤامرة إلى سنة ١٧٢هـ/٧٨٩ م.

خلفه في الحكم ابنه هشام الرضا من سنة ١٧٢هـ/٧٨٩م إلى سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م. ولم يكن هشام الرضا هذا أكبر أولاد الأمير عبد الرحمن الداخل، ومع ذلك فقد تسلَّم الحكم بموجب تصرف فاز به دون إخوته الآخرين، وبخاصة سليمان وعبد الله. وخلفية هذا التصرف تتعلق بالتنافس الشديد، الذي كان قائماً بين أولاد عبد الرحمن الداخل، الذي لم يتمكن من وضع حدٍ له في حياته رغم حنكته وبراعته في أمور الحكم والسياسة. وكل ما فعله في هذا الشأن أنه أوصى ابنه عبد الله، أن يعطي خاتم الإمارة لمن يصل أولاً إلى قصر الحكم بقرطبة، وكان يخص بهذه الوصية ابنه هشام، الذي كان معجباً بدينه وقبول الناس بحكمه، وابنه سليمان الذي كان أكبر أولاده، ويتميز بالنجدة والشجاعة واجتماع الشاميين عليه. وحينما توفي عبد الرحمن الداخل كان ابنه هشام موجوداً في مدينة ماردة التي كانت ما تزال قاعدة الثغر الأدنى في الأندلس، وهو أقرب الثغور إلى العاصمة قرطبة، أما ابنه سليمان فقد كان موجوداً في مدينة طليطلة عاصمة الثغر الأوسط في الأندلس، وهي أبعد مسافة من ماردة. وهكذا فقد وصل هشام الرضا إلى قصر الإمارة في قرطبة قبل أخيه سليمان، فتسلم خاتم الإمارة حسب وصية أبيه. ومع ذلك، فلم يوافق سليمان على ما جرى بحسب هذه الوصية، فعاد إلى طليطلة مهزوماً بعد لقاء مع أخيه هشام[٢].

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٨٥.

(٢) ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص١١. ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٩٢.

ورغم ما حلّ بسليمان من هزيمة لم تهدأ الأحوال في الأندلس في عصر هشام الرضا القصير، فقد غادر أخوه عبد الله قرطبة وتوجه إلى طليطلة وانضم إلى سليمان لمتابعة القتال ضد أخيه هشام الرضا. ولا يعرف على وجه الدقة سبب لهذا التحول المفاجئ في موقف عبد الله من أخيه هشام، ذلك أنه كان يفضل السلام على الحرب. ومع ذلك فقد تمكن هشام الرضا من وضع حدٍ لهذا التمرد بعد حصار مدينة طليطلة، وكانت النتيجة أن غادر سليمان الأندلس إلى المغرب ومعه شقيقه عبد الله بعد تزويدهما بأموال كثيرة(١).

وفي سرقسطة وبرشلونة واجه الأمير هشام الرضا بعض التمردات المحلية، التي لم تكن ذات شأن على ما يبدو، فأخمدهما بسهولة وتوجه إلى مواجهة الإسبان في الشمال الغربي من الأندلس في منطقة أشتوريش، التي ستكون قاعدة لأهم دولة إسبانية قادت حركة الاسترداد إلى نهايتها، وهي دولة قشتالة. ثم وصلت قواته إلى جنوبي فرنسا، لكن ذلك لم يسفر عن استقرار عربي في هذه المناطق(٢).

كان الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل من الرجال، الذين امتازوا بالورع والتدين والرغبة في أن يسود السلام في كل أرجاء الأندلس، كبديل إيجابي عن الحرب والقتال. وكثيراً ما شبهه المؤرخون القدماء بالخليفة عمر بن عبد العزيز، الذي كان رائداً في ميدان محبة الناس على أساس من العدالة والمساواة وعدم التفريق بينهم لأي سبب غير الحق. وكان الإمام مالك بن أنس(٣)، معجباً بالأمير هشام بن عبد الرحمن لكثرة ما سمع عن شمائله وخصاله النبيلة، وتمنى من الله أن يقيض لحكومة العباسيين خليفة حلو الشمائل كهشام بن عبد الرحمن، وقد جاءت تمنيات مالك بن أنس من خلال معاناته القاسية مع خلفاء العباسيين وبخاصة من الخليفة أبي جعفر المنصور، الذي لاقى منه عنتاً كبيراً. وهذه الصفات النبيلة التي عكسها الأمير هشام بن عبد الرحمن في تصرفاته العامة، هي التي جعلت الفقهاء

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٩٤.

(٢) مؤلف مجهول . أخبار مجموعة ص١٢١. ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٩٨.

(٣) توفي الإمام مالك بالمدينة المنورة سنة ١٧٩ هـ.

يلقبونه بالرضا، وهو لقب من النادر جداً أن يمنحه الفقهاء لأحد، لأن الفقهاء عبر تاريخهم في العصور الوسطى، لم يعجبوا إلا بالقلائل من الحكام. وكان مصدر إعجابهم، أن هؤلاء الحكام كانوا قد تقربوا منهم أو منحوهم شيئاً من الحرية، التي تجعلهم مجموعة لها مكانتها المعروف في المجتمع.

كان من أهم الأحداث في عصر هشام الرضا، على الرغم من قصره، أن المذهب المالكي أخذ طريقه للانتشار في الأندلس، وحل محل مذهب الأوزاعي إذا صح أن ننسب للأوزاعي مذهباً خاصاً به. وكان انتشار هذا المذهب سريعاً إلى درجة أنه عمّ فيما بعد كل أرجاء الأندلس والمغرب دون أي منافسة من المذاهب الأخرى، باستثناء ما حدث في عصر الأغالبة في المغرب الأدنى، حينما ساد المذهب الحنفي في صفوف مجموعة من الناس، اختفت في العصور اللاحقة وبقي المذهب المالكي سائداً حتى اليوم في كل المغرب الكبير. وقد ساعد على سيادة المذهب المالكي في الأندلس، أن الحجازيين وكذلك الشاميين كانوا يشكلون الغالبية العظمى من السكان، وهم الذين كانوا يكنون الاحترام والتقدير للإمام مالك بن أنس، هذا بالإضافة إلى استقلال الأندلس عن الخلافة العباسية، التي كان المذهب الحنفي هو المعول عليه في الميدان الديني في ظل هذه الخلافة.

ولعل أهم مزية في تاريخ العرب والأندلس في العصور الوسطى، هي سيادة المذهب الواحد في هذه البلاد، الأمر الذي جنبها الكثير من ويلات وسلبيات ومتاعب الخلافات المذهبية، كما حدث في الجزء الشرقي من الوطن العربي الكبير. وربما أن أوروبا تأثرت بهذه المسألة الإيجابية من خلال اعتمادها المذهب الكاثوليكي، التي وقفت تناصره، ولا سيما في ظل الدويلات التي حملت لواء تخليص البلاد من السيطرة العربية في شمال غرب إسبانيا، وفي شمالها، وكذلك في جنوب فرنسا، وهذا ما يساعد على القول إن توحيد المذاهب والاعتقادات الدينية ضمن الديانة الواحدة، هو مهمة وطنية عليا، ذلك لأنها في نهاية المطاف تحصن الوطن وتحميه من كل عوامل الانقسام والاختلاف.

ومن الجدير ذكره في هذا المقام، أن انتشار المذهب المالكي في الأندلس كان على أيدي مجموعة من الفقهاء الأندلسيين، الذين درسوا مذهب الإمام مالك في المدينة المنورة على الإمام نفسه، ثم عادوا إلى بلادهم يحدوهم الأمل في نشر ما تعلموه في كل أرجاء بلادهم، وهذا ما حصل على أرض الواقع، وكان من أهم هؤلاء الفقهاء زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون، ويحيى بن يحيى الليثي الذي لقبه الإمام مالك بعاقل الأندلس[١].

قبل وفاة الأمير هشام الرضا كان قد أعطى ولاية عهده لابنه الحكم، الذي لم يكن أكبر أبنائه، وبالفعل فقد تقلد الحكم من بعده بحسب وصية والده. وكان هذا العمل من أعظم أعمال الأمير هشام الرضا، لأن الحكم الذي عُرف في تاريخ الأندلس بالحكم الربضي كان من أعظم أمراء بني أمية في الأندلس، لشجاعته وإقدامه وحرصه على إخضاع الجميع لسلطة الدولة دون أي حسابات أخرى.

واجه هذا الأمير العديد من المشكلات الداخلية، على الرغم من صفات الحزم والبأس والقوة والعزيمة التي اشتهر بها، التي جعلت الكثيرين من المؤرخين يشبهونه بالخليفة العباسي المنصور، الذي لم يكن يهتم إلا بتمكين أواصر دولته، فقضى على كل الفتن والمعارضات التي واجهت حكمه.

حكم الأمير الحكم الربضي الأندلس بكل اقتدار وقوة في الفترة الممتدة من سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م إلى سنة ٢٠٦هـ/٨٢٢م، وهي فترة طويلة إلى حدٍ ما في تاريخ الحكم. وقد اصطدم في بداية أمره بمعارضة أعمامه سليمان وعبدالله على غرار ما حدث لجده وأبيه، فقد كان عمه سليمان حينما أصبح أميراً على الأندلس موجوداً في مدينة طنجة بشمال غرب المغرب الأقصى، وكان عمه عبد الله موجوداً في المغرب الأوسط (الجزائر). وحينما علما بموت أخيهما هشام الرضا تحركا ضد الأمير الحكم الربضي بهدف إقصائه عن حكم الأندلس، وكان سليمان أول من تحرك في هذا الاتجاه، لكنه لم يوفق، وكان القتل مصيره بالقرب من مدينة ماردة سنة ١٨٤هـ/٨٠١م[٢].

---

(١) المقري . نفح الطيب ج٢ ص٢١٧.

(٢) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص١٠٥.

أما عمه عبد الله فقد حاول هو الآخر، أن يجرب حظه على طريق الوصول إلى الحكم، لكنه لم يجد سوى المزيد من الفشل والتعثر، ما جعله يوافق على عقد صلح مع ابن أخيه الحكم الربضي، الذي منحه العفو بعد أن فرض عليه إقامة جبرية بمدينة بلنسية، وعيّن له راتباً شهرياً قيل إنه كان ألف دينار، فأصبح معروفاً بالبلنسي[١]. لكن الذي أقلق الحكم الربضي بشكل فعلي، هي الحركات المعارضة التي نفذها المولدون ضده في مدينتي طليطلة وقرطبة. والمولدون هم مجموعة من الإسبان دخلوا الإسلام منذ وصول العرب إلى الأندلس، وسمي الجيل الأول منهم (مسالمة) أما الجيل الذي جاء بعد المسالمة والأجيال التالية، فقد أُطلق عليهم اسم (المولدين). وقد شكلوا مع الأيام قوة كبيرة في المجتمع العربي في الأندلس، فقد كان منهم التجار والحرفيون والمزارعون وبعض الفقهاء. وعلى الرغم من اعتناقهم الإسلام فقد بقي العرب ينظرون إليهم نظرة لا تساوي تلك النظرة، التي توجه لغيرهم من العرب، فقد حرموا من نصيبهم المستحق من ثروات البلاد ووظائفها المهمة، التي بقيت من حق الطبقة العربية المتحكمة بمقدرات البلاد برمتها.

كانت هذه الحالة في أوج قمتها، حينما وصل الحكم الربضي إلى حكم الأندلس، فلم يلتفت إلى أحوال هذه الطبقة المتفاقمة، ولم يلتفت في الوقت نفسه إلى مشاورة رجال الدين كما حصل في زمن والده الأمير هشام الرضا، لأنه كان من طينة مختلفة عن طينة والده، ففي حين كان والده رجلاً متديناً إلى أبعد الحدود، كان هو رجلاً مرحاً مولعاً بأعمال الصيد والغناء والاستماع إلى المغنيات والشعراء وما إلى ذلك، وهي أشياء ألصقها فيه المؤرخون للإساءة إلى شخصه، مع أن واقع الحال كان غير ذلك، فمعظم المصادر تذكره بأنه من الرجال المرموقين في ميدان الحكم في الأندلس، ولعل من أهم الأشياء التي تميزه في هذا المجال، أنه أبعد رجال الدين عن التدخل في شؤون الحكم، وجعلهم في حدود وظيفتهم الرئيسة، وهي العمل في المساجد في الصلوات

(١) المقري . نفح الطيب ص٣١٧. عبد العزيز سالم . تاريخ المسلمين وآثارهم ص٢٢٠.

والوعظ للخير وما يتصل بذلك، وكان يعرف تمام المعرفة أنهم ما تدخلوا في حكم إلا جعلوه حكماً هزيلاً، وهو الشيء الذي حدث لحكم والده هشام الرضا، الذي ضعفت في عصره الهمم في كل الميادين.

لكن هذا العمل لم يمر في تاريخ الحكم الربضي مروراً طبيعياً، فقد حقد عليه رجال الدين حقدهم على كل من يقف في مواجهتهم كطبقة تهوى السيطرة المطلقة على المجتمع، من خلال استغلال الدين كعنصر حساس في حياة الناس، وبدؤوا في تأليب الناس ضد حكمه، وصوروه للناس تصويراً غير واقعي، فقد اتهموه، كعادتهم، بالمجون واللهو والفسق وعدم الصلاحية لحكم المسلمين على الإطلاق، وحرضوا بشكل خاص على عزله من الحكم. وحرصوا منذ البداية أن تكون الدعاية ضده في صفوف المولدين، الذين وجدوا فيها محرضاً لعواطفهم ضد الحكم الربضي، الذي كان يمثل الحكم الأموي، الذي ظلم هؤلاء المولدين في ظله، فقاموا بتأثير ذلك بثورتين عارمتين.

كانت الثورة الأولى في مدينة طليطلة قاعدة الثغر الأوسط، التي كانت الغالبية العظمى من سكانها من المولدين والمستعربين الإسبان، الذين كانوا يقصدون من وراء كل حركة، أن يحصلوا على استقلالهم عن السلطة العربية، وليس الحصول على حقوق أو مكاسب معينة، ومن هنا تأتي خطورة ما فعله رجال الدين، حينما وقفوا إلى جانب هؤلاء يحرضونهم على الشرعية العربية، التي مثلت على الدوام المدافع الصادق عن الدين الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبرية في العصور الوسطى. ومن هنا، يتبين أيضاً أن رجال الدين لم يكن هدفهم تعزيز مكانة الدين الإسلامي، بقدر ما كانوا يسعون لتعزيز مكانتهم في بلاط الحكم الأموي من أجل تحقيق مصالحهم الدنيوية الخاصة.

اعتصم الثوار بمدينة طليطلة التي كانت تتميز بمناعة أسوارها ودفاعاتها العامة، الأمر الذي ساعدهم على الصمود في مواجهة الحصار الأموي، الذي لم يتمكن من النيل من الثوار إلا بالخديعة والمكر والحيلة. فقد قام الحكم الربضي بتعيين أحد المولدين المخلصين له على طليطلة، وهو عمروس بن يوسف، واتفق

معه على إظهار الكراهية للحكم الأموي، وأن يدعو بعد حين أكابر طليطلة من قادة الثورة إلى وليمة تكريمية في قلعة خارج طليطلة كان قد بناها لإقامة الجند، وحينما حضر هؤلاء أمر بقطع رؤوسهم جميعاً، وأمر بحفر حفرة كبيرة ألقى فيها كل جثث المقتولين، الأمر الذي أثر على مجريات الثورة المولدية في طليطلة، ولم تطل الأيام حتى سقطت المدينة تحت السيطرة الأموية. وقد سميت هذه الموقعة بموقعة الحفرة، التي حدثت سنة ١٨١هـ/٧٩٧م(١).

أما الثورة الثانية التي قام بها المولدون فقد جرت وقائعها في مدينة قرطبة العاصمة، وكانت أشد خطورة من كل الثورات والمعارضات التي واجهت الحكم الأموي في عصر الحكم الربضي، وهي التي عُرفت في التاريخ العربي في الأندلس بثورة الربض. والربض كمصطلح يعني الحي أو الضاحية في عُرف أهل المشرق، وهو الحي الجنوبي من مدينة قرطبة، الذي كانت تسكنه مجموعة كبيرة من المولدين، الذين كانوا يعملون في حرف مختلفة، وقد رُبط هذا الحي بمدينة قرطبة عبر جسر قديم أو قنطرة، كما تسمى في مصطلح أهل الأندلس والمغرب، على الوادي الكبير، منذ عصر الولاة في الأندلس، وبالتحديد منذ ولاية السمح بن مالك الخولاني المتوفى سنة ١٠٢هـ/٧٢١م. ويقال إن هذا الجسر لا يزال موجوداً حتى اليوم، كواحد من أهم الآثار العربية العمرانية الحيوية في الأندلس.

كان السبب غير المباشر لهذه الثورة الخطرة، كما ذكرنا، هو سوء أوضاع المولدين، وبخاصة عدم مساواتهم بالعرب في الحقوق والواجبات، وهو أمر استغله الفقهاء لضرب حكم الأمير الحكم الربضي، فحرضوا هذه الطبقة على الثورة والاستقلال، ونجحوا في إشعال نار الحقد على الحكم الأموي بصورة عامة. أما السبب المباشر لهذه الثورة فقد تجسد في إقدام أحد الجنود التابعين للحكم الربضي على قتل أحد الحدادين بحي الربض الجنوبي بحجة عدم إصلاح سيفه في الوقت المناسب، وكان هذا الحداد لسوء الحظ من المولدين، الذين هبوا برمتهم ضد الحكم

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص١١١ وما بعدها. ابن القوطية . تاريخ افتتاح الأندلس ص٤٦. مؤلف مجهول . أخبار مجموعة ص١٣٠.

الأموي، فقتلوا الجندي وأغلقوا حوانيتهم كلّها، وتوجهوا إلى مقر الأمير الأموي الحكم الربضي في قرطبة، وألقوا عليه الحصار، ذلك لأنهم حملوا مسؤولية ما حصل للأمير الربضي، الذي كان هدفاً رئيساً من أهداف الثورة.

تعامل الحكم الربضي مع الثائرين بحكمة وهدوء ورباطة جأش، وصمم على مواجهتهم بكل الوسائل الناجعة، فقام بتهيئة وسائل دفاعية عن القصر الأميري، وفي الوقت نفسه كلف ابن عمه عبيد الله البلنسي صاحب الصوائف بمهاجمة عائلات الثائرين وأملاكهم الخاصة بحي الربض، وتمكن جنود الحكم الربضي من الوصول إلى الحي المذكور، وكان لوصولهم أثره الفعال على صمود الثوار، هذا الصمود الذي انهار مباشرة، وبخاصة من حول القصر الأميري، لأن الثوار خافوا على نسائهم وأولادهم وأملاكهم، فتركوا القصر وعادوا إلى حيهم، ما ساعد الأمير على ملاحقة الثوار والإطباق عليهم من كل الجهات، فقتل الكثيرين منهم دون رحمة أو شفقة، وكانت هذه الحادثة من أقسى ما حدث في عصر الإمارة الأموية في الأندلس في ميدان قمع الحركات المعارضة، لأن الأمر لم يقتصر على القتل فحسب، بل شمل ذلك تهديم الحي برمته، وطرد من نجا من أهله من الأندلس، فتوجه قسم منهم إلى المغرب الأقصى، وسكن في الحي القديم الذي كان قد بني في البداية في مدينة فاس، وسمي منذ ذلك الحين بحي الأندلسيين الذي ما يزال يحمل الاسم نفسه حتى اليوم. وقيل إن إدريس الثاني الذي أكمل بناء مدينة فاس في المغرب الأقصى، هو الذي شجع الأندلسيين الربضيين على السكن في مدينته، وقد عملوا في حقول الزراعة والصناعة[١].

وتوجه قسم آخر من الربضيين المهجرين إلى مدينة الإسكندرية، فنزلوا في أطرافها في بداية أمرهم، ثم استولوا عليها فيما بعد مستفيدين من حالة الخلاف المتفاقمة فيها في تلك الفترة، وساعدهم على ذلك أعراب منطقة البحيرة، وأعلنوا استقلالهم عن السلطة العباسية، التي كان يمثلها الخليفة المأمون، واستمرت سيطرتهم على هذه المدينة من سنة ٢٠٢هـ/٨١٨م حتى سنة

(١) البكري . المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص١٥٥.

٢١٢هـ/٨٢٨م، حينما أمر الخليفة المأمون قائده عبد الله بن طاهر وضع حدٍ لهؤلاء الأندلسيين وإعادة مدينة الإسكندرية إلى السيطرة العباسية كما كانت. وحينما وصل إلى الإسكندرية لم يجد صعوبة في حل هذه المسألة، وكان ذلك من خلال الاتفاق السلمي مع الأندلسيين على مغادرة مصر برمتها، وبالفعل فقد توجهوا إلى جزيرة كريت، واستولوا عليها رغم قوة السلطة البيزنطية التي كانت هذه الجزيرة تخضع لها[١].

ومع مرور الأيام تحولت هذه الجزيرة إلى قاعدة عربية مهمة، بعد أن كانت قاعدة بيزنطية لها أهميتها الكبيرة عند البيزنطيين في الغرب. وشكلت دعماً قوياً للعرب في المغرب والأندلس في مواجهة النشاط البيزنطي في غرب البحر المتوسط، إذ أصبح لها أسطولها الخاص بها، الذي غدا عقبة في سبيل حرية تحرك الأسطول البيزنطي التجاري والحربي في المنطقة، ولكن البيزنطيين لم يسكتوا على هذا التطور في جزيرة كريت، فقد ظلوا يهاجمونها حتى تمكنوا من استعادتها سنة ٣٥٠هـ/٩٣٢م[٢].

ونسبة إلى موقعة الربض هذه، سمّي الحكم بن هشام بالحكم الربضي. وقد كانت هذه الموقعة درساً كبيراً لرجال الدين، حيث لم يتحركوا طوال عصر الإمارة الأموية في الأندلس. وبالقضاء على هذه الثورة يكون الحكم الربضي، قد أعاد إلى البلاد استقرارها العام كما فعل جده عبد الرحمن الداخل من قبله، حينما لم يسمح لأحد بالتسلط على الآخر إلا بما تسمح به القوانين الناظمة للدولة. وقد توفي الحكم الربضي سنة ٢٠٦هـ/٨٢٢م تاركاً لخلفه دولة وطيدة الأركان، تنعم بالهدوء والأمان والسلام.

تولى حكم الأندلس بعد الأمير الحكم الربضي ابنه عبد الرحمن، الذي عرف بعبد الرحمن الثاني، وبعبد الرحمن الأوسط، لأنه ثاني ثلاثة سمُّوا بهذا الاسم. كان

---

(١) Vasiliev - History of the Byzentine Empire-P. 278.

(٢) عبد العزيز سالم. تاريخ الإسكندرية في العصر الإسلامي، طبعة إسكندرية ١٩٦١ ص٥٢.

عصره طويلاً إلى حدٍ ما، بدأ سنة ٢٠٦هـ/٨٢٢م وانتهى سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م. وكان هذا العصر من أهم العصور في دولة الإمارة الأموية في الأندلس، ذلك لأنه شهد حالة ازدهار وتطور في الميدانين الحضاري والعلمي، كما حدثت فيه بعض الأحداث الحربية المهمة وكذلك السياسية.

واجهت هذا الأمير مشكلات داخلية وخارجية، كما حدث للذين جاؤوا من قبله، وكانت أهم هذه المشكلات تلك التي جاءت من الخارج، التي مثلها هذه المرة النورمانديون، الذين يعودون في أصولهم إلى الدانمارك الحالية وبعض المناطق المجاورة، وهذا ما يظهر في تسميتهم الأصلية بالإنكليزية وهي NORSEMEN أو بالإسبانية وهي NORMANDOS أي سكان الشمال، أو كما يسمون الآن سكان الدول الإسكندنافية. وقد سماهم الأندلسيون (المجوس) لا لأنهم من أتباع الديانة الزردشتية، بل لأنهم كانوا يشعلون النيران في أماكن توضعهم أو إقامتهم، الأمر الذي أوحى للعرب في الأندلس أنهم يعبدون النار كالمجوس أو أتباع الديانة الزردشتية. ويسمون كذلك الفايكنغ Vikingos وهي مشتقة من الكلمة النرويجية Vik، التي تعني سكان الخليج، وهي تسمية تنطبق على كل سكان الدول الإسكندنافية لكثرة ما يوجد فيها من الخلجان، وسكان هذه المنطقة هم بشكل رئيسي، الدانماركيون والسويديون والنرويجيون، والدانماركيون هم الذين هاجموا الأندلس بشكل خاص في فترة الإمارة الأموية، والمغرب بعد ذلك.

كان أول ظهور للنورمانديين على شواطئ الأندلس سنة ٢٢٩هـ/٨٤٤م، في وقت لم يكن فيه الأسطول الأندلسي البحري على درجة كبيرة من القوة والاستعداد والخبرة، الأمر الذي ساعد النورمانديين على البدء بهجومهم على سواحل الأندلس، لكنهم كانوا يبتعدون عن الأماكن التي توجد فيها وسائل دفاع قوية، ويفضلون الهجوم على الأماكن المكشوفة التي تفتقر إلى وسائل الدفاع، لذلك نراهم يركزون أول هجماتهم على السواحل الغربية للأندلس، فقد تمكنوا من احتلال مدينة قادس ثم مدينة إشبيلية على الوادي الكبير فنهبوها وخربوها، وقد واجه عبد الرحمن الأوسط هذه المحنة بإرسال ما لديه من قوات بحرية، تمكنت على ضعفها من إخراجهم من هذه

المدينة[١] فلجؤوا إلى لبلة فتبعتهم القوات البحرية الأندلسية. وفي طلياطة الواقعة بين لبلة وإشبيلية، جرت معركة قاسية بين الطرفين، هزم النورمانديون في نهايتها، ووقع العديد منهم في الأسر، فخيروا بين الدخول في الإسلام أو القتل، فاختاروا الإسلام واختلطوا بعرب الأندلس، وبدؤوا منذ ذلك الحين يشتغلون في تربية الأبقار والأغنام وصناعة الأجبان والألبان على غرار ما يفعل الدانماركيون في الوقت الحاضر.

على الرغم من الانتصار الذي تحقق على النورمانديين، فإن وصولهم بهذه السهولة إلى الشواطئ الأندلسية واحتلال المدن المجاورة كقادس ولبلة وإشبيلية، ترك آثاراً سلبية في نفوس الأندلسيين، وكانت سبباً كبيراً في تنبيه الحكومة الأندلسية بقيادة الأمير عبد الرحمن الأوسط، إلى ضرورة التركيز على تطوير الأسطول البحري بشكل جذري، بحيث يصبح قادراً في كل الأوقات على التصدي لأي عدوان خارجي. وبالفعل فقد بادر عبد الرحمن الأوسط بالتحرك فوراً في هذا الاتجاه المهم، فأمر بتسوير إشبيلية بأسوار حجرية عالية، وأحدث في مينائها دار صناعة كبيرة للسفن من كل الأنواع، وشحنها بالقوات البحرية المدربة والمسلحة بكل أسلحة البحر في ذلك الزمان، كما أمر بإقامة العديد من الرباطات والمحارس على طول الساحل الغربي، وهو المطل على المحيط الأطلسي، وهو أمر لم يكن معروفاً في الأندلس إلا على الساحل الشرقي المطل على البحر المتوسط. وكانت الحراسة تتم في الرباطات من خلال مراقب عالية ملحقة بكل رباط من هذه الرباطات، تمكن المراقبين من كشف أي تحرك بحري معاد من مسافة بعيدة. وكانت هذه المراقب التي تشبه المراصد الحالية، تزود بالمناور أو الطوالع، وهي أمكنة لإشعال النار للدلالة على ظهور عدو مقبل في عرض البحر في أثناء الليل، أما في النهار فكانوا يثيرون الدخان. يضاف إلى ذلك أنهم كانوا يستخدمون الطبول أو النفير لتحذير السكان في المدن المجاورة من غارة معادية وشيكة الحدوث. وبذلك يمكن القول، إن عبد الرحمن الأوسط هو الذي وضع الأسس الحقيقية للأسطول العربي في الأندلس[٢].

---

(١) العذري . ترصيع الأخبار ص١٠٠.

(٢) أحمد مختار العبادي . المرجع السابق ص١٣٩ وما بعدها.

أما المشكلات الداخلية التي واجهت الأمير عبد الرحمن الأوسط، فقد كانت سهلة بالقياس إلى المشكلات الخارجية التي تمثلت بهجوم النورمانديين على السواحل الأندلسية في الغرب. فقد تصدى في هذا الميدان لمعارض هو عم أبيه عبد الله البلنسي، الذي كان يحلم أن يصبح حاكماً على الأندلس، ووصل من اجل ذلك إلى قرطبة سنة ٢٠٨هـ/٨٢٤م، لكن عبد الرحمن الأوسط تمكن من دفعه عن قرطبة فعاد إلى بلنسية وتوفي فيها في السنة نفسها. وبذلك انتهت هذه الحركة المعارضة دون أي صعوبات(١).

كذلك قمع الأمير عبد الرحمن الأوسط فتنة قبلية، استعرت بقوة بين القيسية واليمنية على مدى سبع سنوات متتالية، بدأت سنة ٢٠٧هـ/٨٢٣م وانتهت سنة ٢١٣هـ/٨٢٩م في مدينة تدمير، وعلى إثر ذلك أمر بهدم المدينة وبناء مدينة جديدة على أنقاضها دعاها مرسية، التي ما تزال قائمة حتى اليوم(٢).

أضف إلى ذلك أنه قمع ثورة قام بها المغاربة، وساعدهم المسيحيون الأندلسيون والفرنجة بالعتاد والمال، واستمرت هذه الثورة عدة سنوات حتى تمكن الأمير عبد الرحمن الأوسط من إطفاء نارها، وتصدى لثورة أخرى في طليطلة سنة ٢١٤هـ/٨٣٠م، وقادها هاشم الضراب الذي قتل في أثناء المواجهات مع قائد الثغر محمد بن رستم(٣).

واجه الأمير عبد الرحمن الأوسط إضافة إلى هذه المعارضات الفاشلة فتنة خطيرة، كانت ستسبب الكثير من المتاعب للحكم الأموي فيما لو استمرت، وهي تلك الفتنة التي تسبب بها عدد من المترفين من طبقة المستعربين. والمستعربون هم مجموعة من الإسبان، بقي جميع أفرادها على دينهم المسيحي ولكنهم تأثروا بمعطيات الثقافة العربية تأثراً بالغاً إلى درجة، جعلتهم لا يلتفتون

---

(١) عبد العزيز سالم. تاريخ المسلمين وآثارهم ص٢٣٠.

(٢) الحميري. الروض المعطار ص١٨١.

(٣) ابن عذاري. البيان المغرب ج٢ ص١٢٦. المقري. نفح الطيب ج١ ص٣٢٥.

إلى الثقافة اللاتينية، وبقيت هذه المجموعة هادئة إلى حدٍ كبير طوال فترة الوجود العربي في الأندلس، لأنها لقيت تسامحاً كبيراً من الحكام العرب في الأندلس، وشغل عدد من أفرادها مناصب رفيعة المستوى في القصر والجيش والإدارة العامة، وأقدم عدد آخر على التعمق في دراسة العلوم العربية على مختلف فروعها، وتفوق بعضهم على العرب أصحاب هذه العلوم، ومن ذلك جاءت تسمية أفراد هذه المجموعة بالمستعربين.

أدت هذه الحالة في عهد عبد الرحمن الأوسط كما ذكرنا إلى فتنة، أثارها رجال الدين المسيحيون، الذين وجدوا في مسألة انتشار الثقافة العربية بين الإسبان المستعربين وغيرهم أمراً خطيراً للغاية، ذلك لأن هذا الانتشار سيؤدي في نهاية الأمر إلى زوال الثقافة اللاتينية، فبادروا إلى دعوة الشباب الإسباني لترك الثقافة العربية والتمسك باللغة اللاتينية لأنها لغة الكتاب المقدس وبثقافتها.

قاد هذه الفتنة راهب عُرف باسم إيلوخيو، وحاول بشتى الوسائل أن يقنع الشباب المسيحي بالعزوف عن الثقافة العربية والتركيز على اللاتينية، لكن كل جهوده آلت إلى الفشل. وتطور الأمر بعد ذلك إلى إعلان الهجوم على الدين الإسلامي نفسه، الأمر الذي أعجب مجموعة من المتعصبين من الشبان والنساء والرهبان، كانوا قد اقتنعوا من خلال دعاية قام بها رجال الدين في صفوفهم، بأنهم سيكونون في عداد الشهداء إذا ما قتلوا في سبيل هذه المسألة، وسميت هذه الحركة تبعاً لهذا المفهوم بحركة الاستشهاد. وكانت تعتمد في نشاطها على شتم معتقدات المسلمين والتقليل من شأن الرسول، وما إلى ذلك من أمور وأباطيل لا تمت إلى الحقيقة بصلة، ولهذا دعا العرب المسلمون هذه الحركة بحركة الاستخفاف. وقد بدأت هذه الحركة التي كانت في حقيقتها المخفية حركة سياسية قومية، أرادت التحرر من السيطرة العربية تحت غطاء ديني، بدأت سنة ٢٣٥هـ/٨٥٠م بإقدام شخص اسمه برفكتو على شتم الرسول علناً، فحكم عليه بالإعدام، فاستغل الراهب إيلوخيو زعيم هذه الحركة هذا الحادث، وقام بتوسيع نطاق دعايته ضد الإسلام والمسلمين، وكان لهذه الدعاية وقعها المؤثر في كل أنحاء الأندلس، ما شجع أحد

الرهبان المتعصبين على الإقدام على شتم الرسول (ص)، فحكم عليه بالإعدام، وخفف القاضي الحكم بحجة أنه مجنون، لكن عبد الرحمن الأوسط أصر على تنفيذ حكم الإعدام، ذلك لأنه رأى في التهاون مع أصحاب هذه الحالات تشجيعاً لاستمرار الفتنة وتوسيعها.

وفي سنة ٢٣٧هـ/٨٥٢م اجتمع الأمير عبد الرحمن الأوسط مع مجموعة من أساقفة قرطبة بزعامة المطران ريكافريدو، وفي هذا الاجتماع، اتفق الطرفان على ضرورة استنكار هذه الحركة نهائياً، وكذلك ضرورة الوقوف في صف واحد لمحاربتها وبترها في بدايتها، ذلك لأنها لم تكن في أي حال من الأحوال إلا ضرباً من الجنون والخروج على التعاليم المسيحية العامة. لكن الراهب إيلوخيو الذي حضر الاجتماع وصف موافقة المسيحيين على محاربة هذه الحركة، أنها نتيجة خوفهم وحرصهم على الهدوء. ومع ذلك فإن أمر هذه الفتنة لم يهدأ كلية، فعلى إثر ذلك قامت مجموعة من المتطرفين المسيحيين باقتحام مسجد قرطبة، وأخذوا يشتمون الإسلام فاعتقلوا وحكم عليهم بالموت سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م، ومات عبد الرحمن الأوسط بعد ذلك بقليل فقالوا إن ذلك انتقام إلهي لهؤلاء. وفي عصر ابنه محمد بن عبد الرحمن عاد الراهب إيلوخيو إلى نشاطه في إحياء هذه الحركة وإثارة الفتنة من جديد، فأمر محمد بن عبد الرحمن باعتقاله وقتله سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م فهدأت الأحوال بعد ذلك(١).

وفي عصر عبد الرحمن الأوسط نشأت لأول مرة علاقات دبلوماسية مع الدولة البيزنطية، على الرغم من تهديد جهات عربية أخرى مصالحها وممتلكاتها في غرب البحر الأبيض المتوسط ، وهي الدولة الأغلبية التي كانت تحكم منطقة تونس الحالية، التي تمكنت من دخول جزيرة صقلية وبعض المناطق المهمة شرق إيطاليا وجنوبها، وكذلك المجموعة الأندلسية من الربضيين، الذين سيطروا على جزيرة كريت لفترة زمنية طويلة، كانوا إبَّانها يشكلون خطراً على مناطق بيزنطية أخرى مجاورة، وأيضاً الدولة العباسية التي كان خلفاؤها في

(١) أحمد مختار العبادي . المرجع السابق ص١٤٦ وما بعدها.

العصر العباسي الأول، يحرصون على إرسال صوائف سنوية لكبح جماح البيزنطيين في الثغور الشمالية.

تمت هذه العلاقات في عصر الإمبراطور البيزنطي تيوفيل على الرغم من أنه كان يحمل في نفسه أحقاداً كبيرة ضد العرب، وكان يتحين الفرصة المناسبة للانقضاض عليهم، كما حصل في هجومه الوحشي على زبطرة في عصر المعتصم كما هو معروف، الذي استطاع أن يرد على تيوفيل في الوقت المناسب، حينما وصل إلى عمورية التي كانت تعد من أهم المعاقل البيزنطية، وفي هذه المنطقة أحرز انتصاراً كبيراً على قوات تيوفيل، الأمر الذي جعل تيوفيل يبحث عن أصدقاء أو حلفاء جدد، علهم يقفون معه في مواجهة خطر العباسيين على بلاده، فاستغل حالة العداء التي كانت سائدة بين العباسيين في المشرق وأمويي الأندلس.

ومن أجل ذلك قام تيوفيل بإرسال أول سفارة له إلى قرطبة سنة ٢٢٥هـ/٨٤٠م، وقد حملت هذه السفارة إلى الأمير الأندلسي عبد الرحمن الأوسط العديد من الهدايا النفيسة، كما حملت إليه رسالة تضمنت، كما قيل، الكثير من عبارات الود والإعجاب، وكذلك حملت طلباً بإقامة علاقة دائمة في كل الميادين، يمكن من خلالها الوقوف بقوة ضد العباسيين والأغالبة والأندلسيين في جزيرة كريت. واستقبلت هذه السفارة بقرطبة استقبالاً طيباً. وقام عبد الرحمن الأوسط بإرسال سفارة مماثلة إلى عاصمة الدولة البيزنطية، رأسها يحيى الغزال الذي اشتهر في ميدان السفارة، وقد استقبلها البيزنطيون بكل الحفاوة والترحيب، ومع ذلك فإن هذه السفارة وقبلها السفارة البيزنطية إلى قرطبة، لم ينتج عنهما أي تقارب فعلي بين الطرفين يمكن أن يكون أساساً للوقوف ضد العباسيين والأغالبة والأندلسيين في جزيرة كريت، وكل ما حصل جراء ذلك، هو أن الأمويين في الأندلس أظهروا حقدهم على العباسيين وعلى الأندلسيين في جزيرة كريت، وأيدوا الأغالبة بقوة لأنهم كانوا في حالة جهاد ضد أعداء العرب(١).

---

(١) ابن حيان . المقتبس . القسم الخاص بعصر عبد الرحمن الأوسط.

بعد وفاة الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط، دخلت الأندلس مرحلة صعبة في حياتها بعد فترة قرن من الزمن، كانت تتمتع فيه بقسط كبير من الهدوء والقوة والوحدة. وقد تمثلت صعوبة هذه المرحلة بظهور الاضطرابات وعدم الاستقرار وحدوث شرخ كبير في وحدة البلاد بشكل عام. لقد حدث ذلك نتيجة ضعف كبير في سلطة الحكومة القرطبية، التي مثلها في تلك الفترة التي امتدت من سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م حتى سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م ثلاثة أمراء هم:

- محمد بن عبد الرحمن الذي حكم من سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م إلى سنة ٢٧٣هـ/٨٨٦م.
- المنذر بن محمد الذي حكم من سنة ٢٧٣هـ/٨٨٦م حتى سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م.
- عبد الله بن محمد الذي حكم من سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م حتى سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م.

إن الذي جعل الأمور في هذه الفترة تسير باتجاه مغاير لإرادة الأمويين السياسية، أن سكان الأندلس لم يكونوا متجانسين أو متفقين على مبادئ معينة، ذلك لأنهم كانوا من شعوب وأجناس مختلفة في العرق والدين واللغة والهدف، وهو أمر لم تتمكن الإمارة في أوج قوتها في عصر الأمير المؤسس عبد الرحمن الداخل وابنه هشام الرضا، وفي عصر الحكم الربضي وابنه عبد الرحمن الأوسط، أن تفعل معه شيئاً، وبخاصة على صعيد تحقيق شيء من التجانس بين هذه العناصر المختلفة. لقد كان الإسبان يمثلون الأكثرية من سكان البلاد، وكانوا على قسمين كما ذكرنا، المولدون الذين اعتنقوا الإسلام، والمستعربون الذين بقوا على دينهم وتأثروا بثقافة الفاتحين العرب. أما العرب، رغم أنهم كانوا يتولون حكم الأندلس، فقد كانوا أقلية من حيث الكم، ورغم ذلك فإن خلافات شديدة كانت تمزق حياتهم الوحدوية، وهذه الخلافات جاءت نتيجة عداء قبلي قديم، وبخاصة بين العرب الذين جاؤوا من المشرق. وأيضاً، فقد كان جزء من هذه الخلافات بسبب عدم التجانس بين العرب المغاربة والمشارقة، على الرغم من أن المغاربة كانوا أكثر عدداً من المشارقة.

أما العنصر الآخر فقد تمثل بسكان المناطق الشمالية والشمالية الغربية، فقد كان معظم هؤلاء من الإسبان، الذين لم يقبلوا أو يسلموا بوجود العرب في إسبانيا، هذا بالإضافة إلى البشكنش سكان البيرنيه أو المنطقة الجبلية الشمالية.

هذه المجموعات البشرية غير المتجانسة، كانت تحتاج على الدوام إلى حكومة عربية قوية، تستطيع أن توفر لها عوامل الاستقرار بكل أشكالها، لأن وجود أي حكومة عربية ضعيفة، سيؤدي إلى اختلاف هذه المجموعات البشرية مع بعضها بعضاً ومن ثمَّ محاولة الاستقلال عن المركز، مستغلة من أجل ذلك الطبيعة الجغرافية المساعدة في بعض مناطق الأندلس. وهذا ما حصل بالفعل في عصر الأمراء الثلاثة سابقي الذكر، الذين لم يتمكنوا من الاستمرار في حكم الأندلس وكما كان الأمر في عصر آبائهم وأجدادهم، وبخاصة عدم السماح بقيام كيانات مستقلة أو شبه مستقلة عن حكومة المركز في قرطبة. نذكر من هذه الكيانات التي ظهرت في هذه الفترة، التي تمكَّن المولدون من الاستقلال بها إلى حدٍ ما: دويلة بني قسي في منطقة الثغر الأعلى أي في سرقسطة وما جاورها في شمال شرق الأندلس، ودويلة بني الجليقي في الثغر الأدنى ببطليوس في غرب الأندلس، وتجمع بني حفصون الذي أسسه الزعيم المولدي عمر بن حفصون في جبال سييرا نيفادا في جنوب الأندلس، أي في المنطقة المحصورة بين رندة في غرب الأندلس وبين مالقة بشرقها، واتخذ هذا التجمع قاعدة له حصن ببشتر الحصين. كذلك فإن المغاربة استقلوا عن دولة المركز ببعض المناطق، نذكر منها: طليطلة التي كانت قاعدة للثغر الأوسط، الذي يؤدي إلى مناطق الشمال الغربي، وبخاصة إلى جليقية وقشتالة، التي تعرف بمنطقة القلاع، وكانت الزعامة في هذه المنطقة لبني ذي النون، واستقل بنو الملاح المغاربة أيضاً بمنطقة جيان.

وقد دبت هذه الروح الاستقلالية السلبية في صفوف العرب، الذين كانوا يمثلون القيادة في الأندلس، فقد استقل بنو الحجاج بإشبيلية، وكوَّنوا لأنفسهم حكومة، حاولت أن تقف على قدم المساواة إلى جانب حكومة قرطبة، وأن تباريها في الميادين كافة. وكذلك استقل بغرناطة سعيد بن جودي السعدي. ومما

ساعد على عملية الاستقلال هذه، وجود مناطق غاية في المناعة والقوة، وأن زعماء الاستقلال في هذه المناطق، كانوا لا يحبون الخضوع لسلطة قرطبة المركزية، وأن الإسبان المعارضين للحكومة العربية، حاولوا تفريق الصفوف في الجبهة العربية قدر ما يستطيعون، لأن في ذلك تحقيقاً لمصالحهم العليا[١].

لكن كل هذه الكيانات رغم خطورتها على استقلال البلاد، فإنها لم تكن تساوي شيئاً أمام حركة تمرد على حكومة قرطبة، قادها عمر بن حفصون المولدي على مدى سنين طويلة، وكادت أن تتغلب على الأمويين، وأن تقوض حكمهم في الأندلس. لكن افتقار هذه الحركة إلى البرنامج والتخطيط حال دون ذلك في نهاية الأمر. وعمر بن حفصون هو سليل عائلة فقيرة، وقيل إنه منذ طفولته كان يمتاز عن أقرانه بالشراسة وحدة الطبع، وقد قاده ذلك إلى قتل أحد جيرانه، فهرب إلى المغرب الأوسط (الجزائر) وحلّ بتاهرت عاصمة دولة الرستميين الإباضيين، وكان في أثناء وجوده فيها يشتغل في الخياطة أجيراً، لكن إقامته بتاهرت لم تستمر طويلاً، فقد عاد إلى الأندلس، إلى بلدته ريه، وفيها اجتمع حوله عدد من المؤيدين المولدين، واستقل بحصن بُبَشتر في جنوب الأندلس في سلسلة جبال سييرا نيفادا. ومن هذا الحصن بدأ يتوسع نحو مدينة قرطبة، وفشلت كل المحاولات الأموية في هذه الفترة من وضع حدٍ لحركته، التي كانت تهدف إلى تحرير إسبانيا من السيطرة العربية.

أعلن ابن حفصون ارتداده عن الإسلام، وكان يرمي من وراء ذلك أن يستقطب إلى جانبه جماعة المستعربين من خلال الحمية الدينية، ذلك أنَّ المستعربين برمتهم بقوا على الديانة المسيحية، لكن هذه الخطوة لم تنجح، بل كانت وبالاً عليه حينما سببت عودة الكثيرين من المولدين عن تأييده. وقيل إن هذا حدث في الفترة المتأخرة من حياة هذه الحركة، ورغم ذلك فقد بقي يقاوم حتى توفي سنة ٣٠٥هـ/٩١٨م. وخلفه في العصيان أولاده جعفر وسليمان وحفص، الذين قاوموا الإمارة الأموية حتى سنة ٣١٥هـ/٩٢٨م، حينما تمكن الناصر لدين الله من القضاء على هذه الحركة، التي أقضت مضجع البيت الأموي. وكان مما ساعد ابن حفصون

---

(١) انظر عن كثير من هذه الأمور . ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص٤١.

على الاستمرار لفترة طويلة، عدم جدية الأمراء الأمويين طوال هذه الفترة في حسم هذا الأمر، فقد تراجع الأمير محمد من منطقة ابن حفصون، بعد أن سمع بمرض والده في قرطبة، وهذا ما ساعده ابن حفصون على تنفيذ هجوم مضاد على بعض الحصون التابعة للإمارة الأموية. ولما حاول الأمير المنذر الرد على هجمات ابن حفصون باغته الموت سنة ٢٧٥هـ/٨٨٩م.

أما الأمير عبد الله الذي حكم لفترة ربع قرن، فقد حاول اتباع أسلوب جديد في التعامل مع الحركات المعارضة في الأندلس، فبادر إلى الاعتراف المؤقت بتلك الدويلات التي كانت قد أعلنت استقلالها عن السلطة المركزية في قرطبة، على أن تقوم هذه الدويلات بدفع مبالغ مالية معينة، استغلها الأمير عبد الله في تحضير القوة اللازمة لقمع حركة ابن حفصون، ونجحت هذه السياسة إلى حدٍ كبير، فقد تمكن الأمير عبد الله من تهيئة قوة عسكرية كبيرة مكنته من إحراز انتصارات مهمة على ابن حفصون، وقد أدت هذه الانتصارات رغم أنها لم تنه حركة التمرد بقيادة عمر بن حفصون بشكل نهائي، أدت إلى تقلُّص هذه الحركة، إذ تمكن من إنهائها كما ذكرنا[١].

وبذلك تكون الإمارة الأموية قد تخلصت من أخطر حركة مضادة، جاءت هذه المرة من داخل الأندلس، وبالقضاء على هذه الحركة الخطرة عادت اللحمة من جديد بين أجزاء الأندلس كلها، وأصبحت دولة بني أمية هناك من أقوى دول العالم في العصور الوسطى، ولمدة أكثر من مئة عام، غابت فيها ظاهرة الدويلات المستقلة التي عانى منها الأمراء الأمويون المتأخرون.

---

(١) ابن حيان . المقتبس ص٣٣ . ابن القوطية ت تاريخ افتتاح الأندلس ص٧١ وما بعدها . ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص١٤٢ وما بعدها.

الفصل الخامس

عصر الخلافة الأموية في الأندلس

يُعد هذا العصر من أزهى عصور العرب في الأندلس على الإطلاق، ذلك أنَّ الدولة العربية كانت فيه من أقوى دول العالم حضارة وعلماً وقوة عسكرية وتماسكاً في وجه كل المعارضين والأعداء. فلأول مرة تهدأ الثورات الداخلية والهجمات الخارجية منذ دخول العرب الأندلس حتى هذا العصر، ولأول مرة أيضاً تتوقف أنشطة المعارضة الإسبانية، التي عُرفت بحركة الاسترداد في الشمال والشمال الغربي من الأندلس، وأصبح زعماء هذه الحركة يحرصون بشدة على الحصول على رضا حكومة قرطبة في كل المجالات.

حصل كل ذلك في الأندلس في هذا العصر الميمون، الذي بدأ سنة ٣١٦هـ/٩٢٩م وانتهى سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٢م، في الوقت الذي كانت فيه الدولة العباسية في المشرق تعاني من تسلط الغرباء، الذين فرضوا عليها كل أنواع القهر والظلم، فضعفت سلطة الخلفاء العرب، فتفتت المنطقة إلى دويلات هزيلة على أساس عرقي وطائفي وقبلي وديني.

سمي هذا العصر بعصر الخلافة، لأن الحكام فيه سموا أنفسهم خلفاء بعد أن تجرَّؤوا على هذا الأمر، مستفيدين من حالة الانهيار التي سيطرت على الخلافة العباسية في المشرق، فأصبحت الخلافة اسمية لا قيمة لها حتى في نظر أصحابها بسبب عدم امتلاكهم القدرة على صنع القرار، الذي غدا من اختصاص الغرباء المسيطرين على مقدرات الخلافة، كما استفادوا من قضية

إقدام الفاطميين على إعلان الخلافة التي حملت اسمهم، وكان ذلك من أقوى الأسباب التي شجعت أمويي الأندلس على إعلان الخلافة في بلادهم، لأنهم كانوا يعرفون تماماً، بخبرتهم في طبيعة أهل الأندلس والمغرب، أن الجميع سيوافقونهم في مشروعهم الجديد، من خلال الكره الشديد والنقمة العارمة على كل ما يمت للفاطميين بصلة، وهو أمر من أخطر الأمور التي عانت منها المنطقة العربية في الشرق والغرب على حد سواء، فقد أدت الخلافات المذهبية بشكل عام إلى تدمير المشروع العربي الوحدوي في العصور الوسطى. هذا بالإضافة إلى الخلافات القبلية والعصبية والإقليمية. ففي هذا العصر، أصبح في المنطقة العربية ثلاث خلافات: الخلافة العباسية المقهورة في بغداد، والخلافة الأموية في الأندلس، والخلافة الفاطمية في المغرب الكبير. وبذلك تفرقت الأمة العربية بتأثير هذه الخلافات وتبددت قواها، ووصل الأمر إلى اصطدام عسكري بين القوى الفاطمية في المغرب والقوى الأموية في الأندلس، وهو ما سنبحثه بالتفصيل في الصفحات القادمة.

كان أول الخلفاء في هذا العصر عبد الرحمن الثالث، الناصر لدين الله، الذي حكم فترة نصف قرن، بدأت من سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م وانتهت في سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م. سمي بالثالث لأنه ثالث حاكم على الأندلس باسم عبد الرحمن. حكم أميراً مدة ستة عشر عاماً من سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م إلى سنة ٣١٦هـ/٩٢٩م، وحكم خليفة من سنة ٣١٦هـ/٩٢٩م إلى سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م، وهو أول حكام الأندلس الذين حكموا كذلك.

رشحه الأمير عبد الله للحكم من بعده لا لأنه حفيده فحسب، بل لأنه كان يتوسم فيه الخير، وأنه كان في نظره القادر على السير بالأندلس إلى النهاية المفرحة، في وقت كانت فيه الأندلس بحاجة ماسة إلى رجل قوي، يستطيع أن يعيد لها وحدتها وتماسكها ورونقها، وإلا لما كان الأمير عبد الله أقدم على ترشيحه للحكم من بعده مستبعداً أولاده، أو من هو أقرب منه إليه.

لقد تربى الناصر لدين الله في كنف جده عبد الله، بعد أن فقد والده نتيجة حادثة قتل دبَّرها الأمير عبد الله نفسه كما قيل، ذلك لأنه كان قد عزم على الانضمام إلى ثورة ابن حفصون المولدية، فأوعز الأمير عبد الله لابنه المطرف بقتله. ويبدو أن الأمير عبد الله انتابه شيء من الحزن والأسف لتدبير أمر قتل ابنه بيد ابن آخر، وهو أمر فظيع في كل الأحوال، فأراد أن يخفف من هذه الحالة بالتركيز على حفيده وإحاطته بكل أنواع الرعاية والعطف والمحبة، وأصبح يفضله على أولاده في الكثير من الأمور. وبالفعل فقد تربى عبد الرحمن الثالث تربية ممتازة في كل الميادين، الأمر الذي أثر إيجاباً في تكوين شخصيته(١).

وأقنع الجميع بقبوله حاكماً على الأندلس، التي كانت منذ نصف قرن تعاني من عوامل سلبية مختلفة، كان في طليعتها استقلال عدد من النواحي عن سلطة قرطبة، وكذلك قيام بعض الحركات المناوئة التي سببت متاعب كبيرة للأمويين، رغم ما بذلوه من جهود عسكرية لقمعها.

في ظل هذه الظروف الصعبة توفي الأمير عبد الله، فخلفه حفيده الناصر لدين الله الذي سلك منذ أيام حكمه الأولى سياسة حازمة، فركز على مسألة إعادة توحيد الأندلس من جديد، فأعلن بياناً عاماً لكل الثائرين والمستقلين، أن يعودوا إلى بوتقة السلطة المركزية بإعلان الولاية لها والسير في ركبها، ومن لا يفعل ذلك فسيكون قد وضع نفسه في مأزق صعب، ذلك أنَّ السلطة الجديدة لن تقبل بديلاً عن وحدة الأندلس في دولة واحدة. وقد تأثر الكثير من المعارضين بهذا الإعلان الحازم، فأعلنوا خضوعهم لسلطة الدولة الجديدة، ولم يبق خارج هذه الدائرة إلا حركة بني حفصون، التي تمكن الناصر لدين الله من تصفيتها نهائياً في العقد الثاني من حكمه، وبالضبط

---

(١) العذري . ترصيع الأخبار ص٩ وما بعدها . ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص١٥٠ وما بعدها.

سنة ٣١٥هـ/٩٢٨م. وبذلك تكون الأندلس قد عادت إلى سابق عهدها في التوحد والوئام[1].

ترافق إنجاز عودة وحدة الأندلس مع ظهور خلافة جديدة في المغرب الكبير، هي الخلافة الفاطمية التي قال أصحابها، إنها الخلافة الشرعية التي ينبغي على الجميع تأييدها ومواكبتها في كل الميادين، فرد عليها الناصر لدين الله بإعلان الخلافة الأموية في الأندلس، معتمداً على كراهية أهل الأندلس للفاطميين كما ذكرنا، وعلى القوة الكبيرة التي صنعتها وحدة الأندلس. فمنذ سنة ٣١٦هـ/٩٢٩م أصبح الناصر لدين الله خليفة للأندلسيين، وتلقب بألقاب تخص الخليفة مثل الناصر لدين الله وأمير المؤمنين، وأمر خطباء المساجد في كل المناطق، أن ينوهوا بذلك وأن يشرحوا للناس أن الأمويين أجدر وأحق من كل الناس الآخرين بالخلافة، التي شغلها أجدادهم في المشرق لسنين طويلة.

لكن الخلافة في الأندلس اختلفت عن كل الخلافات، التي عرفتها المنطقة العربية في العصور الوسطى، فقد كانت أقرب إلى الديمقراطية من كل الخلافات، فالخلافة الراشدية على الرغم من أنها لبست ثوب الشورى والانتخاب، إلا أنها بقيت شورى مبتورة، ذلك أن التيارات الإسلامية الأساسية،

---

(١) خاض الناصر لدين الله عدة معارك ضد أبناء عمر بن حفصون الذي توفي سنة ٣٠٥هـ. من هذه المعارك تلك التي جرت سنة ٣١٤هـ، وفيها قتل سليمان بن عمر بن حفصون، وتلك التي جرت في سنة ٣١٥هـ، التي دخل على إثرها عبد الرحمن الناصر حصن ببشتر معقل ثورة بني حفصون فأسر حفص بن حفصون الذي ورث أخاه سليمان في الحكم. أما النشاط الحربي الثاني الذي قام به الناصر لدين الله فهو إخضاع الثغور التي كانت تعيش في حالة استقلال تام عن سلطة المركز في بقرطبة، فأخضع الثغر الأدنى الذي كان يحكمه ابن مروان الجليقي، ووجد صعوبة بالغة في إخضاع الثغر الأوسط طليطلة، فقد أمضى نحو سنتين حتى تمكن من إخضاع هذا الثغر، إلى درجة أنه اضطر لبناء مدينة في مقابل طليطلة هي مدينة الفتح، وكان إخضاع طليطلة سنة ٣٢٠هـ. ولم يجد صعوبة بالغة في إخضاع سرقسطة الثغر الأعلى بقيادة بني قسي.

التي كانت في المدينة المنورة غداة وفاة الرسول (ص) لم تشترك في هذه الشورى، وظلت بعيدة عن الاشتراك في انتخاب الخليفة طوال العصر الراشدي. أما الخلافة العباسية فقد ادعى خلفاؤها، أنهم ممثلو الله على الأرض. أما الخلفاء الفاطميون فقد منحوا أنفسهم صفة العصمة أي أنهم معصومون من الخطأ، ولا يحق للآخرين أن يسألوهم عن أعمالهم، لأنهم ورثوا العلم وخفايا الكون والغيب عن الرسول (ص) من خلال الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، ومن خلال أبنائه من بعده. وتتجسد ديمقراطية الخلافة الأموية في الأندلس قياساً بالخلافة العباسية والفاطمية، أن الخليفة الأندلسي كان يرى نفسه شخصاً عادياً لا يملك العصمة، وليس وارثاً لأي حق إلهي. مثال ذلك أن أول الخلفاء الأمويين في الأندلس، وهو الناصر لدين الله، لم يبادر إلى فرض عقوبة ضد قاضي الجماعة بقرطبة المنذر بن سعيد البلوطي، حينما أعلن هذا القاضي معارضته الصريحة لعملية بناء مدينة الزهراء، التي صرف عليها الناصر لدين الله أموالاً طائلة، وكل ما فعله ضده أن امتنع عن الصلاة خلفه في أيام الجمعة[١]. وسبب تهاون الناصر مع القاضي البلوطي إلى هذه الدرجة، على الرغم من صلاحيته المطلقة في التوقيع على صرف الأموال في الوجوه المختلفة، أنه لم يكن يعتمد على نظرية معينة في الخلافة، كما كان عند الفاطميين والعباسيين، الذين كانوا يعتمدون على نظرية الحق الطبيعي الموروث. ولا يستبعد أن يكون خلفاء الأندلس قد عملوا منذ البداية على تقليد الفاطميين والعباسيين في مسألة الموروث الطبيعي، حينما أعلنوا عن نظرية التشيع الأموي في الأندلس، التي صيغت على غرار نظرية الشيعة، وهي نظرية تبدأ بأبي بكر وتستمر بالتسلسل لتشمل الخلفاء الراشدين باستثناء الإمام علي كرم الله وجهه، ومن ثمَّ الخلفاء الأمويون حتى تصل إلى الخليفة الأموي الناصر لدين الله في الأندلس.

---

(١) المقري . نفح الطيب ج٢ ص١٠٦ وما بعدها.

أمضى الناصر لدين الله فترة طويلة من سني حكمه في تحقيق سياسة استراتيجية ثابتة على مختلف الجبهات. وقد تجسدت هذه السياسة على أرض الواقع في:

أ- كبح جماح النشاط الإسباني المعادي في الشمال:

وقد تجسد هذا النشاط في الأعمال العدائية، التي كانت تمارسها الدويلات الإسبانية ضد الوجود العربي في الأندلس من قبل ، التي كانت قد تبلورت على أرض الشمال الإسباني في دويلة قشتالة في وسط شمال الأندلس، ودويلة ليون في الشمال الغربي، ودويلة برشلونة في الشمال الشرقي. وكانت هذه الدويلات تتعاون وتتحد، حينما تكون الدولة العربية قوية وموحدة، وكانت تختلف فيما بينها وتتدابر، حينما تضعف دولة العرب وتتفرق كلمتهم. لكن هذه الدويلات بقيت في عصر الخلافة الأموية، موضوع بحثنا، ثابتة على مبدأ واحد، هو إعلان الطاعة والولاء والتأييد للدولة العربية المركزية بقرطبة، وذلك خوفاً من قوة هذه الدولة الميمونة وبطشها، فقد تمثلت القوة في هذه الدولة على صعيد الجيش، وعلى صعيد العلم والحضارة والتفوق الثقافي بشكل عام، ما جعلها القوة الأعظم في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي في العالم برمته كما ذكرنا، وهذا ما جعل دويلات الشمال الإسباني، سابقة الذكر، تلجأ إلى الهدوء وإيقاف كل نشاط عسكري معارض، وهو أمر لم يحصل بهذه الصورة إلا في هذا العصر، على الرغم من مناعة المنطقة الشمالية الغربية في إسبانيا من الناحية الطبيعية، فهي منطقة وعرة تتميز بمناخها الصعب، وبخاصة في فصل الشتاء حيث البرد الشديد والثلوج شبه الدائمة. كانت هذه الدول قد تميزت بنشاطها العسكري في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، أي في الوقت الذي لم تتمكن فيه الإمارة الأموية من المحافظة على وحدة البلاد، فقد حصل تعاون بين عدد من الأطراف الإسبانية المعارضة، تمثل في ملك نبارة شانجه أو سانشو الأول وبين ملك ليون أوردونيو الثاني، وأدى هذا التعاون

العدواني إلى احتلال بعض الأراضي التي كانت تحت سيطرة العرب، كما جرت محاولة جدية للسيطرة على قاعدة الثغر الأعلى سرقسطة، وقد تصدى لهذه المحاولة الفاشلة عبد الرحمن الناصر لدين الله بكل قواه العسكرية، وتمكن عبر حروب قاسية من استعادة العديد من المناطق والحصون مثل أوسما وتطيلة في سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م. وبعد مدة من هذه الحروب الناجحة، توفي ملك ليون سابق الذكر وخلفه ملك طموح يكره العرب هو راميرو الثاني، الذي قرر مع حليفه ملك نبارة متابعة الحرب ضد الناصر لدين الله، الذي خرج لملاقاته في منطقة حكمه، لكنه، أي الناصر لدين الله، اعتمد على الصقالبة في هذه الحرب وبخاصة في ميدان القيادة، الأمر الذي أثار نقمة العناصر العربية ما أدى إلى سيادة حالة من الإحباط في صفوفهم، وهذا ما أثر بدوره على أدائهم في أثناء اللقاءات الحربية مع الإسبان، وكان على رأس الجيش آنذاك نجدة الصقلبي، الذي لم يتمكن من قيادة الناس قيادة حكيمة، فانهزم الجيش العربي الذي يقوده في معركة خاسرة عُرفت بمعركة الخندق، التي جرت سنة ٣٢٧هـ/٩٣٩م، وقتل في هذه المعركة نجدة الصقلبي القائد، وقيل إنه نجا بأعجوبة من قتل محقق. وقيل أيضاً إنَّ عبد الرحمن الناصر لدين الله لم يشترك بعد هذه الهزيمة في أيّ حرب سواء كان ذلك في الداخل أم في الخارج[١] متأثراً على ما يبدو بحالة الخوف التي اعترته عقب هذه الهزيمة.

على الرغم من هذه الهزيمة الصعبة، إلَّا أنها لم تؤثر على الوضع العام في الأندلس، فقد بقي الإسبان في أماكن توضعهم ووجودهم، وكذلك بقي العرب على توثبهم وحضورهم واستعدادهم وقوتهم واندفاعهم، وتمكنت قوات الناصر لدين الله من تطويع القوى الإسبانية المعارضة برمتها، وسيكون الناصر ومن خلفه في الحكم حتى نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي أسياداً لحكام الدويلات الإسبانية، وحكاماً فيما شجر بينهم من خلافات في هذه الفترة. كما

(١) مؤلف مجهول . أخبار مجموعة ص١٥٥ وما بعدها.

كانت قرطبة وغيرها من المدن الكبرى في الأندلس مقصداً لكثير من المرضى في الشمال الإسباني، وشمل ذلك القادة في هذه البلاد مثل سانشو، الذي اشتهر بضخامة جسمه وثقل وزنه، فقد جاء إلى قرطبة للتخلص من سمنته، وحضر من أجل ذلك إلى عيادة طبيب الناصر لدين الله حسداي بن شبروط اليهودي، الذي تمكن من تشخيص حالته بنجاح ووضع الحل المناسب للتخلص من السمنة المفرطة، التي كانت تقلقه كثيراً. وفي الوقت نفسه حصل على مساعدة عسكرية من الناصر، تمكن بوساطتها من إعادة حكمه الذي كان أخوه قد سلبه منه. وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على مدى السيطرة العربية على دويلات شمال إسبانيا في عصر الخلافة الأموية في الأندلس[١].

ب- كبح جماح النشاط النورماندي:

وهو نشاط كان قد بدأ كما ذكرنا في حديثنا عن عصر الإمارة في عهد الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط، الذي هدد الأندلس ولاقت بسببه عنتاً كبيراً، لم يخفف من حدته وخطورته إلا تلك المبادرات السريعة، التي قام بها الأمير عبد الرحمن الأوسط، الذي شرع على الفور بإنشاء قواعد دفاعية مناسبة، وكذلك بصنع أسطول بحري ملائم للدفاع. وقد استطاع هذا الأسطول فيما بعد، أن يتصدى لهجمات نورماندية على الشواطئ الأندلسية سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م، وأن يدمرها، وأن يوقع في صفوفها خسائر جمة[٢].

ونتيجة لهذه الانتصارات على الهجمات النورماندية، فقد عزف النورمان عن مهاجمة السواحل الأندلسية في عصر الخلافة الأموية على اتفاق جميع مصادر هذه الفترة باستثناء صاحب كتاب (ترصيع الأخبار) وهو العذري، الذي يذكر في كتابه هذا، أن النورمان هاجموا الثغر الأعلى سرقسطة في عصر الخليفة الناصر

(١) أحمد مختار العبادي . المرجع السابق ص٢٠٠.

(٢) أحمد مختار العبادي . المرجع السابق ص٢٠٠.

لدين الله سنة ٣٣٠هـ/٩٤٢م[1]. ومنذ ذلك الحين بدؤوا على ما يبدو يهاجمون الأندلس عن طريق الحدود الفرنسية مع إسبانيا، وهي الحدود البرية الوحيدة التي تمتلكها إسبانيا. وقد ساعدهم على ذلك أنهم منذ سنة ٣٠٠هـ/٩١٣م، اتخذوا لأنفسهم قاعدة ثابتة في غرب فرنسا في مقاطعة سميت نورمانديا نسبة إليهم، وذلك بموافقة من الملك الفرنسي شارل الثالث الملقب بالساذج، وشكلت هذه المقاطعة مع الأيام خطراً كبيراً على الأمن العربي في الأندلس لفترة طويلة، ذلك لأنها قامت بعدد من الحملات البحرية على مناطق مهمة في الأندلس.

جـ- كبح جماح الفاطميين في المغرب الكبير:

في نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، كان الفاطميون قد أعلنوا عن قيام دولتهم في المغرب الكبير، بعد أن أسقطوا عدة دول كانت قائمة هناك منذ نحو مئة وخمسين سنة أو أكثر بقليل، مثل دولة الأغالبة بتونس، ودولة الخوارج الإباضية بتاهرت بالجزائر، ودولة الأدارسة ودولة الخوارج الصفرية بالمغرب الأقصى، وبذلك عادت وحدة المغرب الكبير من جديد بعد معاناة كبيرة سببتها الاختلافات بين هذه الدول، تحت مظلة الفاطميين الذين كانوا يحلمون بضم الأندلس إلى المغرب الكبير في مرحلة لاحقة، ذلك لأنهم لم يكونوا يقصدون إقامة حكمهم في المغرب فحسب، بل كانوا يخططون لقيام دولة تعم المغرب الكبير والمشرق. هذه الأمور برمتها كان الأمويون في الأندلس يعرفونها أكثر من غيرهم، ما جعلهم يتصرفون بسرعة قبل أن تتمكن دولة الفاطميين، التي أعلنت الخلافة الفاطمية في المغرب، فتعلن الحرب ضد الأمويين في الأندلس، ذلك أن الفاطميين كانوا قد بدؤوا مشروعهم هذا، حينما أرسلوا العديد من الجواسيس إلى الأندلس لدراسة واقعها العسكري والاقتصادي والاجتماعي، كان من أشهرهم الجغرافي الرحالة المشهور ابن حوقل المتوفى سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م، الذي دخل الأندلس باسم تاجر، وبعد إقامة طويلة فيها وتجوال في أهم مدنها عاد إلى المغرب، وأخبر سادته

---

(١) العذري. ترصيع الأخبار ص٧٢ وما بعدها.

من الفاطميين بالتفصيل عن الأحوال العامة في الأندلس، فقد أخبرهم أنها تعج بالثروات الزراعية والمعدنية، وأن أهلها عاجزون عن الدفاع عنها لأنهم، كما قال، يفتقرون إلى الشجاعة والخبرة العسكرية(١).

رغم هذه الأمور المشجعة التي وضعها ابن حوقل أمام الفاطميين، إلَّا أنهم لم يتحركوا بما يناسب طموحاتهم في هذا الاتجاه. ومع ذلك فقد نظر الأمويون في الأندلس إلى الفاطميين نظرة حذرة، لأن الفاطميين كانوا يمتلكون بشكل خاص قوة بحرية كبيرة أخذوها من الأغالبة، تمكنهم من دخول الأندلس بسهولة ويسر، ذلك لأن هذه القوة كانت قد تمرست في أعمال البحر من خلال نشاطها الحربي في صقلية وإيطاليا وغيرها(٢).

واجه الأندلسيون هذا الواقع بما يتناسب من أعمال، فقد ردوا على الفاطميين بإرسال العديد من الجواسيس، الذين كانوا يزودونهم بالمعلومات الضرورية عن كل نشاطات الفاطميين(٣). وتبع ذلك العديد من الخطوات العملية على الأرض، وبخاصة في عصر عبد الرحمن الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر. نذكر من هذه الخطوات:

١- إعلان الخلافة في الأندلس، وهو عمل من أهم الأعمال التي قام بها الناصر لدين الله كرد على خلافة الفاطميين في المغرب الكبير، وقد عدّ الفاطميون هذا الإعلان اعتداءً صارخاً على حقهم الديني الأساسي بالخلافة، ما جعلهم يأمرون بحرب الأمويين، لا هوادة فيها، معتمدين بذلك على تفاصيل نظرية لا تتصل بالواقع(٤)، ذلك لأنه لا يوجد في الشريعة الإسلامية ما يدعو لقتال الإخوة في الدين والأرض والمصير.

---

(١) ابن حوقل. صورة الأرض، طبعة بيروت ص١٠٤ وما بعدها. المقري. نفح الطيب ج١ ص١٩٧.

(٢) المقريزي. اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ص٩٣ وما بعدها. ابن الأثير. الكامل ج٨ ص٢٠ ابن عذاري. البيان المغرب ج١ ص٢٢٧.

(٣) ابن عذاري. البيان المغرب ج١ ص١٨٤.

(٤) القاضي النعمان. المجالس والمسايرات ج١ ص٢٣٠ وما بعدها.

٢- العمل على تقوية الأسطول البحري حتى يتمكن من مواجهة الأسطول الفاطمي، الذي ذكرنا أنه كان قوياً ومن الأساطيل البحرية المعروفة في غرب البحر المتوسط، فأمر الناصر لدين الله الأموي بالمباشرة الفورية في هذا العمل في كل دور الصناعة بالأندلس، وقد تمكنت دور صناعة السفن في وقت قصير من تحقيق معجزة في هذا المجال، فقد وفرت في كل الموانئ سفناً مناسبة لكل الطوارئ والعمليات الحربية البحرية، وبخاصة في منطقة جبل طارق، التي تعد من أقرب المناطق إلى المغرب، حيث فرضت حراسة بحرية مشددة على كل النشاطات الحربية الفاطمية(١).

٣- العمل على تحصين كل البوابات الجنوبية المواجهة للمغرب، وشحنها بمزيد من القوات العسكرية المتحفزة لمواجهة أي هجوم فاطمي محتمل، وقد قام الناصر لدين الله بالإشراف على هذه الاستعدادات بنفسه في منطقة طريف والجزيرة الخضراء، وهي مناطق مواجهة لأهم ثغور المغرب الأقصى مثل سبتة وطنجة وغيرهما(٢).

٤- السيطرة على بعض المناطق المغربية المطلة على الساحل المواجه للأندلس، مثل مليلة التي سيطر عليها الناصر لدين الله سنة ٣١٤هـ/٩٢٧م، وعين على حكمها موسى بن أبي العافية، الذي كان قبل ذلك يوالي الفاطميين، ومدينة سبتة(٣) في شمال شرق المملكة المغربية سنة ٣١٩هـ/٩٣١م، ثم مدينة طنجة في الشمال الغربي من المملكة المغربية، وبذلك سيطر الناصر على كل الشمال المغربي، وهو أهم منطقة كان يخشاها الأندلسيون لقربها من بلادهم وبخاصة إلى جبل طارق والجزيرة الخضراء(٤).

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٢٤٧.

(٢) الحميري . الروض المعطار ص٧٣ . المقري . نفح الطيب ج١ ص١٥٧.

(٣) ما زالت سبتة ومليلة ترزحان تحت الاحتلال الإسباني حتى اليوم.

(٤) ابن عذاري . البيان المغرب ج١ ص٣٠٧.

٥- العمل على استقطاب زعماء القبائل المغربية وغيرها، وهي محاولة حرص على تحقيقها الخليفة الناصر لدين الله، لما لذلك من أهمية بالغة في سياق محاربة الفاطميين والضغط عليهم في عقر دارهم، وكذلك على استقطاب بعض الدويلات التي لم تكن توالي الفاطميين حق الولاء. فمن القبائل المغربية التي انحازت إلى جانب الأمويين ضد الفاطميين قبيلة زناتة، التي أقنعها الناصر لدين الله الأموي بالوقوف ضد الفاطميين من خلال محاربة قبيلة صنهاجة، التي كانت تمثل الدعامة الأساس بالنسبة للفاطميين. وقد تحقق ذلك للأمويين وأصبح الصراع بين الأمويين والفاطميين يجري من خلال الصراع بين زناتة وصنهاجة في مختلف أرجاء المغرب الكبير، ذلك أنَّ هاتين القبيلتين كانتا تنتشران في مناطق مغربية واسعة. ومن الدويلات التي أيدت الأمويين في المغرب دولة الأدارسة، التي انحصر نفوذها بعد سيطرة الفاطميين على المغرب في بعض المناطق الجبلية الشمالية مثل البصرة وأصيلا وقلعة النسر أو حجر النسر، وإمارة ناكور الصالحية نسبة إلى حاكمها صالح بن سعيد في شمال المغرب، وهي إمارة صغيرة كان لها وزنها الكبير في مجال نشر اللغة العربية في صفوف المغاربة بالمنطقة(١).

٦- التعامل مع الثائرين المحليين وتأييد برامجهم بغض النظر عن هوية الثوار وعقائدهم، من أجل إضعاف واستنزاف القوة العسكرية الفاطمية والمادية على حدٍ سواء. وقد نجح الأمويون الأندلسيون في هذا الميدان نجاحاً مميزاً، حينما قاموا بتشجيع وتأييد ثورة للخوارج، الذين كانوا منذ ظهورهم في عصر الأمويين بالمشرق حتى قيام هذه الثورة، من ألد أعداء الأمويين على الإطلاق، ومع ذلك لم ير الخليفة الناصر لدين الله غضاضة في التعامل معهم والعمل على تأييدهم بكل الوسائل في ثورتهم العارمة ضد الفاطميين، وهي ثورة كبيرة وخطرة قادها بقوة وعزيمة الثائر الخارجي مخلد بن كيداد الزناتي الخارجي المعروف بأبي يزيد، وكادت هذه الثورة أن تأتي على الوجود الفاطمي في المغرب، نظراً للمساعدة المادية والعسكرية التي قدمتها

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج١ ص٢٥٢. أحمد الكناسي . المدن المندرسة في شمال المغرب ص٤.

حكومة قرطبة للثائرين ، الذين تمكنوا من السيطرة على رقادة والقيروان وما حولهما من مناطق سنة ٣٣٣هـ/ ٩٤٥م. واستمرت حكومة قرطبة بدعم هذه الثورة حتى سنة ٦٣٣٦هـ/ ٩٤٨م، ومع ذلك فقد انتهت إلى الفشل وقتل قائدها وتفرق أتباعها، بفضل الدعم الكبير الذي قدمته قبيلة صنهاجة بكل فروعها في المغرب الكبير، وهي تجمع قبلي كبير يأتي في الدرجة الثانية من حيث القوة والتأثير بعد قبيلة مصمودة[١]. وتدل هذه الثورة دلالة واضحة على أن العقائد الدينية، لم تكن في العصور الوسطى ولا في العصور الحالية ولن تكون في المستقبل سوى وسيلة من الوسائل للوصول إلى أهداف سياسية معينة، فجميع الأطراف الذين اشتركوا في هذه الثورة من خوارج وفاطميين وأمويين، كانوا على الدوام في حالة توتر وكراهية، ولكن مصلحة الأمويين التي تجسدت في إعاقة المشروع الفاطمي في المغرب والأندلس، فرضت عليهم التعاون مع ألد أعدائهم من الخوارج ضد الفاطميين وتقديم كل أشكال الدعم المادي والمعنوي لثورتهم الفاشلة.

٧- التعاون مع بعض الأطراف الأوروبية، التي كانت تعيش حالة عداء مع الحكومة الفاطمية في المغرب. وكان في طليعة هذه الأطراف إيطاليا، التي كان يحكمها في فترة خلافة الناصر لدين الله الملك هوج دي بروفانس، الذي كان يكنُّ للفاطميين حقداً كبيراً جراء هجومهم على بعض مناطق بلاده، وبخاصة على ميناء جنوة، الذي خربته القوى الفاطمية. وجاء بعد إيطاليا الطرف البيزنطي، الذي كان يمثله في تلك الفترة الإمبراطور قسطنطين السابع، الذي كان يحلم باستعادة جزيرة صقلية من الفاطميين، الذين ورثوا حكمها والسيطرة عليها من الأغالبة، الذين سقطت دولتهم على أيدي الفاطميين في ميدان البحر[٢]، لكن الأمر لم يتطور إلى حدٍ كبير، بحيث أدى إلى دخول أرض الفاطميين، أو أنه أدى إلى استعادة بعض المناطق منهم.

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص ٣١٨ وما بعدها.

(٢) المجالس والمسايرات . ج١ ص ٢٢٦.

ويحاول بعض الكتاب في الفترة المعاصرة، أن ينفي عن الأمويين تهمة التعاون مع أطراف أوروبية، كانت في واقع الحال معادية لكل الأطراف العربية من أمويين وفاطميين وغيرهم، ويذكر هذا البعض في سياق مرافعته عن الأمويين، أن تعاونهم لم يكن أكثر من ترك الحرية للبيزنطيين والإيطاليين وغيرهم، أن يقاتلوا الفاطميين بالوسائل التي يريدونها دون مشاركة الأمويين في الأندلس لهم(١). إذا صدقنا أن ذلك قد حصل بالفعل على أرض الواقع، فإنه يكفي لإدانة الأمويين بالتواطؤ مع أعداء الدين والانتماء، وهو دليل آخر يمكن أن نذكر به في مسألة، أن الدين لم يكن سوى غطاء أو وسيلة للفوز بأهداف مرسومة مسبقاً، وإلا لما كان الأمويون في الأندلس قد وقفوا مع أعداء الدين ضد الفاطميين، الذين كانوا يمثلون شريحة كبيرة من أتباع الدين الإسلامي، ومن المنافحين عنه في كل المجالات.

ولم يقتصر النزاع المأساوي الأخوي بين الفاطميين والأمويين على تلك الوسائل، التي ذكرناها حتى الآن، بل تعداها إلى اشتباكات محدودة، حدثت بشكل خاص في عرض الماء، ففي سنة ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م تمكن الأندلسيون من السيطرة على مركب فاطمي كان في طريقه من صقلية إلى المغرب، وصادروا ما فيه، وبخاصة بعض الرسائل التي كانت موجهة للخليفة المعز لدين الله الفاطمي، ورد الفاطميون على ذلك بهجوم على مدينة المرية، التي لم يكن قد مضى على بنائها سوى فترة قصيرة جداً، وهي مدينة بحرية بناها الناصر لدين الله سنة ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م، لتكون الميناء المهم على الساحل الجنوبي في الأندلس طوال العصور الوسطى، وتمكن الفاطميون من دخول مرسى هذه المدينة الجديدة، وقاموا بإحراق جميع ما فيه من سفن ومراكب، ونهبوا ما استطاعوا حمله من أمتعة وعادوا إلى مدينة المهدية، التي كانت قد اعتمدت عاصمة للفاطميين في المغرب(٢).

---

(١) أحمد مختار العبادي . المرجع السابق ص ١٩٢.

(٢) ميشيل أماري . المكتبة العربية الصقلية ص ٣١٢.

رد الأندلسيون على هذا الهجوم على الفور، فقد أرسل الناصر لدين الله غالب ابن عبد الرحمن الناصري على رأس مجموعة بحرية إلى تونس، لكن هذه المجموعة لم تتمكن من عمل شيء مؤثر يمكن أن نوازيه بذلك الذي فعله الفاطميون بمدينة المرية. وهكذا دخل الطرفان في مرحلة تبادل الهجمات البحرية لبضع سنوات، لكن هذه الهجمات لم تكن ذات تأثير على واحد من الطرفين المتنازعين، ولم تستطع أن تغير شيئاً من الأوضاع التي كانت قائمة قبل ذلك[١].

د- أما الجبهة الأخرى التي شغلت شيئاً من وقت الناصر وجهده، فهي العلاقات الدبلوماسية مع بعض القنوات الأوروبية، انطلاقاً من أهمية موقعه كقائد لدولة عظمى في ذلك الوقت. ولم تكن هذه العلاقات تقوم على أسس وطيدة ومبرمجة، بل كانت عبارة عن إظهار الود والتعبير عنه من خلال سفارات معينة، كانت تحمل الهدايا إلى البيزنطيين وغيرهم وبالعكس. فقد حمل البيزنطيون إلى الناصر لدين الله العديد من الهدايا عبر سفارات، استقبلها بقرطبة بحفاوة بالغة[٢]. كذلك فتحت قناة للاتصال مع أوتو Otto الكبير ملك الفرنجة في عهد الناصر لدين الله، وقد تم الاتصال بين الطرفين عبر رسائل متبادلة حول موضوعات كانت ملحة بالنسبة للطرف الفرنجي، ذلك أنَّ الغزاة الأندلسيين كانوا قد أقضّوا مضجع الأوروبيين من خلال هجماتهم، التي كانت شبه مستمرة على السواحل الأوروبية. والغزاة الأندلسيون هم مجموعة من عرب الأندلس، كانت لهم خبرة واسعة في مجال الأعمال البحرية، فاستغلوا ذلك لمهاجمة السواحل الأوروبية من أجل السلب وجمع الغنائم والثروات، كما كان يفعل النورمانديون وغيرهم. فحاول أوتو الكبير أن يستغل علاقته بالخليفة الأندلسي الناصر لدين الله للتخلص من هؤلاء الغزاة أو على الأقل وضع حد لهجماتهم على السواحل الأوروبية، لكن الناصر لدين الله اعتذر لأوتو الكبير

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص ٣٣٠ وما بعدها.

(٢) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص ٣١٣ وما بعدها . المقري . نفح الطيب ج١ ص ٣٢٤.

بأنه لا يملك أي سلطة على الغزاة الأندلسيين[١]، الذين اختفت أنشطتهم بعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس.

هذه هي أهم الأحداث في عصر الخليفة الأموي الأول في الأندلس عبد الرحمن الناصر لدين الله، وهي أعمال كبيرة للغاية استطاع بنجاح أن يطوعها لصالح بلاده طوال فترة خمسين عاماً، لم يشهد خلالها وقتاً للراحة والاستجمام، كما كان يفعل الملوك والحكام في العصور الوسطى، وقد حصد نتيجة ذلك شيئاً عظيماً تجسد في بناء دولة عالمية في كل شيء، بعد أن أشرفت على الانهيار في عصر الأمراء الأمويين المتأخرين. لقد كان عبد الرحمن الناصر لدين الله من الذين حملوا المسؤولية بكل أعبائها وثقلها، ولم تلن له عزيمة أو قناة في مواجهة المشكلات، التي واجهته خلال حكمه الطويل في الأندلس، ولم يسقط إلا في موقع واحد هو الموقع الفاطمي، حينما سيطرت عليه أحقاده الشخصية فوقف ضد الفاطميين في كل ما يملكه من قوى مادية وبشرية وعسكرية، كان من الممكن أن يستغلها في مواجهة دول الشمال الإسباني والقضاء عليها بشكل نهائي، ولو فعل ذلك لكان قد أسهم في إطالة عمر الوجود العربي في الأندلس إلى أمد بعيد. وقد كانت وفاته في سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م عن عمر بلغ ثلاثة وسبعين عاماً.

خلفه ابنه الحكم بن عبد الرحمن، الذي عُرف بالحكم الثاني وبالحكم المستنصر. وكان في سن الخامسة والأربعين من عمره. كان في حياة والده مشاركاً فاعلاً في شؤون الحكم، وهذا ما أكسبه خبرة واسعة في هذا الميدان مكنته من قيادة سفينة الحكم في الأندلس قيادة ناجحة بكل المقاييس. وكانت عظمة والده وازدهار دولته حافزاً كبيراً له لأن يهتم بالمسائل الثقافية، التي شغلت حيزاً مهماً من نشاطه العام، وهذا الاهتمام هو الذي ميزه عن والده بشكل خاص، ذلك أنه في المجال القيادي كان صورة طبق الأصل عن والده. ففي مجال السياسة الخارجية، كانت أعماله برمتها استمراراً لأعمال أبيه الناصر

(١) ابن خلدون . العبر ج٤ ص ١٤٣ . المقري . نفح الطيب ج١ ص ٣١٢.

لدين الله. وللتدليل على ذلك لا بدّ من دراسة العلاقة مع الفاطميين في المغرب الكبير، والعلاقة بالمعتدين النورمان، والعلاقة بحكام أوروبا وملوكها، وهي من أهم المحاور التي شغلت عبد الرحمن الناصر لدين الله في فترة حكمه الطويلة. ففي مجال العلاقة بالفاطميين في عصر الحكم المستنصر الذي استمر في حكم الأندلس من سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م إلى ٣٦٦هـ/٩٧٦م، فقد كانت علاقة عدائية ومتوترة للغاية، ودليل ذلك أن الحكم المستنصر حضر بنفسه إلى مدينة المرية على الساحل الجنوبي الأندلسي، وهي موازية تقريباً للسواحل التونسية الشمالية، التي كان الفاطميون يركزون فيها أهم قواتهم البحرية، التي كانت تثير مخاوف أمويي الأندلس، وبقي في المرية فترة من الزمن أمضاها في معاينة الحصون والاستعدادات المعدة لمواجهة أي هجمات فاطمية مرتقبة، لأن الأمويين في الأندلس حتى هذا الوقت كانوا مازالوا يعتقدون أن الفاطميين، مازالوا بدورهم يركزون على مسألة السيطرة على الأندلس، مع أن هذا الأمر لم يعد مهماً في نظر الفاطميين، وأصبحوا يتطلعون إلى المشرق، بدليل محاولاتهم السيطرة على مصر، ولعل السبب في هذا التحول في برنامج الفاطميين السياسي، يعود إلى ما واجهه الفاطميون من ثورات مغربية وتقلبات في مواقف المغاربة من الوجود الفاطمي في المغرب، هذا بالإضافة إلى الضغوط الأموية المستمرة.

وبالفعل، فقد نجح الفاطميون في السيطرة على مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م في عصر المعز لدين الله الفاطمي، وقد نفذ عملية الهجوم العسكرية على مصر القائد جوهر الصقلبي، الذي أمر في السنة نفسها ببناء مدينة القاهرة عاصمة مصر العربية اليوم، وسميت بالقاهرة المعزية نسبة للخليفة الفاطمي المعاصر المعز لدين الله الفاطمي، الذي انتقل من المغرب إلى مصر سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م. وحينما غادر المغرب كلّف بعض المقربين إليه من الصنهاجيين بحكم المغرب كممثلين للفاطميين، وهم بنو زيري الذين كانوا يمثلون الزعامة في صنهاجة. وبذلك تكون المخاوف الأموية في الأندلس قد خفت إلى حد كبير. وفي الوقت نفسه، انقسم المغرب الكبير في ميدان الولاء إلى قسمين، القسم الشرقي الذي بقي تحت الزعامة

الزيرية الصنهاجية، والقسم الغربي الذي تمثل بالمغرب الأقصى فقد بقي تحت الزعامة الزناتية المناوئة للفاطميين والزيريين والمؤيدة للأمويين في الأندلس.

رغم ما حصل في المغرب من تطورات كانت برمتها في صالح الأمويين في الأندلس، فإن الحكم المستنصر بقي يعاني من هاجس الوجود الفاطمي في المغرب، ورأى من الضرورة، لحفظ الأمن الأندلسي، أن تبقى سيطرة الأمويين قائمة على شمال المغرب الأقصى، وبخاصة في حواضره المهمة والقريبة من منطقة جبل طارق بجنوب الأندلس، وهي سبتة ومليلة وطنجة. لكن غياب الفاطميين الفعلي عن هذه المنطقة، أدى إلى محاولة القوى التي كانت في المنطقة قبل الفاطميين، وهي القوى الإدريسية، إعادة مجدها القديم عبر حركة تمرد قادها الحسن بن كنون سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م، الذي تمكن من السيطرة على طنجة وأصيلا وتطوان، وقطع صلة الولاء للأمويين، وجعل قاعدته في حجر النسر[١]. وقد وجد الحكم المستنصر من خلال هذا التطور حجة للتدخل المباشر في المغرب الأقصى، رغم أن الزناتيين الموالين له كانوا يسيطرون عليه تماماً. فبادر إلى إرسال قوة عسكرية برية وبحرية من مضيق جبل طارق تحت ستار حماية الأندلسيين من الأدارسة الشيعة، وهو أمر كان يستخدم كثيراً في العصور الوسطى لتحقيق أهداف معينة، أدى مع الأيام وكثرة التكرار إلى تدمير وحدة الأمة العربية في عدد من المناطق، وفي كثير من الأحيان، وهو يعد من أكبر مثالب الأمة العربية في العصور الوسطى. وقد تمكنت القوات الأندلسية بقيادة عبد الرحمن بن الرماحس من إلحاق الهزيمة بقوات الحسن بن كنون بمدينة طنجة، التي سقطت في إيدي الأندلسيين سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م[٢] ثم سقطت بعد ذلك أصيلا، لكن الحسن بن كنون قام بتنفيذ هجوم مضاد على مدينة طنجة، هُزم الأندلسيون على إثره وانسحبوا إلى

---

(١) ابن أبي زرع . روض القرطاس ج ص١٣٧.

(٢) ابن حيان . المقتبس. قطعة خاصة بعصر الحكم المستنصر . نشرها عبد الرحمن حجي ص٨٩.

مدينة سبتة. وحينما وصلت هذه الأخبار إلى الحكم المستنصر، استشاط غضباً وطلب على وجه السرعة القائد غالب بن عبد الرحمن، الذي كان موجوداً في مدينة سالم، وحينما وصل إلى قرطبة انضم إليه جيش كبير كان الحكم المستنصر قد أمر بتجهيزه، وأطلق له حرية التصرف في قيادة هذا الجيش، الذي أمره بالتوجه إلى المغرب الأقصى على الفور لمعالجة الأوضاع المضطربة هناك، وفي الوقت نفسه أرسل إلى القائد البحري عبد الرحمن الذي كان مرابطاً قرب طنجة، أن يتابع تحركات الحسن بن كنون، وألَّا يهاجمه إلا بعد أن يصل القائد الغالب[١].

ثم استدعى قائد الثغر الأعلى (سرقسطة) يحيي التجيبي بما يملك من قوات عسكرية، وأمره بالتوجه إلى المغرب لمعاونة القائد غالب في مهمته، كما أرسل مجموعة من المراسلين والقضاة والإداريين، وبذلك تجمعت في المغرب الأقصى قوات أندلسية لم يتجمع مثلها من قبل، وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدل على حقد فظيع من الحكم المستنصر على الأدارسة، الذين كانوا بالأمس من حلفائه، ويا ليته استخدم هذه القوات لإزالة القوى الإسبانية المتربصة بشمال وشمال غرب الأندلس، ولو فعل ذلك لكان خيراً له وللأمة برمتها، وكان ذلك سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م[٢]. ومنذ ذلك الحين هدأت الأحوال في المغرب الأقصى، وأصبح الأمويون يعينون من قبلهم من يرونه مناسباً لحكم المنطقة من الأندلسيين.

لكن ما جرى في المغرب الأقصى من أعمال إيجابية بالنسبة لأمويي الأندلس، لم يكن يساوي شيئاً في مقابل ما حدث في الشمال الأندلسي والشمال الغربي، فقد استغل زعماء حركة الاسترداد الإسبانية خلو الثغور من القوات العسكرية العربية، وبدؤوا ببعض النشاطات المعادية في هذه المناطق، الأمر الذي دفع الوزير الأول في حكومة الحكم المستنصر وهو جعفر بن عثمان المصحفي، الذي أصبح في هذه الفترة المسؤول الأول في الأندلس، ذلك أنَّ الحكم المستنصر

---

(١) ابن حيان . المصدر السابق ص٩٧ وما بعدها.

(٢) ابن حيان . المصدر السابق ص١٥٠ وما بعدها.

أصيب بشلل نصفي أقعده عن العمل، يستدعي قائد الثغر الأعلى يحيي التجيبي من المغرب إلى قرطبة سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م للحاجة الماسة إلى قواته في منطقة سرقسطة لمواجهة النشاط الإسباني هناك. أما بخصوص الحسن بن كنون فقد ذهب مع أتباعه الأدارسة إلى مصر بموافقة الوزير المصحفي(١).

إلى جانب الفاطميين في المغرب برز أمام الحكم المستنصر خطر آخر، هو الخطر النورماندي الذي كان مصدره قريباً من الأندلس، أي الذي كان يأتي من غرب فرنسا من منطقة نورمانديا، سابقة الذكر. لقد برز هذا الخطر في وقت كان فيه الأسطول الأندلسي البحري في أوج قوته واستعداده لمجابهة أي هجوم متوقع. لقد كان الحكم المستنصر يأمر على الدوام بإرسال استخباراته ورجال استطلاعه إلى أبعد نقاط إسبانيا في الشمال الغربي، وهي شنت ياقب، للوقوف على أخبار وتحركات النورمان، هذا بالإضافة إلى أنه كان قد اتفق مع بعض المسؤولين في دول إسبانيا الشمالية، على أن يوافوه بأخبار وأنشطة هؤلاء النورمان عند الضرورة، وقد تم ذلك في أوقات كثيرة، لأن دول الشمال الإسباني ممثلة بزعمائها، كانت تتسابق لكسب ود الحكم المستنصر كما كان الأمر في حياة والده الناصر لدين الله(٢).

ومن أحسن أفعال الحكم المستنصر في تحصين وحماية بلاده من خطر النورمان، أنه كان يرسل حملات بحرية بين الفينة والأخرى إلى سواحل الأندلس الغربية للوقوف على أنشطة النورمانديين وردعهم في الوقت المناسب، أو منعهم على الأقل من تحقيق عنصر المباغتة كما حصل في عصر الإمارة الأموية، حينما فوجئ الأندلسيون بوجود النورمان في الوادي الكبير وإشبيلية.

أضف إلى ذلك أنَّ الحكم المستنصر، أمر بصنع مراكب حربية مشابهة لمراكب النورمان في كل شيء، كانت تتخذ من الوادي الكبير مستقراً لها، وكانت على الدوام بحالة استنفار لمواجهة كل الاحتمالات(٣).

---

(١) أحمد مختار العبادي . المرجع السابق ص٢١٩.

(٢) ابن حيان . المصدر السابق ص٢٥٤ وما بعدها.

(٣) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٣٥٦ . ابن حيان . المصدر السابق ص٢٧ وما بعدها.

ورغم هذه الاستعدادات الكبيرة للأندلسيين، فإن النورمان هاجموا السواحل الغربية الأندلسية، وبخاصة السواحل البرتغالية اليوم، فقد هاجموا سنة ٣٥٥هـ/٩٦٦م مقاطعة قصر أبي دانس في جنوب البرتغال، كما هاجموا مدينة لشبونة التي جرت فيها صدامات عنيفة بين الأندلسيين المدافعين عنها وبين النورمان، وفي نتيجة هذه الصدامات استطاع الأندلسيون ملاحقة الأسطول النورماندي حتى وادي شلب، وتمكنوا من تحطيم معظم مراكبه، وقتل المئات من رجاله(١). أما الهجمات التالية فلم تكن في الأهمية ذاتها نتيجة التحفز الدائم في القوات البحرية الأندلسية.

أما بخصوص العلاقات الأندلسية مع الأطراف الإسبانية الشمالية في عصر الخليفة الحكم المستنصر، فقد كانت هي الأخرى استمراراً لسياسة والده الناصر لدين الله، وهي العلاقات التي كانت تقوم على أساس القوة الأندلسية المتماسكة، التي تستطيع في الوقت المناسب ضرب أي حركة معادية للوجود العربي في الأندلس، يكون مصدرها من هذه الدول، التي كان باستطاعة الحكم المستنصر أن ينهي أسطورة وجودها، لأنها كانت مصدر الخطر الأكبر على العرب في الأندلس، وليس كما تصور الناصر لدين الله وابنه الحكم من بعده، من أن الخطر كان في المغرب الكبير ويتمثل بوجود الخلافة الفاطمية، وهو خطأ فادح ارتكبه الخلفاء الأمويون عن قصد أو عن غير قصد، لأن أمر التحالف أو تحقيق الوفاق بين الأمويين والفاطميين كان ممكناً، لأن الفاطميين كانت تهمهم في بداية أمرهم، وهذه البداية هي الفترة الزمنية التي حدث فيها الخلاف مع الأمويين، على المصالح الاقتصادية بالدرجة الأولى من أجل دعم مشروعهم السياسي، وبخاصة أنهم حرصوا على رواج التجارة بين المغرب وغرب أفريقيا عبر بوابات مهمة مثل سجلماسة في جنوب المغرب الأقصى، وتاهرت في شمال المغرب الأوسط، لأن هذه التجارة كانت تجلب لهم أموالاً طائلة اعتمدوا عليها كثيراً في بناء مشروعهم

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٢٥٦. ابن حيان . المصدر السابق ص٦١.

العام. والدليل على إمكان حدوث اتفاق بين الأمويين والفاطميين في هذا المجال، هو ما حدث بين الخوارج في تاهرت وفي سجلماسة وبين الأمويين في الأندلس في عصر الإمارة على صعيد ترويج التجارة بين الطرفين، وقد حدث ذلك رغم أن الخوارج من ألد أعداء الأمويين وبالعكس، فلماذا لم تستمر هذه الحالة بين الأمويين والفاطميين؟ للإجابة عن ذلك نقول: إن السبب الرئيس في هذه المسألة كان نتيجة خطأ كبير من الطرفين، فكلاهما انساق وراء طموحات خيالية، هي تحقيق وحدة الدولة العربية من خلال إعلان الخلافة على أساس مذهبي.

حاولت بعض القوى في شمال غرب إسبانيا، أن تغيّر من حالة الاستسلام لدولة العرب في الأندلس بعد وفاة الناصر لدين الله، ذلك أنَّ هذه الأطراف كانت تظن أن خليفته في الحُكم الحَكم المستنصر، لا يمكنه متابعة مسيرة والده بسبب اهتماماته العلمية، التي ميزته عن غيره من خلفاء هذه الفترة، ومثّل هذه الأطراف بشكل خاص سانشو، الذي كان قد أعطي الحكم بمساعدة العرب في عصر الناصر لدين الله، لكنه عاد عن موقفه تجاه الدولة العربية، بعد أن سمع بذهاب أوردونيو الرابع الذي تسلم الحكم مكانه إلى قرطبة، لكن وفاة أوردونيو المفاجئة شجعت سانشو مرة أخرى للعودة إلى حلبة معارضة الدولة العربية، فلم يجد الحكم المستنصر مفراً من حسم الأمر بالقوة العسكرية وإعادة الأمور إلى حالتها الطبيعية في شمال غرب إسبانيا.

توفي الخليفة الحكم المستنصر سنة ٣٦٦هـ/٩٧٧م والدولة الأموية في الأندلس من أقوى الدول في العالم، كما كانت في عصر والده تماماً، على الرغم من مرضه في سنوات عمره الأخيرة. لكنه، رغم ذلك، وقع في خطأ كبير، كان سبباً في سقوط دولة الخلافة في الأندلس في وقت مبكر، وقد تجسد هذا السبب في اختياره لابنه الصغير هشام لأن يكون الخليفة من بعده، على الرغم من معرفته بأنه لم يكن مناسباً لهذه المهمة الصعبة، فقد كان صبياً غير مكتمل من الناحية العقلية والفيزيولوجية.

ورغم أن الحكم المستنصر حرص على أخذ العهد بالوفاء والتأييد لابنه هشام من رجال دولته الكبار، فإنه فشل في هذا المجال من خلال تصديق هؤلاء الرجال، الذين انقسموا حول من سيكون خليفة الأندلس بعد وفاته. فكبار الموظفين من وزراء وغيرهم وافقوا على أن يتولى الطفل هشام بن الحكم، لأنهم كانوا يرون ذلك استمراراً لمصالحهم الخاصة ومراكزهم في الدولة. أما الجند ومن في حكمهم فلم يرضهم أن يكون في قمة الهرم الحكومي طفل غير سوي من الناحية العقلية. أما بقية الناس فقد انقسموا إلى فرقاء متباينين، بعضهم وقف على الحياد، وبعضهم حلم بمجيء من يوفر لهم الرخاء والبساطة والأمن واليسر، وبعضهم لم يهتم بالأمر[١].

وبذلك يكون الصراع حول الخليفة الجديد، قد انحصر بين كبار موظفي الدولة وبين طبقة الجند. فالجند الذين كانوا في هذه الأزمة من العناصر الصقلبية بنسبة كبيرة، وقد تزعمهم اثنان من كبار المقربين إلى الخليفة المتوفى، هما فائق وجؤذر، اتفقوا برمتهم على عزل هشام بن الحكم بحجة أنه طفل صغير لا يصلح للحكم، وولوا بدلاً عنه عمه المغيرة بن عبد الرحمن الناصر لدين الله. لكن الفريق الآخر من كبار موظفي الدولة، وقد تزعمهم كبير الوزراء آنذاك جعفر بن عثمان المصحفي، وساعده محمد بن أبي عامر الذي كان بمرتبة وزير، قرر هذا الفريق تنفيذ إرادة ورغبة الخليفة المتوفى الحكم المستنصر باعتماد ابنه هشام في الحكم. وسارع هذا الفريق إلى ارتكاب جريمة مروعة، تجسدت بقتل المغيرة بن عبد الرحمن الناصر مرشح الصقالبة وإبعاده نهائياً عن الخلافة. وبذلك اعتمد هشام في حكم الأندلس رغم ما فيه من النواقص الخلقية والعقلية وصغر سنه، ولقبوه بالمؤيد ويعرف بهشام الثاني. وفي مستهل حكمه سيطرت عليه والدته صبح البشكنشية، التي تعود في أصولها إلى سكان نبارة من البشكنش، وقد كانت في بداية عمرها تعمل مغنية فاختارها الحكم المستنصر لتكون واحدة من محظياته، وأنجبت له ابنه هشاماً، ومع الأيام سيطرت على إرادة الحكم المستنصر في كثير من الأمور، وهي

---

(١) ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص٤٤ وما بعدها.

التي مهدت لظهور شخصية الوزير محمد بن أبي عامر، لأن هشام بن الحكم المستنصر أي هشام المؤيد لم يكن يهتم بأي أمر من أمور الدولة أو الحكم، بقدر ما كان مهتماً بترهاته وتلبية رغباته وعواطفه، فقد أمضى حياته في التنزه واللهو ومعاشرة النساء والانشغال في أشياء تافهة لا قيمة لها في الحياة العامة(١).

اشتهر في فترة خلافة هشام المؤيد الوزير محمد بن أبي عامر، من خلال سيطرته على كل مقدرات الحكم في الأندلس، رغم أنه لم يكن يمت إلى الأسرة الأموية بصلة، فهو من أصل يمني من قبيلة معافر اليمنية، ويضاف في آخر اسمه الكامل اسم المعافري، وكان جده عبد الملك قد دخل الأندلس مع حملة طارق بن زياد، وقد أبلى بلاء حسناً في العديد من المواقف الحربية في سياق عملية فتح الأندلس، وهذا ما منحه مكانة مرموقة في المجتمع العربي الجديد هناك، وتوارث هذه المكانة أبناؤه من بعده، فحصلوا على مناصب رفيعة في الإدارة العامة في الأندلس. وكان والد محمد بن أبي عامر من المهتمين بالعلوم الدينية، وقد توفي بمدينة طرابلس الغرب في أثناء عودته من رحلة الحج(٢).

تربى محمد بن أبي عامر تربية صالحة، وفرها له والده الذي كان يُعد من العلماء بقرطبة، وقد ترافقت هذه التربية مع طموح لا يقف عند حد، فقد كان محمد ابن أبي عامر يحلم منذ طفولته بأن يكون رجلاً مهماً في المجتمع العربي في الأندلس، لهذا نراه يركز على التحصيل والعلم، فدرس في جامع قرطبة علوم اللغة العربية على كبار علماء عصره من أمثال أبي علي القالي صاحب كتاب الأمالي، الذي كان قد جاء إلى الأندلس قادماً من مدينة بغداد، وأبي بكر بن القوطية صاحب كتاب تاريخ افتتاح الأندلس، وغيرهما كثير، وإلى جانب اللغة العربية انكب على دراسة علوم الشريعة من حديث وفقه وما إلى ذلك. ويُقال إنه حصَّل علوماً مفيدة، مكنته من الاشتغال بكتابة العرائض في دكان إلى جوار قصر الخليفة بقرطبة،

---

(١) ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص٥٨.

(٢) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٢٥٧.

فاشتهر أمره وبلغ خبره سيدة قصر الخلافة السيدة صبح أم الخليفة هشام، فاستدعته إلى قصرها وكلفته بإدارة أعمالها وأملاكها الخاصة، وقد برز في ذلك وتفوق إلى حد إعجاب هذه السيدة به، فتوسطت له عند زوجها الحكم المستنصر، فولاه وظيفة صاحب دار السكة، ثم تولى قضاء ولاية ريه، ثم أصبح مشرفاً عاماً على أموال الزكاة والمواريث في مدينة إشبيلية، وكذلك الشرطة فيها، ثم أصبح وكيلاً لابنه هشام المؤيد، وهكذا بقي يترقى في سلم الوظائف الإدارية حتى وصل إلى مرتبة حاجب (وزير) في أواخر حكم الخليفة الحكم المستنصر(١).

وحينما تآمر على حياة مرشح الصقالبة المغيرة بن عبد الرحمن، وجد أن الوصول إلى أهدافه مازال بعيد المنال، بسبب وجود العديد من الشخصيات التي لا توافقه هذا الأمر، فبدأ في اتباع طريق الإيقاع بين هذه الشخصيات بشتى السبل، ونجح إلى حد كبير في ضربهم بعضهم ببعض حتى وصل إلى غايته المرجوة.

كان في طليعة هذه الشخصيات رئيس الوزراء (الحجاب) جعفر بن عثمان المصحفي، الذي كان قد تعاون معه لقتل مرشح الصقالبة، فحاول بداية الأمر أن يستفيد من نقمة الصقالبة عليه، ثم بقي يتدرج في تقليص سلطته حتى تمكن من إقناع الخليفة بعزله عن رئاسة الوزراء ووضعه في السجن في مدينة الزهراء، وكان يسمى هذا السجن بسجن المطبق، وبقي في السجن حتى تمكن محمد بن أبي عامر من تدبير مؤامرة أنهت حياته خنقاً(٢).

بقي أمامه بعد موت جعفر بن عثمان المصحفي شخصية أخرى قوية، تمثلت هذه الشخصية بالقائد غالب، الذي كان من أهم القادة العسكريين في الأندلس، ما مكنه من الوصول إلى قيادة ثغر سالم الواقع إلى الشمال من مدريد بمئة وخمسين كيلومتراً. وحينما كان ابن أبي عامر في بداية سعيه لتحقيق أهدافه،

---

(١) الحسن النباهي . تاريخ قضاة الأندلس ص٨١ . ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص٧٨.

(٢) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٢٨٦.

حاول رئيس الحجاب جعفر بن عثمان المصحفي أن يتقرب من القائد غالب من خلال طلب ابنته أسماء لابنه، لكن محمد بن أبي عامر حال دون إتمام هذه العملية، وتمكن من خطبة أسماء لنفسه بتأثير أو ضغط من أم الخليفة أو من الخليفة نفسه، ثم تزوجها بعد ذلك. لكن هذا لم يقف أمام طموحات محمد بن أبي عامر في ضرورة التخلص من القائد غالب، وهذا ما حصل بالفعل حينما لجأ محمد بن أبي عامر إلى الاعتماد على قوة مغربية، سماها جند الحضرة أي عسكر العاصمة، وكانت هذه المجموعة من العسكر المغاربة تحظى باعتناء محمد بن أبي عامر وعنايته، ما جعلها أداة طيعة في يده، وخشي القائد غالب من تطور سيطرة هذه المجموعة لصالح صهره محمد بن أبي عامر، فأخذت العلاقات تتوتر بينهما حتى وصلت إلى درجة الصدام سنة ٣٧١هـ/٩٨٢م، وكانت نتيجة هذا الصدام موت القائد غالب إثر سقوطه عن ظهر فرسه[١].

وبذلك انتهى محمد بن أبي عامر من أعتى خصومه، وتلقب منذ ذلك الحين بالمنصور، وبدأ رحلة حكمه التي استمرت إلى أول التسعينيات من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وكان يتساوى مع الخليفة في كل شيء، فأمر الوزراء ومن في حكمهم بتقبيل يده وإظهار كل الاحترام والتقدير لشخصه، أي أنه أصبح الحاكم الفعلي للبلاد، ولم يكن للخليفة هشام المؤيد سوى الاسم[٢].

على الرغم من أن المنصور محمد بن أبي عامر أصبح الحاكم الفعلي للأندلس، إلَّا أنه لم يكن مرتاحاً لثقة الناس به، ذلك لأنه كان يعاني من مشكلة في داخله، تجلت بأنه كان يشعر أنه مغتصب للحكم الأموي، هذا الحكم الذي كان الناس في الأندلس يعدّونه الحكم الشرعي الوحيد في البلاد. وقد انعكس هذا الواقع على أعماله العامة طوال حكمه، فكان أحياناً مع صالح البلاد، وكان في أحيان أخرى لغير صالح البلاد. من ذلك أنه لجأ منذ الفترة الأولى لاستئثاره

---

(١) ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص ٦٤.

(٢) ابن عذاري . ٢٦٠ ص ٣٧٩ وما بعدها . ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص ٧٧.

بالحكم إلى سلوك طريق الجهاد والغزو والمناضلة، ضد التجمعات الإسبانية المعادية في الشمال الغربي، فقد نفذ في هذه المناطق أكثر من خمسين غزوة، قادها بنفسه رغم أنه كان يعاني من مرض النقرس. ومن حسن حظه أنه لم يُهزم في واحدة منها، وكان يحرص أن يجمع ما علق على وجهه وثيابه من غبار، ويأمر بوضعه في قارورة خاصة أوصى أن توضع في قبره حين وفاته، وكان يحمل هذا الغبار في حله وترحاله خوفاً من أن يباغته الموت(١).

ووصل في واحدة من غزواته إلى منطقة شنت ياقب (القديس يعقوب) في الشمال الغربي من الأندلس، وهي منطقة لم يصلها عربي قبله. وبذلك يكون قد حافظ على هيبة الدولة العربية، التي سادت وأثرت على دول إسبانيا المعادية في عصر الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر، وهي الدول الإسبانية التي عُرفت في هذا العصر بدولة قشتالة وليون ونباره وبرشلونة وقطالونيا. وقد قيل إن الغزوة التي وصل فيها إلى شنت ياقب، حملت الرقم الثامن والأربعين. وشنت ياقب هي منطقة كانت مقدسة عند المسيحيين في العصور الوسطى، ذلك لأن القديس يعقوب قد توفي ودفن فيها، فأقيمت فوق ضريحه كنيسة كبيرة، كان يحج إليها المسيحيون، لأن هذا القديس كما قيل كان قريباً جداً من السيد المسيح حتى سماه البعض باقي المسيح، وما زالت مدينة شنت ياقب تتمتع بهذه المكانة الدينية الكبيرة عند المسيحيين حتى اليوم. ومن هنا كانت غزوة المنصور محمد بن أبي عامر لها. أي أنه كان يريد أن يحطم شيئاً من كبرياء دول الشمال الإسبانية في الميدان الديني.

كان من نتائج هذه الغزوات المتتالية التي نفذها المنصور محمد بن أبي عامر، أنها أدت إلى تحسين مكانته في نظر العامة في الأندلس، وأصبحت سمعته منتشرة في كل أنحاء البلاد، تعطرها فحوى أعماله الجهادية في بلاد المعارضة الإسبانية. وكان في كل غزوة يصطحب معه أعداداً كبيرة من الفتيات الجميلات الأسيرات، ما ساعد على تشجيع الإقدام على الزواج، بعد أن رخصت

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص ٢٨٨.

المهور، وبذلك ندر الإقبال على النساء العربيات، اللواتي كانت مهورهن عالية للغاية. ولهذا دعي المنصور في الفترة الأخيرة بالجلاب، أي الذي كان يجلب لهم الفتيات والخيرات في أثناء غزواته، وكانت كلمة الجلاب قبل المنصور تعني عند الأندلسيين بائع الرقيق أو الدواب(١).

ولم تكن هذه الناحية هي التي حسنت مكانته في نظر الأندلسيين بشكل عام، وأنستهم ما فعله على صعيد اغتصاب الخلافة والحكم، بل ترافق ذلك مع عمل غير حضاري على الإطلاق، هو أنه أقدم بوحشية على إحراق محتويات مكتبة الخليفة الحكم المستنصر من المؤلفات الفلسفية والعلوم المتعلقة بها من رياضيات وكيمياء وهندسة وما إلى ذلك من علوم كانت تسمى في العصور الوسطى العلوم القديمة أو علوم الأقدمين. وكان يريد في المقام الأول من هذا العمل المشين، أن يفوز برضا رجال الدين الذين كانت مهمتهم الرئيسة محاربة هذه العلوم تحت حجة باطلة، هي أنها تضر في مصلحة الدين والشريعة. وبذلك يكون المنصور قد جند طبقة المتدينين إلى جانب مشروعه في الحكم، ولكن على حساب استمرارية تقدم الأمة وتفوقها في الميدان العلمي العام(٢).

رغم أن هذه الغزوات الحربية شغلت حيزاً كبيراً من وقت المنصور محمد بن أبي عامر، فإنه اهتم بالمغرب اهتماماً كبيراً فاق كل التوقعات. وأراد بذلك أن يقلد تلك السياسة الجادة التي نفذها الخلفاء الأمويون السابقون، وهي سياسة تقوم على أساس أن يبقى المغرب تحت السيطرة الأندلسية، حتى لا يفكر الفاطميون من جديد في أن يعودوا إلى إحياء مشروعهم القديم القائم على احتواء الأندلس والسيطرة عليها.

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج٣ ص ١٣.

(٢) المقري . نفح الطيب ج١ ص ٣٧٢ وما بعدها . ابن الخطيب . أعمال الإعلام ص ٥٨ وما بعدها.

ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص ٣٧٥. عبد الواحد المراكشي . كتاب المعجب طبعة القاهرة ١٩٤٩ ص ٣٨.

وبلغ المنصور أوج نجاحه في هذا المجال، حينما دخلت في طاعته المنطقة المغربية الممتدة من سجلماسة في جنوب المغرب الأقصى وهي منطقة تافيلالت اليوم، إلى تلمسان وتاهرت في المغرب الأوسط في الشرق، وهي مناطق لم يصلها الأمويون قبل المنصور، الذي استطاع في الوقت نفسه أن يرد على كل الحركات المعارضة التي قامت ضده في هذه المنطقة في الوقت المناسب، إذ كان قد خصص لهذه الغاية قاعدة عسكرية دائمة الاستعداد والتحفز بالجزيرة الخضراء بجنوب الأندلس. ومن الحركات المعارضة التي واجهها المنصور في هذه المنطقة، تلك التي قامت سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م بقيادة بلقين بن زيري الصنهاجي، وتلك التي قامت سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م في المغرب الأقصى بقيادة الحسن بن كنون الإدريسي، الذي كان في مصر لاجئاً قبل ذلك، والذي وقفت إلى جانبه تسانده بعض قبائل زناتة مثل بني يفرن وغيرهم. وحينما فشلت حركته طلب من المنصور أن يمنحه العفو، فرفض طلبه وأمر بقتله[1] لأن الحسن هذا كان قد مُنح عفواً في عصر الحكم المستنصر كما مر معنا سابقاً. وتلك التي قام بها زيري بن عطية المغراوي الزناتي سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م، وهو حليف المنصور ضد حركة الحسن بن كنون سابقاً، وكان أن كافأه فجعله ممثله في حكم المغرب، وسارت الأمور بين الطرفين في البداية سيرة طيبة، لكنها تغيرت على حين غرّة حينما نزعت نفسه إلى الاستقلال عن السلطة الأندلسية، فقام بطرد جميع العمال الأندلسيين من المغرب، ما عدا أولئك الذين كانوا يرابطون بسبتة وطنجة ومليلة. وقد حصل ذلك تحت شعارات عديدة أطلقها لتبرير أعمال منها أنه كان متأففاً من حجر المنصور على هشام المؤيد، وهذا ما دفع أمَّ هشام صبح البشكنشية لتطلب منه إرسال قوات مغربية إلى الأندلس كي تعيد لابنها هيبته

---

(١) مؤلف مجهول. مفاخر البربر. نشره ليفي بروفنسال ص١٦ وما بعدها. ابن أبي زرع. روض القرطاس ج١ ص٤١ . الناصري . الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ج١ ص ٢٠٣ وما بعدها.

وحكمه، وأرسلت لهذه الغاية الكثير من الأموال، لكن المنصور اكتشف هذه الخطة قبل أن تنتقل الأموال إلى المغرب(١).

كانت ردة فعل المنصور على هذا الحدث سريعة جداً، فأمر بعزل زيري بن عطية من مرتبة الوزارة، التي كان قد منحه إياها، وأمر بتجهيز قوات عسكرية لإرسالها إلى المغرب، وفي السنة التالية أي سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م، نزلت هذه القوات بطنجة، وبسرعة انتقلت إلى مدينة فاس، لكنها فشلت في الوصول إليها أمام قوات زيري بن عطية، فعادت منهزمة إلى طنجة، وحينما سمع المنصور بهذه الأخبار، خرج بنفسه بكل قواته الأندلسية التي كانت ترابط في الجزيرة الخضراء، فنزلت بسبتة، واتحدت ضدها كل فروع قبيلة زناتة تحت زعامة زيري بن عطية، ودارت معارك قاسية بين الطرفين بوادي مني بجوار مدينة طنجة، انهزمت في نهايتها القبائل الزناتية، وقتل زعيمها زيري بن عطية، ودخلت القوات الأندلسية بعد ذلك مدن فاس وسجلماسة وتادلا وغيرها. وبذلك عادت السلطة الأندلسية على المغرب الأقصى من جديد بقيادة أحد قادة الحملة الأندلسية واضح الصقلبي سنة ٣٨٩هـ/٩٩٩م(٢).

بعد مقتل زيري بن عطية خلفه في زعامة قبيلة زناتة ابنه المعز، الذي عزف عن سياسة والده، واختار سياسة المصالحة مع الزعيم الأندلسي المنصور محمد بن أبي عامر وأعلن له الولاء وحق السيطرة الأموية الأندلسية على المغرب، التي يمثلها المنصور محمد بن أبي عامر، الذي كان يحلم على ما يبدو في استخدام المغرب ككل كقاعدة انطلاق إلى مصر لضرب الوجود الفاطمي فيها(٣). وبذلك استقرت الأمور في المغرب طوال الفترة التي حكم إبَّانها المنصور المعافري، التي استمرت حتى سنة ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م.

---

(١) ابن أبي زرع . روض القرطاس ج١ ص ١٦١ . ابن بسام . الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة المجلد الرابع القسم الأول ص ٥٢ وما بعدها.

(٢) ابن أبي زرع . روض القرطاس ج١ ص ١٦٤ وما بعدها.

(٣) المقري . نفح الطيب ج١ ص ٣٨٣.

بقي أن ننوه بالعلاقات الدبلوماسية مع دول أوروبا، بما فيها دويلات إسبانيا في المنطقة الشمالية والشمالية الغربية. في عصر المنصور. لقد سارت هذه العلاقات على الخط الذي رسمه الخلفاء السابقون، فقد بقيت العلاقة مع بيزنطة ودية للغاية، وكذلك كان الأمر مع الملك أوتو الثالث، الذي كان يسيطر على ألمانيا وإيطاليا، وشجع على ازدهار هذه العلاقة، أن هذا الإمبراطور كان ميالاً إلى قضية ضرورة أن يسود السلام في المنطقة. كما كانت العلاقة بدول إسبانيا الشمالية الغربية والشمالية علاقة طيبة، الأمر الذي أدى إلى زواج المنصور بابنة ملك نبارة أمّ ولده عبد الرحمن الذي عُرف باسم شنجول نسبة إلى جده والد أمه سانشو، وشنجول هو تحريف لسانشو(١).

كانت وفاة المنصور محمد بن أبي عامر سنة ٣٩٢هـ/١٠٠٢م وهو في الخامسة والستين من العمر. وقد حصلت الوفاة في أثناء عودته من غزوة عسكرية، كان قد نفذها في أراضي دولة قشتالة، وقد جُرح في هذه الغزوة، ويبدو أن هذا الجرح كان سبب وفاته. ودفن بمدينة سالم، وكتبوا على ضريحه هذين البيتين:

آثاره تنبيك عن أخباره ... حتى كأنك بالعيون تراه
تالله ما ملك الجزيرة مثله ... حقاً ولا قاد الجيوش سواه(٢)

وفي عصره شهدت الأندلس ظاهرة إيجابية، تجسدت في توفير الأمن والطمأنينة في كل أنحاء البلاد على الصعيدين الخارجي والداخلي، كما نعم الناس بتوفير العدل من خلال إعطاء القضاة ثقة مطلقة وعدم التدخل في شؤون أعمالهم القضائية، وهو أمر سنفصل فيه في بحث القضاء في الأندلس. ونستطيع القول، إنه أمضى حياته في العمل المستمر، من أجل أن تكون فترة

---

(١) أحمد مختار العبادي . المرجع السابق ص ٢٤٧.

(٢) ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص ٨١ . ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص ٣٠١.

حكمه لا تقل من حيث إيجابياتها العامة عن فترة حكم الخلفاء الأمويين، الذين سبقوه في الحكم، وكانت الدولة الأموية في عصرهم دولة عزيزة الجانب قوية البنيان، ذلك لأنه كان يشعر على الدوام أنه حاكم غير شرعي، اغتصب السلطة بالغلبة والقوة والهيمنة.

جاء بعده إلى سدة الحكم في الأندلس ابنه عبد الملك، الذي انتقى لنفسه لقب المظفر سيف الدولة، وقد اعتمد من الخليفة هشام المؤيد لأن يكون حاكماً على الأندلس في مكان والده. وقد كان صورة طبق الأصل عن والده تماماً، لأنه حرص حرصاً شديداً على أن تبقى دول الشمال الإسباني في حالة سكون، وذلك من خلال الإبقاء على القوة الأندلسية الرادعة في الوقت المناسب. كما حرص أن تبقى عوامل العدل بين الناس متوافرة إلى حدٍ كبير، وهو أمر في غاية الأهمية لأنه يدفع الضرّ والظلم عن الناس، كما بقي على سياسة والده في التقرب من رجال الدين خشية أن يقفوا ضده على عادتهم، وبذلك حصل على محبة وتأييد الناس في الأندلس إلى درجة كبيرة(١).

أراد من ناحية أخرى أن ينفذ العديد من الغزوات في أراضي عدد من الدول الإسبانية، وبلغت هذه الغزوات سبع غزوات، وكان هدفها في المقام الأول أن يشعر قادة هذه الدول، أنه لا يقل في حال من الأحوال عن والده أو عن الذين سبقوه من الخلفاء الأمويين في مجال الحرص على السيادة والاستقلال والعظمة والريادة، وهذا ما توافر له في فترة حكمه التي لم تكن طويلة(٢).

كذلك، اتسمت سياسته تجاه المغرب بالشدة والحزم والمتابعة، ما جعل الزعامة المغربية تعلن له الطاعة والولاء، وبادرها هو بأن أقدم على تعيين

---

(١) ابن الخطيب. أعمال الأعلام ص ٨٤ وما بعدها.

(٢) ابن عذاري. البيان المغرب ج٣ ص ٧.

المعز بن زيري حاكماً على المغرب بدلاً من القائد الأندلسي واضح الصقلبي(١). وفي عصره القصير قامت في المغرب الأدنى ثورة ضد الفاطميين، قام بها وقادها أحد الأندلسيين، وهو الوليد بن هشام من ولد المغيرة بن عبد الرحمن الداخل، ويعرف أيضاً بأبي ركوة. كان قد خرج من الأندلس على هيئة متصوف، وفي المغرب الأدنى عمل في تدريس وتعليم الصبيان. ومع مرور الأيام تحسنت أحواله في المجتمع كشخصية لها قيمة خاصة، ما جعله يدعو على المنابر للخليفة الأندلسي هشام المؤيد، وفي المقابل كان يشتم ويسب الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، وهو مرض ابتليت به الأمة منذ وقت مبكر من ظهور الإسلام. ويبدو أن الحاكم بأمر الله قد سمع بهذا الثائر، الذي اعتمد على مشاعر الحقد لاستمرار ثورته واستقطاب الناس إليها وتأييدها، فأرسل له بعض الحملات من مصر، واستطاع هذا الثائر سنة ٣٩٧هـ/١٠٠٧م، أن يلحق الهزيمة بها، وقيل إنه لاحقها حتى أهرام الجيزة بغرب القاهرة اليوم. لكن الحاكم بأمر الله استطاع بعد فترة وجيزة ملاحقة هذا الثائر إلى مقاطعة برقة، التي كانت تخضع لسيطرته، فهزمه وأسره واصطحبه معه إلى القاهرة حيث قطع رأسه(٢).

توفي عبد الملك المظفر سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٩م نتيجة ذبحة صدرية حادة. فخلفه أخوه عبد الرحمن المعروف بشنجول. وكان على غير صورة أخيه وأبيه، فقد كان رجلاً أحمق مغروراً، ما جعله يطمح لأن يصبح الخليفة الفعلي، فتقدم بطلب إلى الخليفة هشام المؤيد، يطلب منه فيه أن يوافق على اعتماده ولياً لعهده، وقد وافق هشام المؤيد على هذا الطلب دون أي تفكير بما سيسببه من تطورات سياسية. ومنذ ذلك الوقت صار شنجول يعطي لنفسه ألقاباً خلافية، كان منها ناصر الدولة، والناصر لدين الله، والمأمون وما إلى ذلك.

---

(١) السلاوي . الاستقصا ج١ ص ٢١٧.

(٢) المقريزي . اتعاظ الحنفا ص ٣٠٥.

وقد أدت تصرفات عبد الرحمن شنجول إلى تحرك الأمويين وبعض العصبيات العربية مثل العصبية المضرية على وجه السرعة ضد ما فعله شنجول، فاستغلوا غيابه في إحدى الغزوات بالشمال، وأعلنوا تمرداً عاماً عزلوا خلاله هشام المؤيد وعينوا رجلاً من أحفاد الناصر لدين الله، هو محمد بن هشام بن عبد الجبار، وأعطوه لقب المهدي بالله. وحينما وصلت أخبار هذه التطورات إلى عبد الرحمن شنجول ترك أعماله القتالية في الشمال، وتوجه على وجه السرعة إلى قرطبة، ولما وصل إلى جوارها تركه معظم من كان معه، فلجأ إلى المهادنة بأن أعلن للثائرين أنه سيتنازل عن كل ألقاب الخلافة، وأنه لا يطلب شيئاً بعد اليوم، لكن عرضه هذا جاء متأخراً فلم يلتفت له أحد من الثائرين، وانتهى به الأمر إلى الوقوع في أيديهم فقتلوه[١].

وهكذا دخلت الدولة العربية في الأندلس مرحلة قاتمة، انقضت جميعها بالخلافات والاضطرابات والتشاحن والانقلابات، فكانت من أصعب مراحل حياة دولة العرب في الأندلس. ففي هذه المرحلة التي امتدت حتى سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٢م تعاقب على حكم الأندلس من الخلفاء الانقلابيين أكثر من كل الحكام الأمويين في الفترات السابقة، وهو أمر لم تشهده الأندلس في أي فترة من الفترات. وفي نهاية الأمر سقطت الخلافة الأموية في الأندلس، وآل الأمر إلى تجزئة الأندلس إلى دول صغيرة هزيلة بلغت أكثر من خمسين، سادت كل دولة على رقعة معينة من أرض الأندلس، في الوقت الذي كانت فيه دول الشمال الإسباني تسير نحو الوحدة والتعاون لوضع نهاية للوجود العربي في الأندلس. أعلن نتيجة ذلك في الأندلس عن عصر جديد دعي بعصر الطوائف[٢]، أي عصر الدول المتفرقة التي بنيت على أسس طائفية وعائلية وإقليمية. وبسقوط هذه الدولة الميمونة سقطت كل الدفاعات العربية في الأندلس ولوقت طويل،

---

(١) عبد الحميد العبادي. المجمل في تاريخ الأندلس ص ١٥٤.

(٢) المقري. نفح الطيب ج١ ص ١٩٨.

وأصبح التدخل الفرنسي أمراً واقعاً في الحياة الأندلسية بكل أشكالها العامة، وبخاصة في مناطق الشمال والشمال الغربي، فأخذت تحرض دول هذه المناطق ضد الوجود العربي في الأندلس من خلال إثارة الحمية الدينية. وقد كان حظ الإسبان في الشمال عظيماً جداً، لأن سقوط الخلافة الأموية وتجزئة تركتها إلى دول عديدة، ترافق مع وجود حاكم إسباني على رأس الدويلات الإسبانية، كان يتميز بالطموح الذي لا يقف عند حد، وهو ألفونسو السادس ملك دولة قشتالة، الذي تمكن من صنع وحدة قوية في الشمال والشمال الغربي، كان قوامها دولة قشتالة وليون وبقية الدويلات المجاورة، ثم عزز هذه الوحدة العظيمة باسترجاع طليطلة من العرب سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م، وهي ما عرف في المصطلح الحربي الأندلسي بالثغر الأوسط، وكان ذلك ضربة قوية للمشروع العربي في الأندلس، لأن الأمر لم يقتصر على استرجاع طليطلة فحسب، بل شمل ذلك كل المدن التي حولها، وهي مدينة سالم، ووادي الحجارة ومدريد، وقونكة، وإقليش، وطلبيرة وغيرها من بلدان، ولأهمية هذا الإنجاز في حياة حركة الاسترداد الإسبانية، أُطلق على طليطلة وما حولها من مناطق مسترجعة اسم (قشتالة الجديدة)، وهذا له دلالته الوطنية في صفوف الإسبان، لأن قشتالة القديمة التي كان يحكمها في هذه الفترة ألفونسو السادس، كانت موئل الحركة الوطنية الإسبانية وأمل كل الإسبان في أن تستطيع إكمال مسيرة الاسترداد إلى النهاية، وهذا ما حصل بالفعل بعد ذلك.

وقد كانت الخلافة الأموية ضحية تآمر العديد من الأحزاب الأندلسية، وبخاصة في الفترة التي تلت وفاة عبد الرحمن شنجول الابن الثاني للمنصور محمد بن أبي عامر، وكان كل حزب من هذه الأحزاب يدَّعي شرعية حزبه وبرنامجه. ولعلّ أهم الأحزاب التي أسهمت في انهيار الخلافة الأموية في الأندلس، هو الحزب العربي الذي تمثل معظمه بطبقة الجند، وهي طبقة دعمت الوجود العربي في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية عصر الإمارة الأموية، وحينما

جاء عصر الخلافة بدأ الخلفاء يعتمدون على عنصر غريب عن العروبة والإسلام، هو عنصر العبيد الصقالبة، ظناً من هؤلاء الخلفاء أن هذا العنصر الجديد سيبقى على الدوام أداة طيعة في أيديهم، لكن ذلك الظن لم يتحقق على صعيد الواقع، وأدى مع الأيام إلى ظهور حالة نفور كبيرة من طبقة الصقالبة في الأندلس، الذين غدوا في الفترة الأخيرة يفضلون على موالي الأمويين أنفسهم. وما حدث في هذا الميدان هو الذي شجع الآخرين على عدم احترام سلطة الخلافة الأموية، وهؤلاء الآخرون كانوا قد تمثلوا بالمغاربة وبالمولدين وبالمستعربين وبطبقة الفقهاء، الذين ابتعدوا في تفكيرهم عن المصلحة العليا للبلاد، وفضلوا على هذه المصلحة مصالحهم القبلية والقومية والإقليمية. وهكذا فقد تكررت في الأندلس تلك المأساة التي حصلت في المشرق للخلافة العباسية، التي تحكَّم فيها الغرباء من ترك وفرس نتيجة غياب العنصر العربي الداعم لكل سلطة عربية.

الفصل السادس

عصر دويلات الطوائف في الأندلس

إذا كان عصر الخلافة الأموية قد عُدّ من أزهى عصور العرب في الأندلس، فإن عصر الطوائف كان من أسوأ العصور العربية هناك على الإطلاق، ذلك أنَّ وحدة الأندلس قد ضربت في العمق، وتجزأت البلاد إلى عدد كبير من الدويلات على أساس طائفي وعرقي وإقليمي وقبلي وما إلى ذلك، وعاد نشاط حركة الاسترداد الوطنية الإسبانية بشكل لم يعهد في الفترات السابقة على الإطلاق، فقد استطاع قادة هذه الحركة أن يسيطروا على الساحة العامة في الأندلس، وانطلقوا إلى مرحلة عظيمة في تاريخ هذه الحركة، حينما استغلوا حالة الانقسام ففرضوا شروطاً على زعماء الانقسام، كانت شروطاً مذلة ومهينة ومدعاة للأسى والأسف على الحالة المزرية التي وصلت إليها دولة العرب في الأندلس بعد عهد من الازدهار والقوة والوحدة والاستقلال وامتلاك زمام المبادرة. وكان من أشد هذه الشروط إيلاماً وأذية، تلك التي تمثلت بفرض الجزية السنوية على كل حكام الأندلس المتفرقين، ولم يستطيعوا أن يرفضوا هذه الشروط أو على الأقل أن يناقشوا الطرف الإسباني بخصوص مقدارها وطريقة تأديتها. وهذا ما سندرسه بالتفصيل في الصفحات التالية.

على الرغم من كثرة دويلات الطوائف في الأندلس، إلَّا أنَّها كانت تخضع عملياً لإرادة ثلاثة من الأحزاب الكبيرة، التي يحاول كل منها أن يستأثر بحكم الأندلس. وهذه الأحزاب هي حزب أهل الأندلس، وهم الذين سكنوا الأندلس منذ

فترة طويلة، وتأثروا مع طول الزمن بالحياة الإسبانية، وأصبحوا أندلسيين، وكانوا من المشرق العربي والمغرب أو من صقلية أو من إسبانيا نفسها، وكانوا يعرفون بأهل الجماعة. ومن أهم قادة هؤلاء بنو عباد بإشبيلية، وبنو جهور بقرطبة، وبنو هود بسرقسطة (الثغر الأعلى)، وبنو صمادح بالمرية، وبنو برزال بقرمونة إلى غير ذلك. ثم يأتي حزب المغاربة الذين جاؤوا من المغرب، وبخاصة من قبيلة صنهاجة في عصر المنصور محمد بن أبي عامر، حيث كان يعتمد عليهم. ومن أهم زعماء هذا الحزب، بنو زيري الذين سيطروا على غرناطة، وبنو حمود الأدارسة العلويون، الذين انتقلوا من المغرب الأقصى إلى الأندلس، واشتركوا في خلافات الأندلسيين، فقد تمكنوا في بداية أمرهم في الأندلس من السيطرة على مالقة بقيادة علي بن حمود، وتابع إلى قرطبة وفيها تمكن من قتل الخليفة المستعين الأموي سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن سنة ٤٠٧هـ/١٠١٧م وأعلن عن دولة جديدة سميت بدولة الحموديين بمالقة[١]. أما الحزب الآخر فقد تمثل بالصقالبة، الذين سيطروا على شرق الأندلس، وعرفت دولتهم بدولة العامريين، لأن عناصر هذه الدولة كانوا من الصقالبة التابعين لمحمد بن أبي عامر، وقد استقلوا بشكل خاص بدانية وجزر الباليار[٢].

خلال الفتنة التي عصفت بالخلافة الأموية في الأندلس، حاول الحزب الأول بقيادة بني عباد، أن يقنع الناس بقرطبة وغيرها أن الخليفة هشاماً المؤيد ما زال على قيد الحياة، فجاؤوا بشخص مشابه له وأعلنوا أنه الخليفة، وظل ذلك قائماً حتى سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م، حينما أعلن المعتضد بن عباد نبأ وفاته وأظهر للناس أن الخليفة المتوفى هو الذي أوصى بإمارته على الأندلس[٣]. وحاول الحزب الثاني بقيادة الحموديين أن يستأثر بخلافة قرطبة، لكن الأمر

---

(١) ابن الخطيب. الإحاطة بأخبار غرناطة ص ٣٦٥. أعمال الأعلام ص ١٤٨ وما بعدها.

(٢) أحمد مختار العبادي. المرجع السابق ص ٢٥٧.

(٣) المراكشي. المعجب ص ٩٦. ابن خلكان. وفيات الأعيان ج٤ ص ١١٣.

لم يتم، فلجؤوا إلى المناطق الجنوبية مثل مالقة والجزيرة الخضراء[1]. ولم يطل ملك الحموديين في هذه المناطق، فقد سيطر العباديون على الجزيرة الخضراء، وسيطر الزيريون على مالقة، فعادوا إلى المغرب.

أما الحزب الصقلبي فقد حاول زعماؤه أن يحيوا الخلافة من جديد في ممالكهم، فقد اعتمد مجاهد العامري في دانية وجزر الباليار خليفة قيل إنه من قريش، يعود بنسبه إلى الأمويين، وهو أبو عبد الله بن الوليد المعيطي الذي عُرف بلقب المنتصر بالله، لكنه لم يستمر طويلاً في هذه الخلافة، فقد طرده العامريون الصقالبة لأسباب تتعلق بالسلطة والسيادة، فلجأ إلى المغرب. وكان زعماء هذه الأحزاب في حكمهم الخلافي يقلدون الخلفاء العباسيين والفاطميين، في أساليب حياتهم وألقابهم الخلافية الدينية حتى قال فيهم ابن رشيق القيرواني:

مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد[٢]

ولا بد من دراسة كل دويلة من هذه الدويلات بشكل منفصل عن الأخرى، للوقوف على حقيقة الضرر الذي حصل جراء إقامتها بديلاً عن الدولة الواحدة. وأولى هذه الدويلات هي:

دويلة بني جهور:

ظهرت هذه الدويلة في العاصمة قرطبة إثر الفتنة التي انتهت بزوال الخلافة الأموية في الأندلس، وقد تزعمها في البداية أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور أحد الشخصيات الكبيرة في الفترة الأخيرة من عصر الخلافة، إذ كان يشغل مرتبة وزير في هذه الفترة. وقد أصر زعماء مدينة قرطبة على أن يكون أبو الحزم بن جهور على رأس دويلة قرطبة، ووافق على هذه المهمة

---

(١) المراكشي. المعجب ص ٦٣ وما بعدها. ابن الخطيب. أعمال الأعلام ص ١٤٩.

(٢) المقري. نفح الطيب ج١ ص ١٩٨.

بشرط أن يشترك معه ويعاونه الزعيمان القرطبيان آنذاك، محمد بن عباس وعبد العزيز بن حسن، ورتبت الأمور على أساس أن يكون ابن جهور هو قائد الدويلة، يعاونه الزعيمان المذكوران في تقديم النصائح والمشورة(١). وقد كانت الأمور صعبة في بداية أمره في الحكم، لأن النظام في مدينة قرطبة كان في حالة اضطراب شديدة، وتسيطر الفوضى والتجاوزات على الحالة العامة فيها، على الرغم من هجرة معظم سكانها خارجها. وقد صور الوزير ابن شهيد هذه الحالة بقوله:

ما في الطلول من الأحبة مخبر … فمن الذي عن حالها نستخبر

جار الزمان عليهم فتفرقوا … في كل ناحية وباد الأكثر

دار أقال الله عثرة أهلها … فتبربروا وتغربوا وتمصروا

في كل ناحية فريق منهم … متفطر لفراقها متحير

وهذه الأبيات تشير بوضوح إلى ضخامة التخريب الذي كان قد حصل بمدينة قرطبة في أيام الفتنة(٢). ومع ذلك فقد استطاع أبو الحزم بن جهور، أن يقلل من تأثير هذه الحالة على أوضاع قرطبة العامة ورتب الأمور على أساس إعادة البناء(٣) من خلال اتباعه أسلوباً عظيماً تجلى في أنه تعامل مع كل الأطراف بدبلوماسية عالية، فلم يلتفت إلى المسائل الطائفية أو التجمعات الإقليمية، وهذا ما جعله يتعامل مع الدول المجاورة تعاملاً قائماً على المرونة والمنفعة المشتركة. وبذلك يكون قد أبعد قرطبة عن التحالفات ضد الآخرين، وأصبحت منطقة حيادية يحترمها الجميع. ومن أجل أن يحافظ على وضع قرطبة الإيجابي هذا، فقد منع دخول الأمويين إليها، لأنه كان يخشى أن يكون هؤلاء أداة فتنة في المستقبل(٤).

---

(١) ابن بسام . الذخيرة ق ١ ج٢ ص ١١٢ . ابن عذاري . البيان المغرب ج٣ ص ١٢٣.

(٢) ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص ١٠٤ وما بعدها.

(٣) ابن بسام . الذخيرة ق١ ج٢ ص ١١٦.

(٤) ابن عذاري . البيان المغرب ج٣ ص ١٨٧.

وظل أبو الحزم بن جهور على مرتبته في الوزارة، فلم يعط لنفسه لقباً أعلى من لقب الوزير، وكأنه كان يعدّ نفسه ممثل مرحلة آنية تنقضي في وقت معين، لأنه على ما يبدو كان يأمل في أن تعود للأندلس وحدتها تحت سلطة خلافة جديدة أو غير ذلك، وهذا ما جعله يظهر بمظهر متواضع كأنه شخص عادي من أهل المدينة حتى توفي سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٣م(١).

جاء بعده في حكم قرطبة ابنه محمد أبو الوليد بن جهور، الذي تلقب خلافاً لوالده بلقب الرشيد مسايراً بذلك زعماء دويلات الطوائف الأخرى، ورغم ذلك لم يبتعد كثيراً عن مسيرة والده في الحكم، فقد بذل جهوداً جادة في دفع حركة الاقتصاد بقرطبة قدماً إلى الأمام لزيادة مواردها المالية الضرورية(٢). وفي مجال المحافظة على الأمن، حرص حرصاً شديداً على مراقبة محبي الفتنة، حتى لا يتمكنوا من إثارة شغب جديد في المدينة. وبقيت قرطبة تسير على هذا النحو تحت حكم أبي الوليد بن جهور مدة عشرين عاماً متوالية، بعد ذلك شعر أبو الوليد بن جهور بضعف في جسمه، فأعطى مسؤولية إدارة المدينة إلى وزيره أو معاونه ابن السقاء. وكان بنو عباد في هذه الأثناء يطمعون في ضم قرطبة إلى مملكتهم إشبيلية كما فعلوا في مناطق مجاورة، وحاولوا ذلك سنة ٤٥١هـ/١٠٦٠م ففشلوا، ونسبوا ذلك إلى تدبير وحكمة ابن السقاء، فقرروا قتله بأي وسيلة. ويبدو أنهم دبروا ذلك بالتعاون مع ابن لأبي الوليد بن جهور هو عبد الملك، سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٢م. ومنذ ذلك الحين دخل عبد الملك في منافسة مع أخيه الأكبر، لكن عبد الملك كان موقفه أقوى من أخيه بسبب دعم بني عباد بإشبيلية له، فأحب أبو الوليد بن جهور أن يضع حداً لهذه المنافسة بين الأخوين، من خلال توزيع السلطات بينهما، فجعل لابنه الأكبر إدارة أمور الجباية وأهل الخدمة وتوقيع الصكوك السلطانية في مجال الإدارة المالية والداخلية، وأعطى لابنه الأصغر إدارة الشؤون العسكرية العامة(٣).

---

(١) ابن بسام . الذخيرة ق١ ج١ ص ١١٧ . ابن الخطيب أعمال الأعلام ص ١٤٨.

(٢) القاضي عياض . ترتيب المدارك ج٣ و ٤ ص ٧٨٤ وما بعدها.

(٣) ابن بسام . الذخيرة ق٤ ج١ ص ١٨٦ . ابن عذاري . البيان المغرب ج٣ ص ٢٥٨.

فرح عبد الملك بن أبي الوليد بن جهور بهذا التوزيع للسلطة في قرطبة، ذلك أنَّ والده أعطاه الجيش، الذي يساعده على تحقيق طموحه في الاستئثار بالسلطة العامة، وهذا ما حصل بالفعل حينما أقدم عبد الملك على اعتقال أخيه الأكبر وسجنه، وكانت هذه التصرفات سبباً في انقسام قرطبة وضعف أمرها وسيرها على طريق السقوط بتدبير من العباديين أصحاب إشبيلية[١].

دويلة العباديين في إشبيلية:

العباديون من العرب الصرحاء، دخلوا الأندلس مع طالعة بلج بن بشر في عصر الولاة، وهم في الأصل من جند حمص، الذي اشترك في قمع ثورة الخوارج في المغرب في عصر الخليفة هشام بن عبد الملك. وقد اتصل العباديون بالأمويين في الأندلس، وبخاصة في العصر الذهبي وهو عصر الخلافة. وأول من ظهر من العباديين على صعيد المال والعلم هو إسماعيل بن عباد بمدينة إشبيلية، حيث تولى قضاءها وكان سخياً كريماً، وبخاصة في أيام المحن والحاجة، ساعده في ذلك ثروته المالية الكبيرة التي كان قد حصلها في إشبيلية. وقد بقي في قضاء إشبيلية حتى سنة ٤١٤هـ/١٠٢٤م حيث وافته المنية. وفي هذا الوقت سيطر الحموديون العلويون على إشبيلية، فاعتمدوا في قضائها محمد بن إسماعيل بن عباد الذي شغل دوراً مهماً في الأحداث السياسية التي حصلت في إشبيلية فيما بعد[٢].

وقد تطورت الأمور بابن عباد هذا إلى الاستئثار بحكم إشبيلية. وبدأ في محاولة السيطرة على قرطبة في الشرق والتوسع في الغرب بحجة أنه ينفذ إرادة الخليفة المزعوم في إعادة الخلافة إلى عهدها السابق، وتمكن بالفعل من السيطرة على المنطقة الغربية حتى الجزيرة الخضراء، وحاول أن يمتد في أراضي ابن الأفطس في الثغر الأدنى، وحينما تحسنت أحواله السياسية وتوافرت له القوة المناسبة، أقدم على قطع الدعوة لخلافة هشام المؤيد، وقال إنه قد توفي منذ سنين

---

(١) ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص ١٤٨ وما بعدها.

(٢) ابن بسام . الذخيرة ق١ ج١ ص ٢٧١.

لكنه تكتم على ذلك للمصلحة العامة، وتلقب منذ سنة ٤٣٣هـ/١٠٤٣م بالمعتضد بالله، وهو لقب خلافي.

قيل عن المعتضد بالله أشياء كثيرة، فقد قيل عنه إنه رجل قاس لا يعرف الرحمة على الإطلاق، بدليل أنه نكب ابنه وولي عهده عباد، حينما حاول هذا الأخير أن يتمرد على حكمه، فأقدم على قتله بيده وهو أمر فظيع في كل المقاييس. وفي عصره الذي استمر حتى سنة ٤٦١هـ/١٠٦٩م، جرت حروب كثيرة مع جيرانه بقصد السيطرة على أملاكهم. وفي الوقت نفسه كان يحرص على المتعة واللذة بقدر ما تسمح له الظروف، فقد كان رائداً في شرب الخمر ومعاشرة النساء وإقامة حفلات الغناء والسمر، فقد كان يمتلك نحواً من سبعين جارية غير نسائه الحقيقيات[١].

خلفه ابنه المعتمد محمد بن عباد من سنة ٤٦١ حتى ٤٨٤هـ/١٠٦٩-١٠٩١م. وهي فترة طويلة إلى حدٍ ما، أمضاها في تطبيق سياسة والده بالتوسع ومحاولة السيطرة على أملاك جيرانه، وبخاصة قرطبة التي ضمها إلى أملاكه فأنهى حكم الجهاورة بها. لكنه لم يكن قاسياً كأبيه، وكان من ناحية أخرى محباً لحياة اللهو والمجون، فقد متع نفسه بكل ألوان المتع فشرب الخمر، وسمع المغنيات وقرب الشعراء، الذين كان في طليعتهم وزيره المحبب ابن عمار، الذي سيختلف معه وسيقتله نتيجة ذلك، كما سنفصل في ما يلي من صفحات. وقد انتهى حكمه في الأندلس على يد المرابطين، الذين قدموا لنجدة الأندلس في أصعب ظروفها السياسية، ونفوه إلى بلدة أغمات في المغرب الأقصى حيث توفي فيها سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، وقبره ما زال معروفاً هناك.

دويلة بني ذي النون بالثغر الأوسط (طليطلة):

بنو ذي النون من العائلات المغربية من قبيلة هوارة، التي نزلت منذ الفترة الأولى لدخول العرب الأندلس في منطقة شنتبرية إلى الشرق من مدينة طليطلة، واشتهرت هذه العائلة أيضاً في منطقة إقليش، أما في المجال السياسي فكانت

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ص ٢٠٨ وما بعدها.

شهرتها في أواسط القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، في زمن الأمير محمد بن المنذر الأموي[١]. وحافظت على شهرتها ومكانتها في عصر الخلافة، على الرغم من أن الخلفاء الأمويين لم يكونوا يسمحون بحكم العائلات كما رأينا. أما في هذا العصر أي عصر الطوائف، موضوع بحثنا، فقد أصبحت هذه الدويلة من أهم وأكبر الدويلات الأندلسية، ذلك لأنها ضمت رقعة واسعة من الأرض في أعالي وادي التاجة ووادي أنة، تميزت بخصبها وغناها في الزراعات الكثيفة، وكذلك في معادنها المتنوعة. حكم هذه الدويلة في هذه الفترة كل من إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النون، وابنه يحيى بن إسماعيل، والقادر وهو حفيد يحيى. ولم تكن الأوضاع في هذه الدويلة مستقرة، كما كان حال دويلة بني عباد بإشبيلية، فقد تميزت بالاضطراب والفوضى بسبب الاختلاف على الحكم في صفوف هذه العائلة، وأدى هذا الاختلاف في بعض الأحيان إلى لجوء بعض أفرادها إلى الجانب الإسباني لطلب العون والمساعدة، وما إلى ذلك[٢].

دويلة بني تجيب بالثغر الأعلى (سرقسطة):

التجيبيون في الأندلس مجموعة من قبيلة مذحج اليمنية، دخل جدهم الأول في حملة موسى بن نصير إلى الأندلس، وسكنوا بعد الفتح سرقسطة وما حولها كقلعة أيوب ودورقة في شمال شرق إسبانيا. وقد استخدمهم الأمويون ضد بني قسي في فترة حكم الإمارة الأموية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وبنى لهم الأمير محمد بن المنذر قلعة أيوب للوقوف ضدهم، وسارت الخلافة الأموية على هذه المعاملة، على الرغم من أنها كانت ضد سياستها القائمة على ضرب كل التجمعات بشتى أشكالها[٣]. وقد عاشت هذه الدويلة كغيرها من الدويلات الطائفية حياة مضطربة بسبب الصراع على السلطة والحكم، وأدى هذا الصراع في

---

(١) ابن حيان. المقتبس ص ١٧ وما بعدها.

(٢) ابن الأبار. التكملة لكتاب الصلة ج١ ص ١٣٧. ابن بسام. الذخيرة ق٤ ج١ ص ١١٩. ابن الكردبوس. تاريخ الأندلس ص ٨٢. ابن حزم. جمهرة أنساب العرب ص ٤٩.

(٣) العذري. نصوص عن الأندلس ص ٤٩. ابن حزم. جمهرة أنساب العرب ص ٤٣٠.

بعض الأحيان إلى طلب العون من بعض الأطراف الإسبانية المجاورة. وفي غفلة من بني تجيب تمكنت عائلة أخرى هي عائلة بني هود من السيطرة على الثغر الأعلى منذ سنة ٤٣١هـ/١٠٤٠م(١). كان سليمان بن هود أول حكام هذه المنطقة من عائلته، وقد توفي سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٧م فخلفه ابنه أحمد بن سليمان المعروف بالمقتدر، واستعان بالإسبان في العديد من المواقف إبَّان فترة حكمه التي استمرت حتى سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٦م، فخلفه ابنه أحمد حتى جاء المرابطون(٢).

دويلة بني الأفطس بالثغر الأدنى (بطليوس):

بنو الأفطس هم مجموعة من قبيلة مكناسة المغربية، التي انتشرت منذ الفتح في وسط إسبانيا، ومؤسس هذه الدويلة هو عبد الله بن محمد بن مسلمة المعروف بابن الأفطس، الذي لقب نفسه بالمنصور، وقد ضمت دويلته إضافة إلى بطليوس مدن لشبونة وشنترين وقلمرية. بقي المنصور في الحكم حتى سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٥م، وأمضى معظم فترة حكمه في التصدي لبني عباد بإشبيلية، الذين كانوا يطمحون بضم أملاكه إلى دولتهم.

حكم بعده في الثغر الأدنى ابنه محمد بن عبد الله بن مسلمة المعروف بالمظفر، الذي شغل بحرب الإسبان والعباديين على حد سواء، ومع ذلك فقد أولى اهتماماً كبيراً للناحية الثقافية، وقد توفي سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م فخلفه إخوته حتى جاء المرابطون(٣).

دويلة بني زيري في غرناطة:

بنو زيري نسبة إلى زيري بن مناد من قبيلة صنهاجة المغربية، التي تشغل المرتبة الثانية بين القبائل المغربية من حيث عددها وأهميتها، لذلك كان بعضهم يسمّيها بالدولة الصنهاجية. والزيريون بشكل عام هم الذين حكموا المغرب بعد رحيل

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج٣ ص ١٧٨ وما بعدها.

(٢) ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص ١٧٢.

(٣) ابن بشكوال . الصلة ص ٤٥٢ . ابن عذاري . البيان المغرب ج٣ ص ٢٣٦.

الفاطميين إلى مصر، وبقوا يؤيدون الفاطميين حتى بداية النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. وقد دخل بنو زيري الأندلس بصورة عادية في زمن عبد الملك بن محمد بن أبي عامر، واعتمد عليهم في الجيش[١].

وفي عصر الطوائف برزت عائلة بني زيري في غرناطة، وبقيت تحكم فيها حتى جاء المرابطون في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وكانت دولتهم من أهم دول الطوائف بعد إشبيلية تقريباً، وقد كانت الخلافات بين حكامها بسيطة إذا ما قيست بالدويلات الأخرى، وبخاصة تلك التي تجاور دويلات الإسبان، لكن الشيء المميز لهذه الدويلة هو تحكم اليهود في الكثير من مقدراتها، فقد وصل اليهود إلى رئاسة الوزارة فيها، وكثيراً ما أدى ذلك إلى مشكلات كانت صعبة وخطيرة في الوقت نفسه[٢].

دويلات العامريين في شرق الأندلس:

وهي دويلات هزيلة أنشأها الفتيان الصقالبة، الذين عرفوا بالعامريين[٣]. في شرق الأندلس، في المنطقة التي تمتد من مدينة طرطوشة إلى المرية، وهي منطقة حيوية على الصعيد الزراعي والتجاري. وقد تميزت هذه الدويلات عن غيرها بعدائها الشديد للعرب رغم أنهم كانوا يحملون علمهم وثقافتهم ويعيشون على أرضهم.

وقد شغل العامريون دوراً مماثلاً لذلك الدور، الذي شغله الشعوبيون في العصر العباسي الأول، فقد شجعوا كل الحاقدين على العرب ودعموهم بكل وسائل الدعم لشن حملة باطلة على العرب وثقافتهم في الأندلس[٤].

وأهم دويلاتهم تلك أقامها مجاهد العامري بدانية وجزر الباليار، وهي ميورقة ومنورقة ويابسة، وقد حكمها من بعده ابنه علي بن مجاهد، وكلاهما سلك سياسة

---

(١) ابن خلدون . العبر ج٦ ص ١٧٩ . ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص ٢٢٧.

(٢) النباهي . المرقبة العليا ص ٩٢ . أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢٣٤.

(٣) نسبة لعبد الملك بن محمد بن عامر وأخيه عبد الرحمن شنجول.

(٤) ابن عذاري . البيان المغرب ج٣ ص ٧٧.

متسامحة مع المسيحيين وغيرهم. وقد اشتهرت هذه الدويلة إضافة إلى التسامح، في تشجيع العلوم والحياة الثقافية العامة من خلال تقريب العلماء وإغرائهم بحياة رافهة، وكان منهم علماء لغة وأطباء ورجال دين وفقه، نذكر منهم على سبيل المثال ابن الصيرفي، عثمان بن سعيد المقرئ، وأبو مروان عبد الملك بن زهر الطبيب(١). لكنهم رغم هذا المنحى الطيب، كانوا يعادون العنصر العربي في كل شيء، وقد شجع ذلك العداء حبيب الصقلبي على تأليف كتاب شعوبي هو (الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة)(٢). كما قام مجاهد العامري باستقبال ابن سيدة صاحب كتاب (المخصص) في اللغة، لا لعلمه بل لأنه كان يفضل العجم على العرب(٣).

وهناك دويلة أخرى قامت ببلنسية، تناوب حكمها العديد من الفتيان الصقالبة، الذين دخلوا في صراع مع صاحب دانيا وغيره(٤). وفي مدينة المرية على شاطئ المتوسط بالجنوب الشرقي، قامت دويلة أخرى، ارتبطت بالفتى الصقلبي خيران، الذي هرب من الفتنة في قرطبة ولجأ إلى الجهة الشرقية من الأندلس، فنزل في حصن أو ريولة، وأعلن أنه لن يؤذي أحداً من جيرانه الصقالبة، لكن ذلك لم يكن أكثر من تهدئة مؤقتة، فقد سيطر بعد فترة وجيزة على مرسية، وفي سنة ٤١٢هـ/١٠٢١م سيطر على المرية وجعلها عاصمة لدويلته، وقد وافته المنية فيها(٥) لكن عائلة بني صمادح سيطرت على المرية وأعلنت فيها دولة باسمها عُرفت بدويلة بني صمادح بالمرية. وبنو صمادح هم عرب من تجيب.

اتَّصفت دويلات الطوائف بعدد من السمات المشتركة، التي كانت في معظمها سمات مغرقة في السلبية والانهزامية، نذكر منها:

---

(١) ابن أبي أصيبعة . طبقات الأطباء ص ٥١٧.

(٢) ابن الأبار . التكملة ج١ ص ٧٤١.

(٣) ابن عذاري . البيان المغرب ج٣ ص ٢٧٨.

(٤) ابن بسام . الذخيرة ق١ ج٢ ص ١٧٣ . العذري . نصوص عن الأندلس ص ٨٤.

(٥) ابن بسام . الذخيرة ق١ ج٢ ص ١٦٦ وما بعدها.

١ - سمة التقاتل والتناحر وهي من أهم السمات التي ميزت هذه الدويلات، فقد كانت كلّها في حالة صراع شبه مستمرة، فكانت الدويلات القوية تطمع في أملاك الضعيفة، واستخدمت في هذا الصراع كل الوسائل حتى وصل الأمر ببعض هذه الدويلات إلى الاستعانة بالعدو الإسباني، فقد حاول بنو هود التوسع على حساب بني ذي النون، إذ حاول سليمان بن هود وابنه أحمد السيطرة على وادي الحجارة، وأوقعا هزيمة ببني ذي النون ووصلت قواتهما إلى طلبيرة، عند ذلك لجأ بنو ذي النون لطلب المعونة من الإسبان، وبخاصة من ملك نافارا(١).

كذلك، استغل العباديون قوتهم العسكرية والمادية، فبسطوا سيطرتهم على بعض مناطق الجنوب والغرب الأندلسي، وبخاصة الجزيرة الخضراء، ثم تابعوا هذه المسيرة فقضوا على دويلة بني جهور في قرطبة، ثم تابعوا باتجاه غرناطة التي كان يحكمها الزيريون المغاربة، مستغلين بذلك وجود حاكم صغير السن هو الأمير عبد الله الزيري، الذي عقد اتفاق تعاون مع ألفونسو السادس حتى يمنع سقوط مدينته في أيدي العباديين(٢). بعد ذلك توجه العباديون إلى مرسية للسيطرة عليها، واتفقوا مع صاحب برشلونة الإسباني لمؤازرتهم مقابل مبلغ مالي يدفعونه له، وقد تم لهم ذلك(٣). كما أن العباديين حاولوا السيطرة على أملاك بني الأفطس بالثغر الأدنى، وهي منطقة قريبة من إشبيلية معقل بني عباد. ويعبّر عن ذلك ابن الخطيب بعبارات بليغة بقوله: «وكانت بينه (ابن هود) وبين جاره ابن عباد حروب أذهبت الرسوم وأتلفت الأرواح والجسوم»(٤).هذه الحالة من التناحر والكراهية، ساعدت الإسبان على تحسين أحوالهم العامة، واستفادوا منها كثيراً، ذلك أن الإسبان كانوا يعرفون مدى الكراهية بين زعماء الطوائف، فاستغلوها أفضل استغلال لصالحهم. مثال ذلك أنه حينما لجأ أهل طليطلة إلى الصلح وطلبوه من فرذلند بن غرسية، طلب منهم مبلغاً كبيراً، عجزوا عن دفعه وقالوا له، لو أن هذا المبلغ متوافر عندنا

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج٣ ص ٢٧٨.

(٢) ابن خاقان . قلائد العقيان ص ١٢ وما بعدها . اكتساب التبيان ص ٦٩.

(٣) ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص ١٥٩ وما بعدها.

(٤) ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص ١٨٤.

لكنّا استعنا به عليكم بطلب المغاربة. فردَّ عليهم بقوله: «وأما استدعاؤكم البرابرة (المغاربة) فأمر تكثرون به علينا وتهددوننا به ولا تقدرون عليه مع عداوتهم لكم، ونحن قد صمدنا إليكم ما نبالي من أتانا منكم، فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديماً في أول أمركم، فقد سكنتموها ما قضي لكم، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا، فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم»(١).

٢- سمة الخوف والانحطاط في المجال الوطني، وهذه أهم سمة نشأت عن تقاتل زعماء الطوائف فيما بينهم، ذلك أنَّ التقاتل في النهاية أنهك قواهم جميعاً على المستويات كافة ، ما ساعد الإسبان على فرض كل شروطهم في المنطقة، وبخاصة فرض الجزية، التي أجبر فيها كل زعماء الطوائف بشكل سنوي وبمقدار كبير، ولم يتجرأ أي زعيم من هؤلاء الزعماء المنهزمين أن يرفض أو يحتج على مقدار الجزية، فدفعوها جميعاً وهم صاغرون كما عبَّر عن ذلك أحدهم، وهو أمير غرناطة عبد الله بن بلقين بن باديس، فقد ذكر في كتابه (التبيان) أنه دفع الجزية لعجزه الكلي عن الدفاع عن بلده لضعف شديد في جيشه وإمكاناته المادية الأخرى(٢). ولم يتمكن أقوى زعماء الطوائف من رفض دفع الجزية للإسبان، وهو زعيم دويلة إشبيلية المعتمد بن عباد، وكان يدفع مقدار ما فرضه عليه الإسبان وهو ذليل لا يستطيع أن يحتج بكلمة واحدة، بينما كان يمارس على جيرانه من زعماء الطوائف الآخرين سياسة التفوق والغطرسة والعظمة والتظاهر بأشياء لا تمت إلى الواقع بصلة، وكان في ذلك كما قال الشاعر:

ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد(٣)

وقد ظهرت عوامل المذلة والرضوخ للإسبان من خلال حادثة ابن شاليب اليهودي مع ابن عباد كبير زعماء دويلات الطوائف، فحينما حضر ابن شاليب

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج٣ ص ٢٨٢.
(٢) الأمير عبد الله . التبيان ص ١٢٤ و ١٢٥.
(٣) المقري . نفح الطيب ج١ ص ١٩٨.

إلى إشبيلية كممثل لألفونسو السادس في قبض الجزية المستحقة على المعتمد ابن عباد قال للمعتمد إن عيار الذهب المقدم جزية لألفونسو السادس، لم يكن يحوز على المواصفات المطلوبة والمعروفة، واستطرد قائلاً إنه إذا حدث هذا في المرات القادمة فستكون إشبيلية وملك ابن عباد الجزية المستحقة. وعلى الرغم من أن المعتمد بن عباد أمر بقتل ابن شاليب اليهودي ومرافقيه انتقاماً لكرامته، فإنه قدّم اعتذاراً في غاية المذلة والخضوع لألفونسو السادس عن هذه الحادثة(١).

٣- سمة التحاسد والتنافس والغيرة، وهي سمة كانت مؤثرة على كل المستويات، فقد أدت مع الأيام إلى انهيار الوضع العام في الأندلس، وأصبح للإسبان المتربصين القول الفصل في هذه البلاد. وكان لسان الدين بن الخطيب خير من صور هذه الحالة المأساوية بقوله: «وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات والعشائر المتغايرات، فلم تتصل لهم في الله يد ولا نشأ لهم على التعاضد عزم»(٢).

٤- سمة الجبن والتقاعس، وهي سمة ساعدت القوات الإسبانية على التقدم في عدد من المواقع، ذلك أنَّ زعماء الطوائف أصبحوا أمام هذه القوات كالأرانب المذعورة، وهي حالة كانت شبه مستمرة في حياة هؤلاء الزعماء المتدابرين أمام العدو المشترك، كما ذكر ذلك بوضوح ابن عذاري المراكشي في كتابه (البيان المغرب) بقوله: «وصب الله تعالى على أهل الثغور من الجبن عن العدو ما لا كفاء له، فلا يكاد أحد منهم يلقى نصرانياً في قرار من الأرض إلا ويوليه الدبر غير مستحٍ من الله سبحانه من الفرار أمامه، حتى تعوَّد أعداء الله ذلك منهم فلا يعدون حبلهم شيئاً..»(٣).

---

(١) انظر كتابنا: اليهود في الأندلس والمغرب. طبعة دمشق ١٩٩٩ ص ٩٤.

(٢) ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص ٢٤٤.

(٣) ابن عذاري . البيان المغرب ج٣ ص ٢٨٠ . ٢٨١.

وهذا ما جعلهم لا يهتمون بما كان يجري على الجبهة الإسبانية، التي كانت تتمثل في ذلك الحين بحركة الاسترداد، التي كانت في أوج نشاطها الوطني. فحينما احتل الإسبان مدينة طليطلة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٦م، لم يتحرك أحد من زعماء الطوائف لنجدتها واسترجاعها، وكأنهم كانوا غير معنيين في أمر كهذا، كما حذر ابن الخطيب بقوله: «وحسبك بها فجيعة، وأعظم بها مصيبة، وملوك الأندلس في غمرتهم ساهون، وعن عواقب الإسلام لاهون» وفي ذلك أيضاً يقول الشاعر أبو الحسن بن الجد:

فـي كـل يـوم غريـب فيـه معتبـر ... نلقـــاه أو يتلقانــــا بــــه خبــــر

أرى الملـــوك أصــــابتهم بأنـــدلس ... دوائــــر الــــسوء لا تبقــــي ولا تـــذر

نـاموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر ... هـوى بـأنجمهم خـسفاً ومـا شـعروا

وكيـف يـشعر مـن فـي كفـه قـدح ... يحـدو بـه ملهيـاه النـاي والـوتر

تلقــاه كالفحــل معبــوداً بمجلــسه ... لــه خــوار ولكــن حــشوه خــور[(١)]

٥- سمة إطلاق الألقاب الدينية الخلافية على أنفسهم، وذلك لإضفاء شيء من الهيبة والاحترام لشخصياتهم. فتلقبوا بالمعتضد والمعتمد والموفق والمرتضى والمستكفي والمستظهر والمستعين والمنصور والناصر والمتوكل، إلى غير ذلك من ألقاب أثارت قرائح بعض الشعراء.

وهم بالاستناد إلى هذه السمات السلبية كما وصفهم لسان الدين بن الخطيب، فإنهم أشبه ما يكون بالعشب الغريب في الأرض المزروعة، حيث يكبر ويسيطر على الأرض في حالة تقاعس الفلاح عن استئصاله وتنقيته يقول: «ولا شيء أشبه بالدول كلما ضعفت وتفرقت كلمتها واختلفت، وفي أول أمرها قبل أن تكون وقفت، بالأرض المتخذة بالمقاتي والخضر، والثوار فيها بمنزلة العشب الغاصب ومن الحشيش الناصب، فإذا اشتغل عنه لضعف أو مرض أو قلة ذات يد، ألقي غالباً على الأرض، مهلكاً للفلح، مبيداً للمال، فلم

---

(١) ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص ٢٤٢.

تدع الدولة ذات القبيل والدين الأصيل منها شيئاً مذكوراً، بعد أن سقيت الدنيا بهم دهوراً، ولقي الإسلام بهم وبالاً وبثوراً، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[١].

٦- سمة الاهتمام ببعض العلوم والأدب، وهي السمة الإيجابية الوحيدة لزعماء الطوائف، الذين أحبوا أن تكون في دويلاتهم حركة علمية أو ثقافية ناشطة يفتخرون بها على بعضهم البعض، وهذا ما جعلهم يسمحون بحريات شبه مطلقة لكل العلماء، وبخاصة علماء الفلسفة وما يتصل بها من علوم قديمة، ولكن بشرط أن لا تضر هذه الحريات بسلطتهم السياسية التي لا يحدها قانون أو ضابط. وما جرى في هذه الفترة كان مشجعاً لاستعادة ما خربه العامريون، حينما أقدم أعظمهم محمد بن أبي عامر على إحراق ما في مكتبة الحكم المستنصر من كتب تختص بالفلسفة وعلوم عقلية كثيرة. وسنعالج هذه الناحية برمتها في الجزء الثاني من هذا الكتاب، الخاص بالمنجزات العلمية والحضارية في الأندلس في مختلف العصور.

وعموماً كان عصر الطوائف في الأندلس من أردأ العصور العربية على الإطلاق، ذلك لأنه مثَّل عصر الهزيمة بكل معانيها، بعد أن تجزأت الدولة العربية إلى أجزاء متنافرة، وتبددت قواها، وأصبحت معظم ثرواتها تذهب إلى خزينة الإسبان في الشمال الغربي على هيئة جزية سنوية، لا بد من تأديتها دون نقصان أو تأجيل. ومع ذلك، فقد بقي زعماء الطوائف متمسكين بمناصبهم وسلطاتهم وما تحت أيديهم من أراض، وكأن كل ذلك ملك لهم يحق لهم التصرف به كما يريدون، لهذا نراهم يسيرون على طريقة الخلفاء في مسألة اعتماد من يرونه مناسباً لمصالحهم وإدارتهم العامة، فاعتمدوا على كل العناصر من يهود ومسيحيين في كل المجالات، وبخاصة في الإدارة العليا لدولهم، كالوزارة وما يليها، ولم يتعصبوا ضد أحد من الناس سوى ضد بعضهم بعضاً، وهذه كانت من أسوأ وأردأ خصالهم، التي قادتهم إلى السقوط والفناء.

---

(١) ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص ٢٤١.

الفصل السابع

عصر المرابطين في الأندلس

٤٨٥هـ - ٥٤٣هـ/ ١٠٩٢- ١١٤٩م

يمثل عصر المرابطين في الأندلس عصر الإنقاذ من سقوط كان محتماً للوجود العربي هناك، ذلك أنَّ وضع دول الطوائف كما رأينا كان وضعاً صعباً للغاية، أمام ما فعلته المعارضة الإسبانية من عمليات تطوير لقوتها الذاتية العامة في فترة حكم ألفونسو السادس، الذي أدى وجوده على رأس السلطة الموحدة في شمال غرب إسبانيا إلى نقله نوعية مهمة في تاريخ هذه المنطقة، فقد كان مستوعباً لكل الأحوال الراهنة في عصره، وأراد أن يستفيد منها قدر المستطاع، وكانت الفائدة عنده في المقام الأول، تتجسد في التوسع قدر الإمكان على حساب الوجود العربي في وسط إسبانيا وجنوبها وشرقها وغربها، وقد بدأ كما مرَّ معنا في السيطرة على طليطلة، التي كانت بالنسبة للإسبان رمزاً وطنياً خالداً، أراد ألفونسو السادس أن يحييه في نفوس مواطنيه من جديد، وحينما سقطت طليطلة سقطت مناطق مهمة من حولها، ما جعل ألفونسو يسميها مع طليطلة تسمية وطنية جديدة هي (قشتالة الجديدة)، ذلك أنَّ قشتالة التي كان يحكمها هي رمز وجود حركة الاسترداد الإسبانية بلا منازع.

ورغم الإنجاز العظيم الذي تحقق لحركة الاسترداد الإسبانية في عصر ألفونسو السادس في استرجاع طليطلة وما حولها، إلَّا أنَّ ذلك برمته لم يكن أكثر من تمهيد لاسترجاع بقية المناطق الأخرى، وهو الأمر الذي جعل المرابطين

يأتون إلى الأندلس، حتى لا تتحقق آمال الإسبان في استئصال الوجود العربي من إسبانيا. وكان ما فعله المرابطون في هذا الميدان من أجل أعمالهم على الإطلاق، ساعدهم على ذلك أنهم كانوا في أوج قوتهم، وفي أول حكمهم، فقد كانت الحمية العربية نقية صافية إلى حدٍ كبير. ونظراً لأهمية ما أنجزوه في الأندلس، لا بد أن نتوقف قليلاً لمعرفة تطور حركتهم العربية، حتى توصلوا لإنجاز وحدة الجناح الغربي من ديار العرب والإسلام، وهو الجناح المتمثل في المغرب الكبير والأندلس في العصور الوسطى.

المرابطون من حيث انتشارهم الجغرافي، كانوا يمثلون سكان موريتانيا الحالية التي كانت تعرف في العصور الوسطى وغيرها ببلاد (شنقيط). ومعظم البلاد الموريتانية هي صحراء متسعة في امتدادها وثباتها وديمومتها عبر الزمن، تتخللها الواحات العامرة بكل ألوان الحياة. وهي الصحراء المحصورة بين دولة غانا في الجنوب وبين سجلماسة (تافيلالت اليوم) في جنوب المملكة المغربية في الشمال، وبين المحيط الأطلسي في الغرب وبين نهر النيجر في الشرق. أما من حيث أصولهم فهم مجموعة من قبيلة صنهاجة المغربية، التي كانت تمثل التجمع الثاني من حيث العدد والانتشار بعد قبيلة مصمودة المغربية، ومن أهم تفرعاتهم القبلية، فرع لمتونة في الشمال، وفرع مسوفة في الجنوب، وفرع جدالة في المنطقة القريبة من نهري السنغال والنيجر وساحل الأطلسي، وكانوا يعرفون بالملثمين، ذلك لأنهم اشتهروا بوضع اللثام على وجوههم لاعتبارات محلية تتعلق بعاداتهم وبيئتهم الصحراوية القاسية، وهم الجزء المكمل لصنهاجة في الشمال، التي ساعدت الفاطميين منذ البداية حتى رحيل هؤلاء إلى مصر وظهور بني زيري الصنهاجيين كممثلين عن الفاطميين في المغرب الأدنى والأوسط، الذين حكموا في غرناطة كدويلة مستقلة من دويلات عصر الطوائف في الأندلس سابقة الذكر(١).

---

(١) المقري ، نفح الطيب ج٤ ص ١٩٣ ولا تزال قبائل الطوارق أينما وجدت، أو أولئك الذين يسمون بالتوارجة يضعون اللثام على وجوههم.

عُرف المرابطون في صحرائهم بشدة البأس والشجاعة والإقدام وشدة التحمل، وهي سمات ستساعدهم كثيراً في مشروعهم القادم، الذي تجسد بانطلاقتهم الواسعة نحو جميع أجزاء المغرب الكبير والأندلس في فترة زمنية قياسية. وقد دخل الإسلام إلى بلادهم عن طريق التجار بشكل خاص، لأن تلك البلاد كانت معبراً للقوافل التجارية الذاهبة من المغرب إلى غرب إفريقية وبالعكس(١). لكن على الرغم من ذلك كان إسلامهم سطحياً، اقتصر على مسائل شكلية تبتعد عن العمق كثيراً، وبقيت هذه الحالة غالبة عليهم حتى بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حينما بدأ الزعيم السياسي المرابطي يحيى بن إبراهيم الجدالي التنسيق مع الزعيم الديني عبد الله بن ياسين الجزولي، على تعميق الشريعة الإسلامية بكل معطياتها ومفاهيمها في صفوف القبائل المرابطية الملثمة، لأنهما وجدا في إنجاز هذا الأمر توحيد جهود هؤلاء الملثمين على كل صعيد من صُعد الحياة. وقد كانت بداية هذا المشروع بإسهام صادق ومبادرة ناجحة من يحيى بن إبراهيم الجدالي، الذي أراد لأبناء بلاده أن ينطلقوا إلى آفاق رحبة وواسعة، من خلال القضاء على مواطن الجهل والكسل والتواكل، ورأى أن ذلك لن يتحقق إلا باعتماد وسائل المعرفة في صفوف أبناء مجتمعه، فتوجه إلى القيروان التي كانت في ذلك الوقت من أهم مراكز العلم والثقافة في المغرب الكبير، وفي القيروان التقى بالفقيه المالكي أبي عمران الفاسي الغفجومي، ويقال إنه اتفق معه على وضع خطة لقيام دولة في الصحراء الموريتانية على أساس الدين، من أجل كبح جماح الفوضى في المجالين السياسي والديني(٢).

وبموجب هذا الاتفاق قام أبو عمران الغفجومي بالإشارة ليحيي بن إبراهيم أن يتصل بأحد تلامذته، الذن كان قد تخرج عليه في القيروان، وهو الفقيه واجاج بن زلو اللمطي، الذي كان موجوداً في تلك الفترة في منطقة السوس في المغرب

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد . تاريخ المغرب العربي. طبعة القاهرة ١٩٦٥ ص ٢٥٠.
(٢) أحمد مختار العبادي . المرجع السابق ص ٢٧١.

الأقصى، في رباط بمدينة نفيس، وحينما وصل يحيى بن إبراهيم إلى هذا الرباط، يبدو أن واجاج بن زلو اللمطي، قد كلف عبد الله بن ياسين أن يرافق يحيى بن إبراهيم إلى الصحراء لتفقيه أهلها في أمور حياتهم الدينية، ويقال إنه تلكأ في بداية الأمر محتجاً بصعوبة الحياة الصحراوية وقساوتها. وقد اتصف عبد الله بن ياسين بحزمه وجديته وحرصه وإخلاصه في عمله، الذي بدأ يمارسه منذ أن وصل إلى الصحراء. وكان يركز في عمله التعليمي في صفوف الملثمين الصنهاجيين على مسائل الثوابت في الشريعة الإسلامية، حسب ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، معتمداً في ذلك على مذهب الإمام مالك، الذي بدأ يسود في المغرب والأندلس دون أي منافسة من مذهب آخر منذ عصر الأمير هشام الرضا الأموي، الذي حكم الأندلس من سنة ١٧٢هـ-١٨٠هـ/ ٧٨٩-٧٩٧م.

لكن إقامة عبد الله بن ياسين في صفوف المرابطين، لم تكن طويلة هذه المرة فقد توفي شريكه في مشروع تعليم المرابطين يحيى بن إبراهيم الجدالي، وحينما أرادت قبيلة جدالة أن تعين من رجالها من ينوب عنه في الزعامة السياسية، التي شغلها بحزم ونجاح، رفض عبد الله بن ياسين هذه المحاولة، لأنه على ما يبدو كان يريد أن يخلص الملثمين من مبدأ الاعتماد على الشعور القبلي العصبي في حياتهم، لكن ذلك لم يكن يرضي الجداليين، فقرروا طرده من بلادهم بعد أن أساؤوا معاملته وأهانوه بشتى الوسائل[١]. وتوجه بعد ذلك إلى ساحل الأطلسي عند مصب نهر السنغال، وفي إحدى الجزر هناك، قام ببناء رباط بمساعدة بعض الرجال الذين رافقوه، وتعاهد معهم على الإقامة بهذا الرباط للعبادة والتبتل، وفي غضون فترة وجيزة اجتمع عنده في هذا الرباط قرابة ألف رجل، أطلق عليهم اسماً جديداً هو (المرابطون)، وهو الاسم الذي عُرف به الملثمون منذ ذلك الحين حتى اليوم[٢].

---

(١) البكري . المغرب في وصف إفريقية والمغرب. نشره دي سلان. طبعة الجزائر ١٩٩١ ص ١٦٥ وما بعدها.

(٢) ابن أبي زرع . روض القرطاس ج٢ ص ١٣ . ابن خلدون . العبر ج٦ ص ١٨٣ . السلاوي كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج٢ ص ٧ وما بعدها.

إن من اجتمع في رباط عبد الله بن ياسين من رجال مناصرين ومؤيدين، جعلوه ينتقل من حياة العزلة والعبادة، وهي السمة التي غلبت على رباطه وميزته، إلى حياة القتال والمناضلة من أجل تحقيق أهداف، كان يحلم في تحقيقها منذ انتقاله من المغرب الأقصى إلى الصحراء الموريتانية، وهي التي تتعلق بنشر تعاليم الشريعة في صفوف المرابطين الملثمين، وأضيف إليها بعد طرده من جدالة مسألة الانتقام منها بعد أن تعاملت معه بقسوة وعدم احترام كما ذكرنا. وبالفعل فقد تحول إلى الشمال الموريتاني، حيث كانت تسود المنطقة قبيلة لمتونة، وحينما وصل إلى هذه المنطقة الجديدة، قام بتنصيب زعيم سياسي جديد للملثمين، ووقع اختياره على أبي زكريا يحيى بن عمر اللمتوني، الأمر الذي أدى إلى خروج قبيلة جدالة على طاعة عبد الله بن ياسين، لكن موقع اللمتونيين في الشمال في منطقة تتحكم ببعض المسالك التجارية، وطاعة اللمتونيين له، وشدة مراسهم وصبرهم في القتال، ساعده على مواجهة الجداليين بحزم وتفوق(١). لكن ذلك أدى إلى وقوع خسائر جمة في صفوف اللمتونيين، وهي خسائر بشرية ومادية على حد سواء، لكن ذلك من ناحية أخرى هو الذي قذف بلمتونة إلى مرتبة الزعامة الصنهاجية، التي تمكنت من صنع دولة المرابطين على كل أرض المغرب الكبير وجزء كبير من الأندلس(٢).

ومنذ ذلك الحين بدأ المرابطون يفهمون ويعون بشكل كبير، ماذا تعني المرابطة والرباط على الصعيد العام والخاص، ولعلهم فهموا بوجه خاص أنها تنحصر في معنى الجهاد والنضال الصادق المستمر في سبيل نشر العروبة والإسلام، وتحرير كل بقعة من البقاع التي يخالف أهلها هذين المفهومين المتلازمين على الدوام(٣).

بدؤوا تحقيق مشروعهم النضالي من أجل نشر العروبة والإسلام في خروجهم من موريتانيا إلى المغرب الأقصى بقيادة عبد الله بن ياسين والقائد الحربي أبي

---

(١) البكري. المصدر السابق ص ١٦٧.

(٢) مؤلف مجهول. الحلل الموشية ص ١٥٢.

(٣) عبد الواحد المراكشي. المعجب ص ١٧١.

بكر بن عمر اللمتوني، الذي خلف أخاه يحيي بن عمر اللمتوني في هذه المهمة. وكان السبب المهم الذي جعل المرابطين يختارون عملياتهم الجهادية التعريبية في المغرب الأقصى ثم في بقية الأجزاء المغربية الأخرى، أنهم كانوا يطمعون في السيطرة على الطرق التجارية النشطة في المنطقة، وهو أمر أثار كل اهتمام الدول التي تعاقبت على حكم المنطقتين المغربية والأندلسية على حد سواء، وهو أمر كنا قد بحثناه بشيء من التفصيل في نهاية عصر الخلافة في الأندلس، ذلك أنَّ السيطرة على هذه الطرق التجارية، كانت تدر عليهم أموالاً طائلة تساعدهم في تحقيق مشروعهم الكبير الآنف الذكر. هذا بالإضافة إلى أن المغرب الأقصى كان يعاني من مشكلة بعض العناصر التي تجانب حقيقة العقيدة الإسلامية، وبخاصة تلك العناصر التي كانت لاتزال على دين الوثنية، وتلك المجموعة المارقة التي كانت تسكن في منطقة الرباط اليوم، وهذه المجموعة كانت تدعى بالمجموعة البرغواطية، التي استعصت على كل الدول التي سادت المغرب الأقصى، حتى الدولة الفاطمية، التي فشلت في تطويع وإخضاع هذه المجموعة لسلطتها وقيل أيضاً إنه كانت في شمال المغرب الأقصى بعض التجمعات الأخرى من غمارة، كانت قد بدأت بالانحراف عن الإسلام(١). يضاف أيضاً إلى كل هذه الأسباب سبب آخر يبدو في غاية الأهمية، وهو شعور المرابطين بالقوة والقدرة على السيطرة والتوسع، بعد أن نجحوا في تطويع قبائل الصحراء، ولاسيما جدالة، التي غزاها عبد الله بن ياسين في بداية أمره انتقاماً لما فعلته معه، حينما طردته من ربوعها كما ذكرنا. وقد شجع المرابطين، إضافة إلى كل ما تقدم، أن الفاطميين كانوا قد عزفوا عن مشروعهم في المغرب والأندلس، بعد أن نجحوا في السيطرة على مصر، فتركوا فراغاً كبيراً في المغرب، استطاع المرابطون أن يشغلوه بجدارة، حينما تمكنوا من إعادة لحمته ووحدته كما كان في الفترة الفاطمية، بعد أن كان قد بدأ يسير على طريق التجزؤ والانقسام.

---

(١) مؤلف مجهول . كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار. نشر سعد زغلول. طبعة جامعة الإسكندرية ١٩٥٨ . ابن خلدون . العبر ج٦ ص٢١٦. ابن أبي زرع. روض القرطاس ج١ ص١٧١.

ويبدو أن عبد الله بن ياسين كان يعرف أكثر من غيره عن شؤون المغرب العامة، وبخاصة في المجال الديني الذي كان محور اهتمامه، لذلك ليس غريباً أن كانت أول محطاته الجهادية في منطقة تامسنا، التي تسيطر عليها برغواطة التي استعصت على الجميع وظلت خارج المجموعة الإسلامية بديانتها المارقة، حتى جاء عبد الله بن ياسين بمجموعة مرابطية، وأعلن حرباً مستمرة على برغواطة، بعد أن كان قد سيطر على قاعدة السوس تارودانت وعلى أغمات[١] التي اختارها المرابطون لأن تكون قاعدة مؤقتة (عاصمة) لهم لقربها من الصحراء. وكان أبو بكر بن عمر اللمتوني موجوداً كقائد عسكري في الهجوم على برغواطة، وقد دارت معركة كبيرة بين المرابطين والبرغواطيين بالقرب من مدينة الرباط الحالية، قتل فيها الزعيم الديني للمرابطين عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م، ودفن على مرتفع يطل على وادي كريفلة أحد فروع نهر بورقراق، ولا يزال قبره معروفاً هناك باسم سيدي عبد الله [٢].

وبموت عبد الله بن ياسين يصبح أبو بكر بن عمر اللمتوني الزعيم الديني والعسكري للمرابطين، واستطاع بجدارة أن يضع حداً لتمرد البرغواطيين إلى الأبد[٣]. في الوقت الذي كان فيه عبد الله بن ياسين ومعاونه العسكري أبو بكر بن عمر اللمتوني، يحاربان المجموعات البرغواطية المارقة بمنطقة تامسنا، كان الزعيم المرابطي الآخر، وهو يوسف بن تاشفين، ينفذ مهمة مماثلة في بلاد غمارة، أحد فروع قبيلة مصمودة، وهي منطقة الريف المغربية في الشمال، وقد تمكن من دخول هذه المنطقة بنجاح رغم حصانة بعض مناطقها[٤]. لكن هذا النجاح رافقته مجزرة حصلت للمرابطين، الذين تركهم يوسف بن تاشفين حامية في مدينة فاس، حينما تكتل ضدهم الزناتيون.

---

(١) ابن أبي زرع . روض القرطاس ج٢ ص ٢١ وما بعدها.

(٢) أحمد مختار العبادي . المرجع السابق ص ٢٩٤.

(٣) ابن الأثير . الكامل ج٩ ص ٢٥٩ . ابن أبي زرع . روض القرطاس ج٢ ص ١٤٢.

(٤) كتاب الاستبصار لمؤلف مجهول ص ١٩٣.

تطلع المرابطون بعد ذلك إلى بناء قاعدة جديدة لهم في المغرب الأقصى بدلاً من مدينة أغمات، فاختاروا موقعاً آخر هو ما عرف فيما بعد بمراكش، التي بنيت سنة ٤٦٢هـ/١٠٧٠م وهو ما بحثناه مفصلاً في الحديث عن بناء المدن والعمران في العصر المرابطي في كتاب المغرب السياسي والحضاري. فمنذ أن انتهى أبو بكر عمر اللمتوني من بناء هذه المدينة، ترك شؤون حكم المرابطين في المغرب لابن عمه يوسف بن تاشفين، الذي كان يرغب في هذا الأمر، وتوجه إلى الصحراء الموريتانية لحل المعضلات هناك ومتابعة الجهاد في مملكة غانا التي كانت على الوثنية، ومن أجل ذلك قام بتطليق زوجته خشية أن تستمر مهمته لفترة طويلة، وزوجته هي زينب النفزاوية التي تزوجها فيما بعد يوسف بن تاشفين(١). ويقال أن أبا بكر عمر اللمتوني نجح نجاحاً باهراً في أعماله الجهادية في مملكة غانا فأقام مملكة جديدة بديلة عنها هي مالي، وقد مات أبو بكر عمر اللمتوني في هذه العمليات. وغانا الحالية هي التي كانت تعرف بساحل الذهب، وقد سكنت هذا الساحل مجموعة غانية فرت من هجوم المرابطين وعمرته، وهذا ما جعل الرئيس نكروما يطلق اسم غانا على دولته في ساحل الذهب تيمناً وتخليداً لذكرى غانا القديمة، التي قامت على أنقاضها مالي الحالية(٢).

وهكذا، تحقق ليوسف بن تاشفين ما كان يريده، وهو الاستقلال بأمور الحكم في المغرب، وذلك بعد وفاة أبي بكر بن عمر شهيداً في الصحراء. وفي واقع الأمر، فإن يوسف بن تاشفين يُعد الباني الحقيقي لدولة المرابطين في المغرب الكبير والأندلس، ذلك لأن كل العمليات التوسعية والإنجازات السياسية لهذه الدولة قد تحققت في فترة حكمه، التي استمرت طوال خمسين عاماً على التوالي. ومن هذه الإنجازات أنه هو الذي نفذ عملية السيطرة على مناطق المغرب الأقصى، وهو الذي حرص على امتلاك أسطول بحري قوي يمكّنه من

---

(١) ابن أبي زرع. روض القرطاس ج٢ ص ٣٣.

(٢) حسن إبراهيم حسن. انتشار الإسلام والعروبة ص ٥٦.

السيطرة على السواحل المتوسطية والأطلسية، التي تحيط بالمغرب من شماله وغربه، فشرع ببناء هذا الأسطول على وجه السرعة، ووضعه بادئ أمره في سبتة وطنجة ومليلة، وهو الذي أنجز السيطرة على المغرب الأوسط حتى حدود المغرب الأدنى الغربية، وكل هذه الإنجازات حصلت وهو نائب أبي بكر عمر اللمتوني، الذي توفي سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٨م، وهو الذي أكمل بناء العاصمة مراكش، وهو الذي أمر باعتماد الدواوين والمناصب الإدارية الضرورية للدولة، وكذلك الحشم ورجال الخدمة العامة، بما يشبه الملوك، رغم أنه تلقب بأمير المسلمين وناصر الدين، واعترف بسلطان الخليفة العباسي، الذي أرسل له كتاباً يعتمده فيه حاكماً عاماً على المغرب[١].

وفي ظل حكم يوسف بن تاشفين، عادت إلى المغرب الكبير عافيته من جديد، بعد أن تحققت وحدته تحت سلطة حاكم قادر على ضبط الأمور بجدارة، ساعده في ذلك أن معظم الناس أيدوه ووقفوا معه، بعكس ما حدث للفاطميين، الذين واجهتهم مصاعب كبيرة بسبب التعصب المذهبي ضدهم، هذا التعصب الذي لم يكن هناك ما يبرره على الإطلاق، وقد أدى مع الأيام إلى ضرب وحدة البلاد وإضعاف قوتها أمام الأعداء. في هذا الوقت بالذات، كانت الأندلس تعيش أسوأ أيامها على الإطلاق في ظل حكم الطوائف، لأن حركة الاسترداد الإسبانية بدأت تظهر بقوة على الساحة الأندلسية، مستغلة حالة الضعف والتقهقر في صفوف دويلات الطوائف، فتمكنت هذه الحركة من استرداد العديد من المناطق الأندلسية من أيدي العرب، وبخاصة طليطلة وما حولها، وأصبحت المناطق الأخرى وشيكة السقوط، لأن الاستعداد والحماس كان في أوج قمته في صفوف الإسبان، الذين اتحدوا في دولة واحدة تحت قيادة رجل إسباني وطني طموح، هو ألفونسو السادس الذي كان يشتعل حماساً واندفاعاً لتحقيق مشروعه القومي الكبير، وهو الذي يتجسد على أرض الواقع باسترداد إسبانيا كلّها من أيدي العرب. وكان يزيد من حماسه

---

(١) مؤلف مجهول. الحلل الموشية ص ١٨ وما بعدها.

واندفاعه، أن مجموعة من الفرنسيين الدينيين المتعصبين لمسيحيتهم، كانوا يسكنون جنوب فرنسا، ويعملون على الدوام على تشجيع الإسبان للعمل بكل الوسائل لطرد العرب من إسبانيا، ويصورون لهم أن هذا العمل هو من صلب الدين، وهو في نهاية الأمر حالة وطنية إسبانية، وحالة قومية يجتمع عليها الأوروبيون رغم اختلاف لغاتهم وأعراقهم وقومياتهم، وكانت هذه المجموعة الدينية من الفرنسيين، تعرف باسم نظام كلوني الكنسي. وقد أدَّت زوجة ألفونسو السادس دوراً كبيراً في هذه المسألة المهمة، لأنها من جنسية فرنسية، ويبدو أنها كانت متعصبة لمسيحيتها وأوروبيتها، ما جعلها تشجع زوجها بقوة للعمل المستمر ضد الوجود العربي في إسبانيا. ووصل الأمر ببعض الشعراء العرب إلى تصوير الحالة في الأندلس، بأنها أصبحت نهائية في حياة العرب هناك، ونصح العرب جميعاً في الأندلس بترك مدنهم وبلداتهم والهجرة إلى بلاد أخرى، وربما تأثراً بالجو المأساوي العام الذي ظهر على الساحة العربية في الأندلس بعد سقوط مدينة طليطلة وما حولها بيد الإسبان. يقول الشاعر الطليطلي أبو محمد عبد الله بن فرج بن عزنون اليحصبي المعروف بابن العسال في هذا الشأن:

شدوا رواحلكم يا أهل أندلس ... فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط(١)

إن ما حصل في طليطلة وما قبل طليطلة، كان له أثر كبير في توجه زعماء دويلات الطوائف إلى المغرب لطلب نجدة عاجلة، للوقوف في وجه المد الإسباني المتصاعد والمتسارع بقيادة ألفونسو السادس، الذي لم يأبه لكل النصائح التي قدمها له بعض الإسبان، في أن يقبل شيئاً من تنفيذ التسامح مع العرب، احتراماً لدورهم الحضاري والثقافي في إسبانيا بصورة عامة. وكان المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية أول المبادرين في طلب النجدة المغربية على وجه السرعة، ذلك لأنه كان يعرف أن مملكته كانت مستهدفة من الإسبان في

---

(١) ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٤ ص ١١٨ . ابن عبدون . رسالة الحسبة ص ٢٥١.

المقام الأول، لأنها كانت أقوى ممالك الطوائف على الإطلاق، وإسقاطها يساعد كثيراً على السرعة في إسقاط الممالك الأخرى. أما بخصوص المرابطين فقد كانوا في ذلك الوقت في أوج قوتهم وحماسهم واندفاعهم، ويسيطرون في الوقت نفسه على أهم الثغور المغربية، التي يمكن من خلالها العبور إلى الأندلس بسهولة ويسر لقربها من الجزيرة الخضراء جنوب الأندلس، وهذه الثغور هي سبتة وطنجة. وهكذا، أرسل المعتمد بن عباد من أبلغ المرابطين بضرورة إرسال قوات عسكرية للمساعدة ضد الإسبان، على الرغم من أن بعض المقربين منه نصحه بعدم الإقدام على هذه الخطوة خوفاً من السيطرة المرابطية على الأندلس، لكن المعتمد بن عباد لم يأبه لهذه النصائح، لأنه كان يعرف أن الإسبان بقيادة ألفونسو السادس، سيتمكنون من دخول كل المدن الأندلسية التي كانت ما تزال تحت السيطرة العربية، لهذا نراه يفضل السيطرة العربية المرابطية على السيطرة الإسبانية، وهذا نضوج كبير في فكر وشخصية المعتمد بن عباد عبّر عنه بقوله: «رعي الجمال عندي خير من رعي الخنازير». ونقل هذا القول في صيغة أخرى هي: «أفضل أن أكون راعي جمال في المغرب من أن أكون راعي خنازير في قشتالة»(١).

ويبدو أن ألفونسو لم يكن بعيداً عن الاتصالات بين الطرفين الأندلسي والمغربي، وهذا ما جعله يرسل إلى يوسف بن تاشفين كتاب تهديد ووعيد، عله يثنيه عن تقديم العون للأندلسيين، لكن ذلك لم يؤثر في يوسف بن تاشفين بل زاده إصراراً على تقديم المساعدة، وكتب له جواباً قال في: «أما بعد، فإن الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه بأذنك، والسلام على من اتبع الهدى». وقيل إنه أضاف بيتاً من الشعر لأبي الطيب المتنبي:

ولا كتـــب إلا المـــشرفية والقنـــا ولا رســل إلا بــالخميس العرمــرم(٢)

---

(١) السلاوي . الاستقصا ج٢ ص ٣٥ مؤلف مجهول . الحلل الموشية ص ٣٢.

(٢) مؤلف مجهول . الحلل الموشية ص ٢٩ وما بعدها.

بدأ بعد ذلك يوسف بن تاشفين بالتجهيز لعملية العبور إلى الأندلس، فأرسل مجموعة من عنده لشراء العدد والآلات الحربية الضرورية للجيش الذي سيعبر، وكانت أهم المعامل الحربية في الأندلس بمدينة إشبيلية والمرية[(١)]. ثم حرص على السيطرة على منطقة جبل طارق، كي يضمن لنفسه حرية العودة إلى العدوة المغربية في الوقت المناسب، فطلب من المعتمد بن عباد أن يعطيه الجزيرة الخضراء التي تقع جنوب الأندلس، وكانت تتبع آنذاك للمعتمد، وقد تلكأ المعتمد بادئ الأمر، لكنه اضطر في نهاية المطاف إلى إعطاء الأوامر لابنه أن يخليها لصالح الجيش المرابطي. وسبب تقاعس المعتمد في تسليم الجزيرة الخضراء للمرابطين بادئ الأمر، أنه كان يأمل في عقد صلح مع ألفونسو السادس. عبرت الجيوش المرابطية إلى الأندلس سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م بقيادة يوسف بن تاشفين نفسه، وكان عبورها من سبتة في شمال شرق المغرب الأقصى، ونزلت بالجزيرة الخضراء وما يتبعها من مراكز عسكرية أخرى مثل طريف وجبل طارق. وإلى الجزيرة الخضراء حضر معظم حكام دويلات الطوائف في الأندلس، وكان في طليعتهم المعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطس بمن معهم من قوات عسكرية.

سارت هذه الجيوش باتجاه مدينة إشبيلية معقل حكم المعتمد بن عباد، ثم تابعت إلى بطليوس Badajos قاعدة الثغر الأدنى في المنطقة الغربية من الأندلس. وفي هذه الأثناء كان ألفونسو السادس قائد حركة الاسترداد الإسبانية موجوداً في الثغر الأعلى (سرقسطة)، حيث كان قد أحكم حصار سرقسطة، فحينما سمع بما يجري في الغرب الإسباني من تطورات جديدة، ترك حصار سرقسطة وتوجه على وجه السرعة نحو بطليوس، وفي الناحية الشمالية من هذه المدينة التقى بتجمعات العرب العسكرية من الأندلسيين والمغاربة، وكان اللقاء في فحص (سهل) الزلاقة، الذي يعرف اليوم بالإسبانية Sagrajas، وفي هذا

(١) المقري. نفح الطيب ج١ ص ١٨٨.

السهل جرت معركة كبيرة بين القوتين العربية والإسبانية في ١٢ رجب من سنة ٤٧٩هـ الموافق ليوم ٢٣ تشرين الأول ١٠٦٨م[١].

في بداية هذه المعركة القاسية، نفذت القوات الإسبانية هجوماً مفاجئاً وسريعاً على الكتلة التي تتألف من الأندلسيين، وهي التي كان يقودها المعتمد ابن عباد بنفسه، وقصد الإسبان من هذا الهجوم تحقيق نصر أولي سهل، ذلك أنهم اعتادوا إلحاق الهزيمة بالقوات الأندلسية، بسبب معرفة أساليب قتالها وأسلحتها ومن ثمّ جبن هذه القوات أمام الإسبان، وبخاصة في عصر الطوائف. واستطاع الإسبان أن يلحقوا ضرراً كبيراً بالكتلة الأندلسية، لكن المعتمد بن عباد صمد صمود العظام رغم إصابته بجروح عديدة، وسانده في هذا الصمود يوسف بن تاشفين، حينما أرسل له دعماً قوياً من كتلة الجيش المغربي، ما ساعد على إلحاق الهزيمة بالجيش الإسباني، فانسحب ألفونسو السادس مدحوراً ومعه بضع مئات من فرسانه إلى منطقة جبلية قريبة، وفي الليل انسحب مع من تبقى من قواته إلى طليطلة[٢].

وبهذا النصر المؤزر في الزلاقة، تكون الأندلس العربية قد نجت من سقوط كان محتماً في ظل حكم الطوائف، وهو أول نصر أحرزه العرب في الأندلس منذ فترة طويلة، كان آخرها الانتصارات التي حققها محمد بن أبي عامر في عصر الخلافة في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وأدت هذه المعركة أيضاً إلى كبح جماح التقدم الإسباني باتجاه الجنوب، وإلى تعزيز مكانة المعتمد بن عباد، الذي صمد وقاتل في هذه المعركة بشجاعة وإقدام وبراعة، وكأنه كان يرى في تحقيق النصر حياة جديدة بكل أشكالها وتفاصيلها، وأقل ذلك الانعتاق من العبودية المطلقة لإرادة الإسبان، التي فرضها

---

(١) عبد الواحد المراكشي . المعجب ص ١٣٢ وما بعدها . السلاوي . الاستقصا ج٢ ص ٣٧ وما بعدها.

(٢) ابن الكردبوس . كتاب الاكتفاء ص ٨١ والحلل الموشية لمؤلف مجهول ص ٤٨.

بقوة وعنجهية ألفونسو السادس، وتجلت في أبشع أشكالها بفرض جزية سنوية على كل دويلات الطوائف دون استثناء. لكن الرابح الأكبر في هذه المعركة هم المرابطون، الذين حسموا المعركة للصالح العربي العام، بعد فترة من العجز والانهيار العربي في الأندلس تمثلت في عصر الطوائف برمته.

حرص يوسف بن تاشفين بعد هذه المعركة، أن يظهر بمظهر الأب الذي لا يطمع بأملاك أولاده وثرواتهم، فعامل رؤساء الطوائف في الأندلس على هذا الأساس، وقدم لهم النصائح بأن يحافظوا على نصر الزلاقة بالتعاون والتعاضد ونبذ كل أشكال الاختلاف، الذي سبب في الماضي مزيداً من المذلة والإحباط لعرب الأندلس، وشجع من جهة أخرى حركة الاسترداد الإسبانية على ممارسة نشاطها على كل الجبهات لضرب الوجود العربي في العمق الأندلسي. وقد أثبت للجميع أنه لم يأت إلى الأندلس إلا لتحقيق غرض نبيل، هو رد عادية المعتدين الإسبان ودفع ضرهم عن العرب هناك[١].

لكن كل ذلك لم يفعل شيئاً في نفوس زعماء الطوائف، لأن نفوسهم على ما يبدو كانت قد تخربت بفعل أمراض حبهم للسلطة والحكم، واستعصت أمراضهم على الشفاء، رغم قوة الدواء وتأثيره، وهو الدواء الذي تمثل بغلبة الإسبان عليهم وممارسة كل ألوان القهر والإهانة والمذلة عليهم وعلى شعوبهم على حدٍ سواء. فقد عاد زعماء الطوائف بعد عودة يوسف بن تاشفين إلى المغرب إلى سابق عهدهم في التقاتل والتناحر والتحاسد، على الرغم من أن يوسف بن تاشفين كان قد رفض إبقاء أي قوة مرابطية في الأندلس، ونوّه بالتعاون فيما بين الأندلسيين لتعويض وسدّ هذا الفراغ للوقوف في وجه ما سيحدث من تطورات في الجبهة الإسبانية المتربصة بالمصالح العربية على الدوام.

بعد مضي سنة على معركة الزلاقة، وجد يوسف بن تاشفين نفسه مجبراً على العودة إلى الأندلس، لأنه تأكد إبَّان هذه السنة أن زعماء دويلات الطوائف،

---

(١) الأمير عبد الله. التبيان ص ١٠٧.

لن يتمكنوا من وضع خطة مشتركة متفق عليها للوقوف ضد نشاط حركة الإسترداد، التي ظهر جلياً أنها لن تسكت على هزيمتها في الزلاقة آنفة الذكر، ولن يتمكن أحدهم منفرداً من القيام بهذه المهمة الوطنية. وقد تبلورت فكرة العودة إلى الأندلس عند يوسف بن تاشفين بتأثير عوامل أخرى، بالإضافة إلى ما تقدم، منها أنه دهش بروعة الأندلس ورغد حياتها وكثرة مواردها العامة، كذلك فإنه تأثر بآراء بعض الفقهاء والقادة، الذين نصحوه بضرورة إنهاء الحالة المزرية التي يمثلها حكام الطوائف بتناحرهم وأنانيتهم وعدم تعاونهم لتأليف جبهة موحدة تمتلك القوة والمبادرة لردع الإسبان. وقد عبّر يوسف بن تاشفين عن مدى إعجابه بالأندلس بصورة عامة في قوله: «كنت أظن أني قد ملكت شيئاً، فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي، فكيف الحيلة في تحصيلها»[١]. وكان الفقهاء على الدوام يصفون حكام الطوائف أمام يوسف بن تاشفين، بأنهم فسقة فجرة يستحقون الخلع والطرد، وأصدر بعض هؤلاء الفقهاء عدة فتاوى بهذا الشأن[٢].

كانت غرناطة في جنوب شرق الأندلس أول أهداف يوسف بن تاشفين، وكان يحكمها الأمير عبد الله الزيري صاحب كتاب التبيان، الذي يحتوي تفاصيل مهمة عن فترة حكم الطوائف في الأندلس، ويبدو أنه كان أميراً ضعيفاً، بدليل أن مواطنيه لم يكونوا ملتزمين كثيراً بأوامره وطلباته الحكومية، هذا بالإضافة إلى أنه عاد إلى سيرة من سبقوه من آله في دفع الجزية للإسبان. اتصل يوسف بن تاشفين بحاكم إشبيلية المعتمد بن عباد، وأقنعه بضرورة التعاون معه لإسقاط دولة الزيريين، ولم يجد يوسف بن تاشفين صعوبة بالغة في إسقاط حكومة الزيريين بغرناطة بعد حصار دام ستين يوماً، استسلم على إثره الأمير عبد الله الزيري، فأرسله المرابطون إلى المغرب[٣].

---

(١) عبد الواحد المراكشي . المعجب ص ١٣٨.

(٢) أحمد مختار العبادي . دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٨٧ وما بعدها.

(٣) عبد الله الزيري . التبيان ص ١٤٩ وما بعدها.

حينما لم يف المرابطون بوعدهم للمعتمد بن عباد بإعطائه حكم غرناطة، تأكد بذكائه وحسه السياسي أنه سيكون الهدف التالي، فبادر إلى الاتصال بألفونسو السادس واتفق معه على الوقوف صفاً واحداً في وجه المرابطين، الذين أنقذوه بالأمس من سقوط محتم، وكانت فعلته هذه من أشنع أعماله على الإطلاق، ذلك لأنها أسقطته في مستنقع الخيانة الآسن، وجعلته رجلاً خارجاً على كل حقوق الأمة، ورغم هذا الاتفاق فقد تمكن المرابطون من إسقاط دويلته، وحينما دخلوا إشبيلية استسلم المعتمد بن عباد بعد حصار لقصره دام لفترة طويلة، فأمنوه على حياته رغم خيانته ولكن بشرط أن يوعز لابنه تسليم مدينة (رندة، التي استعصت عليهم. وقد نفي المعتمد بن عباد إلى أغمات في المغرب الأقصى وتوفي هناك(١). وخضعت لهم إثر سقوط إشبيلية مدينة المرية، ومعظم مناطق شرق الأندلس حتى حدود مدينة بلنسية.

بقي على المرابطين التوجه إلى مناطق الثغور، وهي سرقسطة وبطليوس وطليطلة، لكنهم لم يفعلوا ذلك إلا بعد ثلاث سنوات تقريباً من سيطرتهم على المناطق آنفة الذكر، وربما يعود ذلك إلى صعوبة الأمور في هذه الثغور بسبب مجاورة الإسبان لها وقربهم منها. وبدأ المرابطون بعد ذلك في الهجوم على الثغر الأدنى (بطليوس) الذي يُعد الثغر الأقرب إلى إشبيلية آخر منطقة وصلوا إليها بالأمس، وكان حكامها من بني الأفطس منذ سقوط الخلافة الأموية، وكان هؤلاء الحكام يتبعون سياسة مزدوجة، فهم يتظاهرون بالولاء للمرابطين وبالصداقة لألفونسو السادس، وهي مشكلة كان المرابطون يعرفونها تماماً، لذلك نراهم ينفذون هجومهم على بطليوس بشكل مفاجئ لبني الأفطس وللإسبان على حدٍ سواء. وكان المرابطون محقين حينما أقدموا على قتل حاكم بطليوس من بني الأفطس جزاء تعامله مع الإسبان وتفريطه في بعض المناطق لصالح مشروعهم الوطني، وقيل أنهم قتلوا اثنين من أولاده أيضاً، وكان ذلك سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م(٢).

---

(١) ابن الأبار . الحلة السيراء ج٢ ص ٥٢.

(٢) ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص ١٨٦ . ابن الأبار . الحلة السيراء ج٢ ص ١٠٢.

أما بالنسبة للثغر الأعلى (سرقسطة) فقد كان في حكمه المستعين أحمد ابن المؤتمن، الذي اتبع سياسة مرنة مع كل الأطراف، لأنه كان يخشى من الإسبان ومن المرابطين على حدٍ سواء، فالإسبان على حدوده في آراغون وبرشلونة وقشتالة، والمرابطون يمتلكون قوة كبيرة ويحدوهم الأمل في السيطرة على كل الأندلس، وعلى الرغم من أنهم تظاهروا بمهادنته فإنهم كانوا يتبنون فكرة إخضاع بلاده وضمها لدولتهم الكبرى، لكنهم تريثوا كثيراً، فعلى الرغم من أنهم سيطروا على بلنسية سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠٢م، إلّا أنهم بقوا يتحينون الفرصة المناسبة، لأنهم كانوا يعرفون أن مجموعة الدويلات الإسبانية لن تتركهم على حريتهم في دخول سرقسطة إذا ما فعلوا ذلك. وبقي المرابطون على هذه الحالة حتى سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م حيث دخلوا سرقسطة، وكان قد توفي يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠هـ/١١٠٧م والمستعين أحمد بن هود.

بصورة عامة، دام حكم المرابطين في الأندلس قرابة خمسين عاماً، وكان هذا الحكم قوياً حتى سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٧م وضعيفاً مهزوزاً حتى سقوط هذا الحكم سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٧م، وحصل ذلك بسبب الثورات الداخلية على الحكم المرابطي في المغرب والأندلس، حتى تمكنت إحدى هذه الثورات، وهي الثورة الموحدية، من إسقاط دولة المرابطين.

ففي العقد الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، أحرز المرابطون انتصارات مهمة على الإسبان في مدينة أقليش سنة ٥٠١هـ/١١٠٨م قبل أن يموت ألفونسو السادس بقليل، وقتل ابنه الوحيد في هذه المعركة، ما ساعد المرابطين على صنع انتصار آخر بعد عامين من نصرهم الأول، تجسد في تحرير مدينة طلبيرة القريبة من طليطلة، لأن المرابطين في هذه الفترة كانوا مهتمين في المقام الأول باستعادة طليطلة قاعدة الثغر الأوسط، وكان تحرير طلبيرة سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م. وتابع المرابطون بعد ذلك بقيادة علي بن يوسف بن تاشفين باتجاه طليطلة، واستطاعوا أن يتجاوزوا حصن قنالش فوصلوا إلى قريب من أسوار طليطلة

ونزلوا بمنية المأمون، التي بنيت في عصر ملوك الطوائف[١]. ومع ذلك فقد فشلوا في تحرير طليطلة طوال فترة حكمهم للأندلس.

أما في الفترة التي تلت سنة ٥١٠هـ/١١١٧م، فقد بدأت شمس المرابطين بالأفول في كل أنحاء الأندلس، كما غدت كل مشاريعهم تفشل، فقد تمكن ألفونسو الأول ملك آراغون المعروف في صفوف الإسبان بالمحارب، من استعادة سرقسطة سنة ٥١٢هـ/١١١٩م بالتعاون مع ابن هود المخلوع عن حكم سرقسطة، وكذلك استعان بمساعدة فرنسية كبيرة، جاءت إلى سرقسطة بعد أن أوهموا رجالها أنهم يشتركون في حرب مقدسة، ينالون من خلال المشاركة الصادقة فيها تكفيراً كلياً عن ذنوبهم، مما يؤدي إلى دخولهم الجنة حيث الخلود والراحة الأبدية، ونتيجة لهذا الحادث المؤلم، فقد أُجبر أهل سرقسطة من العرب على الخروج منها نهائياً. تابع بعد ذلك ألفونسو الأول الآراغوني، فسيطر على قلعة أيوب سنة ٥١٤هـ/ ١١٢١م[٢].ومنها تابع إلى بلنسية ثم إلى وادي آش وغرناطة، حتى وصل إلى البحر المتوسط، ولم يتمكن المرابطون من عمل شيء إزاء هذا الاختراق، وهو يذكرنا بألفونسو السادس ملك قشتالة من حيث الجرأة والتوسع والطموح[٣] ففي سنة ٥٢٣هـ/ ١١٢٩م دخل إلى نواحي بلنسية في شرق الأندلس، واصطدم مع المرابطين في موقعة القليعة جنوب بلنسية، وحقق انتصاراً عليهم، لكنه فشل من ناحية أخرى في السيطرة على مدينة بلنسية، ولن تطول به الأيام حتى توفي بعد هزيمته أمام المرابطين في موقعة أخرى. وبموته توقف النشاط الذي مثلته دولة آراغون على الصعيد الحربي[٤].

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج٤ ص ٥٢. ابن أبي زرع روض القرطاس ص ١٦٠.

(٢) ابن الكردبوس . المصدر السابق ص ١١٨ وما بعدها. ابن أبي زرع . روض القرطاس ص ١٦٣. ابن الأبار . المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي. طبعة مجريط ١٨٨٥م ص ٨.

(٣) مؤلف مجهول . الحلل الموشية ص ٧٥ وما بعدها.

(٤) ابن الأثير . الكامل في التاريخ ج١١ ص ٢٣ وما بعدها . الروض المعطار. الحميري ص ٤٨ . ابن القطاني. نظم الجمان ص ٢٠٧.

بعد ذلك انتقل الزخم الحربي الإسباني إلى مسؤولية أخرى، مثلها هذه المرة ألفونسو السابع خليفة ألفونسو السادس الشهير، وهو الذي عُرف في المصادر العربية بالسليطن. وقد حاول منذ البداية الاستفادة من الأحوال المتردية في الأندلس بين عرب الأندلس من جهة وبين المرابطين من جهة أخرى، وتعاون مع شخص من بني هود، حيث وعده بإعادة حكم آبائه بقيادته(١). وقد كان الأندلسيون في هذه الفترة قد بدؤوا يتذمرون من الوجود المرابطي في الأندلس، لأن المرابطين غيروا سياستهم العامة، التي كانوا يسيرون وفاقها غداة دخولهم الأندلس، وهي سياسة كانت تقوم على إزالة كل مظاهر الظلم في المجتمع وإعلان حالة من المساواة والعدالة بين الناس، لكن هذه السياسة تغيرت نهائياً. هذا وقد اعتمد المرابطون في حكمهم على مشورة الفقهاء، وهي حالة سببت لهم متاعب جمة في أنحاء الأندلس كلّها، لأن هؤلاء الفقهاء لم يتركوا صغيرة أو كبيرة إلا وتدخلوا فيها حتى حلوا محل الحكام في كثير من الأحيان وفي العديد من الأمور(٢). وقد أدى الاعتماد على الفقهاء في عصر المرابطين في الأندلس إلى ظهور الحمية الدينية المتعصبة ضد أهل الذمة من يهود ومسيحيين، وهو أمر لم يكن معهوداً قبل ذلك. وقادت هذه الحمية الدينية المتعصبة إلى فرض حالة من التضييق على اليهود، لم تكن مبنية على عوامل موجبة أو ضرورية، وقد جاءت في وقت كان فيه العرب في الأندلس بحاجة إلى كل تأييد، سواء من اليهود أو غير اليهود، وذلك لمواجهة حركة الاسترداد الإسبانية، التي كانت لا ترضى بديلاً عن استعادة كافة الأراضي الإسبانية، التي يشغلها العرب في أهم جهات إسبانيا. كذلك فإن الفقهاء فتحوا جبهة أخرى مع المستعربين الإسبان، حينما أقنعوا يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م بإصدار أمر بهدم كنيسة كانت قد بنيت في عصر الطوائف

---

(١) ابن الكرديوس . المصدر السابق ص ١٢٠.

(٢) ابن عذاري . البيان المغرب ج٤ ص ٦٥ . ابن القطان . نظم الجمان ص ١٨.

الذي جاء المرابطون على أنقاضه[١]. وهذا ما أدى إلى ردة فعل قوية في صفوف هؤلاء، تمثلت بانضمام قسم كبير منهم إلى ألفونسو الآراغوني سابق الذكر، بعد أن كانوا يقفون على الحياد إن لم يكونوا إلى جانب العرب في بعض المواقف. وبذلك غدا المجتمع الأندلسي بكل فئاته جبهة واحدة ضد الوجود المرابطي، الذي شوهته في نظر الأندلسيين ممارساتهم المبنية على توجيهات الفقهاء التي لم تكن صائبة ولا محقة بقدر ما كانت متعصبة ومتحيزة، فأضرت ضرراً بالغاً في قضية المرابطين، وجعلتهم في نظر أهل الأندلس كالإسبان تماماً. وزاد الحالة سوءاً أنه في سنة ٥١٤هـ/١١٤٠م، أقدم أحد جنود المرابطين بقرطبة على الاعتداء على شرف إحدى النساء القرطبيات، فهبت قرطبة ضد المرابطين بكل قواها، وتمكنت من طرد والي المرابطين فيها[٢].

هذا وتوجد أسباب أخرى غير تلك التي أتينا على ذكرها حتى الآن، أدت إلى تدمير صورة المرابطين في نظر الأندلسيين، منها أن المرابطين حينما وصلوا إلى الأندلس، ألغوا معظم الضرائب التي كانت قد أرهقت كاهل الأندلسيين في عصر الطوائف، من أجل دفع الجزية للإسبان والإنفاق على رفاهية الحكام، لكن ذلك الإلغاء لم يستمر طويلاً، وعاد المرابطون لأخذ الضرائب للإنفاق على حاجات الدولة ومتطلباتها تحت مسمى تقديم العون أو المعونة لأمير المسلمين المرابطي[٣]. وكانت وسائل القمع تستخدم في عملية جمع هذه المعونة في الكثير من الأحيان. ومع مرور الأيام تطور الأمر إلى الأسوأ، حينما فرض المرابطون ضريبة كبيرة على فئات الأندلسيين، حتى ظهرت في هذا العصر ضريبة جديدة سميت (القبالة) ، وهي ضريبة فرضت

---

(١) الحميري . الروض المعطار ص ٤٦ ابن الخطيب . الإحاطة في أخبار غرناطة ج١ ص ١٠٧ وما بعدها . مؤلف مجهول الحلل الموشية ص ٦٥ وما بعدها.

(٢) مؤلف مجهول . الحلل الموشية ص ٧٠ وما بعدها . ابن الأثير . الكامل ج١٠ ص ٥٥٨.

(٣) ابن بشكوال . الصلة ترجمة رقم ١٢٦١.

على كل شيء كان يباع في الأسواق[١]. وزاد الحالة سوءاً أن الفقهاء الذين كانوا يقفون سداً منيعاً في مواجهة أعداء المرابطين، انقسموا إلى عدة أقسام حينما بدأت الدولة المرابطية تتخلى عن خدماتهم، التي لم تأت إلا بمزيد من المصائب على الحكم المرابطي في الأندلس، فقسم من هؤلاء الفقهاء وقف ضد المرابطين، وقسم منهم دعا إلى محاربتهم علناً، وقسم آخر وهو قليل بقي في خدمتهم، ولكن ليس على شاكلة ما كان سائداً في الفترة الأولى من حياة الدولة المرابطية، بل كان ذلك على هيئة أعوان لا حلفاء أو شركاء[٢].

وقد كان الفشل أمام الإسبان من أهم الأسباب التي شوهت صورة وموقع المرابطين في نظر الأندلسيين على الإطلاق. صحيح أن الأسباب آنفة الذكر أثرت في هذه المسألة، لكن التأثير الأكبر كان من خلال فشل المرابطين عسكرياً أمام حركة الاسترداد الإسبانية، التي نجحت في اختراق مناطق وجود المرابطين، كذلك نجحت في كل المواجهات العسكرية معهم، وكل ذلك مهد بقوة وسرعة إلى سقوط دولة المرابطين في الأندلس والمغرب وظهور دولة جديدة مختلفة في زخمها وقوتها وأيديولوجيتها وتوجهها، هي الدولة الموحدية، التي جاءت إلى حكم المغرب والأندلس مستفيدة في ذلك من الأخطاء الكبيرة التي وقع فيها المرابطون، وبخاصة الخطأ الذي تجسد في الاعتماد على مشورة الفقهاء وتنفيذ ما صدر عنهم من فتاوى واقتراحات وخطط.

ولكن الدولة المرابطية، على الرغم من كل هذا، تبقى دولة إيجابية إلى حد كبير في المغرب والأندلس في فترة معينة في العصور الوسطى، لأنها حملت لواء النضال بصدق وأمانة في سبيل توحيد المغرب الكبير، الذي كان مهدداً في الانقسام والتجزؤ على أساس طائفي وديني مذهبي وقبلي، وبخاصة أن الفاطميين لم يكونوا بذي تأثير كبير في هذا المجال بعد انتقال قوتهم الكبيرة

---

(١) الإدريسي . المغرب وأرض السودان ومصر ص ٧.

(٢) ابن عبدون . رسالة الحسبة ص ٢٨.

وثقلهم السياسي إلى مصر، ودليل ذلك أنهم حينما رحلوا بعد فترة وجيزة انقسم المغرب الكبير إلى قسمين، قسم شرقي ضم المغرب الأدنى والمغرب الأوسط تحت سلطة بني زيري الصنهاجيين، الذين تؤيدهم الدولة الفاطمية في مصر، وقسم غربي على النقيض تماماً في المغرب الأقصى تحت سلطة الزناتيين. ثم بعد ذلك توجهوا إلى الأندلس فأنقذوها من سقوط محتم، كانت ستنفذه قوى إسبانية وطنية عُرفت بحركة الاسترداد الإسبانية. وأعادوا من خلال نجاحهم في معركة الزلاقة، سابقة الذكر، إلى عرب الأندلس هيبتهم وآمالهم، ودعموا ذلك بإلغاء كيانات الدويلات الطائفية، وضمت الأندلس إلى المغرب، وذلك إنجاز عربي كبير لم يتحقق قبل ذلك على الإطلاق.

بقي أن نقول، إن اعتماد المرابطين على مشورة رجال الدين، أدى إلى ضرر بالغ في المجال العلمي البحت، ذلك أن رجال الدين بفكرهم غير الناضج، أقنعوا المرابطين أن العلوم التطبيقية تضر في المسألة الدينية، ما جعل عصر المرابطين فقيراً جداً في ميدان الإنجازات العلمية بالمقارنة مع الفترات السابقة، وكذلك اللاحقة، وهو أمر سنبحثه بالتفصيل في الجزء الحضاري من هذا الكتاب.

الفصل الثامن

عصر الموحدين في الأندلس

يُعد عصر الموحدين في الأندلس من العصور العربية المهمة، ذلك لأنه ورث من خلاله حكامه الذين مثلوه مهمة حماية الأندلس العربية من السقوط في أيدي الإسبان لأكثر من مئة عام. وتفسير ذلك يأتي من التذكير بأن وضع المرابطين حين سيطر الموحدون على تركتهم العامة، كان وضعاً سيئاً وصل بالأندلس إلى حافة الانهيار والخطر، فوضعوا حداً لهذا الوضع بأن أعادوا هيبة السلطة العربية هناك إلى حدّ كبير، بعد سلسلة من الإجراءات العسكرية والإدارية الفعالة.

فحينما ظهرت دولة الموحدين في المغرب الكبير، كانت حركة الاسترداد في الأندلس في أوج قوتها ونشاطها وعنادها، ورغم ذلك فإنها لم تقدم على عمل عسكري كبير في أيّ منطقة من مناطق الأندلس، وكانت أعمالها عبارة عن غارات مؤقتة هنا وهناك، ولا بد أن سبب ذلك في المقام الأول هو خوف قاعدة هذه الحركة من قوة الموحدين النامية والمتوثبة في المغرب الكبير. وسنرى أن أعمال حركة الاسترداد الإسبانية الكبيرة، جرت بعد وقت طويل من دخول الموحدين الأندلس، ومرد ذلك أن مشاكل داخلية كبيرة وقعت مجرياتها في المغرب وفي بعض المناطق المجاورة للأندلس، وبخاصة في جزر الباليار، شغلت الموحدين لوقت طويل وكلفتهم الكثير من الجهد والوقت والمال والقتلى، الأمر الذي أعطى حركة الاسترداد الإسبانية حرية واسعة للتوسع على حساب العرب الأندلسيين في عدة مناطق، وبخاصة في المنطقة الغربية، هذا بالإضافة

إلى المساعدات الأوروبية الكبيرة، التي كانت تقدم للإسبان على المستويات كافة، ذلك أنهم عدّوا حرب العرب في الأندلس جزءاً لا يتجزأ من الحروب الفرنجية الشاملة المقدسة، التي كانت قد بدأت ضد أهل الشام منذ السنين الأخيرة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وهذا ما سنبحثه بشيء من التفصيل والتركيز والاهتمام في الصفحات التالية.

حتى تكتمل الصورة عن دولة الموحدين وتطورها، لا بد من متابعة نشوئها كدعوة عقائدية في البداية إلى دولة كاملة من كل الوجوه في المرحلة الثانية.

أساس دولة الموحدين يعود إلى دعوة الفقيه محمد بن تومرت المولود في قرية إيجليز في منطقة الأطلس الصغير، وهو من هرغة التي تشكل فرعاً قبلياً من قبيلة مصمودة، التي تعد أكبر تجمع قبلي في المغرب الكبير. تكونت ثقافته العامة من خلال رحلة واسعة بدأها بالأندلس وأنهاها في عدد من أقطار المشرق العربي مثل مصر وبلاد الشام والعراق، وقد استغرقت هذه الرحلة فترة عشر سنوات متصلة بدأت سنة ٥٠٠هـ/١١٠٧م وانتهت سنة ٥١٠هـ/١١١٧م، التقى إبَّانها بالعديد من كبار العلماء في بغداد ودمشق والقاهرة وغيرها، وعاد بثقافة متنوعة وكبيرة. وكانت عودته عن طريق شمال إفريقية، التي كانت ذات تأثير في حياته العلمية والسياسية، فقد توقف ببلدة ملالة بمنطقة بجاية ليعمل معلماً فيها، وقد تعرف في هذه البلدة على عبد المؤمن بن علي، الذي سيشغل دوراً مهماً في بناء الدولة الموحدية وانتشارها في المغرب والأندلس(١).

وحينما غادر هذه البلدة بدأ يفصح عن برنامجه السياسي العام، وذلك من خلال مواعظه التي ظهر فيها آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، وقد تجسد العنصر السياسي في مواعظه ومحاضراته بتوجيه قدر من النقد والتجريح لحكام المرابطين، وحينما حلّ بمراكش عاصمة المرابطين سنة ٥١٥هـ/١١٢١م،

(١) البيدق . أخبار المهدي ص٢١ وما بعدها.

ظهرت خطورته على الحكم المرابطي، من خلال مناقشات مع بعض الفقهاء في حضرة السلطان المرابطي، وتمكن هؤلاء الفقهاء من إقناع السلطان المرابطي، بأن يصدر أمراً بطرده من حاضرته، وهذا ما حصل بالفعل فتوجه مطروداً إلى بلدته إيجليز، وأصبح يجمع حوله الأتباع والمؤيدين حتى عظم ما تجمع لديه، ما أثار انتباه المرابطين وخوفهم من خطورة ابن تومرت، فقرروا التخلص منه، ولما سمع بذلك ترك إيجليز ولجأ إلى قرية جبلية حصينة هي قرية تينمل، التي غدت منذ ذلك الحين قاعدة دعوة الموحدين. تمحورت دعوة ابن تومرت حول رفض كل ما تعتمد عليه الدولة المرابطية من فكر على الصعيد الديني المعتمد على الفقه المالكي، واعتمد بديلاً عن ذلك المذهب الظاهري المعتمد على مبدأ الأخذ بظاهر نصوص القرآن والسنة النبوية، لاستنباط كل الأحكام الضرورية للحياة العامة، وهو أمر يستدعي دراسة عميقة لمعاني القرآن ومصطلحات الحديث، وهذا ما يخالف النهج الفقهي الذي اختاره الفقهاء في العصر المرابطي، لأنهم اعتمدوا على الفرع المتمثل بمذهب الإمام مالك، الذي كان يعدُّ الأساس في كل المسائل الفقهية(١). والمذهب الظاهري نسبة إلى مبتكره الفقيه الشهير ابن حزم الأندلسي، الذي كان على خلاف شديد مع الفقهاء المالكية في الأندلس، الذين خصهم بجزء كبير من التهكم والنقد والهجوم والسخرية والاتهام بالضعف والضحالة، فناصبوه العداء وقابلوا هجومه عليهم بهجمات أشد عنفاً وقوة.

وقد تضمن فكر ابن تومرت العديد من الأفكار الأخرى، فقد دعا إلى الابتعاد عن مسألة ومبدأ القياس في مجال التشريع بحجة أن الشرع قانون إلهي ثابت، بينما القياس هو من نتاج العقول البشرية، ومع ذلك فإنه كان يدافع عن العقائد ببراهين عقلية محضة، مثل تنزيه وحدانية الله عن التشبيه، ونفي التجسيم

---

(١) ابن تومرت . أعز ما يطلب ص١٧.

عن الذات الإلهية بأي صورة من الصور، ومن لا يفعل ذلك في رأيه فهو مجسم مشرك[١]. ويكون بذلك قد اتهم المرابطين بالتجسيم.

ومن ذلك نفهم أن مسألة التوحيد، كانت الأساس لدعوة ابن تومرت، ذلك أن التوحيد لا يتحقق إلا بتنزيه الذات الإلهية عن مسألة التجسيم، لذلك سميت دعوته بالدعوة الموحدية، وسميت الدولة التي نشأت عن هذه الدعوة بالدولة الموحدية. وقد عدّ ابن تومرت من ناحية أخرى، أن الإمامة ركن أساس من أركان الدين، وبذلك التقى مع الشيعة الإمامية. وحقيقة ذلك عند ابن تومرت، هي أن يؤمن المرء ويقر في الوقت نفسه بضرورة طاعة الإمام والإقرار بعصمته دون جدال. كما أقر نظرية الاعتقاد بظهور المهدي في آخر الزمان، وهذه الأمور لم يعتقد بها إلا لأنها تخدم دعوته بشكل خاص، ودليل ذلك أنه عدّ نفسه الإمام المعصوم والمهدي الذي كان بعض الناس في حالة انتظار لظهوره، وهذا ما أكده أتباعه من خلال وضعهم بعض الأحاديث، التي تؤكد هذا التوجه عند ابن تومرت[٢]. لقد ركز على نشر هذه المبادئ بشكل خاص بعد انتقاله إلى تينمل، التي بقي فيها فترة تسع سنوات، يعمل بلا كلل على تعميق الكراهية للمرابطين في نفوس أتباعه، ويدعوهم إلى مزيد من التعاون والتكتل والانضباط، وتطور الأمر به إلى اعتماد مجالس، مثل مجلس العشرة حينما كان أنصاره قلة، وهو مجلس تألف من عشرة أشخاص اختارهم من أتباعه وتلامذته الموثوقين، وكانوا من عدة قبائل، وتمتعوا بصلاحيات كبيرة ومكانة رفيعة، وحينما أصبح أتباعه مجموعة كبيرة، أمر باعتماد مجلس آخر سماه مجلس الخمسين، الذي مُثلت فيه كل قبيلة بأكثر من شخص، وكانت وظيفة هذا المجلس بحث الأمور الكبيرة المستجدة وغيرها، ثم أحدث مجلساً ثالثاً سماه مجلس أهل الدار، وقرر أن يكون عدد أفراده عشرين شخصاً اختيروا من أعضاء المجلسين السابقين، وكان أربعة من أعضاء هذا المجلس يقومون بأعمال خدمة المهدي نفسه.

---

(١) ابن تومرت. أعز ما يطلب ص ١٦٤ وما بعدها.

(٢) ابن القطان. نظم الجمان ص٢٧.

كانت أخبار هذه التطورات كلّها تصل تباعاً إلى القيادة المرابطية في مراكش، مما جعل هذه القيادة تتحرك على وجه السرعة، فأرسلت ضد ابن تومرت عدداً من الحملات العسكرية، فشلت جميعها في الوصول إلى حيث يعسكر بتينمل، وذلك بسبب مناعة هذه المنطقة وصعوبة مسالكها العامة، في وقت كان فيه المرابطون يستخدمون في حروبهم الخيول، التي لا تستطيع أن تتحرك بحرية وسهولة في المناطق الجبلية الوعرة والمسالك الصعبة. وحينما فشلت العمليات العسكرية، اختار المرابطون أسلوب فرض الحصار على منطقة تينمل لحرمانها من كل الإمدادات، وواجه ابن تومرت وأتباعه هذا الأسلوب بهجوم مضاد على العاصمة المرابطية مراكش، فعاد المرابطون للدفاع عن عاصمتهم، وأنزلوا هزيمة قاسية بالموحدين سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م.

كانت الهزيمة قاسية على الموحدين، وبخاصة أنها حصلت لهم في أول محاولة هجوم على المرابطين، لكن ابن تومرت لجأ إلى أسلوب التهدئة، على الرغم من أنه كان في طليعة المتأثرين بالهزيمة، بدليل أنه لم يعش بعد ذلك سوى أربعة أشهر، أو أقل بأيام، ولا يستبعد أن يكون سبب موته وقع الهزيمة في نفسه. وكان لوفاته وقع الصاعقة في نفوس أتباعه الموحدين، وكان المقربون منه يخشون من تفرق القبائل وتشتتها، فقد كان يشكل محور اتحادها وتعاضدها، لذلك نرى هؤلاء المقربين يخفون أمر وفاته فترة مديدة، حتى تمكنت حركتهم إلى حد ما على أرض الواقع.

خلفه في قيادة الموحدين عبد المؤمن بن علي، الذي تعرّف عليه ورافقه منذ عودته من رحلته العلمية في المشرق كما ذكرنا، ويبدو أن مجيئه إلى حكم الموحدين كان طبيعياً، على الرغم من أنه لم يكن من مصمودة، فهو من قبيلة زناتة التي تأتي في المرتبة الأخيرة في تسلسل القبائل المغربية بالاعتماد على القوة والعدد.

يعدُّ عبد المؤمن بن علي الكومي الزناتي المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين، والمحقق الأساس لانتشار قواتها في أرجاء المغرب الكبير والأندلس، وهو واضع

أساسها الإداري العام، الذي جاء متناسباً مع اتساع رقعة انتشارها. وقد بدأ ذلك بحرب المرابطين وإسقاط حكمهم، آخذاً بعين النظر ما حدث للموحدين في هجومهم الأول على مراكش، ما جعله حذراً في كل خطوة يقوم بها، وأكبر دليل على ذلك أنه لم يقم بأي حركة هجومية ضد المرابطين، إلا بعد مضي نحو ثماني سنوات على تسلّمه القيادة الموحدية، فقام بتنفيذ هجوم شامل ضد المرابطين بقواته التي كانت على جانب كبير من الاستعداد والتسليح والوعي، وبدأ هجومه في المغرب الأقصى، ثم تابع إلى المغرب الأوسط، فخاض معركة كبيرة مع المرابطين في المنطقة بين تلمسان ووهران، انتصر فيها سنة ٥٣٩هـ/١١٤٥م، ثم تبعها بالسيطرة على العاصمة المرابطية مراكش سنة ٥٤١هـ/١١٤٧م[١].

التفت بعد ذلك إلى فرض سيطرة الموحدين على المغرب الأدنى، ونجح في ذلك دون متاعب، وأراد حينما تحقق له الأمر أن يعتمد على قوات ومساعدة القبائل العربية، التي هاجرت إلى المغرب الأدنى، وهي قبائل سليم وهلال. ثم قام بتعيين أولاده حكاماً على الولايات والمناطق، وأبقى إلى جانبه شيوخ قبيلة مصمودة لأنه لم يكن يثق بتأييدهم وهدوئهم كثيراً، ثم توج ذلك بفرض عقيدة ابن تومرت في كل البلاد الأندلسية[٢].

كان دخول الموحدين الأندلس بطيئاً متثاقلاً إلى حد كبير، ذلك أنَّ المشكلات كانت كبيرة بالمغرب الكبير في تلك الآونة، فقد شغلوا بإشكال بني غانية، ومشكلات القبائل الهلالية، وبالتصدي للهجمات النورماندية التي كانت تأتي بين الفينة والأخرى من جزيرة صقلية، وهي مشكلات لم تكن ناشطة في العصر المرابطي بهذه الصورة. أضف إلى ذلك أنَّ المرابطين في الأندلس، كانوا يعانون من قيام عدد من الثورات ضدهم، استفاد منها الموحدون كثيراً، وربما كانت بمنزلة نائب أو ممثل عنهم من أجل السيطرة على الأندلس. وقاد معظم

---

(١) عبد الواحد المراكشي . المعجب ص٢٣٩.

(٢) أحمد بدر . تاريخ الأندلس ص ٢٧٩.

هذه الثورات رجال دين، كان المرابطون منذ نشوء دولتهم يعولون على أمثالهم، وبذلك يكون المرابطون قد وقعوا في المحظور، الذي تنبه إليه معظم حكام العصور الوسطى، وهو إبعاد رجال الدين عن شؤون الحكم أو التدخل فيها قدر الإمكان، لأن رجال الدين لا يقيمون وزناً لأحد من السياسيين إذا كان من غير طبقتهم، حتى إنهم يتحينون الفرص المواتية للانقضاض على الذين يقربونهم، وهذا ما حصل في الفترة الأخيرة من حكم المرابطين في الأندلس.

كان أحمد بن قسي أحد الذين انتفضوا ضد المرابطين في المرحلة الأخيرة، وكان قبل ذلك عاملاً مالياً للمرابطين في مدينة شلب، وفجأة اعتزل هذا العمل ومال إلى التصوف، والتفَّ حوله الكثير من الأتباع والمريدين، وتبعاً لذلك سمي بزعيم المريدين، واتخذ من ميرتلة قاعدة لحركته الصوفية، التي تحولت إلى حركة سياسية ضد المرابطين، استطاعت بنجاح أن تسيطر على معظم غرب الأندلس، وأعلن ابن قسي نفسه أميراً على هذه المنطقة وتلقب بالعزيز بالله، وحاول بعد ذلك السيطرة على قرطبة وإشبيلية، لكن محاولاته باءت بالفشل، وبعد فترة غير طويلة حدثت اختلافات بين ابن قسي وأحد معاونيه المعروف بابن وزير، أسفرت عن فوز ابن وزير في حكم المريدين، وبقي في الحكم حتى جاء الموحدون(١).

وفي مدينة قرطبة أعلن قاضي الجماعة فيها أحمد بن حمدين تمرده على المرابطين، وقد حدث ذلك التمرد الذي سمي فيما بعد بثورة الفقهاء سنة ٥٣٩هـ/١١٤٥م مستفيداً من الفراغ الذي حصل جراء خروج حاكم قرطبة المرابطي لقمع حركة المريدين سابقة الذكر، فاتصل بالقضاة في المدن الأخرى للثورة، واتصاله بالقضاة خارج قرطبة، يأتي من كونه رئيسهم والمسؤول عنهم، لأن قاضي الجماعة في الأندلس، كان يقيم بقرطبة عادة ، وهو الذي يقوم بتعيين جميع قضاة المدن والمراكز الأخرى، ومن ثمَّ هو الذي يعزلهم في الوقت المناسب، بما يشبه وزير العدل في عصرنا أو مدير القضاء العسكري على مستوى الجيش(٢).

---

(١) ابن الأبار . الحلة السيراء ج٢ ص ١٩٧ وما بعدها.

(٢) انظر حول ذلك كتابنا . القضاء في المغرب والأندلس. طبعة دمشق ١٩٩٣.

وبالفعل، استجاب الجميع تقريباً لنداء ابن حمدين، واشتعلت ثورة عارمة في معظم أرجاء الأندلس، لكن الأمر لم يستقر لابن حمدين الذي تلقب بأمير المسلمين وناصر الدين، فقد استطاع يحيي بن غانية العائد بخيبة أمل من حرب المريدين، أن يعزله عن قرطبة سنة ٥٤٠هـ/١١٤٦م، فلجأ إلى طلب المساعدة من الإسبان ضد ابن غانية، وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدل على أن إعزاز الدين لم يكن في يوم من الأيام هو المقصود من تدخل الفقهاء في شؤون السياسة والحكم، وإلا لما كان هذا الفقيه الذي من المفروض أن يكون على دراية كبيرة بشؤون الدين، كونه كان يشغل منصب قاضي الجماعة في الأندلس، قد مدّ يد العون إلى العدو الذي كثيراً ما تشوق الفقهاء في تكفيره وتخريجه عن جادة الصواب. وما فعله هذا القاضي يعد من جهة أخرى سابقة خيانية خطرة، تعكس تفضيل الفقهاء للسلطة والحكم والقضايا الشخصية الخاصة على كل المصالح الوطنية والدينية العامة. وهكذا، استجاب الإسبان لطلبه على وجه السرعة، فأرسلوا له جيشاً تمكن بقيادته الباطلة أن يدخل قرطبة من شرقها، لكن أخباراً وصلت إلى الجانب الإسباني عن هجوم وشيك للموحدين، وهذا ما حصل على أرض الواقع بالفعل، وخرج ابن حمدين يجر أذيال الخيبة والعار.

وفي مدينة مالقة بجنوب الأندلس، تمكن القاضي أبو الحكم الحسين بن حسون أن يستقل في حكم المدينة لفترة وجيزة، ذهب بعدها لطلب المعونة من العدو الإسباني، كما حصل لابن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة سابق الذكر، وقد مكنه الإسبان من الاستمرار في حكم مالقة حتى سنة ٥٤٧هـ/١١٥٣م، حينما لم يتمكن من مواجهة المعارضة الداخلية، التي نشأت كردة فعل وطنية ضد تحالفه مع الإسبان وفرض ضرائب باهظة لإرضائهم(١).

كذلك، ظهرت حركات معارضة للمرابطين في شرق الأندلس، اشترك فيها وحرَّض عليها الفقهاء والإسبان على حد سواء. وقد تطور الأمر إلى ظهور

---

(١) ابن عبد الملك المراكشي. التكملة. سفر ٥ قسم ١ ص ٢٤٣ وما بعدها.

حكام كانوا ممثلين صادقين للإسبان، يعملون لصالحهم على الرغم من أنهم كانوا محسوبين على الجهة العربية، وكان كل ذلك موجهاً في المقام الأول ضد الموحدين، الذين على ما يبدو كانوا يشكلون في هذه الفترة مصدر خوف وقلق لحركة الاسترداد الإسبانية، على الرغم من أنهم لم يكونوا حتى ذلك الحين قد شكلوا قوة كبيرة على أرض الأندلس تثير مثل هذه المخاوف. من هؤلاء الحكام كان محمد بن سعد بن مردنيش، الذي يرتبط بقرابة مع الإسبان كما يشير اسمه، وقد أثرت هذه القرابة في مجمل تصرفاته، التي جاءت برمتها تقريباً لصالح الحركة الوطنية الإسبانية، ودليل ذلك ارتباطه الوثيق وعلاقته الطيبة بزعيمين كبيرين من زعماء حركة الاسترداد الإسبانية، وهما رامون بيزنغوير حاكم دولة برشلونة، وألفونسو السابع ملك قشتالة. وكان يدفع لهما جزية سنوية كبيرة، أرهق كاهل أتباعه من أجل جمعها وتأديتها في الوقت المناسب، ففرض ضريبة على كل مناشط الناس تقريباً، حتى العائلية والاجتماعية كالأعراس وما شابه(١). وبذلك استمر ابن مردنيش في الحكم فترة طويلة وصلت إلى ربع قرن.

ومن حكام شرق الأندلس ابن همشك، الذي يعود بأصله إلى الإسبان، وقد سيطر على شقورة، وتقرب من ابن مردنيش فحالفه وتزوج ابنته، ونفذ عمليات حربية ضد الموحدين شملت وادي آش وغرناطة وجيان، ووصل من خلال بعض هذه العمليات إلى أراضي إشبيلية وقرطبة(٢).

وقد تهافت الكثير من هؤلاء الثوار على طلب المعونة الموحدية ضد المرابطين من أجل تعزيز مكانتهم في الأرض الأندلسية، نذكر منهم ابن قسي الذي حضر بنفسه إلى المغرب وتقابل مع الزعيم الموحدي عبد المؤمن بن علي، واستطاع أن يحصل على مساعدة الموحدين، وتجسدت هذه المساعدة بإرسال قوة عسكرية إلى الأندلس، تمكنت سنة ٥٤١هـ/١١٤٧م من السيطرة

---

(١) ابن الخطيب. الإحاطة في أخبار غرناطة ج٢ ص ١٤١ وما بعدها.

(٢) ابن الخطيب. أعمال الأعلام ص ٢٦٣.

على طريف والجزيرة الخضراء، وتابعت باتجاه لبلة وميرتلة وباجة وبطليوس ثم شلب، وبعد مضي سنة على ذلك تمت السيطرة على إشبيلية[1].

وفي سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م تمكن الموحدون من السيطرة على قرطبة، ومما ساعدهم في ذلك الاختلاف الذي وقع بين حاكمها يحيي بن غانية والملك الإسباني ألفونسو السابع، الذي استفاد من انشغال الموحدين بقمع الثورات، وصار يمارس الضغوط على ابن غانية حتى أجبره على التنصل من كل أشكال التعاون معه، وذهب إلى غرناطة عله يجد فيها من المرابطين من يتفق معه للالتحاق بركب الموحدين، لكنه توفي سنة ٥٤٣هـ/١١٤٩م، وحاول ألفونسو السابع احتلال قرطبة بفرض حصار شديد عليها، رفعه عنها الموحدون ودخلوها. ومع ذلك، فقد بقي خطر الإسبان قائماً في جهات قريبة من قرطبة، إذ تمكن صاحب برشلونة من احتلال العديد من المواقع مثل طرطوشة ولاردة وافراغة وغيرها بمساعدة أوروبية جاءت هذه المرة من جنوة الإيطالية. كما استطاع ألفونسو السابع من جهته، أن يحتل قلعة رباح وما حولها، ومدينة المرية المرفأ المهم في الجنوب على البحر المتوسط، وذلك بمساعدة أوروبية أيضاً مثلها بشكل خاص الفرنسيون والجنويون[2].

أما في غرب الأندلس فقد واجه الموحدون مصاعب جمة، لأن هذه المنطقة كانت قد بدأت تظهر بأنها نواة لدولة جديدة هي البرتغال، منذ هزيمة الإسبان في معركة الزلاقة سابقة الذكر في عصر المرابطين، وزاد الأمر صعوبة أنه في تلك الفترة، كان على رأس البرتغال هنري أنريكي، الذي كان يسعى جاهداً لتقوية مركز وموقع بلاده في المنطقة، ووجد الفرصة مناسبة لذلك من خلال النشاط الفرنجي في المنطقة، حيث كانت كل الحملات الفرنجية المتوجهة إلى بلاد الشام، تمر في منطقة هنري أنريكي، الذي كان على الدوام يشجعها

---

(١) ابن أبي زرع . روض القرطاس ص ١٨٨ وما بعدها.

(٢) ابن الأثير . الكامل في التاريخ ج ١١ ص ١٣٦.

على القيام بعمليات غزو في مناطق العرب المجاورة لدولته، وذلك من خلال إقناع هذه الحملات أن هذه الأعمال لا تقل في حال من الأحوال عن الأعمال، التي سينفذونها في بلاد الشام وغيرها.

نتيجة لذلك، سقطت مدينة شنترين في أيديهم سنة ٥٤١هـ-١١٤٧م، ونفذ فيها هنري أنريكي مذبحة مروعة، حينما أقدم على ذبح معظم سكانها. وبعد ذلك بفترة وجيزة من العام نفسه، وصلت إلى المنطقة حملة فرنجية كبيرة مؤلفة من ألمان وإنكليز، كانت في طريقها إلى بلاد الشام لإنقاذ الوضع المتدهور للفرنجة هناك، وقد استطاع هنري أنريكي أن يقنع قادة هذه الحملة بتنفيذ هجوم مباغت على لشبونة عاصمة البرتغال اليوم، التي كانت آنذاك تعرف بالأشبونة، وتمكن المهاجمون من إسقاطها بعد فترة حصار شديدة[١].

استشعر الأندلسيون إثر هذه الكارثة الخطر على حقيقته، فتوجهوا إلى عبد المؤمن بن علي بالأوداية[٢]، بالرباط الحالية، وأعلموه بتفاصيل ما يجري في بلادهم، وقد كان عظيماً حينما استجاب لهم، بأن خصص ثلث قواته العسكرية الجاهزة للتصدي للحركة الوطنية الإسبانية والبرتغالية، وخصص بقية القوات العسكرية لمواجهة الخطر النورماندي على تونس وما حولها، الذي كان مصدره صقلية[٣].

ولم تتمكن القوة الأندلسية من عمل شيء مهم، سوى أنها أسهمت في خلق حالة دفاعية أقوى مما كانت عليه في الماضي القريب، لكن مع مرور الأيام تحسنت أحوالها وانطلقت إلى مواقع هجومية متقدمة، من ذلك أنها فرضت

---

(١) Jan Read - the Moors in Spain and portugal. p. 184

(٢) الأوداية هي حصن أو قلعة بناها عبد المؤمن بن علي الموحدي على الضفة اليسرى من مصب نهر بورقراق في المحيط الأطلسي، تطورت بعد ذلك إلى ما يعرف اليوم بمدينة الرباط عاصمة المملكة المغربية، وما زال حصن الأوداية قائماً كشاهد على توجه عبد المؤمن بن علي لحماية شرق المغرب الكبير والأندلس من النورمان والإسبان منطلقاً من هذا الحصن القريب من شاطئ المحيط الأطلسي.

(٣) ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة ص ٤٤٧ وما بعدها. البيدق أخبار المهدي ص ٧٣.

حصاراً محكماً على مدينة غرناطة في جنوب شرق الأندلس، لمنع الثوار في المناطق المجاورة من الاستفادة من مساعدة الغرناطيين، ولم تلبث المدينة أن سقطت في أيدي الموحدين، ما سمح لهم بتنفيذ خطوات أخرى مماثلة من حيث أهميتها وتأثيرها.

ففي سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م، تمكن الموحدون من تحرير المرية، المرفأ الرئيس في جنوب الأندلس، بعد حصار فُرض عليها من البر والبحر استمر فترة سبعة أشهر متصلة، وقد حاولت القوى المعادية ممثلة بألفونسو السابع وحليفه الخائن ابن مردنيش، أن تستعيد مدينة المرية، لكنها فشلت في كل محاولاتها. وقد تبع هذا الإنجاز العظيم تحرير عدة مواقع مهمة قريبة من المرية، حاول ألفونسو السابع أن يحررها، فلم ينجح بفعل الاستبسال الموحدي للاحتفاظ بها، وفي أثناء ذلك توفي بالقرب من مدينة بياسة، الأمر الذي ساعد الموحدين على تحرير مدينة أبذة القريبة، وكانت كل من بياسة وأبذة قواعد مهمة لشن الهجمات المعادية على المرية ومناطق حوض الوادي الكبير(١).

ورغم عظمة هذه الإنجازات بالنسبة للموحدين، فإنها كانت مهددة في كل وقت من الأوقات من القوة الإسبانية، التي اتفق زعماؤها بعد وفاة ألفونسو السابع، وهم بشكل خاص سانشو الثالث وفرناندو الثاني ملكا قشتالة وليون، اتفقا على توزيع الأراضي الأندلسية التي مازالت تحت السيطرة العربية فيما بينهما، وعينا الأراضي التي تخص كل منهما من ناحية استردادها من العرب. وساعدهم في ذلك بعض الخونة، الذين كانوا ومازالوا يعدون في خانة العرب، مثل ابن مردنيش وابن همشك. فابن همشك على سبيل المثال نفذ العديد من الغارات، استطاع من خلالها السيطرة على بياسة وأبذة وإستجة وقرمونة، وضيق على أهل قرطبة كثيراً، إلى درجة أن قام معظم أهلها بمغادرتها، وكل ذلك

---

(١) ابن الأثير . الكامل في التاريخ ج١١ ص ٢٢٣ . مجموع رسائل موحدية. تحقيق بروفنسال. طبعة الرباط ١٩٤١ ص ٧٠ وما بعدها.

حصل سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م. لكن الأمر لم يدم طويلاً، فقد ساعدت الظروف الإيجابية في المغرب على التركيز بشكل كبير على المسائل الأندلسية، فحينما حُررت المهدية بالمغرب الأدنى من النورمانديين، أمر الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي ببناء قاعدة انطلاق قوية في منطقة جبل طارق للجيوش الموحدية(١). وفي الوقت الذي كانت تبنى فيه هذه القاعدة العسكرية من أجل تجمع الجيوش الموحدية، قام ابن مردنيش بشن هجوم مباغت على مدينة غرناطة سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م، وتمكن من دخولها بمساعدة مجموعة من سكانها اليهود، الذين كانوا قد بدؤوا الانقلاب ضد العرب منذ عصر الطوائف، حينما انهارت قوة العرب في الأندلس وأصبحوا ضعفاء، وبدأ الإسبان يأخذون بزمام المبادرة في معظم الأمور العسكرية، فانتقل اليهود بكل ثقلهم إلى جانبهم يقدمون لهم كل ألوان المساعدة ضد العرب، وهي عادة متجذرة في تاريخ اليهود العام، فهم على الدوام مع الأقوياء ضد الضعفاء والمنكوبين(٢). وفي غرب الأندلس قام البرتغاليون باحتلال باجة في الفترة نفسها(٣).

حركت هذه الأحداث المحزنة مشاعر عبد المؤمن بن علي الموحدي أكثر من أي وقت مضى، فدفعته لأن يلتفت إلى ما يجري في الأندلس من كوارث، فأمر بتشكيل أربعة جيوش من أجل حرب الإسبان في الأندلس، انضمّت إليها قوة من فرسان بني هلال وسليم، جاؤوا من المغرب الأدنى بشكل خاص، كما أمر بصنع مراكب وسفن تتمكن من نقل هذه الجيوش من المغرب إلى الأندلس. وفي غمرة هذا الاستعداد توفي عبد المؤمن بن علي سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م. وخلفه في حكم الموحدين ابنه يوسف بن عبد المؤمن أبو يعقوب، الذي تابع على وجه السرعة ما يجري في الأندلس، فتمكن من إعادة غرناطة إلى السيادة

(١) ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة ص ١٣٧.

(٢) انظر حول هذه الطبيعة في اليهود كتابنا: اليهود في المغرب والأندلس. طبعة دمشق ١٩٩٩.

(٣) ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة ص ١٨٦ وما بعدها.

العربية، وطور هجومه في المنطقة الشرقية حتى وصل إلى مرسية، واستطاع بعد ذلك أن يمسك بزمام المبادرة بعد أن دب الخلاف في صفوف زعماء حركة الاسترداد، وبدأ أتباع ابن مردنيش ينضمون إلى قوة الموحدين. وبعد وفاة محمد ابن مردنيش سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م، جاء ابنه هلال إلى إشبيلية التي كان يقيم فيها الزعيم الموحدي، وقدم له الطاعة والولاء(١).

أما في المنطقة الغربية فلم تكن الحالة تدعو للاطمئنان على الإطلاق، فقد استغل البرتغاليون وغيرهم انشغال الخليفة الموحدي ببعض المشكلات في المنطقة الشرقية، وقاموا بهجوم مباغت على باجة بقيادة جرانده فهدموها وكان ذلك بـ في سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م. ومع ذلك لم يتحرك الخليفة الموحدي لعمل شيء في المنطقة الغربية، لأنه قبل مهادنة القيادة الإسبانية مدة خمس سنوات، فالجبهة الإسبانية كانت تعاني بعض التفكك بسبب الخلافات بين قادتها، وهي خلافات كانت مساعدة للموحدين لتوجيه ضربة قوية لأعدائهم فيما لو استغلوها.

لكن خلافات الجبهة الإسبانية ما لبثت أن انتهت، وعادت إلى هذه الجبهة حيويتها من جديد، وبدأت بشن هجمات ضد القوى الموحدية، وكان أخطر وأغزر هذه الهجمات في المنطقة الغربية، حيث البرتغاليون المتحمسون لضرب الوجود العربي في المنطقة، ولم يكن هناك أمام الخليفة سوى التحرك باتجاه هذه المنطقة لوضع حدّ لما يجري هناك قبل أن يستفحل أمره، فقاد حملة عسكرية إلى شنترين التي كانت معقلاً كبيراً للوجود البرتغالي، ومنطلقاً مهماً لكل هجماتهم، فسار إليها منطلقاً من إشبيلية ببطء شديد، فوصلها سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م ففرض حصاراً شديداً عليها. ورغم ذلك، فشل في دخولها، وتمكن البرتغاليون من أخذ المبادرة وتمكنوا من جرح الخليفة نفسه، وانسحبت القوات الموحدية من منطقة شنترين، وتوفي الخليفة أبو يعقوب يوسف حينما وصل إلى يابرة(٢).

---

(١) ابن الخطيب. أعمال الأعلام ص ٢٦٢ وما بعدها.

(٢) ابن أبي زرع. روض القرطاس ص٢١٣ وما بعدها.

خلفه في حكم الدولة الموحدية ابنه يعقوب المنصور، الذي عُد عصره من أزهى عصور هذه الدولة، بسبب النجاحات التي حققها في الميدان العسكري، وفي الميدان العلمي العام. لقد حمل منذ البداية عبء مواجهة حركة الاسترداد الإسبانية بلا تردد، لأن أمور التدهور في الحالة العربية في الأندلس، كانت قد وصلت إلى حدّ خطر لا يحتمل التقاعس أو التأجيل، وبخاصة في المنطقة الغربية التي شهدت أو بالأحرى كانت تشهد أشرس هجمة على وجود العرب هناك، وكان يساعد البرتغاليين في هذه المنطقة الحملات الفرنجية التي كانت تمر بشكل مستمر في تلك الفترة بالقرب منها أو تتوقف في أراضيها لفترات معينة، فعلى سبيل المثال استطاع سانشو حاكم البرتغال أن يقنع إحدى الحملات التي وصلت إلى لشبونة بغزو مدينة شلب في جنوب غرب الأندلس، وبالفعل فقد حاصرت هذه الحملة التي كانت من الألمان والإنكليز مدينة شلب مدة شهر كامل من ناحية البحر والبر سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م، ونجحت في إسقاط المدينة وإخراج أهلها منها.

وفي عام ٥٨٧هـ/١١٩١م توجه الخليفة يعقوب المنصور إلى المنطقة لاستعادة مدينة شلب، وبالفعل نجح في هذه العملية وأعيدت مدينة شلب إلى السيطرة العربية. ثم توجه إلى إشبيلية ومنها إلى قرطبة، ثم توجه شمالاً إلى شلبترة وقلعة رباح. ولما سمع حاكم قشتالة ألفونسو الثامن، توجه إلى حيث يوجد المنصور وتمركز في حصن الأرك المجاور لقلعة رباح. ولما رأى المنصور هذا الإجراء، أصدر أوامره بالاستعداد للحرب، وكان ذلك سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م(١).

وقعت معركة كبيرة بين الطرفين استغرقت نهاراً واحداً، هُزم في نهايتها جيش ألفونسو الثامن، بعد أن تكبد خسائر جمة في الأرواح والعتاد، يختلف المؤرخون في تحديد مقاديرها. ولعل النجاح في هذه المعركة، كان نتيجة استعداد كبير في صفوف الموحدين، وتصميم صادق على كبح جماح حركة الاسترداد الإسبانية، بعد أن حققت نجاحات كانت مقلقة للجانب الموحدي(٢).

---

(١) ابن أبي زرع. روض القرطاس ص ٢٢٣.

(٢) ابن الأثير. الكامل في التاريخ ج٢ ص ١١٦. ابن أبي زرع. روض القرطاس ص ٢٢٨.

ساعد الفوز في هذه المعركة الكبيرة، أن يقوم الموحدون بعدد من الغزوات عبر وادي آنه ثم وادي التاجة، فوصل المنصور بجيشه إلى طلبيرة، ومنها توجه إلى طليطلة ثم عاد إلى إشبيلية، ومنها توجه إلى وادي الحجارة، حيث استقبل وفداً من قشتالة وليون، وعقد معه معاهدة سلام لمدة عشر سنوات.

لم تطل حياة المنصور بعد هذه المعاهدة، فقد توفي سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م، وخلفه ابنه محمد الناصر الذي استمر في حكم الدولة الموحدية إلى سنة ٦١٠هـ/١٢١٤م. وفي عصره بدأت دولة الموحدين تسير في طريق السقوط والانهيار، الأمر الذي سمح لحركة الاسترداد أن تتحرك بحرية شبه كاملة، ذلك لأن مشاغل هذا الخليفة كانت كبيرة، وبخاصة في المغربين الأوسط والأدنى. لقد كانت هزيمة الأرك بالنسبة للإسبان درساً قاسياً، ولكنه كان مفيداً للغاية، فقد جعلهم بقيادة ألفونسو الثامن، يعملون بكل ما يملكون على إعادة رص الصفوف وبناء قوة كبيرة، والاستفادة قدر الإمكان من المساعدات الأوروبية، فقد قام رئيس أساقفة مدينة طليطلة بجولة في إيطاليا وفرنسا، حصل خلالها على تأييد من البابا أنوسنت الثالث، تجسد بأن أعلن أن القتال ضد العرب في الأندلس هو نوع من الحرب الوطنية المقدسة، ودعا إلى وحدة الصف في إسبانيا وجنوب فرنسا من أجل ذلك[١].

كان لكل ذلك دوره الكبير في الصدام الذي حدث بين الموحدين والإسبان سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م بشعاب جبال قرطبة، الذي انتصر فيه الإسبان بقيادة ألفونسو الثامن نصراً ساحقاً، حينما تمكن من تحطيم معظم قوات الخليفة الناصر، وأجبره على الهرب من كل المنطقة. وقد دعيت هذه المعركة معركة العقاب. ومنذ ذلك الحين بدأت الدولة الموحدية تسير في طريق النهاية، حتى تبلورت بشكل فعلي سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م[٢]. وبدأت دول حركة الاسترداد الإسبانية تتقدم بحرية في مختلف مناطق الأندلس، فلم تأت سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٣م حتى سقطت هذه المناطق

---

(١) Jan Read, the Moors in Spain and Portugal. P. 168

(٢) ابن أبي زرع. روض القرطاس ص ٢٣٥ وما بعدها.

في أيدي الإسبان، وبقيت غرناطة وما حولها مثل مالقة ووادي آش والمرية، تقاوم إلى نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

من كل ما تقدم نخلص إلى نتيجة مهمة، هي أن الموحدين لم يهتموا كثيراً بأوضاع الأندلس كما اهتموا بأوضاع المغرب، وهذا لم يكن بإرادتهم أو بتخطيط مسبق، بل إن ما حدث فُرض عليهم فرضاً، فقد بدأت في هذا العصر تظهر الأخطار من الداخل والخارج، فمن الخارج بدأ النورمانديون يشنون حملات شبه مستمرة على مناطق المغرب الأدنى، منطلقين من جزيرة صقلية، وقد تمكنوا في بعض الأحيان من احتلال مناطق مهمة على الساحل التونسي، كلفت الموحدين جهوداً كبيرة حتى تمكنوا من تحريرها. ومن الداخل، برزت مشكلة كلفت الموحدين الكثير من الوقت والمال والدماء، وهي المشكلة التي تجسدت في ثورة بني غانية، التي أقضَّت مضجع الموحدين أحياناً في المغرب وأحياناً في الأندلس، ولو أن ما صرف على قمع هذه الثورة، كان قد صرف على حرب حركة الاسترداد الإسبانية لكان ما حدث في الأندلس غير ذلك الذي حدث تماماً. وقد امتنعنا عن التفصيل في أعمال الموحدين ضد هذه الحركة هنا، لأننا قمنا بتفصيلها في الجزء الخاص بالمغرب الكبير، وأي شيء حول هذا الموضوع هنا هو نوع من التكرار غير المفيد.

كما برزت أمام الموحدين مشكلة لم تكن في حسبانهم على الإطلاق، هي المشكلة اليهودية التي أثارها الفقهاء، كما كان الأمر في العصر المرابطي، ونتيجة لما حصل من ممارسات ضد الوجود اليهودي في الأندلس، فإن ردة فعل يهودية في هذا العصر كانت مريرة، أسهمت في الكثير من المواقف ضد مصلحة الموحدين، وهي مشكلة سنعالجها بشيء من التفصيل في فصل لاحق مستقل، لما لها من أهمية بالغة في معرفة طبيعة اليهود العدوانية والأنانية، ومن ثمَّ الوقوف على المعاملة الحضارية العربية، التي مورست مع اليهود في الفترة الطويلة التي سبقت عصر المرابطين والموحدين.

بقي أن نشير إلى ناحية في حياة الخلفاء الموحدين، كانت مهمة إلى حدّ كبير تجسدت بأنهم لم يسمحوا بحرية واسعة للفقهاء، كما حصل في العصر المرابطي، ولم يستمعوا إليهم كثيراً إلا في بعض القضايا، مثل الموقف من بعض الفلاسفة العقلانيين، الذين عدّ الفقهاء أنهم يشكلون خطراً حقيقياً على مصلحتهم الشخصية، ولكنهم تظاهروا أمام الحكام أنهم يفعلون ذلك من أجل مصلحة الشريعة بشكل عام، وكانوا في ذلك بعيدين عن الأمانة والصدق، ذلك أن الفلاسفة في هذا العصر كانوا من كبار الفقهاء، ومن أحرص الناس على الشريعة الإسلامية، وفي طليعتهم الفقيه الكبير ابن رشد، الذي حاول من خلال فلسفته أن يوفق بين الدين والفلسفة. ومثل موقفهم من الوجود اليهودي في الأندلس. وكان قبول الحكام الموحدين رأي الفقهاء بخصوص اليهود من الأمور التي دلت على قصر نظر هؤلاء الحكام، وعلى ضعف شديد في السياسة العامة، حتى تلك التي تنبثق عن الشريعة الإسلامية، وتلك التي تتعلق بتطبيق أوامر الشريعة تجاه أهل الذمة بشكل عام.

الفصل التاسع

عصر بني الأحمر في غرناطة

يُعد عصر بني الأحمر في غرناطة عصر الصمود والدفاع من أجل الوجود العربي في الأندلس، هذا الوجود الذي انحصر في غرناطة وما حولها مثل مالقة والمرية ووادي آش في جنوب شرق الأندلس، وهي منطقة صغيرة جداً بالقياس إلى مساحة الأندلس العامة. وقد صمد الغرناطيون مدة طويلة في هذه المنطقة، وصلت إلى نحو قرنين ونصف القرن في وجه أعتى حركة وطنية ظهرت في العصور الوسطى، وهي الحركة الوطنية الإسبانية التي عُرفت باسم حركة الاسترداد، التي استفادت من انحسار القوة الموحدية في المغرب والأندلس، وغياب الدولة الواحدة القوية في المغرب الكبير، الذي أصابته ريح التجزؤ بعد سقوط دولة الموحدين، فانقسم إلى ثلاث دول متناحرة متقاتلة، هي الدولة المرينية في المغرب الأقصى، والدولة الزيانية أو دولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط، والدولة الحفصية بالمغرب الأدنى.

ومما ساعد في صمود الغرناطيين في وجه حركة الاسترداد الإسبانية، قيام دولة المرينيين في المغرب الأقصى بتقديم المعونة العسكرية القوية لفترة استمرت على مدى أكثر من مئة عام. هذا بالإضافة إلى وضعهم بعض الخطط الناجحة، التي جعلت التحفز والاستعداد من الأمور المهمة في سياستهم العامة.

تسمى هذه الدولة أيضاً باسم آخر أقل شهرة من الاسم الذي ذكرناه، وهو دولة بني نصر، وربما جاء هذا الاسم من المؤسس الأول المعروف بمحمد بن

يوسف بن نصر. ظهرت هذه الدولة بعد انحسار الدولة الموحدية والوجود العربي في الكثير من المناطق الأندلسية، إثر ثورات قامت ضد هذه الدولة وبخاصة في الشرق. وكان من بين الذين ثاروا على السلطة الموحدية، محمد ابن يوسف بن نصر في حصن أرجونة سنة ٦٢٩هـ/١٢٣٢م، ثم توسع في مناطق أخرى مثل جيان وإشبيلية وقرطبة، لكن إشبيلية وقرطاجنة عادتا مرة أخرى إلى ابن هود، فعوض ابن الأحمر محمد بن يوسف عنهما بالسيطرة على غرناطة سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م، ثم أتبعها بمدينة المرية في السنة التالية ثم مالقة في السنة التي تليها[١]. لكن فرناندو الثالث ملك قشتالة شن هجوماً على جيان وأخضعها لسلطته، ولم يتمكن ابن الأحمر من إنقاذها، فسعى إلى إقامة صلح مع الملك القشتالي، فقبل الملك القشتالي بشرط أن يعترف به كسيد له، ولكن ابن الأحمر استطاع أن يحصل من الملك القشتالي على اعتراف بالغ الأهمية، تجلى بالإعتراف به أميراً على كل المناطق التي كانت تحت سيطرته باستثناء مدينة جيان التي بقيت تحت سلطة الملك القشتالي فرناندو الثالث[٢].

استمر هذا الاتفاق مدة طويلة من سنة ٦٤٢-٦٦٢هـ/١٢٤٥-١٢٦٤م، استغلته كل الأطراف في الأندلس لصالحها، فقد أنجز فرناندو الثالث عملية مهمة هي السيطرة النهائية على إشبيلية وقرطبة ومرسية، واستطاع ابن الأحمر تمكين سلطته في غرناطة ومالقة والمرية، واستطاع خايمي الأول حاكم آراغون السيطرة على بلنيسة. لكن حينما انتهت فترة هذا الاتفاق، شعر ابن الأحمر بجسامة المسؤولية الملقاة على عاتقه، لأنه الطرف العربي الوحيد الذي بقي على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية، في وسط إسباني لا يكنُّ له سوى الكراهية، فما كان أمامه والحالة هذه سوى العمل الدؤوب لتمكين نفسه من خلال بناء قوته الذاتية، والتعاون مع أطراف أخرى في الأندلس وخارجها، وهذا ما حصل بالفعل حينما قام بدعم

---

(١) ابن الخطيب. أعمال الأعلام ص٢٨٠ وما بعدها.

(٢) الذخيرة السنية في محاسن الدولة المرينية ص٩٤.

تحركات المدجنين في شريش ومرسية وغيرهما. والمدجنون هم مجموعة من العرب الذين بقوا في أماكن سكناهم تحت مظلة الحكم الإسباني بعد أن سقطت بلادهم في أيدي الإسبان. لكن ابن الأحمر كان مقتنعاً أن الدعم الرئيس لوجوده في الأندلس، لا يمكن أن يتوفر إلا من خلال إسهام المغاربة، كما حصل في عصر المرابطين والموحدين، وبتأثير هذه القناعة اتصل بأقوى الأطراف في المغرب آنذاك، وهي دولة بني مرين في المغرب الأقصى، التي قدمت كل إمكاناتها لدعم موقف العرب في غرناطة، ولسنين طويلة كما سنرى. وقد جاء موقف المرينيين مناسباً جداً، ذلك أن الإسبان بقيادة ألفونسو العاشر حاكم قشتالة وخايمي الأول حاكم آراغون، استطاعوا أن يقضوا على تمرد المدجنين في مناطق عديدة، هذا بالإضافة إلى أنهم بدؤوا يتدخلون في الشأن الداخلي الغرناطي، حينما شجعوا بني أشقيلولة الذين كانوا من أعوان ابن الأحمر على الثورة عليه، ولجؤوا إلى ألفونسو العاشر الذي أعلن حماية مطلقة لهم، ولم يتمكن ابن الأحمر من التخلص من هذه الحالة إلا بإعلانه الخضوع لألفونسو العاشر من خلال الالتزام بدفع مبلغ كبير من المال، بلغ ٢٥٠.٠٠٠ من الدنانير المرابطية. وقد استمرت هذه التبعية حتى سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣م، حينما توفي محمد بن الأحمر الغالب بالله.

وتمكن خليفته محمد الفقيه الغرناطي من قيادة دولة بني الأحمر قيادة حكيمة، من خلال استفادته من القوى التي كانت حوله في إسبانيا والمغرب الكبير، فكان يهدد الإسبان بالمرينيين الأقوياء، وكان يهدد المرينيين بالإسبان وبغيرهم من المغاربة الآخرين مثل بني عبد الواد في المغرب الأوسط. وبذلك استمرت الدولة الغرناطية إلى حدّ ما تنعم بشيء من الإطمئنان والهدوء.

لكن المرينيين في المغرب الأقصى طمعوا في بعض المناطق الأندلسية في أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، مثل مدينة طريف التي فرضوا سيطرتهم عليها، فرد الغرناطيون على هذا التصرف غير اللائق بتصرف آخر غير مبرر، حينما تحالفوا مع العدو المشترك لهم وللمرينيين، وهو حاكم قشتالة آنذاك

سانشو الرابع، من أجل إعادة طريف، التي لم يسلمها القشتاليون للغرناطيين كما كان متفقاً. وزادوا على ذلك أنهم أقدموا على احتلال جبل طارق سنة ٧٠٩هـ/١٣١٠م، ولم يتمكن الغرناطيون من استعادته إلا سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٣م، بعد أن شاركهم المرينيون في ذلك. وبعد فترة وجيزة تمكنوا من تحرير طريف من القشتاليين سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م، لكن الغرناطيين والمرينيين لم يتمكنوا من الاحتفاظ بطريف مدة طويلة بسبب تحالف حاكم قشتالة مع حاكم البرتغال، وخاضا معركة كبيرة ضدّ الغرناطيين وحلفائهم المرينيين سميت معركة /سالادو/ هُزم الطرفان العربيان في نهايتها، ومكنت الإسبان من السيطرة على الجزيرة الخضراء. ومع ذلك، عقدوا معاهدة سلام لمدة عشر سنوات، استغلها الحاكم الغرناطي في بناء قصور غرناطة والبحث عن حليف جديد للغرناطيين، وجرب أن يختبر أهل المشرق فأرسل وفداً إلى القاهرة، التي كان يحكمها المماليك الذين لم يستجيبوا في تقديم العون للأندلسيين، تحت حجج تافهة لا قيمة لها على أرض واقع تلك الفترة(١).

لكن ما أنقذ غرناطة من محنتها في عدم الحصول على معونة عربية خارجية فاعلة، هو أن دولة قشتالة العدو الرئيس للعرب في الأندلس، كانت تعاني من مشكلات داخلية صعبة، أقعدتها عن شن أي حملات فاعلة ضد غرناطة، وبخاصة خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، الذي كان فيه على رأس الحكم في غرناطة السلطان محمد الخامس، الذي تُعد فترة حكمه من أعظم الفترات في تاريخ عائلة بني الأحمر ، فقد تمكن من استعادة الجزيرة الخضراء سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٩م من الإسبان، وكذلك استعادة رندة من المرينيين الذين تخلى عن مساعدتهم، واستعان ببني عبد الواد بالمغرب الأوسط وبني حفص بالمغرب الأدنى(٢).

---

(١) ابن فضل الله العمري . التعريف بالمصطلح الشريف. طبعة القاهرة ١٩٨٥ ص ٢٦ وما بعدها . ابن الخطيب . اللمحة البدرية ص٨٩ وما بعدها.

(٢) ابن الخطيب . الإحاطة في أخبار غرناطة ج٢ ص ٢٦ وما بعدها.

ولا يعرف سببٌ ظاهرٌ لهذا التحول في سياسة الغرناطيين ضد المرينيين، الذين لولاهم لما كانت غرناطة قد تمكنت من هذا الصمود الكبير، فقد كان بنو مرين يحرصون على أن تكون قواتهم دائمة الوجود بالقرب من غرناطة، ولفترة طويلة من الزمن، وكان يقود تلك القوات واحد من المقربين لبني مرين يسمى (شيخ الغزاة). وما يمكن أن نذكره في صدد هذا التحول، أن شيخ الغزاة هذا ربما كان يحاول أن يتدخل في شؤون الغرناطيين الداخلية، لأنه مع مرور الأيام أصبح لمنصبه قيمة كبيرة في المجتمع الغرناطي. ترافق هذا التحول في سياسة الغرناطيين إبَّان القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي مع تحول في الجبهة الإسبانية، وتجسد هذا التحول في أن هذه الجبهة عادت إلى وئامها وتماسكها وصحوتها، ساعدها في ذلك عودة طبقة الفرسان إلى ساحة القتال، من أجل الحصول على مكاسب مهمة في حياة هذه الطبقة، مثل جمع الأموال وتكديس الثروات من خلال الغنائم وأعمال النهب والسلب، وما يتصل بذلك من أمور، وهي ممارسات كانت تقوم بها منذ فترة طويلة ضد الوجود العربي في الأندلس. أضف إلى ذلك أن انفجاراً سكانياً كان قد حصل في الجانب الإسباني، الأمر الذي كان يستوجب البحث عن مساحات من الأرض لاستيعاب الزيادة السكانية. كما أن الغرناطيين زادوا في سوء حالتهم، حينما دخلوا في خلافات داخلية كبيرة فيما بينهم، لم يتمكن المغاربة من التدخل في حلها، كذلك لم يتمكنوا من تقديم أي عون عسكري بسبب ما كانوا عليه من انهيار في مختلف الميادين. ولكن اتحاد دولتي قشتالة وآراغون من خلال زواج فرناندو ملك آراغون من إيسابيلا ملكة قشتالة، فاق كل هذه التطورات التي كانت برمتها في خدمة حركة الاسترداد الإسبانية الوطنية، ذلك أن هذا الاتحاد ساعد على اعتماد خطة استراتيجية ثابتة، تقوم على الاستمرار في مجابهة العرب في غرناطة، حتى يمكن التغلب عليهم وطردهم من إسبانيا إلى غير عودة.

وبالفعل، اعتمدت هذه الاستراتيجية في أول أعمال دولة الاتحاد الإسباني الجديد، واستغرق العمل من أجلها فترة عشر سنوات مستمرة، سُخرت لها كل

إمكانات الإسبان الذين أسهموا في تقديمها باندفاع وسخاء وأريحية، ودعمت فوق ذلك بسلاح جديد كانت له تأثيراته الإيجابية للوصول إلى الأهدافه الإستراتيجية، وهو سلاح المدفعية الذي لم يكن معروفاً في الفترات السابقة.

كانت البداية، على طريق تحقيق هذه الاستراتيجية، في الهجوم على حصن الحامة على حين غرة عبر قوات لحركة الاسترداد الإسبانية، انطلقت من أماكن رباطها في جنوب غرب الأندلس سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م، ولم يتمكن الغرناطيون من عمل شيء في مسألة استرجاعها وتحريرها رغم محاولاتهم المتعددة[١]. وكان احتلال الحامة ضربة كبيرة للغرناطيين، لأنها تتوضع في منطقة حساسة بمنطقة غرناطة، فهي قريبة من غوطتها، وهي غير بعيدة عن الطريق الذي يسلكه الغرناطيون إلى الميناء المهم المرية. تواكبت هذه الكارثة مع خلافات شديدة في عمق الأسرة الحاكمة من بني الأحمر، حينما قام السلطان أبو الحسن علي بن سعد بن الأحمر بتأثير من جاريته غير العربية (ثريا)، التي كانت من أصل أوروبي، بإبعاد ولديه من زوجته العربية الحرة، وهما محمد ويوسف، فخرجا من غرناطة إلى وادي آش، وكانا يتخوفان من أن يقدم والدهما أبو الحسن على إعطاء الحكم إلى أحد إخوتهما من جاريته الأوروبية ثريا، فقام محمد بن أبي الحسن بإعطاء نفسه لقباً هو أبو عبد الله الصغير حتى يتميز عن عمه أبي عبد الله الزغل، وسمَّى نفسه سلطاناً، وبايعته مدينة المرية وبسطة وغرناطة، واضطر والده للخروج من غرناطة مع أخيه أبي عبد الله الزغل إلى مالقة، وأعلن الزغل نفسه حاكماً على مالقة متجاوزاً أخاه أبا الحسن علي.

ورغم سيطرة أبي عبد الله الصغير على غرناطة، فإنه توجس خيفة من اشتداد عود عمه أبي عبد الله الزغل، الذي كانت شعبيته في ازدياد مضطرد، وبخاصة بعد أن حقق نجاحات كانت في غاية الأهمية على الإسبان في ذلك الوقت، فوجد أن ما يجعله يتساوى معه في الشهرة بين الناس، هو القيام بإنجاز

---

(١) ابن الخطيب. نبذة العصر في أخبار بني نصر ص٦.

حربي ضد الإسبان، واختار لذلك منطقة لشانا، لكن هزيمة شنيعة حلت بجيشه، ووقع هو نفسه في أسر الإسبان، فخلا الجو لعودة أبيه، لكنه كان يعاني من العمى والصرع، الأمر الذي أتاح لأخيه أبي عبد الله الزغل أن يصبح حاكماً على غرناطة بموافقة أخيه أبي الحسن وبتنازل منه عن العرش. وبذلك تكون غرناطة قد أعادت سيطرتها على كل أملاكها وتوابعها، وهو أمر لم يعجب الإسبان على الإطلاق، فبادروا إلى فتح شرخ جديد في عمق وحدة الغرناطيين، وذلك من خلال أبي عبد الله الصغير، الذي كان لا يزال أسيراً لديهم، فاعترفوا به سلطاناً على غرناطة وأطلقوا سراحه، بعد أن ارتبطوا معه باتفاق سلام كاذب ومؤقت، حتى يظهر أمام مواطنيه مظهراً لائقاً. وتمكن من السيطرة على وادي آش وجعلها عاصمة له، ولم يتمكن من استقطاب الناس إلى جانبه، وتالياً لم يتمكن من توسيع رقعة سيطرته، ذلك أًن الفقهاء في غرناطة أصدروا فتوى جماعية، عدّوه فيها رجلاً مارقاً على إرادة شعبه، وكافراً لا يجوز التعامل معه.

وفي الوقت نفسه كانت جبهة الإسبان منقسمة حول التصرف حيال غرناطة، فالجانب الأول ويمثله فرناندو ملك آراغون، كان يرى أن ما وصلت إليه حركة الاسترداد من إنجاز في احتلال الحامة، وإثارة فتنة بين أعضاء الحكم في غرناطة من خلال دعمهم لأبي عبد الله الصغير آنف الذكر، كان كافياً في المرحلة الراهنة ويمكن الانتظار قليلاً وترقب ما سيحدث من تطورات سياسية في غرناطة. أما الجانب الثاني فكان يمثله زوجته إيسابيلا ملكة قشتالة، وكانت ترى عكس ذلك تماماً، فهي ترى ضرورة متابعة الهجوم والتوسع على حساب الغرناطيين قدر المستطاع، لأن ترك أي فرصة للهدنة ستكون لصالحهم، لأنها تمكنهم من الاستعداد ولملمة صفوفهم وقواهم العامة. وهكذا نجح رأي إيسابيلا وأعطت أوامرها بعمليات التنفيذ، وأرسلت حملة سنة ٨٩٠هـ/١٤٨٥م إلى مالقة، ففشلت الحملة في السيطرة عليها، فتوجهت إلى رندة ونجحت في احتلالها بسهولة(١).

---

(١) ابن الخطيب . نبذة العصر في أخبار بني نصر ص٢٠ وما بعدها،

بعد ذلك، توجهوا لضرب أسوار مالقة من جديد وبعض المناطق حول مدينة غرناطة، ثم اعترفوا بعميلهم أبي عبد الله الصغير حاكماً عاماً على المنطقة، الذي تمكن من السيطرة على بعض الحصون المهمة مع حي البيازين في غرناطة نفسها سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م، وبدأ التجار في المدينة يتجمعون حوله، ذلك أن الإسبان وعدوه بعدّ كل أتباعه من الآمنين، وبذلك يكون موقف أبي عبد الله الزغل قد بدأ يضعف وغدت سيطرته محصورة على قصور الحمراء وما حولها مع بسطة في الشرق ووادي آش.

من جهة ثانية، فإن حركة الإسترداد، ركزت على مدينة مالقة بتقريب المدافع من أسوارها، وبقيت هذه الحركة تضرب المدينة فترة طويلة دامت أكثر من ثلاثة أشهر، فانهارت مقاومة المدافعين عنها واستسلموا للإسبان سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٧م.

انتقل الإسبان بعد ذلك إلى توجيه ضربة ضد منطقة شرق مدينة غرناطة، التي كان يعتصم بها أبو عبد الله الزغل، لكن المقاومة العربية حرصت على أن تكون المواجهات خارج مدينة غرناطة، وتمكنت هذه المقاومة من الصمود لفترة ثلاثة أشهر، اضطروا بعدها للانتقال إلى داخل المدينة، وتقدم الإسبان إلى قريب من الأسوار، ونصبوا مدافعهم قربها، ورغم ذلك تمكن الغرناطيون من المقاومة ثلاثة أشهر أخرى، دخلوا بعدها في مفاوضات مع الإسبان، وفتحت أبواب المدينة لهم سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م، لكنها لم تسقط نهائياً بيدهم حتى فترة طويلة أخرى بسبب بعض الخلافات مع عميلهم أبي عبد الله الصغير، وفي أثناء هذه الفترة ركز فرناندو الملك الآراغوني على وادي آش، فطرد كل سكانها العرب وشمل الطرد أبا عبد الله الزغل الذي ذهب إلى تلمسان، فعاش فيها حتى توفي. بعد ذلك، انتقل فرناندو إلى حصار غرناطة سنة ٨٩٦هـ/١٤٩١م، وكان حصاراً شديداً هذه المرة، تسبب في استسلام المدينة سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م، وانتقال حاكمها العميل أبي عبد الله الصغير إلى المغرب

فنزل بفاس طوال حياته[١]. وبذلك تكون قد انتهت آخر معاقل الوجود العربي في الأندلس بعد مضي ثمانية قرون على التوالي. ومن جهة أخرى، حصدت المقاومة الإسبانية الوطنية نتيجة صمودها وتصميمها إبَّان فترة الوجود العربي في الأندلس، وهي استرداد إسبانيا من العرب، على الرغم من أنهم لم يكونوا على الدوام سوى أداة إيجابية في كل ميدان من ميادين الحياة.

ورغم ما كان يجري من دعم أوروبي لحركة الاسترداد الوطنية الإسبانية، فإن غرناطة استطاعت أن تقيم علاقات تجارية طيبة مع أطراف أوروبية مثل جنوة، التي ارتبطت بعلاقات تجارية مع غرناطة منذ عهد السلطان الثاني لهذه الدولة محمد الفقيه، الذي تعهد بحماية التجار الجنويين ومنحهم تسهيلات كبيرة، وبخاصة تخفيف الضرائب على تجاراتهم أو إعفائهم منها، وبناء بعض الفنادق الخاصة بهم، وفتح كنيسة لممارسة شعائرهم الدينية، وهو تطور مهم في مجال التسامح الديني، الذي لم يكن كذلك في العصرين المرابطي والموحدي، وهذا التسامح يعكس في تلك الفترة وفي أي فترة النزعة الإنسانية والحضارية في هذه الدولة وفي غيرها، لأن الخلافات الدينية، والعمل على أساسها في التعامل، تؤدي إلى تدمير المجتمع وتفريق كلمته.

وبالفعل، فقد نشطت التجارة بين مالقة وجنوة، وكان الحرير من أهم الصادرات الغرناطية إلى أوروبا، ثم يأتي السكر بعد ذلك، وهو مادة كثر الإقبال عليها بعد أن عرفها الأوروبيون، وكانت جنوة تصدر إلى غرناطة عدداً من المواد مثل الألبسة والحبوب والملح وغير ذلك. وقد زاد في نشاط هذه التجارة بين الطرفين، أنهما امتلكا على حدّ سواء نوعاً من الإدارة الماهرة في التنظيم العام المتعلق بكل أمور التجارة، وكذلك الأمان والمعاملة الطيبة. وقد بقيت هذه الحالة الطيبة سائدة حتى نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، إذ بدأت طرق التجارة في التحول عن مرافئ غرناطة بسبب ظهور

---

(١) المقري. نفح الطيب ج٦ ص ١٧٥ وما بعدها.

البرتغاليين المنافسين في هذا الميدان، وهذا ما أثر كثيراً في سرعة انهيار المقاومة العربية في غرناطة وما حولها.

كما حاول الغرناطيون أن يقيموا علاقات وطيدة الأركان مع دولة المماليك في مصر والشام، لكنهم لم يفلحوا في ذلك لتردد المماليك وتقاعسهم، ذلك أنهم كانوا يخافون من أن يطلب الغرناطيون مساعدة عسكرية منهم كما حصل في نهاية عصر الناصر محمد بن قلاوون المملوكي، إذ إن طلب الغرناطيين المساعدة العسكرية لم ينظر إليه على الإطلاق، لأن المماليك بشكل عام لم يكونوا مهتمين بمصالح العرب، بقدر ما كانوا مهتمين بتضخيم ثرواتهم العامة، ووجدوا لذلك فرصة ملائمة، حينما ادعوا أنهم يحكمون العرب باسم الإسلام، ونجحوا في ذلك إلى حد كبير، مع أنهم كانوا لا يقيمون وزناً لا للعرب ولا للمسلمين، وإلا لكانوا قد استجابوا ولو من خلال قوة صغيرة بالإسهام في عمليات الدفاع عن غرناطة، بعد حضور وفد غرناطي إلى القاهرة صوَّر الحالة المتردية في بلده في أواخر القرن التاسع الهجري/ الحادي عشر الميلادي(١).

بقي أن نذكر أن حكام غرناطة تلقبوا بلقب (أمير المسلمين) وبلقب السلطان، باستثناء المؤسس الأول لدولتهم محمد بن يوسف بن نصر، الذي لقب نفسه بـ (الغالب بالله)، ومحمد الخامس الذي اشتهر أمره كثيراً في فترة النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، الذي لقب نفسه بـ (الغني بالله)، وبقي شعارهم منذ فترة التأسيس حتى آخر لحظة مقتصراً على عبارة (لا غالب إلا الله). أما راياتهم فقد كانت باللون الأحمر الصافي، ولا نعرف على وجه الدقة لماذا اختاروا هذا اللون، وربما هو مأخوذ عن الموحدين الذين كانوا يميزون به خيمة السلطان الموحدي. والموحدون اعتمدوا هذا اللون تيمناً بلون سرادق الرسول، الذي استقبل فيه بعض وفود قبائل جزيرة العرب في العام الذي سمي بعام الوفود.

---

(١) انظر حول ذلك كتابنا: الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق العربي. طبعة دمشق. دار شمأل.

أما بخصوص انتقال السلطة فيما بين الحكام الغرناطيين، فقد كان على غرار معظم دول العصور الوسطى في المنطقة العربية، تنتقل من الأب إلى الابن، وهي الحالة الغالبة، ومن الأخ إلى أخيه، وهي الحالة النادرة، ولم تعتمد الكفاءة والخبرة والاستعداد في هذا الميدان على الإطلاق، لأن بقاء السلطة في أيدي الأبناء مهما كانت مستوياتهم العلمية والوطنية، كان من الأمور المقدسة على ما يبدو. لكن حكام غرناطة عوضوا هذا النقص في اعتمادهم على شخصيات عالية المستوى في الوزارة والسفارة وقيادة الجيوش، نذكر منهم على سبيل المثال ابن زمرك وابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب(١)، الذين أسهموا إلى حد كبير في صنع مجد هذه الدولة، التي يكفيها شرفاً وعظمة ونبالة وخلوداً، أنها وقفت كالطود الشامخ لفترة من الزمن كانت طويلة إلى حد كبير، تدافع عن وجود العرب وكرامتهم وعلمهم ودينهم في وجه أعتى حركة وطنية وأكثرها تصميماً على النجاح في العصور الوسطى، وهي حركة الاسترداد الوطنية الإسبانية، في الوقت الذي لم يلتفت فيه أحد لنداء الغرناطيين الوطني والديني من المتشدقين بحماية الإسلام في المشرق، وهم المغتصبون المماليك الذين تواكبت فترة سقوط حكمهم مع سقوط حكم العرب الغرناطيين. وقد استطاعت دولة بني الأحمر في غرناطة، أن تبقى دولة أنموذجية ورائدة في مجال احترام كل الفئات غير العربية وغير الإسلامية، وهذه المزية كانت عنواناً للدول الحضارية، التي استطاعت أن تطبق روح الإسلام العظيمة، التي تؤكد على ضرورة احترام الناس من خلال المعاملة الطيبة.

وما حصل للعرب في الأندلس في نهاية الأمر، ما هو إلا مصير طبيعي كان محتم الحدوث منذ الوهلة الأولى للوجود العربي هناك، لأنهم لم يتخلصوا من أسباب الفرقة التي ظلت تنخر بقوة في كيانهم من دون توقف، وهي تلك التي

---

(١) انظر ترجمة واحد من وزراء الغرناطيين في: ابن الخطيب . الإحاطة بأخبار غرناطة ج١ ص٥٠٦ وما بعدها.

تتعلق بالاختلاف على أساس قبلي أحياناً، وعلى أساس إقليمي أحياناً أخرى، وعلى أساس عائلي طائفي في نهاية الأمر. وهذه الأسباب استعصت على كل المعالجات ومحاولات الإصلاح، رغم الجراح العميقة والتأذيات الكبيرة والكوارث الفاجعة، التي كانت برمتها بادية الوضوح أمام من حكموا الأندلس، ولكنهم أشاحوا النظر عنها بفعل حبهم للسلطة والحكم وحب الظهور والشهرة، فقضوا بذلك على وجود كان من الممكن أن يستمر طويلاً فيما لو حافظت الدولة هناك على تماسك مؤسساتها العامة على أساس المصلحة العليا والقواسم المشتركة.

الفصل العاشر

ظهور حركة الإسترداد في الأندلس
وتطورها حتى نهاية القرن التاسع الهجري
ودور المغاربة في كبح جماحها

حركة الاسترداد (الريكونيكستا) هي تسمية أطلقها المؤرخون المحدثون على مجموعة العمليات العسكرية، التي نفذها الإسبان المعارضون للوجود العربي في الأندلس منذ نهاية القرن الأول الهجري حتى نهاية القرن التاسع، وهي ترجمة حرفية للعبارة الإسبانية (الريكونيكستا). وتُعد حركة الاسترداد هذه عند الشعب الإسباني، حتى يومنا هذا، من أهم الأحداث الوطنية الخالدة في تاريخهم القومي، لأنها بقيت حية في النفوس تنتقل من جيل إلى جيل كمسألة يجب أن تنفذ وتمارس على امتداد ثمانية قرون متوالية، ما لانت خلالها لهم عريكة أو همدت لهم همة، على الرغم من الصعوبات البالغة التي واجهتهم، التي كان في طليعتها الصعوبات الاقتصادية، التي جاءت من واقع وجودهم في المنطقة الجبلية الفقيرة في مواردها العامة، وهي المنطقة الممتدة من خليج بسكاي في وسط شمال إسبانيا إلى آخر نقطة برية في غربها، بينما سيطر العرب على المناطق الغنية في مواردها المختلفة في وسط الأندلس وفي جنوبها.

لقد تحمل منفّذو حركة الاسترداد قساوة الحياة الجبلية، التي تمثَّلت بالقلة والفقر والفاقة والحرمان، وصمدوا في هذه المناطق صموداً رائعاً يحسدون عليه، تحدوهم في ذلك الآمال الوطنية العظيمة في استنقاذ بلادهم وتخليصها من

الحكم العربي، الذي لم يتمكن القائمون عليه من قراءة أسباب صمود واستمرار وديمومة هذه الحركة، ومن ثمَّ خطورتها العامة على وجود العرب في الزاوية الجنوبية الغربية من القارة الأوروبية(١).

تراوحت حياة هذه الحركة عبر مسيرتها الطويلة في عمق الزمن بين مد وجزر، فكانت تخبو وتنطفئ شرارتها وينحسر امتدادها باتجاه العمق العربي، حينما تكون الجبهة العربية قوية ومتماسكة، وتعود إلى الحيوية والنشاط والامتداد حينما تتفكك جبهة العرب وتضعف قوتهم بفعل التناحر والتنافر، وهي حقيقة ما تزال موجودة في عمق الحياة العربية حتى يومنا هذا، حيث تزداد شراسة وحدّة الهجمات المعادية في وقت ضعف العرب وانغلاقهم عن بعضهم داخل حدود ظالمة، فرضتها قوى الشر والظلام في الماضي غير البعيد.

وكما يتفاخر الإسبان والبرتغاليون اليوم بحركة الاسترداد وبنتائجها الإيجابية العامة، هذه النتائج التي تمثلت بطرد العرب من إسبانيا والبرتغال وإكمال عملية صنع الاستقلال الوطني في هاتين الدولتين، فمن واجبنا نحن العرب أن ننوه بهذه الحركة وأن نذكرها بأحداثها وتفاصيلها، على الرغم من أنها تخلق لنا حالة حزن وألم، لأنها وضعت حداً نهائياً فاصلاً لوجود العرب في القارة الأوروبية. ومبرر هذا التنويه هو الاستفادة العظيمة من مجريات هذه الحركة العامة عبر مئات السنين. وتكون الاستفادة في المقام الأول في ميدان الصبر الذي اعتمدته هذه الحركة، وهو من أهم الأمور التي يجب علينا نحن العرب أن نأخذها في الحسبان في مواجهة العدو الصهيوني على كافة المستويات. وكذلك الاستفادة جيداً من عامل الزمن، ويكون ذلك بعدم الاستعجال في مسألة صنع حلول غير متكافئة، وإن فرضت علينا بعض الحلول فيجب أن تكون مرحلة من أجل إعادة البناء والاستعداد على طريق التحرير، كما كان يفعل قادة حركة الاسترداد في فترات القوة العربية في

---

(١) المقصود بذلك إسبانيا والبرتغال، أي الأندلس في تعبير العصور الوسطى.

الأندلس، ثم الإبقاء على حالة التصميم الصادقة حية في نفوس أجيالنا العربية المتعاقبة في ميدان مواجهة العدو الصهيوني المشترك، وأيضاً نسيان الخلافات الهامشية بين العرب أنفسهم حتى لا تتحول هذه الخلافات إلى حالة فراق دائمة، كما كانت تفعل دول حركة الاسترداد، التي كان من أشهر دولها دول قشتالة وليون وآراغون وبرشلونة، فقد كانت هذه الدول تتوحد بقيادة قشتالة ضد العرب في الأوقات الصعبة والحرجة.

وقد تكونت نواة هذه الدويلات من الهاربين الإسبان أمام العرب الفاتحين، وذلك في الزاوية الشمالية والشمالية الغربية من شبه الجزيرة الأيبيرية، وهي منطقة جبلية وعرة كانت تسمى مناقير أوروبا. وقد حاول بعض ولاة الأندلس القضاء على هذه النواة، لكنهم لم يوفقوا في ذلك، وتطورت هذه النواة في عصر الإمارة الأموية إلى الدول سابقة الذكر، وعدَّ حكامها أنفسهم خلفاء شرعيين للحاكم القوطي (لذريق) الذي هزمه العرب في مستهل عملية الفتح العربي للأندلس(١).

بقيت القوة الممثلة لحركة الاسترداد، ترقب الأحداث عن كثب في عصر الأمراء الأمويين الأقوياء، وهم عبد الرحمن الداخل، وهشام الرضا، والحكم الربضي، وعبد الرحمن الأوسط، فلم تتمكن هذه الحركة من عمل شيء في عصر هؤلاء الأمراء على كافة المستويات، سوى أنها كانت تمكن لنفسها، وبخاصة في الميدان العسكري، لأن الإمارة الأموية حتى نهاية الأربعينيات من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي/ استطاعت أن تسيطر وبكفاءة مشهودة على جميع الأحداث الداخلية والخارجية(٢).

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج٢ تحقيق كولان وليفي بروفنسال ليدن ١٩٤٨ ص ١٧ . المقري التلمساني . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج١ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٩٤٩ ص٢٤٤ وما بعدها.

(٢) مؤلف مجهول . أخبار مجموعة في فتح الأندلس . تحقيق الأفوينتي الكنترا طبعة مدريد ١٨٦٧ ص١١٢ . ابن عذاري . المصدر السابق ج٢ ص٨٨ وما بعدها.

أما بعد هذه الفترة فقد بدأت الأمور تسير على وتيرة عكسية تماماً، حينما بدأت وحدة الأندلس تنفرط وتتفكك، فظهرت عدة دويلات محلية مستقلة، وبخاصة في الأماكن القريبة المصاقبة من توضع قوات حركة الاسترداد، وهي مناطق الثغور[١]. ساعد على وجود هذه الحالة الشاذة وجود أمراء ضعاف، لم يستطيعوا متابعة مسيرة أسلافهم في الحزم والحفاظ على وحدة الدولة وقوتها، ما أدى إلى ظهور حركات تمرد ومعارضة خطرة، كانت جميعها تصب في مصلحة حركة الاسترداد الإسبانية. نذكر من هذه الحركات أشدها خطورة وأطولها امتداداً من حيث الزمن، وهي حركة عمر بن حفصون المولدي الذي انبثق من صفوف المولدين في الأندلس، والمولدون هم مجموعة كبيرة من الإسبان، اعتنقوا الدين الإسلامي غداة دخول العرب المسلمين بلادهم، وسمي الجيل الأول منهم (المسالمة) وسمي الجيل الثاني (المولدون). وقد بقي المولدون يحافظون على هدوئهم وانضباطهم العام، حتى ظهرت حركة عمر بن حفصون، الذي كان رجلاً من عامة الناس يعمل في خياطة الثياب، انتقل في بداية حياته السياسية إلى المغرب الأوسط (الجزائر اليوم)، ونزل لمدة وجيزة بعاصمة الخوارج الإباضية، مستغلاً بذلك حالة العداء بين الخوارج وبين الأمويين على صعيد العقيدة، فالخوارج بشكل عام كانوا يعادون جميع المذاهب الأخرى، لكن ابن حفصون نسي تأثير المصالح الاقتصادية على المبادئ العقائدية، وهو الشيء الذي حصل بقوة في العلاقة بين دولة الخوارج في الجزائر ودولة الأمويين في الأندلس. لذلك، فشل في استقطاب تأييد الخوارج الإباضية في الجزائر ضد الأمويين في الأندلس، وكان ذلك بسبب تغليب المصالح التجارية على كل المصالح الأخرى بين خوارج الجزائر وأمويي الأندلس، ذلك لأن تاهرت عاصمة دولة الخوارج الإباضية

(١) كانت ثغور الأندلس في العصور الوسطى ثلاثة هي: الثغر الأدنى أي الأقرب إلى العاصمة قرطبة، وكان في بداية أمره في ماردة ثم انتقل إلى بطليوس في المنطقة الغربية من الأندلس، الثغر الأوسط وكانت قاعدته في مدينة طليطلة وسمي كذلك لأنه يتوسط الأندلس، الثغر الأعلى أي الأبعد عن العاصمة وقد تمثلت قاعدته في مدينة سرقسطة في شمال شرق الأندلس.

في الجزائر، كانت تشكل أهم المحطات التجارية على طريق تجارة الذهب والمعادن الثمينة القادمة من غرب القارة الأفريقية السوداء، هذه التجارة التي كانت قوافلها تتابع من تاهرت أحياناً إلى الأندلس ومنها إلى البلدان الأوروبية الأخرى، الأمر الذي ساعد على ازدهار اقتصاد الأندلس ودولة الخوارج الإباضية على حد سواء، ودليل هذا الازدهار ظهور مجموعة كبيرة من التجار في الأندلس عرفوا باسم (التجار الرودانيين) كانوا يصلون في تجارتهم إلى الشرق الأقصى، كما بادرت مجموعة من تجار الأندلس أيضاً إلى بناء عدد من المدن على الساحل الجزائري، من أجل تنشيط التجارة بين البلدين، وأهم هذه المدن وهران وتنس ومستغانم، وكلها بنيت في الفترة الممتدة من سنة ٢٦٠هـ/٨٧٤م إلى سنة ٢٩٠هـ/٩٠٣م[١].

عاد ابن حفصون المولدي إلى الأندلس بعد فشل مهمته في حاضرة الخوارج تاهرت في الجزائر، واتخذ من حصن (بُبشتر) في سلسلة جبال سييرانيفادا (جبال الثلج) بجنوب إسبانيا قاعدة له، وتعد هذه السلسلة الجبلية من أوعر الجبال في أوروبا، فهي تمتاز بوهادها العميقة، وقممها شاهقة الارتفاع، ومسالكها المتعرجة الضيقة، الأمر الذي وفر له نوعاً كبيراً من الحماية والحصانة الطبيعية، ما ساعده على إعلان ثورة مولدية عارمة ضد الوجود العربي المتمثل بالإمارة الأموية في الأندلس، وألبس هذه الثورة ثوباً إسبانياً وطنياً بعد أن أعلن ارتداده عن الإسلام. وقام بتنفيذ العديد من الهجمات الناجحة ضد حكومة قرطبة، وقف الأمراء الأمويون حيالها موقف العاجز عن مجاراتها بنظيرتها، حتى تمكن الأمير عبد الله في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، من تجميع قوة عسكرية كبيرة قادها بنفسه، وتوجه بها إلى حيث يقيم ابن حفصون في حصنه المنيع سابق الذكر، بعد أن تأكد أن ثورته

---

(١) ابن القوطية . تاريخ افتتاح الأندلس. طبعة مدريد ١٩٢٦ ص ٩١ . ٩٢ . ابن حوقل . صورة الأرض. طبعة بيروت دون تا ص٧٩ و١٠٦ ابن خلدون . العبر ج٤ طبعة بولاق ١٢٨٤ هص ٤٢٩.

هي ثورة إسبانية وطنية خالصة ضد وجود عربي رمزه الأمير عبد الله نفسه، فإذا زال هذا الوجود فسيزول الرمز حتماً. لكن الأمير عبد الله قبل أن يقوم بهجومه على ابن حفصون، كان قد نفذ سياسة ناجحة تجلت باعترافه بسيادة الإمارات. التي كانت قد استقلت في عصر الأمراء الذين سبقوه، وذلك مقابل مقدار كبير من المال، استخدمه في تمويل وبناء القوة العسكرية التي أعدها لقمع ثورة ابن حفصون، الذي استطاع من خلالها أن ينهك إلى حد كبير قواه العامة، الأمر الذي ساعد حفيده الناصر لدين الله على التخلص من ابن حفصون دون أي متاعب كبيرة[١].

كان من أهم النتائج التي تمخضت عن حركة ابن حفصون، التي استؤصلت شأفتها نهائياً سنة ٣١٥هـ/٩٢٨م، أنها ساعدت كثيراً على توسع الدول الإسبانية المعارضة للعرب في الشمال، التي تمثل صلب حركة الاسترداد، التي نحن بصدد الحديث عنها، وذلك على حساب عرب الأندلس، فوصلت حدودها إلى نهر التاجه وسط الأندلس[٢].

لكن لن تطول الأيام حتى تتغيّر الصورة برمتها في عصر الخلافة الأموية، هذا العصر الذي استمر أكثر من مئة عام، وكان من أزهى عصور العرب في الأندلس على الإطلاق، ففي هذا العصر الميمون تعزز استقلال الدولة العربية بعد أن قضي على كل التمردات وأشكال الاستقلال عن السلطة المركزية. وقد مثلها بجدارة وقوة الخليفة الأموي الناصر لدين الله، الذي اعترفت به كل الدويلات الإسبانية المعارضة من خلال العديد من السفارات إلى بلاطه بقرطبة وبالزهراء، وكانت بعض هذه السفارات تأتي لتحصل على عون عسكري

---

(١) أحمد بدر . دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها. طبعة أولى. دمشق ١٩٦٩ ص ٢٢٧ وما بعدها.

(٢) نهر التاجه أحد الأنهار الكبيرة المهمة وسط إسبانيا، وتقع عنده مدينة طليطلة التي سميت بعاصمة الثغر الأوسط.

ومادي، من أجل إعادة بعض الحكام إلى عروشهم بعد أن عزلوا عن هذه العروش بالقوة المسلحة، وبعضها الآخر كان يأتي إلى قرطبة والزهراء ليبحث عن علاج ناجع لمرض أو علة عجزت الخبرة الطبية المحلية الإسبانية عن وضع علاج لها، وبعض هذه السفارات أيضاً كان يأتي ليعبر عن مشاعر وآيات الولاء والطاعة للخليفة الأموي، إلى غير ذلك من أمور تدل على قوة الحكومة الأموية في عصر الخلافة.

وفي عصر الخليفة الحكم المستنصر الذي خلف والده في حكم الأندلس[١]، حاولت الدويلات الإسبانية الشمالية التحرر من الخضوع لدولة الخلافة، مستغلة ميل الحكم المستنصر إلى العمل في ميادين الثقافة والفكر أكثر من ميله إلى الحرب، لكن تقديرهم لم يكن في مكانه، فقد برهنت الأيام أن الحكم المستنصر لم يكن أقل من أبيه اهتماماً وحرصاً على أن تبقى دولة الخلافة الأموية على درجة كبيرة من القوة والهيبة والمناعة، فقام بإخضاع دويلات الإسبان بقوة الغلبة والتفوق العسكري والعلمي والحضاري، وزاد على أبيه الناصر لدين الله في أنه أرسل مجموعة من قواته العسكرية بقيادة أبي عمروس العريف إلى أراضي دولة قشتالة، وكلفها بنقل الأخبار العامة التي تتصل بتطور وتحرك هذه الدول في مختلف الميادين[٢].

وفي فترة حكم الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر[٣] نُفذت أكثر من خمسين غزوة متتالية في أراضي دول المعارضة الإسبانية، وكان الحاجب المنصور على رأس هذه الغزوات جميعها، فوصل في إحداها إلى أقصى منطقة

---

(١) توفي والده الناصر لدين الله سنة ٣٥٠هـ، وحكم هو من هذه السنة إلى أن توفي سنة ٣٦٦هـ.

(٢) ابن حيان . المقتبس في تاريخ رجال الأندلس . تحقيق عبد الرحمن علي الحجي. طبعة بيروت ١٩٦٥ ص ٧٦.

(٣) حكم من سنة ٣٦٦ حتى سنة ٣٩٢هـ.

في شمال غرب الأندلس، وهي (شنت ياقب) أي القديس يعقوب، التي لم يصلها أحد قبل المنصور من العرب. وفي كل مرة كان الحاجب المنصور يصطحب معه، إضافة إلى الغنائم، العديد من الصبايا والسراري الجميلات إمعاناً في إذلال وإهانة الدويلات الإسبانية، ما جعل الأندلسيين من العرب بعامة يسمونه (الجلاب). وكانت كلمة الجلاب قبل أعمال الحاجب المنصور هذه تعني (القبيح)، وكانت تطلق على الرجل الذي يبيع الدواب والحيوانات أو على الرجل الذي يشتغل بتجارة الرقيق، ولكن هذه الكلمة تحولت إلى معنى لطيف ومستحب في عصر المنصور، فكان العرب الأندلسيون يسمونه هذه التسمية التي غدت مستحبة، وكأنهم يقولون له، من خلالها، القائد العظيم، الذي غمرهم بالسبايا والهدايا نتيجة غزواته الكثيرة. وحينما توفي الحاجب المنصور قال الأندلسيون، لقد مات الجلاب الذي ساعد إلى حد كبير في عدم تمسك أهل الأندلس بمسألة طلب المهور الغالية، وذلك من كثرة ما كان يصطحب معه من سبايا وبنات جميلات من مختلف مناطق إسبانية الشمالية والشمالية الغربية، التي غزاها خلال فترة حكمه، فقلّ بذلك في عصره طلب البنات والحرائر العربيات[١].

أدت هذه الأعمال التي نفذها الخلفاء الأمويون إلى نتيجة مهمة في الميدان العسكري، تجسدت على أرض الواقع بتهديم العديد من مراكز التحصين الدفاعية، التي كانت قد أقامتها دويلات حركة الاسترداد الإسبانية على ضفة نهر دويرة بشكل خاص[٢].

رغم هذا الوضع الإيجابي العظيم، فقد ارتكب الخلفاء الأمويون غلطاً قاتلاً، حينما أبقوا على وجود دويلات حركة الاسترداد الإسبانية تحت تأثير حالة

---

(١) ابن عذاري . المصدر السابق ج٣ ص١٣.

(٢) عبد الواحد المراكشي . المعجب في أخبار المغرب . تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي. طبعة القاهرة ١٩٤٩ ص٢٣٨.

الولاء الخادعة، التي تظاهر بها حكام هذه الدويلات وهم في مواقع بعيدة عن مركز السلطة العربية بقرطبة. وربما يعود سبب ذلك إلى قناعة الخلفاء الأمويين باستحالة عيش العرب في مناطق توضّع أتباع الدويلات الإسبانية، وهي مناطق ثلجية ذات برد شديد، أضف إلى ذلك أن الخلفاء أنفسهم، لم يكونوا يحسبون أي حسابات لتغلغل عوامل الضعف والانهيار، التي تتعرض لها معظم الدول، لأنهم كانوا أعظم حكام العالم في عصرهم على الإطلاق. لكن الأعمال التي قام بها هؤلاء الخلفاء، وبخاصة منها الأعمال العسكرية، شكلت حافزاً قوياً لدويلات الاسترداد الإسبانية، لأن هذه الدول بدأت تعمل على تشجيع المد الفرنجي، وأدَّت في سياق ذلك دوراً فعالاً كان في غاية الأهمية، ما دفع هذا المد بقوة على طريق النجاح[١].

انتعشت حركة الاسترداد الإسبانية في عصر دول الطوائف في الأندلس، هذا العصر الذي امتد من سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٢م إلى سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، وفيه انفرطت عرى وحدة الدولة العربية الأندلسية، وتجزأت الأندلس إلى عدد كبير من الدويلات، التي كانت متباينة ومتعادية على المستويات كافة ، فسقطت في محرقة حركة الاسترداد، التي مثلتها بشكل خاص دولة قشتالة في وسط شمال إسبانيا، هذه الدولة التي وصلت إلى ذروة قوتها وسيطرتها على عرب الأندلس المتفرقين في عصر ألفونسو السادس، الذي فرض على دويلات الطوائف العربية حكاماً وشعباً حالة ثقيلة من الخوف والقهر والإذلال على كل صعيد من صعد الحياة العامة. وكان أقسى أنواع الإذلال الذي فرض على هذه الدول المتفرقة، إجبارها على دفع جزية سنوية يقوم ألفونسو السادس القشتالي بتعيين مقدارها السنوي وطريقة تأديتها بانتظام. وبالفعل فقد التزم جميع حكام دول الطوائف بدفع ما يترتب عليهم من جزية سنوية دون أي اعتراض أو تذمر، مقابل أن يمتنع الإسبان عن تهديد مناطق حكمهم، لعدم مقدرتهم على الدفاع

(١) Montgomery Watt. A history of Islam Spain p. 41 - 42.

عنها، بسبب عدم التعاون فيما بينهم، ولضعف شديد في جيوشهم في ميدان الاستعداد، وكذلك في ميدان العَدَد والعُدَد(١).

ولعل ما حدث لكبير حكام دول الطوائف المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، حينما جاء مبعوث ألفونسو السادس لتسلُّم الجزية المفروضة على دولة المعتمد، خير دليل على حالة التفوق التي امتلكت زمامها حركة الاسترداد الإسبانية. فقد حضر إلى إشبيلية وفد إسباني من دولة قشتالة برئاسة ابن شاليب اليهودي، الذي احتج على أن عيار الذهب المقدم جزية للإسبان، لا يتطابق مع المواصفات والعيارات الصحيحة المتفق عليها، وأضاف موجهاً كلامه للمعتمد بن عباد إن هذا إذا حدث في العام التالي، فستكون إشبيلية وما حولها بمنزلة الجزية المستحقة للإسبان، فاستشاط المعتمد بن عباد غضباً وأمر بتعليق ابن شاليب من رجليه، وأتبع ذلك بقتله ومن معه من ممثلي ألفونسو السادس حاكم قشتالة، لكنه بعد ذلك بفترة وجيزة قام بتقديم اعتذار قوي لألفونسو السادس عن كل الذي جرى(٢). وكانت هذه الحادثة التي تسبب بها اليهود على عادتهم في خلق الخلافات والفتن، أحد الأسباب الرئيسة التي أقنعت المعتمد بن عباد بطلب العون والمساعدة من الدولة الناشئة في المغرب الكبير، وهي دولة المرابطين بزعامة يوسف بن تاشفين، الذي لبى نداء العرب الأندلسيين بعد أن اقتنع بضرورة إنقاذ الوضع العربي من السقوط في الأندلس على يد حركة الاسترداد الإسبانية، التي كانت في أوج نشاطها، بعد أن قام الإسبان بتوحيد صفوفهم بمساعدة فرنسا المجاورة، وكذلك بمساعدة السلطة البابوية في روما. فمنذ عصر الخلافة تنبه الفرنسيون إلى خطورة القوة العربية المتمثلة بالخلافة الأموية، ليس على الإسبان في الشمال فحسب بل على كل الأوروبيين كلّهم، فقاموا بدعم

---

(١) الأمير عبد الله . مذكرات الأمير عبد الله المسماة بكتاب التبيان . تحقيق ليفي بروفنسال طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٥ ص١٢٤ . ١٢٥.

(٢) المقري التلمساني . المصدر السابق ج٦ ص ٩١ . ٩٢.

وتشجيع الإسبان بمختلف الوسائل للقيام ضد العرب[١]، وقد ترافق هذا النشاط الفرنسي مع وجود ألفونسو السادس، الذي تميز بطموح بعيد المدى من أجل تحقيق أمجاد مهمة على حساب العرب، فقام بعملية كبيرة في واقعها ونتائجها، هي عملية استعادة العاصمة القديمة للإسبان مدينة طليطلة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٦م، وكان مما ساعده على إنجاز هذه العملية الكبيرة، أن حكام دول الطوائف لم يهبوا للدفاع عن طليطلة، وكأنهم كانوا غير معنيين في هذه المسألة ولا حتى في كل ما يجري من تطورات خطيرة حولهم، نبَّه إلى ذلك ابن الخطيب بقوله: «وحسبك بها فجيعة، وأعظم بها مصيبة، وملوك الأندلس في غمرتهم ساهون...». وفي هذا الصدد أيضاً قال الشاعر أبو الحسن بن الجد:

في كل يوم غريب فيه معتبر ... نلقاه أو يتلقانا به خبر

أرى الملوك أصابتهم بأندلس ... دوائر السوء لا تبقي ولا تذر

ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر ... هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا

وكيف يشعر من في كفه قدح ... يحدو به ملهياه الناي والوتر

تلقاه كالفحل معبوداً بمجلسه ... له خوار ولكن حشوه خور[٢]

كان من حق الشعراء أن يعبّروا عن حجم الكارثة التي حلت بالجبهة العربية بعد سقوط طليطلة، ذلك لأنها لا تقتصر على عودة طليطلة كمدينة بل تبع ذلك سقوط العديد من المدن والبلدان التي من حولها، وهي مدينة سالم ووادي الحجارة ومجريط وقونكة وإقليش وطلبيرة، الأمر الذي جعل الإسبان يطلقون على هذه المنطقة المسترجعة اسم (قشتالة الجديدة). وقد عدَّ الشاعر

---

(١) أحمد مختار العبادي . في تاريخ المغرب والأندلس. طبعة دار المعارف من دون تا ص٢٦٠ . ٢٦١.

(٢) ابن الخطيب . تاريخ إسبانيا الإسلامية أو أعمال الأعلام . تحقيق ليفي بروفنسال. طبعة ثانية. بيروت دار المكشوف ١٩٥٦ ٢٤٢.

الطليطلي عبد الله بن فرج اليحصبي المعروف بابن العسال سقوط هذه المنطقة بمنزلة نذير خطير باتجاه نهاية وجود العرب في إسبانيا، وقد أوردنا من قبل بعضاً من شعره في هذا السياق.

ولم يلتفت ألفونسو السادس إلى نصيحة مهمة، أسدتها إليه جماعة من المستعربين الذين كانوا قد بهروا بالثقافة العربية، وتتجلى هذه النصيحة بضرورة إعلان روح من التسامح والتعاون مع العرب في كل المناطق الأندلسية، لكنه لم يلتفت إلى هذه النصيحة متأثراً بالتحريض الفرنسي المستمر له للسير في حملته ضد العرب إلى نهايتها المفرحة، وكان في طليعة هؤلاء الفرنسيين الحاقدين على العرب، زوجته الفرنسية الأصل كونستانس، وأسقف مدينة طليطلة دون فرناندو وكثيرون من رجال الدين على مختلف رتبهم الدينية، الذين كانوا قد انتشروا في شمال إسبانيا، وبدؤوا نشر حالة عداء دينية وقومية ضد الوجود العربي في الأندلس[١].

وقد أظهر الإسبان حقدهم على الوجود العربي في الأندلس، حينما دخلوا مدينة طليطلة، فقد لجأ أهلها من العرب إلى طلب الصلح مع الإسبان، فردوا على هذا الطلب بضرورة دفع مبلغ كبير من المال، عجز عرب طليطلة عن دفعه وقالوا للإسبان، لو أن هذا المبلغ متوافر لدينا لكنا استعنا به عليكم بطلب المغاربة، فأجابهم القائد الإسباني الذي استعاد طليطلة، وهو فرذلند بن غرسيه قائلاً: «وأما استدعاؤكم البرابرة (المغاربة) فأمر تكثرون به علينا وتهددوننا به ولا تقدرون عليه مع عداوتهم لكم، ونحن قد صمدنا إليكم ما نبالي من أتانا منكم، فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديماً في أول أمركم فعودوا إلى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم»[٢].

---

(١) أشباخ ـ تاريخ المرابطين والموحدين ج١ ص ١٣٩.

(٢) ابن عذاري ـ المصدر السابق ج٣ ص٢٨٢.

كل هذه المسائل والأخبار كانت تصل تباعاً إلى مسامع يوسف بن تاشفين من خلال بعض الشخصيات الحريصة على استمرار الوجود العربي في الأندلس، وكان منهم حاكم إشبيلية المعتمد بن عباد، الذي كان في أول الأمر مقتنعاً أن المرابطين لن يبقوا في الأندلس إذا ما طلبهم لتقديم المساعدة ضد الهجمة الإسبانية المستعرة في الشمال والوسط، فقام بتشجيع الحاكم المرابطي يوسف بن تاشفين على الإسراع بتقديم النجدة والعون، وبالفعل لم يتأخر ابن تاشفين في تقديم المساعدة للأندلسيين، فجاز إلى الأندلس على وجه السرعة عن طريق الجزيرة الخضراء في الجنوب الغربي بقوة عسكرية مغربية، تمكنت بمساعدة قوة أندلسية قادها المعتمد بن عباد بنفسه، أن تضع حداً للغطرسة الإسبانية. هزم زعيم حركة الاسترداد ألفونسو السادس أمام قوات يوسف بن تاشفين في معركة كبيرة جرت وقائعها في موقع الزلاقة على بعد ١٢كم شمال بطليوس قاعدة الثغر الأدنى[١]. وذلك سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٧م بعد مضي سنة واحدة على سقوط طليطلة تحت السيطرة الإسبانية.

كان من أهم نتائج معركة الزلاقة في المقام الأول، كبح جماح حركة الاسترداد بعد فترة نشاط محموم استمر مدة خمسين عاماً قبل حدوث هذه المعركة، التي ساعدت على وضع حدّ للهزائم الماضية وفتح صفحة جديدة على طريق الأمل والانتصار، ما جعل يوسف بن تاشفين يظهر بمظهر الأب أو كبير الأمراء الأندلسيين، حينما أوصاهم بضرورة لمّ الشمل وتجميع الشتات ونسيان خلافات الماضي، التي سببت مزيداً من المذلة والمهانة والهزيمة[٢].

لكن ما حدث أن حكام دول الطوائف بعد رحيل يوسف بن تاشفين المؤقت عن الأندلس، لم يلتزموا بشيء مما قدمه لهم من عظات ونصائح، فعادت

---

(١) ابن الأبار . الحلة السيراء ج٢ تحقيق حسين مؤنس. طبعة مدريد ١٩٦٣ ص ٩٩. ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص ٢٤٥ . ٢٤٦.

(٢) الأمير عبد الله . المصدر السابق ص ١٠٧.

التناقضات من جديد تعشعش في حياتهم وكياناتهم، الأمر الذي أثار اهتمام المرابطين من جديد، ودفعهم للتوجه إلى الأندلس والبقاء فيها هذه المرة بصورة مستدامة. وبالفعل فقد انتقلوا إليها على وجه السرعة وقوضوا أسس ودعائم دويلات الطوائف، الواحدة تلو الأخرى بمساعدة معنوية من الفقهاء، الذين سيطروا للأسف على صناع القرار في عصر دولة المرابطين في المغرب والأندلس بشكل عام(١).

بقيت حركة الاسترداد الإسبانية تعاني من أزمة على صعيد التوسع باتجاه ممتلكات العرب طوال الفترة التي أمضاها يوسف بن تاشفين في الحكم، وكذلك جزء من فترة حكم ابنه علي بن يوسف حتى سنة ٥٣٧هـ/١١٤٣م، فلم تتمكن هذه الحركة من عمل شيء يمكن التوقف عنده. لكن بعد هذه الفترة بدأت مسيرة المرابطين بالتراجع أمام حركة الاسترداد بتأثير عدد من العوامل المستجدة، كان في طليعتها خلافات المرابطين مع سكان الأندلس، وقيام الثورات في المغرب وبخاصة ثورة الموحدين، وكذلك قيام بعض الثورات في الأندلس كثورة المريدين وغيرها، ما ساعد حاكم آراغون الإسباني على استعادة أهم المعاقل على الضفة اليمنى لنهر أبرو في شمال شرق إسبانيا، وبخاصة مدينة سرقسطة(٢).

إضافة إلى حالة التدهور على صعيد دولة المرابطين، فقد استفادت حركة الاسترداد الإسبانية من دعم داخلي قوي، جاء هذه المرة من قلب المجتمع العربي في الأندلس، فلأول مرة منذ فتح العرب الأندلس في نهاية القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، يظهر المستعربون تذمراً واضحاً من الحكم العربي، والمستعربون هم مجموعة من الإسبان بقيت على دينها المسيحي، لكنها تأثرت بالمؤثرات الثقافية العربية واصطبغت بصبغتها وتعمقت فيها إلى حد كبير، مستفيدة بذلك من هامش الحرية الواسع الذي أعطاها إياه العرب، فكانت حريات المستعربين مطلقة في

---

(١) عبد الواحد المراكشي . المصدر السابق ص ١٣٨ . أحمد مختار العبادي. المرجع السابق ص ٤٨٧.

(٢) مؤلف مجهول . الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. طبعة الرباط ١٩٣٦ ص٧١.

شؤون القضاء والعبادة وما إلى ذلك. لكن حينما جاء المرابطون إلى الأندلس تغيرت صورة هذا الواقع، التي تجلت من خلاله روح الإسلام المرنة التي تمكنت وبنجاح منقطع النظير من تسوية الأمور بين الناس جميعاً، دون أي إظهار لملامح تفوق أو عنصرية ما. وقد حدث التغير حينما خضع الحكام المرابطون لإرادة الفقهاء الجهلة المتعصبين، الذين خلقوا هوة عميقة في كيان المجتمع الأندلسي، صبت نتائجها في نهاية الأمر في صالح حركة الاسترداد الإسبانية، فقد استطاع الفقهاء الجهلة أن يقنعوا حكام المرابطين بتجريد المستعربين المسيحيين من كثير من المكاسب العامة، التي كانوا قد حصلوا عليها في ظل حكم الإمارة الأموية والخلافة الأموية وعصر الطوائف في الأندلس. كان من هذه المكاسب المهمة السماح للمسيحيين المستعربين ببناء بعض الكنائس، كتلك الكنيسة التي بنوها بالقرب من باب البيرة بمدينة غرناطة، فجاء حكام المرابطين المخدوعون بوطنية وحرص الفقهاء، وأمروا بهدمها متأثرين بذلك بآراء الفقهاء، التي لم تكن ناجعة أو متزنة في يوم من الأيام إلا في القليل النادر.

جاءت ردة فعل المستعربين قوية ضد هذه الأعمال غير المبررة، وسارعوا إلى قيادة حركة الاسترداد فأبلغوها استعدادهم للانضمام تحت لوائها، بعد أن كانوا يدعون هذه الحركة للتعامل مع العرب في الأندلس معاملة حضارية، وبخاصة في فترة حكم ألفونسو السادس، وكذلك بعد أن يئسوا من تعصب المرابطين الديني ضدهم. قام حاكم قشتالة إثر ذلك بعملية اختراق شجاعة في عمق الممتلكات العربية، بدأها بمدينة غرناطة، وأتبعها بقرطبة، ومن قرطبة توجه إلى شاطئ البحر المتوسط إلى الجنوب، واستغرقت هذه الجولة سنة كاملة تقريباً، كان المستعربون حينها ينضمون إليه ويعلنون له كل مشاعر وآيات التأييد والطاعة والولاء، رداً على ممارسة الفقهاء المسلمين ضدهم. وقد دلت عملية الاختراق هذه على ضعف شديد في صفوف الجيش المرابطي، الذي لم يشتبك مع الإسبان سوى مرة واحدة هُزم فيها المرابطون(١).

(١) ابن الخطيب . الإحاطة في أخبار غرناطة ج١ طبعة القاهرة ١٣١٢هـ ص ١١٤.

ومنذ الفترة الأخيرة لحكم المرابطين حتى سنة ٥٤١هـ/١١٤٧م، عاشت حركة الاسترداد الإسبانية فترة إيجابية. أما بعد ذلك فقد بدأت النشاطات الإسبانية باتجاه أماكن الوجود العربي، حينما سيطر كونت برشلونة على طرطوشة بمساعدة جمهورية جنوة الإيطالية، ثم سيطر بعد ذلك على لاردة وما حولها. وتمكن ألفونسو السابع من السيطرة على قلعة رباح، ثم على ميناء المرية في جنوب شرق الأندلس على البحر المتوسط، وذلك بمساعدة جنوية وفرنسية. وميناء المرية كان من أهم موانئ الأندلس كلها، والسيطرة عليه أدت إلى تقويض الحركة التجارية العامة في الأندلس(١).

كما سيطرت القوات البرتغالية على معظم مناطق غرب الأندلس، وسمحت بمرور قوات فرنجية في أراضيها وفي موانئها، وهي قوات ألمانية وإنكليزية وفلمنكية، كانت تتخذ من غرب الأندلس محطة استراحة وتزود في طريقها إلى غزو المشرق. وأهم المواقع التي سيطر عليها البرتغاليون هي شنترين، التي سقطت في أيديهم سنة ٥٤١هـ/١١٤٧م، وذبحوا معظم سكانها، في الوقت الذي وصلت فيه حملة فرنجية على متن أكثر من ١٦٤ سفينة، قوامها الجنود الإنكليز والفرنسيون والألمان، وكان هدفهم الوصول إلى فلسطين لنجدة ريتشارد قلب الأسد، فاستغل البرتغاليون توقف هذه الحملة بشنترين وطلبوا من قادتها تقديم العون للسيطرة على لشبونة، فبادروا لنجدة البرتغاليين وسقطت المدينة بأيديهم، فقام الموحدون بإرسال قوة عسكرية إلى هذه المنطقة لكنها فشلت في استعادة أي مدينة(٢).

بقي هذا الوضع قائماً حتى تمكن الموحدون سنة ٥٥٢هـ/١١٥٨ من استعادة مرفأ المرية، بعد حصار دام فترة سبعة أشهر مستمرة، وربما ركزوا على استعادة المرية لأنها مرفأ البلاد الرئيس منذ عصر الخلافة الأموية في الأندلس(٣). وقد زاد تحرير

---

(١) ابن الأثير . الكامل في التاريخ ج١١ طبعة القاهرة ١٣٠٣هـ ص ١٣٦.

(٢) ابن صاحب الصلاة . المن بالإمامة على المستضعفين ج٢ تحقيق عبد الهادي التازي طبعة بيروت ١٩٦٤ ص ٤٤٧ وما بعدها.

(٣) ابن صاحب الصلاة . المصدر السابق ص٢٥٤. ابن الأثير . المصدر السابق ج١١ ص١٥٦.

المرية وعودتها إلى السيطرة العربية الموحدية من تصميم قيادة حركة الاسترداد على متابعة الهجوم ضد المعاقل العربية في الأندلس. وقد جاء هذا التصميم على لسان سانشو الثالث وفرناندو الثاني ملكَي ليون وقشتالة، حينما اتفقا إثر وفاة ألفونسو السابع على توزيع الأراضي الأندلسية، التي تقع تحت السيطرة العربية فيما بينهما، في الوقت الذي احتل فيه البرتغاليون مدينة مهمة في غرب الأندلس هي مدينة باجة[١].

لكن استعداد الموحدين وتصميمهم على تحقيق شيء مهم، أدى إلى ضرب جبهة حركة الاسترداد، وبخاصة في عصر الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن الذي استمر في الحكم حتى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٥م، وهو الذي استغل حالة انقسام كانت قد حدثت في صفوف قيادة حركة الاسترداد على حين غرّة، فأعاد معظم المناطق الأندلسية التي كانت قد وقعت تحت السيطرة الإسبانية بالأمس القريب، لكن ذلك لم يدم طويلاً بسبب عودة التفاهم والوئام على الجبهة الإسبانية، وبدأت الهجمات بشكل مستمر على كافة الاتجاهات ضد أماكن التوضع العربي، وكانت أعنف هذه الهجمات تلك التي جاءت من ناحية البرتغال، حيث شمل الهجوم البحر والبر، وحاول الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن إيقاف هذا الهجوم من خلال تنفيذ هجوم مضاد، تركز على مدينة شنترين، ولكن هذا الهجوم تعثر وانتهى إلى الفشل وجرح الخليفة، وتوفي إثر ذلك[٢].

جاء إلى حكم دولة الموحدين بعد وفاة يوسف بن عبد المؤمن ابنه يعقوب المنصور، الذي وصلت المواجهة في عصره مع الإسبان قمتها، وكانت فترة حكمه التي استمرت حتى سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩، من أحسن فترات حكم الخلفاء الموحدين بصورة عامة. كان ذلك بسبب النجاحات العسكرية المهمة التي أنجزت في هذه الفترة، وبخاصة معركة الأرك، التي جاءت كنتيجة طبيعية فرضتها التحركات الإسبانية النشطة، ففي غرب الأندلس حاول البرتغاليون

---

(١) ابن صاحب الصلاة . المصدر السابق ص ١٨٦ وما بعدها .

(٢) ابن عذاري . المصدر السابق ص ١٢٨ وما بعدها. ابن أبي زرع. روض القرطاس ص ٢١٣ . ٢١٤.

فرض سيطرتهم المحكمة مستغلين بذلك كثرة الأساطيل الأوروبية المتوجهة إلى بلدان المشرق العربي، من أجل تقديم العون للفرنجة في بلاد الشام، وبخاصة في فلسطين، حيث نجح العرب في استعادة مدينة بيت المقدس. وبمساعدة بعض قوى هذه الأساطيل تمكن البرتغاليون من السيطرة على مدينة شلب وتنفيذ مجزرة كبيرة فيها، بلغت حصيلة قتلى هذه المجزرة نحو ستة آلاف من العرب، لكن الموحدين بقيادة الخليفة يعقوب المنصور تمكنوا من استعادتها سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م. وقد تأكد للخليفة بعد ذلك، أن المصائب التي يعاني منها عرب الأندلس، تأتي من دول الإسبان في الشمال التي تشكل الجبهة الأقوى في حركة الاسترداد، ولا بد من عمل شيء قوي يكبح جماح هذه الجبهة دائمة التوثب والاندفاع. فانتقل في جيش كبير إلى إشبيلية ثم إلى قرطبة، ومنها اتجه شمالاً إلى قلعة رباح، ولما سمع الحاكم القشتالي ألفونسو الثامن بقدومه ، توجه لملاقاته في الحال وتمركز في حصن الأرك القريب من قلعة رباح، وكان واثقاً من النصر بعد أن تجمعت حوله كل قوى الدول الإسبانية الأخرى(١).

في نهاية الأمر وقع الصدام بين الفريقين في الأرك، وكانت الهزيمة من نصيب الإسبان، الذين تكبدوا خسائر جمة في هذه المعركة التي عرفت في التاريخ الأندلسي بمعركة (الأرك)، التي جرت أحداثها غير الطويلة سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م(٢). وكان من أهم نتائج هذه المعركة أن قامت قيادة حركة الاسترداد بعرض إقامة سلام مع الموحدين، الذين وافقوا على عقد معاهدة سلام مدة عشر سنوات.

كانت الفترة التي تلت معركة الأرك قاسية للغاية، لأن الانهيار بدأ يظهر في جبهة الموحدين العسكرية، وقد ظهر ذلك واضحاً في فترة حكم الخليفة الموحدي محمد بن يعقوب الناصر، الذي لم يتمكن من محاصرة أسباب الانهيار، في الوقت الذي كانت فيه زعامة حركة الاسترداد، وبخاصة زعامة دولة قشتالة، تدرس الوضع

---

(١) الضبي . بغية الملتمس . ص ٣٥.

(٢) ابن أبي زرع. المصدر السابق ص ٢٢٣. ابن الأثير ت المصدر السابق ج١٢ ص ١١٥.

بعمق على المستويات كافة، مستفيدة من الدرس القاسي الذي لقنها إياه الموحدون في معركة الأرك سابقة الذكر. فقد بدأت قيادة دولة قشتالة تعمل بقوة على طريق جمع الصفوف، وكذلك تجميع كل القوى الإسبانية، من أجل تشكيل جبهة قوية لضرب الوجود العربي في الأندلس، ساعدها في ذلك قيام رئيس أساقفة طليطلة بزيارة فرنسا وإيطاليا للحصول على شيء يدعم الموقف الإسباني، وبالفعل فقد استطاع أن يحصل من بابا روما على إعلان يتضمن عبارات تشجيع للفرنسيين وغيرهم من الأوروبيين، من أجل المشاركة في حرب الاسترداد ضد العرب، التي قال عنها البابا أنها حرب مقدسة كتلك التي يخوضها الأوروبيون في المشرق(١).

لم تطل الأيام بالإسبان حتى تمكنوا بزعامة دولة قشتالة، من لملمة شملهم بتأثير الحمية الوطنية والدينية، ونسي الجميع الخلافات السابقة وتوحدوا في جبهة واحدة، وشاركتهم بعض القوى العسكرية الفرنسية متأثرة بفتاوى البابا سابقة الذكر. وكان اللقاء بين الموحدين والإسبان في منطقة العقاب بالقرب من مدينة قرطبة إلى جهة الشمال سنة ٦٠٩هـ/١٢١٣م(٢)، وفي هذا اللقاء العسكري لم يجد الإسبان صعوبة كبيرة في تحقيق نصر مؤزر على الموحدين، الذين لم يستطيعوا الصمود في وجه الإسبان المستعدين للانتقام، لا على صعيد التكنيك الحربي ولا على صعيد الاستعداد النفساني والمعنوي فحسب بل على كل الصعد.

على الرغم من نجاح الإسبان في هذه المعركة، إلَّا أنَّ مؤثراتها الإيجابية لم تظهر على جبهة حركة الاسترداد إلا بعد مضي أكثر من عشر سنوات، لأن الإسبان شغلوا في هذه الفترة ببعض الانقسامات التي حلت في صفوفهم بعد المعركة التي عرفت في تاريخ الأندلس بمعركة (العقاب). لكن بعد هذه الفترة عادت الأمور إلى مسارها الصحيح لتنتعش جذوة حركة الاسترداد من جديد، وتبلورت هذه الحالة بظهور دولة (آراغون) بقيادة خايمي الأول. فقد ظهرت هذه الدولة بمظهر القوي المصمم على السيطرة المطلقة على أملاك العرب في

---

(١) Jam read. The Moors in Spain and Portugal.

(٢) ابن أبي زرع. المصدر السابق ص٢٣٥ وما بعدها.

الأندلس، وكذلك تعززت قوة دولة قشتالة بزعامة فرناندو الثالث، كل ذلك حصل في الوقت الذي كانت فيه دولة الموحدين تسير على طريق الفناء، هذه الطريق التي بدأت من داخل هذه الدولة، حينما بدأت التمردات والثورات تظهر هنا وهناك، أي في المغرب والأندلس على حدّ سواء(١).

ساعدت هذه الظروف، على الجبهتين العربية والإسبانية، على تقدم حركة الاسترداد الإسبانية، وبقوة فاعلة ومؤثرة هذه المرة، فلم تأت سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٣م، حتى تمكنت هذه الحركة من السيطرة النهائية على معظم معاقل العرب في الأندلس، وبقي الوجود العربي هناك متمثلاً في زاوية صغيرة هي الزاوية الجنوبية الشرقية، التي تشمل مدينة غرناطة وما حولها كالمرية ومالقة ووادي آش وبعض البلدات المتفرقة.

مع ذلك، فقد توقفت أنشطة حركة الاسترداد لفترة طويلة، بسبب الخلافات التي ظهرت في صفوف دول وممثلي هذه الحركة، كذلك لأنهم وجدوا أن منطقة غرناطة لا تشكل ذلك الخطر الكبير الذي يثير الخوف والقلق. لكن حينما أطل القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، عادت حرب الاسترداد للظهور من جديد، ساعد على ذلك وجود طبقة جديدة في المجتمع الإسباني هي طبقة (الفرسان)، التي تكونت من مجموعة كبيرة من الجنود كانت متعطشة للحرب والمعارك، من أجل صنع أمجاد جديدة ومن ثمَّ الحصول على مزيد من الغنائم والثروات، وهي مجموعة كانت قد اعتادت محاربة العرب في الأندلس. يضاف إلى كل هذا أن زيادة سكانية كانت قد حصلت في الجبهة الإسبانية، وكان لا بد من امتصاص متطلبات هذه الزيادة على المستويات كافة. لكن الأهم من كل ذلك هو الحالة المزرية للغرناطيين، هذه الحالة التي تمثَّلت في خلافات عميقة ومؤثرة في صفوف حكام غرناطة من بني الأحمر، الذين فشلوا فشلاً ذريعاً في التغلب على هذه الخلافات، على الرغم من جسامة الخطر وعظمته، في الوقت

---

(١) ابن عذاري . المصدر السابق ج٢ ص ٢٥٥ وما بعدها. ومن أهم هذه الحركات حركة بني غانية في المغرب، التي ظلت مستمرة طوال حياة دولة الموحدين، وكانت من أهم الأسباب التي أضعفت الجبهة الموحدية ضد تجمع حركة الاسترداد الإسبانية.

الذي عجزت فيه دولة بني مرين في المغرب الأقصى عن تقديم أي عون عسكري للحكومة الغرناطية، كما كان يحدث في القرن الثامن الهجري،/ الرابع عشر الميلادي، لأن هذه الدولة كانت قد دخلت في مرحلة الضعف والانهيار، فقد كان الغرناطيون قد تعوّدوا، كما ذكرنا، على معونة هذه الدولة ولفترة طويلة من الزمن، من خلال قوة عسكرية كبيرة أطلقت عليها تسمية (مشيخة الغزاة)، وكان يقودها قائد عسكري يدعى (شيخ الغزاة). وقد شغلت هذه المشيخة دوراً إيجابياً عظيماً في ميدان الدفاع عن غرناطة وما حولها، وكانت واحدة من أهم القوى الغرناطية في هذا المجال، وكان الإسبان يحسبون لها حساباً دقيقاً[١].

في هذه الفترة الأخيرة من حياة العرب في غرناطة، قامت عملية وحدوية كبيرة في الجبهة الإسبانية، تجسدت باندماج دولتي قشتالة وآراغون من خلال زواج فرناندو ملك آراغون من إيسابيلا ملكة قشتالة. ووضعت هذه الدولة خطة وطنية منهجية تقضي بتنفيذ حرب مقدسة، تأخذ طابع الاستمرار والديمومة حتى يتم إسقاط آخر رمز عربي في غرناطة، والوصول بحركة الاسترداد إلى نهايتها السعيدة.

قامت القيادة الإسبانية الجديدة لحركة الاسترداد، بتسخير كل الموارد والقوى من أجل هذه العملية، التي غلبت كل العمليات الأخرى، وكلفت مئات ملايين الدنانير، اشتركت في تأمينها القيادة الإسبانية والكنيسة وجميع فئات الشعب الإسباني، وبخاصة أصحاب المال والثروة من النبلاء. ودعمت هذه الحرب بسلاح جديد لم يكن معروفاً في المراحل الزمنية السابقة، وهو سلاح المدفعية، في الوقت الذي كانت فيه القوة العربية في غرناطة تعاني من حالة ضعف شديد في كل المجالات، فكانت بأمسّ الحاجة للدعم المادي والمعنوي. ومع ذلك، فقد صمدت صموداً مشرفاً، ولمدة أكثر من عشر سنوات متتالية، بدأت من سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م وانتهت في سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م. وقد استهلت هذه الحرب

---

(١) ابن خلدون . المصدر السابق ج٧ ص ٣٦٦ وما بعدها.

بالسيطرة على حصن الحامة، الذي باغته الإسبان في إحدى الليالي في غفلة من حاميته، ولم تتمكن القوات الغرناطية من استعادته رغم محاولتها ذلك[١].

شكلت السيطرة على حصن الحامة خطراً داهماً على غرناطة، ذلك أنه كان يشكل رأس حربة في عمق منطقة غرناطة، فهو لا يبعد عن بساتينها أكثر من خمسة عشر ميلاً، وهو قريب جداً من الطريق الذي يصلها بميناء المرية التجاري الحيوي.

ترافق هذا الحادث المؤلم بحادث داخلي كان أشد إيلاماً وتأثيراً في جبهة الصمود الغرناطية باتجاه الهزيمة، وتجلى هذا الحادث بالخلاف الحاد الذي وقع بين أفراد العائلة الحاكمة في غرناطة. فقد جرت صراعات حادة على السلطة، كانت لها تأثيراتها السلبية بالغة الخطورة، فبدلاً من أن تقوم العائلة الحاكمة بتعزيز جبهة الصمود مبتدئة بنفسها كما فعل الإسبان، راحت هذه العائلة غير الموفقة، تخوض غمار معارك داخلية من أجل الاستئثار بالحكم والسلطة، الأمر الذي استفاد منه الإسبان فائدة جمة، حينما تمكنوا من التدخل في ما يجري من خلاف في أروقة الحكم الغرناطي، وتحويل هذا الخلاف لخدمة مشروعهم الوطني. من ذلك أنهم قاموا بإطلاق سراح الزعيم الغرناطي أبي عبد الله الصغير، الذي كان أسيراً لديهم منذ فترة، واعترفوا بحكمه سلطاناً شرعياً على غرناطة، وقد تمكن من السيطرة على وادي آش. فأعلنها مقراً رئيساً لسلطانه، لكن الغرناطيين لم يتجاوبوا معه وصدرت فتوى بحقه، عدَّته رجلاً خارجاً على الطاعة والجماعة، وعُدَّ من يعاونه مشجعاً على ارتكاب المعاصي[٢].

كانت الخطوة التالية التي نفذتها حركة الاسترداد، هي التقدم باتجاه رندة ومالقة، على الرغم من أن قيادة الحركة لم تكن متفقة على ذلك، فقد كان فرناندو يرى التريث في هذه المسألة، والتركيز على ما سينتج جراء الخلافات في

---

(١) ابن الخطيب. نبذة العصر في أخبار بني نصر ص٦.

(٢) أحمد بدر. تاريخ الأندلس. طبعة دمشق ١٩٨٣ ص ٣٣٥.

جبهة الغرناطيين، والاستفادة منها قدر الإمكان، لكن زوجته إيسابيلا لم توافقه على ذلك، وأصرت على الاستمرار في قضم أراضي غرناطة، لأن أي هدنة أو توقف على الجبهة الغرناطية، سيعطي الفرصة للغرناطيين لتمكين جبهتهم وتعزيز قوتهم العسكرية والسياسية. وقد نجحت إيسابيلا في مسعاها وأيدها زوجها فرناندو بعد ذلك، وبدأت القوات الإسبانية التقدم نحو مالقة على الساحل، وفشلت في احتلالها بادئ الأمر، فتوجهت إلى رندة فتمكنت من احتلالها بسهولة، بعد أن حققت عنصر المفاجأة المهم في العمليات الحربية. ثم عقد الإسبان مع عميلهم أبي عبد الله الصغير معاهدة جديدة، أعطوه بموجبها حكم المنطقة الشرقية من غرناطة، وهذا ما أدى إلى دخول عدد من الحصون تحت إمرته، إضافة إلى حي البيازين في غرناطة نفسها، وبذلك قامت الحرب بين المدينة نفسها وربض من أرباضها(١).

في غضون ذلك توجهت قوة إسبانية مرة أخرى إلى مالقة، وفرضت عليها حصاراً محكماً، انعدمت بموجبه كل وسائل العون والاتصال في الخارج، فاستسلم المدافعون عنها للإسبان بشرط تأمينهم على أرواحهم وأموالهم، فرفض الإسبان ذلك ودخلوا المدينة سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٧م. ساعدت السيطرة على مالقة الإسبان للتقدم باتجاه بسطة في الشرق، حيث فرضت عليها حصاراً دام مدة ثلاثة أشهر، سقطت بعدها في أيديهم سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م(٢).

في نهاية الأمر تمكن فرناندو من إحكام سيطرته على غرناطة برمتها سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م، بعد عملية حصار شديدة قطعت خلالها الأغذية، وسمح لأبي عبد الله الصغير بالخروج إلى المغرب فنزل بفاس طوال حياته. وبذلك انتهت أسطورة الوجود العربي في القارة الأوروبية بعد مضي ثمانية قرون متتالية.

---

(١) ابن الخطيب . نبذة العصر ص٢٠ . أحمد بدر . تاريخ الأندلس ص٣٣٧.

(٢) المقري التلمساني . المصدر السابق ج٦ ص ٢٧٠.

وقد برهنت أحداث حركة الاسترداد على مدى النضوج الوطني العظيم الذي وصله الإسبان، هذا النضوج الذي جعلهم يقاومون الوجود العربي في الأندلس بضراوة وتصميم واقتدار دون أن يملوا أو يعتري نفوسهم بقية من تذمر أو تردد، على الرغم من الصعوبات الكبيرة التي واجهت مسيرتهم في هذا المجال، ساعدهم في ذلك جبهة أوروبية متماسكة، وقفت معهم في كل خطوة من خطوات حرب الاسترداد منذ معركة بواتييه(١). سنة ١١٤هـ-٧٣٣م حتى نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

في حين لم يتمكن العرب على عاداتهم القبيحة في العصور الوسطى، من أن يتخلصوا من خلافاتهم القبلية والعصبية والإقليمية والطائفية، التي بددت كل إمكاناتهم العامة وجعلتهم قوة هشة لا قيمة لها أمام الإسبان باستثناء ما جرى في عصر الخلافة الأموية وبعض المعارك التي نجحوا فيها بفعل تعاونهم، فقد فشلت الحمية الدينية وكذلك الحمية الوطنية في أن تثير هممهم للتخلص من هذه الأمراض والذوبان في بوتقة الانتماء العربي الواحد في مواجهة الانتماء الإسباني الوطني الواحد. يضاف إلى هذا، فشلُ العرب الأندلسيين في إقامة تعاون مشترك مع عرب المشرق، رغم خطورة ما كان يجري في القرنين السادس والسابع الهجريين، من تهديد الوجود العربي في المغرب والمشرق عبر الهجمات الصليبية، التي كانت شبه مستمرة، بعكس ما حدث على الجبهة الأوروبية التي وحدت صفوفها ورافقها النجاح منذ ذلك الحين، وما زال يرافقها باضطراد حتى يومنا هذا. بقي أن نقول إن تجربة حركة الاسترداد، هي تجربة جديرة بالقراءة والتمحيص، وبخاصة منَّا نحن العرب، لنتعلم منها كيف يكون الصبر الجميل على دروب الصعاب والنضال في سبيل تحقيق أهدافنا، وكيف يكون صنع الأمجاد والحريات، في وقت لا حياة فيه للضعفاء والمتفرقين.

---

(١) المقري التلمساني . المصدر السابق ج١ ص ٢٢٠.

الفصل الحادي عشر

دور اليهود في الأندلس في مختلف الوجوه

في هذا الفصل المهم تركيز كبير على كل الأنشطة التي مارسها اليهود في الأندلس والمغرب، وإن كان التركيز على الأندلس أكثر، وقد أردنا من دراسة هذه الأنشطة في المقام الأول، أن نضع القارئ الكريم، من أي الجنسيات كان، أمام واقع اليهود، حينما كانوا تحت الحكم العربي وحينما ضعف هذا الحكم وأصبحت المبادرة بأيدي الإسبان، فقد لقوا من العرب في الأندلس والمغرب مزيداً من الإحترام، ومزيداً من الحرية، ومزيداً من المساعدة، لكنهم حينما وجدوا أن العرب الأندلسيين قد بدؤوا يسيرون نحو الانهيار، انقضوا عليهم بكل وسائلهم الممكنة إرضاء للجبهة الإسبانية، التي بدأت تظهر كقوة مسيطرة في المنطقة.

وما يلفت النظر في هذا الفصل، أنه تناول بحث وضع اليهود في المغرب الكبير بشكل متشابك ومتحد مع وضعهم في الأندلس، وقد حدث ذلك بسبب أن المغرب والأندلس في العصور الوسطى، ظلَّا يعيشان حالة وئام وتعاون واتحاد في فترة هذا البحث، وبخاصة في العصرين المرابطي والموحدي، حينما أصبح المغرب والأندلس دولة واحدة لمدة من الزمن بلغت نحو ثلاثة قرون.

في أندلس الأمس ومغرب اليوم، عاشت مجموعة من اليهود عيشة طيبة رافهة، يكتنفها الهدوء وتعززها الثقة والأمان، لأن العرب في كل مكان، وفي كل أيام مجدهم، كانوا ينظرون إلى جميع سكان بلادهم نظرة واحدة، تقوم على أساس أنهم مواطنون في دولة واحدة، تنظم شؤون حياتهم مجموعة قانونية واحدة، تطبق موادها على الجميع، بغض النظر عن الجنس واللون والدين.

في هذا الجو الممتاز، وجد اليهود بيئة صالحة مناسبة للعيش، استغلّوها لصالحهم إلى أبعد حدود الاستغلال، مستفيدين من جو الحرية العامة، التي تمتعوا بها تحت مظلة الدولة العربية، فوصلوا إلى مراتب إدارية عالية، كان ذلك على حد سواء في عصر القوة العربية في الأندلس خلال عصر الإمارة والخلافة، أو في عصر السقوط في زمن دول الطوائف في الأندلس أيضاً. وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على سعة الصدر العربي، الذي تمكن من استيعاب الجميع تحت قيادة عربية واحدة قوية، وهو تالياً يشير إلى مدى قدرة العرب على قيادة الناس قيادة حازمة، تجمع بين العلم والرحمة وبين الحزم واللين.

وعلى الرغم من ذلك الواقع الطيب للعرب، فإن اليهود لم يقدّروا لهم هذه المعاملة، وتلك النظرة الإنسانية العظيمة، ولاسيما أن العرب هم الذين خلصوهم من كوابيس الظلم والاضطهاد والعذاب، التي لحقت بهم إبَّان فترة طويلة سبقت وصول العرب إلى الأندلس، فقاموا بتحريرهم وعتقهم وإطلاق سراحهم في كل مجال من مجالات الحياة. ومع ذلك، فقد وقفوا ضد العرب، حتى في أيام قوتهم، عندما كانوا يحاولون إعطاء زخم جديد للمسائل اليهودية، وبخاصة الدينية منها، مستغلين بذلك روح التسامح العربية، التي سادت الأندلس والمغرب وقتاً طويلاً. أما في أيام تراجع العرب وسقوط هيبتهم، وضعف قوتهم، فحدِّث ولا حرج. فقد انتقلوا إلى جانب الإسبان، يقومون بخدمتهم، والدفاع عن حقوقهم العامة ضد العرب، الذين أعطوهم كل شيء. وكانوا في كثير من الأحيان أشد ظلماً وعدواناً من الإسبان على العرب، رغم أنه لولا ثقافة العرب وعلومهم، التي درسوها واستفادوا منها، لما تمكنوا من الوصول إلى المناصب الإدارية والاقتصادية الرفيعة، التي شغلوها في الجانب الإسباني المعادي للعرب.

تفاصيل هذه الأمور ستظهر واضحة من خلال تتبع مضمون الصفحات التالية، التي قصدنا من كتابتها الوقوف على جانب مهم من جوانب حياة اليهود في ظل دولة العرب المتقدمة في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى.

نبدأ بالتساؤل عن الأصول الغابرة لليهود في المغرب والأندلس. للإجابة عن ذلك نقول: إننا لن نذهب بعيداً في التحري والبحث عن الأماكن التي رحل منها اليهود إلى الأندلس والمغرب، لأن في ثنايا ذلك أوهام وأغلاط وآراء لا طائل منها، ومن ثمَّ لا يمكن للمرء أن يبلور فكرة راسخة حولها. وكل ما يمكن ذكره في هذا المقام، أن قسماً مهمّاً من اليهود في إسبانيا والمغرب، يعود في أصوله إلى العصر الروماني.

وقد تركز الوجود اليهودي في الأندلس في كل المناطق مع اختلاف في كثافة هذا الوجود، فقد كان كثيفاً في المناطق الجنوبية العامرة في الحياة والغنية في الأرزاق والإيرادات والإمكانات المتنوعة، مثل مدينة غرناطة، التي دعيت بغرناطة اليهود(١)، ومدينة إشبيلية التي اكتظت بأعداد غزيرة منهم. لكن أكبر مراكز وجودهم في الأندلس، كان في بلدة اليسانة القريبة من قرطبة، التي اختصت باليهود دون غيرهم(٢)، وقد كان وجودهم في هذه البلدة مميزاً، لأنهم كانوا أكثر ثروة ومالاً وبحبوحة اقتصادية من سائر اليهود في الأندلس(٣).

وأهم مناطق اليهود في الأندلس، كانت مدينة طليطلة عاصمة إسبانيا القديمة التي كانت تعرف في العصور الوسطى بالثغر الأوسط. وقد كان اليهود فيها كثيري العدد، وأصبحوا ذوي شأن رفيع في ظل الحكم العربي المتسامح، الذي سمح لهم بالامتلاك والبيع والتصرف، كما لو أنهم من العرب المسلمين، ودليل ذلك وجود كثير من صكوك البيع والشراء، كانت تحتوي على أسماء رجال لهم مقام اجتماعي رفيع، مثل الصك الذي ذكر فيه ما كان يمتلكه أبو هارون موسى بن الشحات الإسرائيلي(٤).

---

(١) الحميري . المصدر السابق ص ٢٣.

(٢) الإدريسي . صفة المغرب ص ٢٠٥.

(٣) مؤلف مجهول . الحلل الموشية ص ٨٠.

(٤) شكيب أرسلان . الحلل السندسية ج١ طبعة أولى فاس ١٩٣٦ ص ٣٩٥.

وعموماً فإن وجود اليهود في الأندلس، تركز في المدن الكبرى وبعض التجمعات السكنية الكثيفة، التي يكثر فيها النشاط الاقتصادي، ولا سيما النشاط التجاري، الذي برع اليهود في مضماره، كما سنرى في الفقرات التالية.

وقد ظل اليهود إلى جانب الفئات الأخرى غير العربية، لم يعيشوا في أحياء خاصة بهم في المدن سابقة الذكر. ولم يكن لهم زي خاص بهم، يتميزون به عن سواهم خلال القرون الأولى من حكم العرب في الأندلس والمغرب على الأقل، كما كانت العادة في المشرق العربي(١)، وكانت بيوتهم في أحيائهم قريبة من بعضها، تتصل فيما بينها بدروب ضيقة وساحات صغيرة، وفي هذه الأحياء يوجد بعض الحمَّامات والمعابد(٢).

وفي المغرب العربي، كغيره من بلدان العالم، وجدت بعض الجاليات اليهودية، التي انتشرت في عدد كبير من مدنه وبلداته، من حدود بلدة شالة في المغرب الأقصى حتى تاهرت في المغرب الأوسط، ومن بداية إفريقيَّة (تونس) حتى نهايتها. وكانت هذه الجاليات تتوضع بشكل خاص في المدن الكبرى، مستغلة في ذلك، وقبل كل شيء روح التسامح العربية، ومقدرة العرب على استيعاب جميع السكان والمساواة فيما بينهم، إذا التزموا بحدود القانون والنظام العام، فمنذ القديم، ضمَّ المجتمع القرطاجي، الذي شمل رقعة واسعة من أرض المغرب العربي، ولا سيما الأقسام الشمالية منه، بعض الجاليات اليهودية. ولا يستبعد أن تكون مجموعة مهمة من يهود إسبانيا، قد انتقلت إلى المغرب قبل وبعد الفتح العربي الإسلامي للأندلس والمغرب. فقد ظهر اليهود قبل الفتح على صعيد التدخل في الشؤون السياسية لكلا البلدين، مثال ذلك أنهم قاموا بمساعدة الفاندال في إسبانيا، وكذلك في المغرب عندما احتله الفاندال، وذلك انتقاماً من المسيحيين الإسبان،

---

(١) عمر فروخ . العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط ص ١٨٦.

(٢) ليفي بروفنسال . الإسلام في المغرب والأندلس. ترجمة السيد سالم وصلاح حلمي. طبعة مصر ١٩٥٦ ص ٦٤.

الذين كانوا يعاملونهم بقسوة(١). وبقي اليهود يتمتعون بحرية الإقامة والانتقال في كل أقطار المغرب العربي، عندما فتح العرب جميع أقطاره، وازداد استقرارهم تدعيماً وقوة في عهد الدول الانفصالية، التي قامت في القرن الثاني الهجري، كدولة الأغالبة في تونس، والدولة الإباضية الرستمية في تاهرت في المغرب الأوسط (الجزائر اليوم)، ودولة بني مدرار في سجلماسة في المغرب الأقصى، حيث باشر اليهود أعمالاً متعددة الوجوه، ولاسيما التجارة التي نشطت إبان القرن الثالث الهجري بين أقطار المغرب وأفريقيا من جهة، والأندلس من جهة ثانية، وبخاصة تجارة الذهب، التي تميز اليهود بها، وعرفوا أسرار نجاحها وطرقها المربحة.

ويبدو أن عدد الجالية اليهودية في المغرب، كان كبيراً إلى حد ما، يدل على ذلك، أن اليهود كانوا أكثر من المسيحيين في المغرب. فمنذ الأيام الأولى لبناء مدينة فاس المغربية، شكل اليهود فيها جالية كبيرة، فيذكر ابن أبي زرع في كتابه (الأنيس المطرب بروض القرطاس) أن إدريس الثاني فرض الجزية على يهود فاس، فكان مبلغ جزيتهم في كل سنة ثلاثين ألفاً(٢). ويذكر ابن حوقل في عدة مواضع من أراضي الفاطميين، كانت تجبى ضريبة تسمى (الجوالي)، ويكاد يكون من المؤكد أن هذه الضريبة هي الجزية نفسها، التي كانت تفرض على غير المسلمين(٣).

وعلى الرغم من التسامح العربي شبه الكامل مع اليهود في المغرب العربي، فقد يبدو من الواضح في تاريخ المغرب والأندلس حتى نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، أنه لا وجود لليهود في ميدان الإدارة العامة على الإطلاق، وإن وجد استثناء لذلك، فهو قليل ونادر جداً، وربما يعود سببه إلى قوة الوجود العربي على هذا الصعيد، حيث الكوادر العربية الإدارية متوافرة بصورة كافية، وهذه الكوادر تتفوق على غيرها بالعمل والمعرفة والخبرة والتوجه، هذا بالإضافة إلى تماسك الدولة

---

(١) انظر كتابنا . تاريخ المغرب العربي الإسلامي. طبعة جامعة دمشق ١٩٩٢ ص ٣٩.

(٢) ابن أبي زرع . الأنيس المطرب ص ٨٥.

(٣) ابن حوقل . صورة الأرض. قسم ٢ طبعة ثانية. ليدن ١٩٣٨ ص ٧٠.

وقوتها وزخمها الحي، وبخاصة إبَّان عصري الإمارة والخلافة الأموية في الأندلس، وبالتحديد خلال فترة حكم الخليفة الناصر لدين الله وولده الحكم المستنصر، التي استمرت من سنة ٣٠٠-٣٦٦هـ/٩١٣-٩٧٧م، حيث وصل يهودي واحد إلى شغل منصب الوزارة، ساعده على ذلك تعمقه في أصول وأنواع الثقافة العربية، وكذلك التسامح العربي في عصر الخلافة، الذي ترافق مع تقدم البلاد على كل الصعد، ولاسيما منها الاقتصادية والعلمية. هذا الوزير هو أبو يوسف حسداي بن إسحق بن عزرا بن شبروط المتوفَّى سنة ٣٥٩هـ/٩٧١م، الذي اشتغل عند الخليفتين سابقي الذكر في ميدان الإدارة والطب على حد سواء، وقد كانا يشاورانه في كثير من الأمور الكبيرة الخاصة بالدولة[١].

أما فيما بعد هذه الفترة الذهبية، فقد اختلف الأمر بصورة جذرية، ولا سيما خلال عصر دول الطوائف في الأندلس، عندما سقطت الخلافة الأموية، وظهر عدد كبير من الدول، كان التناحر والتقاتل هو القاسم المشترك فيما بينها، الأمر الذي أدى إلى استخدام العناصر غير العربية، ليس في مجال الإدارة فحسب، بل في جميع المجالات. وبرز من بين هذه العناصر، العنصر اليهودي، الذي استطاع بذكاء وحسن تدبير الدخول إلى أعماق وكيان حكام دول الطوائف، الذين تغافلوا عن كل شيء يتعلق بحقوق الوطن، وراحوا يركضون خلف مصالحهم الشخصية والعائلية والقبلية.

وقد اعتمد حكام الطوائف على اليهود في بعض الأعمال المهمة في مجال الإدارة، وحاول هؤلاء اليهود من خلال المناصب التي شغلوها الإساءة للعرب، وذلك بالوقوف ضد مصالحهم الوطنية. وفي تاريخ الأندلس الكثير من الأمثلة على ذلك، نسوق بعضها على سبيل التمثيل لواقعهم الحقيقي في الأندلس. فحينما استقر الحكم للزيريين في غرناطة، وأصبحت واحدة من دول الطوائف في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، قام باديس بن

---

(١) صاعد الأندلسي. المصدر السابق ٢٠٣- ٢٠٤. آنخل جنثالث بالنثيا. المرجع السابق ٤٩٨.

حبوس، أحد حكامها المشهورين بتعيين إسماعيل بن نغريلة اليهودي وابنه يوسف وزيرين في بلاطه. وفي فترة قصيرة من الزمن، اشتهر أمر إسماعيل، فأصبح المتصرف الوحيد والرئيس في جميع الأشغال والأعمال في دولة باديس، وفاز بالجاه والمال، ورفع إلى أعلى منزلة، فاتخذ عمالاً ومتصرفين في الأشغال من أبناء جنسه (اليهود)، فاكتسبوا المال والمراتب، وتطاولوا على العرب. وفيه يقول الشاعر الأندلسي عبد العزيز بن خيرة القرطبي المعروف بالمنفتل:

قـــــرن الفـــــضائل والفواضــــــل	**فـــــشأى الأواخــــــر والأوائــــــل**
ســــــــقطوا برفعـــــــة فـــــضله	**كالـــشمس فـــي شـــرف المناقـــل**
متقلــــــــــد ســــــــيف العـــــــلا	**والمكرمــــــــات لـــــــه حمائــــــل**

وقد أثارت هذه الأبيات وغيرها حفيظة وغضب ابن بسام الشنتريني فعلق في آخر القصيدة قائلاً: «..وأبعد الله المنفتل فيما نظم فيه وفصَّل، وقبحه وقبح ما أمل»[١].

وكان من عظمته في دولة الحبوسيين في غرناطة، أن قيل فيه بعد أن شوهد في قرطبة مع سيده باديس بن حبوس حاكم غرناطة: «ولم أفرق بين الرئيس والمرؤوس وتشابهت المناكب والرؤوس». وقال عنه ابن السقاء الوزير القرطبي المعاصر: «إنه نسي اليهودية، وكان منهمكاً في نظر الكتب، ونشد أشياء من علم العرب، وكان آخر أمره أن حجب صاحبه عن الناس، وسجنه بين الدنّ والكاس، ملحاً في أمره مبرماً لأسباب غدره...»[٢].

ولم يرض بهذه المكانة الرفيعة، التي شغلها في دولة الحبوسيين في غرناطة، بل راح يتآمر على سيده، الذي جعله أهم شخصية بعده، وذلك بالإجهاز على السلطان الزيري كله واستبداله سلطان بني صمادح أصحاب المرية، واتخذ

---

(١) ابن بسام . الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. قسم ١ مجلد ٢ ص ٢٦٦ . ٢٧٠.

(٢) ابن بسام . المصدر السابق ص ٢٧٠.

الترتيبات المناسبة لتحقيق انتصارهم، واحتلال مدينة غرناطة. وقد أفلح هذا اليهودي في إخراج القادة الأقوياء من غرناطة بحجة حمايتها من غزو ابن عباد صاحب إشبيلية، وأثار طمعهم بالأموال المخصصة لهم، بينما أغفل الحصون الشرقية المجاورة لدولة المرية، وأغفل تزويدها بالعدد والمؤن الضرورية، حتى خلا الكثير منها، وفكر القائمون عليها أنه لم يعد هناك دولة ولا سلطان. ولمَّا وجد الفرصة مناسبة، أشار على ابن صمادح بالتقدم، واستطاع احتلال وادي آش بسهولة، وتقدم نحو غرناطة، حيث تظاهر اليهود بالخوف كالآخرين، وانتقل من المدينة إلى القصبة. وفي الليلة المتفق عليها لفتح الأبواب لابن صمادح أفشى أحد العبيد الضالعين في المؤامرة بالسر، وصاح بذلك بين الناس محذراً ومشيراً إلى مدبرها، فقامت العامة على اليهودي وهاجموه في محبسه وأحرقوه بالفحم، ولوحق اليهود إثر ذلك، فقتل منهم أكثر من أربعة آلاف شخص في غرناطة[١]. وكان هذا اليهودي معداً إعداداً تاماً للقيام بأعباء الوزارة، إذ كان يمتلك جميع المؤهلات العلمية التثقيفية، إلا أنه كان يحتاج إلى لين الجانب والتواضع، وراح يظهر بمظهر أميره باديس ممتطياً جواده إلى جانبه، وشارته في الملبس كشارته، حتى إن الناظر إليهما، لا يفرق بين الأمير ووزيره بل كان هو المسيطر المتسلط على باديس[٢].

إلى جانب آل النغريلة، فقد اشتهر في غرناطة إبّان عصر الطوائف أيضاً، اليهودي صموئيل هاليفي، وكان يدعى عباد بن نغدلة، الذي ولد في قرطبة، ودرس التلمود على الربان هانوخ الرئيس الروحي للجالية اليهودية. ثم انصرف بجد ونجاح إلى دراسة الأدب العربي، وتثقف بأكثر العلوم التي كانت معروفة إلى ذلك العهد، ثم اشتغل في مجال التجارة مدة طويلة في قرطبة ومالقة، ثم ضحك له الحظ، وانتشلته بعض الفرص السعيدة من هذا المركز الوضيع، ذلك أن حانوته كان قريباً

---

(١) الأمير عبد الله . المصدر السابق ص ٤٨ وما بعدها - ابن بسام. المصدر السابق ص ٢٧١-٢٧٢- ابن عذاري . المصدر السابق ج٣ ص ٢٣١.

(٢) ابن الخطيب - الإحاطة في أخبار غرناطة ج١ ص ٤٣٧.

من قصر أبي القاسم بن العريف وزير حبوس ملك غرناطة. وكان على رجال القصر في الغالب، أن يراسلوا مولاهم فيما يعرض لهم من الشؤون. ولكونهم جهلاء بفن الكتابة لجؤوا إلى صموئيل هذا، فكتب لهم ما تمس إليه الحاجة من تلك الرسائل، التي أثارت إعجاب الوزير، إذ ألفاها مكتوبة بأبلغ وأجزل أسلوب عربي، ما حمل الوزير عند عودته إلى مالقة، أن يسأل عن منشئ تلك الرسائل، ولما علم أنه اليهودي استقدمه إليه وخاطبه بقوله: «وليس خليقاً بك أن تبقى صاحب حانوت، وما أجدرك أن تكون كوكباً يسطع لألاؤه في بلاط الملك، فإذا توافرت على ذلك رغبتك فإني متخذك لي ناموساً خاصاً». فتقبل منه هذه المنة شاكراً، وصحبه الوزير معه عند عودته إلى غرناطة وازداد إعجابه به، عندما أخذ يبادله الحديث في شؤون الدولة، إذ وقف منه على رجل نادر الذكاء بين الرجال، بعيد النظر، سديد الرأي، حتى قال بعض المؤرخين اليهود: «إن النصائح التي كان يسديها صموئيل كانت بمنزلة أقوال صادرة عن إنسان ملهم يستوحي كلام الله ويستفسره». ولهذا كان الوزير يأخذ بها، ويخصه بجميل الثناء. ولما أحس الوزير بدنو الأجل في مرضه، الذي مات فيه، جاء الملك يعوده، وقد داخله حزن عميق على وزيره وخادمه الأمين، فانتهز الوزير هذه الفرصة وقال للملك: «ولم تكن النصائح والآراء الرشيدة التي كنت أبديها لك أيها الملك في العهد الأخير صادرة مني، بل كانت وحياً أتلقاه من صموئيل، ذلك اليهودي، الذي آثرت أن يكون ناموسي الخاص، فاقصر نظرك عليه واتخذه أباً لك ووزيراً، أخذ الله بيدك وشدّ به أزرك».

وقد عمل الملك الغرناطي حبوس بهذه النصيحة، وأحلّ صموئيل في القصر محلّ وزيره الراحل، وصار ناموس الملك ومستشاره، وهي الفرصة الأولى، التي توصل فيها اليهود إلى الوزارة في الأندلس، علماً أن بعض اليهود قد تمتع على الأرجح بشيء من الحظوة لدى بعض حكام الأندلس العرب المسلمين، الذين كانوا يستعملونهم غالباً على وزارة المالية. ولكن التسامح العربي في الأندلس، لم يبلغ حد أن يتولى يهودي رئاسة الوزراء، وإذا جاز هذا الأمر في جهات أخرى، فلم يكن ليجوز في غرناطة، تلك المدينة التي كثر عدد اليهود

المقيمين فيها. ولما كانت في أيديهم معظم الثروة، فقد كانوا يتدخلون غالباً في شؤون الدولة.

ويصح أن يفسر سمو صموئيل إلى هذا المنصب بأسلوب آخر، فإنه لم يكن من السهل على ملك غرناطة أن يعثر على من يقلده منصب الوزير الأول، إذ من المحقق أنه لم يكن باستطاعته أن يسند هذا المنصب الخطير، إلى رجل من المغاربة، ولا إلى آخر من العرب من غير المغاربة، لأنه لم يكن يثق بأي من الطرفين، ولم يبق أمامه سوى اليهود[١].

وهكذا، اتخذ من هذا الرجل وزيراً له. فعلى الرغم من أنه بقي على دينه، كان لا ينحرف وهو يكتب لأساطين المسلمين عن أن يستعمل في رسائله ومكاتباته الصيغ والنصوص والعبارات الدينية المألوفة عند كتاب المسلمين. فلا بدّ أن يكون هذا الرجل قد أحرز من البلاغة العربية كنزاً ثميناً، كان ينفق منه كلما أراد الكتابة، ولهذا لم يشعر الملك وقد رفعه إلى منصة رئاسة الوزراء بحرج. والعرب أنفسهم قد ارتاحوا إلى هذا الاختيار ووافقوا عليه، إما لأنهم كانوا يشعرون أنه نتاج الثقافة العربية الواحدة، أو أنهم أرادوا تأييد إرادة الحاكم على المستوى الظاهري على الأقل.

وقد استغل مكانته، فقام يسهر على المصالح اليهودية، ويعنى بالشبيبة اليهودية عناية أبوية، ويتفقد فقراء الحال منهم، ويمدهم بما يسد حاجتهم على كل صعيد، وكان في خدمته كتاب ينسخون (المشنا والتلمود) فكان يوزع نسخها جوائز على التلاميذ، الذين لا يستطيعون شراءها. ولم تكن مكارمه وخيراته وإحساناته، لتقتصر على أتباع دينه في إسبانيا فحسب، بل كانت تتعداهم إلى أمثالهم في أفريقيا وصقلية والمشرق. وقد أصبح اليهود في كل صقع وبلد، يعتمدون عليه كمصدر للمعونات والرزق. لذلك قام يهود غرناطة بمنحه لقب (ناغد) أي زعيم أو أمير يهود غرناطة[٢].

---

(١) ابن بسام. المصدر السابق ج١ ص ١٢٢.

(٢) دوزي. ملوك الطوائف. ترجمة كامل الكيالي. طبعة أولى القاهرة ١٩٣٣ ص ٣٩ وما بعدها.

وفي غرناطة أيضاً، عُرف بعض الإداريين اليهود الآخرين. وكانت مناصبهم الإدارية التي شغلوها من أهم المناصب لحساسيتها ودقتها وتأثيرها على الصعيد الاقتصادي. فقد تسلّم أبو الربيع اليهودي منصب الخازن في دولة غرناطة. والخازن كما هو معروف في ذلك العهد، كان يقوم بوظيفة الإشراف على عدد من المهمات الكبيرة، فقد كان مسؤولاً عن خزانة الأموال العامة، من حيث جمعها وتوزيعها في شتى الوجوه والسبل، كما كان مسؤولاً عن إدارة المستودعات العامة لمواد التموين المختلفة من غذاء وكساء ومرافق. وقد كان أبو الربيع اليهودي سالف الذكر مسؤولاً عن خزانة الأموال في دويلة غرناطة في عهد حاكمها باديس بن حبوس، الذي اشتهر كأعظم حاكم أندلسي ومغربي اعتمد على اليهود في مجال الإدارة العامة[١].

ولم تكن دويلة غرناطة وحدها، التي اعتمدت على اليهود في الميدان الإداري، كما لم يكن الغرناطيون وحدهم، الذين انفردوا بايصال اليهود إلى مرتبة الوزارة، بل حدث الشيء نفسه في بلاط بني هود بولاية سرقسطة (الثغر الأعلى) في شمال شرق الأندلس. حيث وصل إلى وزارتهم اليهودي أبو الفضل بن حسداي، الذي تحول من اليهودية إلى الإسلام، وكان من مشاهير الأدباء في الأندلس[٢]. وفي عصر دول الطوائف أيضاً، استخدم اليهود بكثرة لجمع الضرائب والمكوس من العرب وأهل الذمة، وقد نجحوا في ذلك نجاحاً باهراً[٣].

وقد استخدمهم الجانب الإسباني في المجال الإداري، وبخاصة في الإدارة المالية، ففي سنة ٤٧٥ هـ/١٠٨٢م قام الفونسو السادس بإرسال وفد إلى حاكم إشبيلية المعتمد بن عباد، يطالبه بدفع الجزية المترتبة عليه، وكان رئيس هذا الوفد يدعى ابن شاليب اليهودي، الذي رفض عيار الذهب المقدم جزية إلى ألفونسو، وهدد الإشبيليين بكل وقاحة وجرأة، بأن الجزية ستؤخذ في العام القادم على هيئة

---

(١) الأمير عبد الله . المصدر السابق ص ١٣٠.

(٢) ابن سعيد المغربي . المغرب في حلى المغرب ج٢. تحقيق شوقي ضيف. طبعة مصر ١٩٥٥ ص ٤٤١ وما بعدها.

(٣) أحمد بدر . تاريخ الأندلس ص ١٧٤.

أراضٍ، ما أثار حنق وغضب المعتمد بن عباد، الذي شعر بالذلة والمهانة من خلال هذا التهديد، الذي يعني في أبسط أشكاله، أنه لا قيمة لحكمه ولا لشخصه ولا لوجوده، فأمر بسجن الوفد وصلب ابن شاليب اليهودي منكساً(١). وهذا يشير إلى حقيقة مهمة، تتجلى في أن اليهود في الأندلس في ذلك العصر، كانوا يرون أن لا قيمة للعرب، بعد أن تفرقوا على هيئة دول مدن هزيلة، ولن يكون بمقدورهم عمل شيء، مهما كانت الأذية بالغة الضرر، الأمر الذي شجع ابن شاليب على القيام بتصرفه سابق الذكر. ويشير من ناحية أخرى إلى أن اليهود في الأندلس، كانوا دوماً مع الجانب القوي والمنتصر. ويبدو أن الإسبان في عهد الطوائف، حاولوا استقطاب اليهود في صراعهم ضد العرب في الأندلس، فسمحوا لهم بإقامة أشياء لم يكن مسموحاً بها في العصور الماضية، الأمر الذي كان يستهوي قلوب اليهود. وجعل الإسبان في مدينة طليطلة صموئيل اللاوي وزيراً في بلاطهم في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي. وعلى عادة اليهود، فقد استغل منصبه هذا، فبنى كنيساً لليهود على نفقته الخاصة، وأطلق عليه تسمية كنيس (الانتقال)، وظل قائماً حتى قام كاثوليك إسبانيا بطرد اليهود، وحولوا الكنيس إلى كنيسة باسم (سان بنيتو) (٢).

وفي المغرب العربي وجد اليهود تشجيعاً قوياً من الحكام، حتى ما قبل نهاية القرن الخامس الهجري بسنين قليلة، ذلك أن عرب المغرب كانوا كإخوتهم في الأندلس إبان عهود القوة العربية الواحدة، ولا سيما إبَّان عصري الإمارة والخلافة الأموية، يعاملون اليهود معاملة طيبة، وذلك انطلاقاً من نظرتهم الإنسانية الرائعة، هذه النظرة التي لا تفرق بين الناس، طالما هم ملتزمون بمسيرة الحكم العامة.

---

(١) المقري . نفح الطيب ج١ ص٤٣٩ مؤلف مجهول . الحلل الموشية ص٤١ . ٤٢ ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص٢٤٤ . ٢٤٥ . دوزي . المرجع السابق ص٢٦٧.

(٢) شكيب أرسلان . المرجع السابق ج١ ص٤٢٠ وما بعدها. الأمير عبد الله . المصدر السابق ص٣٦.

ففي عصر الفاطميين في المغرب، تمتع اليهود بحرية واسعة في ممارستهم أعمالهم العادية والضرورية، الأمر الذي مكنهم من شغل مناصب إدارية عالية في الدولة. نذكر مثلاً يعقوب بن كلس اليهودي، الذي دخل في خدمة المعز الفاطمي سنة ٣٥٧ هـ/٩٦٨ م، واعتمد عليه في أمور خطيرة جداً، منها أنه قام بتشجيعه للهجوم على مصر[١].

وكان المعز الفاطمي يعتمد اعتماداً كبيراً على آراء الحاخام اليهودي بلطيل بن شفاطيا، الذي كان يقوم بتقديم معلومات فلكية وتنجيمية للمعز، حينما كانت قواته تحاصر منطقة أوريا ORIA في جنوب إيطاليا، فبشره بالخير بخصوص نجاح هذه القوات في أعمالها الحربية، فاعتمده مستشاراً خاصاً به، ووزيراً لمملكته في المغرب عند إقامته بمدينة القيروان، وكذلك بعد انتقاله إلى مصر[٢]. وفي عصر دولة بني مرين في المغرب الأقصى، اشتهر كثيرٌ من اليهود، الذين كانوا يعيشون في مدينة فاس. وقد تمكنوا من الوصول إلى البلاط المريني، ولا سيما في فترة حكم يوسف المريني، فكانوا يرافقونه في حله وترحاله ويقومون بخدمته، وذلك منذ طفولته، وكانوا يتولون إدارة شؤون بيته، ويقضون أموره الخاصة به، ويجالسونه في خلواته وينادمونه في ساعات أنسه ولهوه. وبشكل عام، فقد عظم شأن اليهود عند سلاطين بني مرين، فاستخدموهم في أعمال كثيرة، من أمثال خليفة بن وقاصة وأخيه إبراهيم، وصهره موسى بن السبتي، وابن عمه خليفة الأصفر وغيرهم. وقد استمروا على ذلك فترة من الزمن، إلى أن قام السلطان يوسف المريني سنة ٧٠١ هـ/١٣٠٢ م بقتل هؤلاء جميعاً، ما عدا خليفة الأصفر، الذي قتله بعد مدة[٣].

---

(١) ولترج فيشل . يهود في الحياة الاقتصادية والسياسية الإسلامية في العصور الوسطى . الترجمة العربية. طبعة دمشق ١٩٨٨ ص٧٨ وما بعدها.

(٢) ولترج فيشل . المرجع السابق ص٩٤ . ٩٥.

(٣) الناصري . الاستقصا ج٣ ص٨٠ . ٨١.

ولما مات الخليفة يوسف بن عبد الحق المريني، خلفه ابنه أبو الربيع سليمان ابن يوسف بن يعقوب، فرفع من شأن الكاتب أبي محمد عبد الله بن أبي مرين، كما كان في أيام والده. وكان بنو وقاصة اليهود، يرون أن سبب نكبتهم أيام السلطان يوسف، كانت سعاية أبي محمد بن أبي مرين، وكان خليفة الأصفر اليهودي منهم، وقد أفلت من الموت، وتمكن من تسلُّم بعض أعمال السلطان أبي الربيع، فجعل محور عمله التآمر على أبي مرين والانتقام منه. فبلَّغ السلطان أن أبا مرين قام بإفشاء بعض خصوصيات السلطان، ولا سيما موعد خلوته مع نساء حاشيته، فأمر بقتل أبي مرين. ولم تمض فترة وجيزة حتى اكتشف أمره، فجاء باليهودي خليفة بن وقاصة الأصفر وحاشيته فقتلوا جميعاً(١).

وعلى الرغم من كل ذلك، فقد عاد السلاطين المرينيون فيما بعد إلى استخدام اليهود في الإدارة، وفي أماكن حساسة للغاية، كما فعل السلطان عبد الحق المريني، عندما قتل وزيره ابن يحيى الوطاسي وحاشيته، وعين مكانه رجلين من اليهود، قاما بمعاملة أهل فاس معاملة قاسية، ما أثار حفيظة أهلها على السلطان فقاموا بقتله سنة ٨٦٩هـ/١٤٦٥م(٢). وهكذا فإن اليهود، الذين عملوا في الميدان الإداري في المغرب والأندلس، لم يلتزموا بحدود الخطة التي رسمها لهم حكامهم، فراحوا يسعون لتحقيق مصالحهم ومصالح الجالية اليهودية في كل من المغرب والأندلس، وأدى بهم الأمر إلى التطاول على العرب من خلال قوة مناصبهم الإدارية.

وشغل اليهود في الحياة السياسية في المغرب والأندلس دوراً مهماً للغاية، الأمر الذي يجعلنا نقف عنده وقفة متأنية ودقيقة، لأنه مؤشر ثابت في عمق الحياة اليهودية، في كل زمان ومكان عاش فيها اليهود على الأرض.

---

(١) الناصري . المصدر السابق ج٣ ص١٠٠.

(٢) الناصري . المصدر السابق ج٤ ص٩٨ . ١٠٠.

استخدم العرب الفاتحون في الأندلس اليهود في حاميات المدن التي كان يفتحها الجيش العربي، حتى يتمكنوا من المحافظة على قوة الجيش كاملة. وكان اليهود يريدون، من خلال وقوفهم في الصف العربي، نسف الإمبراطوريتين الرومانية والبيزنطية، وكذلك الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية والممالك الفرنجية بأسرها، وبشكل خاص قهر الإسبان، والتخلص من الظلم الإسباني الذي عكر صفو حياتهم العامة(١). ويؤكد هذه الحقيقة أيضاً لويس برتراند عضو الأكاديمية الفرنسية في كتابه (تاريخ إسبانيا) بقوله: إن موقف اليهود عبر القرون لم يتبدل، إنهم حلفاء الأفريقيين ضد الإسبان، وحلفاء الإسلام ضد المسيحيين، وحلفاء المسيحيين ضد المسلمين عندما أفل نجمهم. إنهم يفرقون بين أعدائهم ليسيطروا عليهم(٢). ولم يقتصر دورهم على التفريق بين العدو والصديق، بل قاموا بالتفريق بين الصديق وصديقه، وبين الأخ وأخيه، مثال ذلك، أنه كان عند عبد الرحمن بين حبيب والي إفريقيَّة رجل يهودي، هو الذي شجعه على طرد عبد الرحمن الداخل من المغرب، حينما أخبر عبد الرحمن بن حبيب، بأن الداخل ينوي إقامة دولة أموية في المغرب(٣).

ويبدو أن اليهود منذ قديم الزمان، تعودوا استخدام طريقة شائنة ومخزية في القضاء على الخصوم السياسيين، تتجلى في استخدام النساء أداة للتنفيذ. ففي عصر الإمارة الأموية في الأندلس، وإبان فترة حكم الأمير عبد الله بن محمد الأموي، اشتهر أمر الثائر سعيد بن جودي، الذي التجأ إلى عمر بن حفصون، زعيم الثائرين في هذه الفترة على الأمويين، وبقي عنده فترة من الزمن، ولم يتمكن الأمير الأموي من التخلص منه، إلا من خلال التآمر مع عشيقة له من اليهوديات، حيث قتل في دارها(٤).

---

(١) خير الله طلفاق . المرجع السابق ص٨٨ و١٠٨ و١٠٩.

(٢) خير الله طلفاق . المرجع السابق ص١٣٤.

(٣) الناصري . المصدر السابق ج١ ص١١٩.

(٤) ابن عذاري . المصدر السابق ج٢ ص٢٠٣ . ٢٠٤.

مع ذلك، اعتمد العرب على اليهود في مسائل بالغة الخطورة والحساسية. فقد اعتمدوا عليهم في تحضير وإعداد الأطعمة، فكان للمنصور محمد بن أبي عامر رجل من اليهود، لا عمل له سوى البحث عن توضع النحل في الكهوف والشعاب الجبلية في الأندلس، وذلك من أجل استخراج العسل الخاص، الذي يتألف كما هو معروف من رحيق الأزهار المتنوعة في بيئة الأندلس(١).

وفي عصر الازدهار العربي في الأندلس، الذي صادف عصر الخلافة الأموية فيها، قام أشهر خليفة أندلسي، وهو عبد الرحمن الناصر لدين الله بإرسال سفير من اليهود، هو حسداي بن شبروط إلى جليقية لعقد صلح مع رذمير الثاني سنة ٣٢٩ هـ/٩٤١ م وإطلاق سراح محمد بن هاشم التجيبي، القائد الذي أسر في وقعة الخندق سنة ٣٢٧هـ/٩٣٩ م. وقد نجحت السفارة في إطلاق سراح التجيبي وعاد مع السفير اليهودي حسداي بن شبروط(٢).

واستخدم اليهود في مدينة قرطبة في بعض الأحداث السياسية، التي كان وقعها كبيراً في نفوس الأندلسيين، من ذلك استخدام أحد اليهود، الذي كانت فيه بعض نواحي شبه بشخص الخليفة هشام المؤيد الأموي، على أنه هو الخليفة. فقد أمر محمد بن هشام بن عبد الجبار أن يشهد بعض من حضر وفاته من أصحابه، على أنه هشام المؤيد الأموي، وأحضر القاضي ابن ذكوان والفقهاء مجموعة من عامة الناس، فصلوا عليه وقدّموا العزاء لأقربائه كما هي العادة(٣).

وفي بعض بلاطات حكام الأندلس، اعتمد اليهود كمنجمين يتوقعون ويستنبطون، بطرق سحرية عجيبة، ما سيكون عليه الأمر في المستقبل، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الحكام رأوا اليهود في أحلام نومهم، فاستبشروا ببعض الأمور المفجعة، كما جرى مع أحد أمراء المنصور محمد بن أبي عامر في أثناء الربع

---

(١) ابن بسام . المصدر السابق ص٦٨.

(٢) ابن حيان . المصدر السابق ص٤٦٣.

(٣) ابن عذاري . المصدر السابق ج٣ ص٧٧ . ٧٨ . ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص١١٢.

الأخير من القرن الرابع الهجري، حينما رأى في أحلام نومه يهودياً يمشي في أزقة مدينة الزاهرة(١)، وهو يحمل خرجه على عنقه وينادي (خروبش)، فسأل المفسر عن ذلك، فأخبره باقتراب خراب الزاهرة(٢).

أما في عصر الطوائف في الأندلس، فقد كثرت فيه تدخلات اليهود، وأخذت شكلاً أكثر خطورة وتأثيراً في الحياة السياسية العامة، مستغلين بذلك حالة الانقسام التي وقعت في صفوف العرب في الأندلس، فراحوا يتدخلون في كل أمر يستطيعون من خلاله إثارة نار الفتنة والخلاف بين حكام دول الطوائف، وبينهم وبين بعض رجال إدارتهم. فعلى الرغم من الصداقة التي بدأت بين المعتمد بن عباد وبين الوزير ابن عمار في إشبيلية منذ أن كانا صغيرين، فقد تمكن الواشون من الوقيعة بينهما، وكانوا من اليهود الذين حصلوا على نسخة من قصيدة لابن عمار يهجو فيها المعتمد، وأرسلوها إلى حاضرة المعتمد، فتوترت الأمور بين الرجلين، حتى غدا الإصلاح بينهما ضرباً من المحال(٣). وقام بعض اليهود بالتدخل في الصراع بين زعماء إشبيلية وزعماء طليطلة، حينما هاجم المعتمد بن عباد مدينة قرطبة سنة ٤٦١هـ/١٠٦٩م، وتمكن من السيطرة عليها، وجعل فيها ابنه سراج الدولة عباد ابن محمد، ومعه القائد العسكري ابن مرتين. وفي سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٥م، هاجم حاكم طليطلة ابن ذي النون قرطبة بوساطة قائده حكم بن عكاشة الذي تمكن من دخول المدينة وقتل ابن عباد، وفرَّ ابن عكاشة دون مقاومة، ولما وصل إلى القنطرة(٤)، في مدينة قرطبة، قتله رجل يهودي من سكان قرطبة(٥).

ولما بدأت كفة الإسبان ترجح في الأندلس، تحول اليهود عن العرب، بعد أن وجدوا ذلك ضرورياً جداً لتحقيق مصالحهم العامة، وعملوا عند الإسبان في

---

(١) تقع هذه المدينة شرق قرطبة. بناها الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر.

(٢) ابن عذاري. المصدر السابق ج٣ ص٦٥.

(٣) دوزي. المرجع السابق ص٢٥٥ وما بعدها.

(٤) القنطرة عند الأندلسيين هي الجسر، وقد أقيمت هذه القنطرة على الوادي الكبير في عصر الولاة.

(٥) ابن الخطيب. أعمال الأعلام ص١٥٨. ١٥٩.

الكتابة والوزارة وشتى أنواع وفروع الخدمة العامة. وقد أشار إلى ذلك بوضوح حاكم قشتالة وليون قبل معركة الزلاقة بوقت قصير بقوله: «الجمعة لكم، والسبت لليهود، وهم وزراؤنا وكتابنا، وأكثر خدم العسكر منهم، فلا غنى لنا عنهم....»[١]. وحينما كانوا يظفرون بالعرب، أو تسمح الفرصة لهم بالتحكم بهم، فإنهم كانوا يعاملونهم معاملة قاسية. فعلى سبيل المثال، تمكن الإسبان من السيطرة على بلنسية سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٢م، ووضعوا على رأس إدارتها رجلاً من اليهود. ذكر ابن علقمة في رواية له نقلها ابن عذاري في كتابه (البيان المغرب) يقول: «بلغ اليهودي - لعنه الله - من المسلمين مبلغ الغاية في العذاب، وسلط اليهود على الإسلام، فبلغوا النهاية في النكال والنكاية، ومنهم الأمناء الموكلون، والمتصرفون وأصحاب الرسوم، وخدام البر والبحر. وجلس اليهودي للقبض بباب الغرب بالعصا والسوط»[٢].

أما في الفترة التي جاءت بعد انتهاء عصر الطوائف، التي دامت حتى سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م، فإن وضع اليهود في المغرب والأندلس تحول إلى شكل آخر غير الذي كان في العصور السابقة. فقد ضيق المرابطون على اليهود بحجة أنهم أقاموا بأعداد كبيرة في منطقتين، هما سجلماسة وأغمات الواقعتان في جنوب المغرب الأقصى كبوابتين لتجارة الذهب عبر الصحراء مع بلاد الأندلس وما يليها من البلدان الأوروبية الأخرى، ومع بلدان أفريقيا السوداء. فقام يوسف بن تاشفين بممارسة ضغط كبير على اليهود في مراكش عاصمة المرابطين القريبة من أغمات. وكانت أشد وسائل الضغط، تلك التي تمثلت بإجبارهم على اعتناق الإسلام بالقوة، لكنهم قاوموا ذلك بوسائل مختلفة، كمحاولتهم دفع مبالغ مالية طائلة في سبيل إعفائهم من أمر اعتناق الإسلام، وإعطائهم الحرية والخيار في هذه المسألة الحساسة في حياتهم[٣].

---

(١) دوزي. المرجع السابق ص٢٩١.

(٢) ابن عذاري. المصدر السابق ج٤ ص٤١.

(٣) الحميري. المصدر السابق ص٤٦ و٣٠٦. يوسف أشباخ. المرجع السابق ص١٢٠.

وخلال دخول يوسف بن تاشفين الأندلس في المرة الرابعة سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢م، توجه إلى اليسانة، وكانت مركز التعامل الرئيس بالذهب، وبعد مفاوضات مع يهود هذه البلدة، توصل الفقيه ابن حمدين إلى اتفاق معهم، يدفعون بموجبه مبلغاً مالياً محترماً، مقابل أن تترك لهم الحرية في ممارسة طقوسهم الدينية كاملة[١].

وفي عصر الموحدين، الذي استمر لفترة طويلة إلى حد ما[٢]، بقي أمر عدم الاعتماد على اليهود قائماً، حتى إنه كان أشد مما كان عليه في عصر المرابطين، لأن الموحدين لم يختلفوا عن المرابطين في مسألة حشر العقيدة الدينية في قضايا الحكم. ففي زمن أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، فرض على اليهود أن يرتدوا لباساً خاصاً يميزهم عن غيرهم، ويتكوّن هذا اللباس من قماش ذي لون كحلي، وأكمام مفرطة السعة، تصل إلى قريب من الأقدام، وبدلاً من العمائم، كلوتات على أشنع صورة، كأنها البراديع، تبلغ إلى ما تحت الأذنين[٣].

وكانت نتيجة هذه السياسة بشكل عام سلبية، لأنها أثارت حقد اليهود على العرب المسلمين. فقد كانوا يتحينون الفرصة للانتقام، وقد أتيحت لهم فرصة في عصر الموحدين، كانت في غرناطة، حينما أعلن إبراهيم بن همشك عصيانه على الموحدين، لأنه كان يتطلع إلى السيطرة على غرناطة. وفي نهاية الأمر لجأ إلى المكر والخديعة، وتوجه إلى اليهود، وعقد معهم مؤامرة، يقومون بموجبها بمساعدته على دخول غرناطة، وفرض الحصار على قلعتها، التي كان المدافعون من الموحدين قد تجمعوا فيها. وعلى إثر ذلك جرت معركة في مرج الرقاد بالقرب من غرناطة، انهزم فيها الموحدون وتكبدوا خسائر كبيرة في النفوس والأموال والسلاح. وكان ذلك سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م[٤].

---

(١) مؤلف مجهول . الحلل الموشية ص٦٥ . ٦٦.

(٢) استمر حكم الموحدين في المغرب والأندلس حتى سنة ٦٦٨هـ.

(٣) عبد الواحد المراكشي . المصدر السابق ص ٣٠٤ . ٣٠٥.

(٤) ابن صاحب الصلاة . المصدر السابق ص ١٨٦.

ولما تقلصت رقعة السيطرة العربية في الأندلس، وانحصرت في ولاية غرناطة تحت حكم بني الأحمر أو بني نصر، عادت المعاملة الطيبة إلى الظهور والتطبيق بشكل لم تعهده الأندلس إلا في زمن القوة، ولا بد أن ذلك يعود إلى النضوج الذي اشتهر به النصريون على الصعيدين السياسي والحضاري، فقد عدوا اليهود في بلادهم مواطنين، يمكن ضبطهم وتحويل أكثر أعمالهم إلى الصالح العربي العام[١]. ورغم هذه المعاملة الطيبة، التي عبّرت عن رقي العرب وأهليتهم لقيادة غيرهم، فقد راح اليهود يحشرون أنفسهم في الأمور السياسية العامة للدولة الغرناطية. فعندما توفي الحاكم الغرناطي الغني بالله بن الأحمر سنة ٧٩٣هـ/١٣٩١م، خلفه في الحكم ابنه أبو الحجاج يوسف بن الأحمر، فقام بأمره رجل اسمه (خالد) مولى أبيه، وقبض على إخوته سعد ومحمد ونصر، فكان آخر العهد بهم، ولم يوقف لهم بعد على خبر. وبعد فترة وجيزة، سعي عنده في خالد هذا، واتهم بأنه يعد السم لقتله، ويبدو أن ذلك كان صحيحاً، لأن الطبيب يحي بن الصائغ اليهودي، طبيب الدار السلطانية، قد داخله الشك في ذلك. فقتل خالداً، ثم حبس الطبيب ابن الصائغ، وذبح فيما بعد في محبسه حتى الموت[٢].

وفي ميدان العلوم العامة أيضاً، شغل اليهود في الأندلس والمغرب مكانة مهمة، لأن الأندلس بخاصة، ازدانت بالمؤسسات التعليمية في كافة الاختصاصات، وكان باستطاعة أي إنسان طلب المعرفة في الاختصاص الذي يتناسب مع ميوله الشخصية. فاليهود، موضوع هذا البحث، لم يقدموا عبر تاريخ الإنسانية الطويل إسهامات مؤثرة في تقدم الحضارة العام، وأكثر مدوناتهم مأخوذة عن الثقافات القديمة وعن النصوص التي خلفها السومريون والكنعانيون والأكاديون والبابليون والآشوريون، وأخيراً الأندلسيون والمغاربة. ويؤكد ذلك الدكتور اليهودي إسرائيل ولفنسون بقوله: «إن يهود بلاد العرب، لم يظهروا شيئاً

---

(١) شكيب أرسلان. المرجع السابق ج٢ ص ٣٣٠.

(٢) الناصري. المصدر السابق ج٤ ص ٨١.

من النبوغ والعبقرية مطلقاً. ولم يشتهر من بينهم شخصية واحدة في كل عصورها بالرقي الفكري»[١].

ويؤكد هذه الحقيقة غوستاف لوبون بقوله: «لم يكن لليهود فنون ولا علوم ولا صناعة، ولا أي شيء تقوم به حضارة. واليهود لم يأتوا قط بأي مساعدة مهما صغرت في إشادة المعارف البشرية. واليهود لم يجاوزوا قط الأمم شبه المتوحشة التي ليس لها تاريخ»[٢].

وإذا كان اليهود قد برعوا في علم من العلوم إبَّان فترة هذا البحث، فالفضل في ذلك يعود إلى العرب، الذين انتقلوا بإسبانية من عهود الظلام إلى عهود النور والتقدم. وما أنتجوه من ثقافة، وما ترجموه من كتب إلى اللاتينية والعبرية، حصل جراء اهتمامهم بعلوم العرب، كمواطنين في دولتهم، وكان عليهم اكتساب المعارف العربية لتحسين أوضاعهم العامة. وهذا ما حدث بالفعل على أرض الواقع، لأنهم كانوا أدرى من غيرهم بحقيقة هذه الأمور. وباختصار، فإن المحصلة اليهودية العلمية، هي في النهاية محصلة عربية خالصة، ذلك لأن اليهود ما كان لهم أن يتعلموا علوم العرب لولا دخولهم الأندلس وبقاؤهم فيها لفترة طويلة. كان في مقدمة العلوم التي برعوا فيها إلى حد ما، العلوم الطبية، التي عمت الأندلس عن طريق العرب، وكان اليهود يفضلونها على غيرها، لأنها أقرب مصدر لتوفير المال والجاه في زمن كان الأطباء فيه قليلين جداً. ومع ذلك، فإن الأطباء اليهود اقتصروا في معظم الأوقات على مسألة المداواة، بعكس الأطباء العرب، الذين جمعوا بين ممارسة الطبّ والمداواة، وبين التأليف المبدع القائم على التجربة وبعض التقانات، التي كانت من أرقى ما عرفه العالم إبَّان العصور الوسطى.

---

(١) أحمد سوسة . العرب واليهود في التاريخ. طبعة دمشق ١٩٧٥ ص ٣٩٦.

(٢) أحمد سوسة . المرجع السابق . ص ٣٩٧.

ومن الأطباء اليهود، الذين اشتهروا إبَّان هذه الفترة، الطبيب حسداي بن شبروط، الذي عاصر الخليفة الناصر لدين الله الأموي المتوفى سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦٢م. واهتم هذا الطبيب بشكل خاص بتفسير عقاقير ديستوريدس[١]. وكذلك الطبيب مروان ابن جناح، الذي كان أفضل من ابن شبروط بصناعة الطب، ذلك لأنه قام بتأليف حسن في الأدوية المفردة[٢].. ومثلهما الطبيب إسحق بن قسطار في طليطلة، ومناحم ابن الفوال في سرقسطة[٣]، وحسداي بن يوسف السرقطي، وابن بكلارش وغيرهم من الذين عملوا عند الإسبان، مثل إبراهيم بن الفخار، الذي اشتغل في طليطلة في عصر الموحدين، وإبراهيم بن زرزر الغرناطي، الذي التجأ إلى حاكم قشتالة في أواخر عمره[٤]، ويوسف بن وقار الطليطلي في قشتالة[٥].

إلى جانب علم الطب، فقد أثرت الثقافة العربية الإسلامية في ظهور بعض اليهود في ميدان علم الفلك والرياضيات. ففي الفلك، اشتهر بعض تلامذة مسلمة المجريطي، مثل أحمد بن عبد الله الغافقي اليهودي المتوفى سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م. وقد وضع زيجاً مختصراً على مذهب السندهند سماه (مختصر الزيج)، وكتب رسالة الإسطرلاب والأسماء الواقعة عليها[٦].

أما في مجال الفلسفة، فقد تفوق اليهود من خلال اهتمامهم الجاد بالفلسفة العربية، التي كان لها رجالها المعروفون بآرائهم الجدية وأفكارهم الواقعية، التي تعتمد الطريقة العقلانية، والفكر المبني على التسلسل المنطقي، الذي يجانب في معظمه الغيبيات والأوهام، التي لا قيمة لها في حياة البشر العامة.

---

(١) ابن جلجل . المصدر السابق ص (س) جورج حداد . المرجع السابق ص ٥٢٦.

(٢) صاعد الأندلسي . المصدر السابق ص ٢٠٤.

(٣) صاعد الأندلسي . المصدر السابق ٢٠٦.

(٤) ابن سعيد . المصدر السابق ص ٢٣ . ابن الخطيب ، نفاضة الجراب ص ١٩.

(٥) ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص ٣٢٢.

(٦) موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين ص ١٢٣.

كان من فلاسفة اليهود في الأندلس، سليمان بن جابيرول المتوفى سنة ١٠٥٨م في بلنسية، وهو يشبه سلفه ابن مسرة، الذي أدخل إلى الغرب نظاماً باطنياً للكتابة، إذ تتخذ الكلمات معنى داخلياً غامضاً لا يفهمه إلا العارفون بالأسرار. وله من الكتب (ينبوع الحياة) وكتاب (إصلاح الأخلاق)(١). ومنهم مناحيم بن الفوال، الذي تفوق على ابن جابيرول بوضع مؤلفات مهمة منها (كنز المقل) رتبه على المسألة والجواب، وضمنه جملاً من قوانين المنطق وأصول الطبيعة(٢). ومنهم أيضاً يوسف بن صديق ديان اليهود (قاضي اليهود) المتوفى سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٩م، الذي ألف كتاباً في المنطق، وآخر في الفلسفة الدينية سماه (الكون الأصغر)، وكلاهما باللغة العربية، وكان ابن صديق مطلعاً على كتابات أفلاطون وأرسطو ورسائل إخوان الصفا(٣). وبشكل عام، الفلسفة اليهودية في الأندلس، هي تلميذة الفلسفة العربية، ولا سيما فلسفة ابن رشد، التي كانت دعامة الفكر الفلسفي اليهودي حتى عصر النهضة(٤).

يضاف إلى اهتمام اليهود في العلوم، اهتمامهم في الترجمة، التي بدأت في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي. كان في مقدمة من اهتم بالترجمة إبراهيم ابن عزيز الطليطلي المتوفى سنة ١١٦٧م، الذي نقل كتباً ألفها اليهود باللغة العربية، ومنهم يهوذا بن شاول بن ثيون المتوفى سنة ١١٩٠م، الذي قام بنقل كتاب (إصلاح الأخلاق) لابن جابيرول، وغيرهما كثير(٥).

ومن اللافت للانتباه في هذا المضمار، أن اليهود الذين عملوا في الترجمة، استهوتهم ترجمة أعمال العرب أنفسهم في مجال علوم اللغة العربية، التي كانت أداة الفكر في ذلك العصر.

---

(١) جورج حداد . المرجع السابق ص ٥٢٦ . ٥٢٧.

(٢) صاعد الأندلسي . المصدر السابق ص ٢٠٤.

(٣) آنخل جنثالث بالنثيا . المرجع السابق ص ٤٩٨.

(٤) إبراهيم مدكور . في الفلسفة. بحث منشور في كتاب: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ص ١٥٥.

(٥) عمر فروخ . أثر الفلسفة الإسلامية في الفلسفة الأوروبية. طبعة بيروت ١٩٥٢ص ٢٢، ٣٢.

أما في حقل التجارة، فقد كان الأمر يختلف اختلافاً جذرياً، حيث برز نشاط يهود الأندلس بشكل واضح. لقد كانت لهم في كل مدينة أو بلدة حوانيتهم الخاصة، التي كانت مصدر أرباح كبيرة بالنسبة لهم. لكن اللافت للانتباه، أنهم تفوّقوا على جميع فئات السكان في الأندلس والمغرب في التجارة العامة، وبشكل خاص في تجارة العبيد، التي كانت من التجارات المزدهرة في ذلك الوقت في عدد من البلدان في الشرق والغرب، ومنها الأندلس، التي شغلت مكانة مرموقة على هذا الصعيد. لقد كان العبيد الصقالبة، الذين يشترون للخدمة العامة في الجيش والقصور وغير ذلك، يجلبون من يوغسلافيا وبلغاريا وصقلية وسردينيا وغيرها، وكان اليهود هم الذين يقومون بهذه المهمة. وقد ذكر أنهم كانوا يروضونهم في معامل خاصة أقيمت لهذه الغاية، كمعمل فردان في فرنسا، وغالباً ما كانوا يأتون بهم وهم صغار [١].

ولعل أهم الأدلة على ممارسة يهود الأندلس لهذه التجارة الرابحة، أنهم كانوا يذهبون إلى مواقع حدوث المعارك، وينتظرون بترقب نتائجها، بين العرب والإسبان، حتى يشتروا أسرى الطرف المهزوم بأبخس الأثمان وأقلها، وبعد ذلك يقومون بعرض هؤلاء الأسرى على جهتهم الأصلية. وحينما تقرر هذه الجهة شراء أسراها، كانوا يفرضون الثمن الذي يريدونه دون شفقة أو رحمة[٢].

ووصل اليهود في تجارتهم إلى العديد من المناطق الأوروبية، مثال ذلك التاجر الرحالة إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي الإسرائيلي، الذي تركزت أعماله في أوروبا على الرقيق وبعض البضائع الأخرى. فوصل في تجارته إلى فرنسا وألمانيا وهولندا وبولندا وبلغاريا وتشكوسلوفاكيا وغيرها[٣].

---

(١) المقري . نفح الطيب ج٢ ص ١٤٠ . ابن حوقل . المصدر السابق ص ١١٠.

(٢) شكيب أرسلان . المرجع السابق ج٣ ص ٤٨١ . ٤٨٢.

(٣) موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين ص ١٨٤.

ولم يتورع يهود الأندلس والمغرب عن استخدام أي وسيلة يأملون من ورائها تحقيق منفعة ما أو ربح معين، لأن التجارب والأيام علمتنا أن اليهود لا يأبهون إلا بمصالحهم الخاصة، حتى ولو أنها جاءت على حساب غيرهم من فقراء الناس. من هذه الوسائل القبيحة، أنهم كانوا يرهنون الأسرى مقابل مبلغ مالي معين إلى أمد معين، يجعلهم أحراراً في التصرف بالأسرى، إذا لم يسترجعوا المال المودع عند أصحاب الرهائن. وكانوا إضافة إلى ذلك، يقومون بإقراض أموال معينة إلى آجال محددة مقابل فوائد مختلفة[١]. وتدل على هذا الواقع المخزي الوثائق الكثيرة، التي لا تعد ولا تحصى في مدينة طليطلة وضواحيها، حيث شكل اليهود مجموعة كبيرة من المرابين النشطين، فمن يذهب حتى اليوم إلى هناك، يقف على شواهد ماثلة، تدل بوضوح على ما كان لهم من أهمية بالغة في مجتمع طليطلة[٢].

إضافة إلى كل ذلك، كان اليهود في قشتالة وغيرها من أماكن السيطرة الإسبانية، ينعمون باحترام كبير، لخبرتهم المالية والتجارية. ويظهر ذلك جلياً من خلال استخدام الإسبان لهم في مسألة تخمين وتقدير أثمان وقيم الأراضي، التي كانت تعرض للبيع. فقد كانت تشكل لجنة تخمينية خبيرة من أربعة أشخاص، اثنين من الإسبان، واثنين من اليهود، يقومون بتقدير قيمة الأرض ويتقاضون على ذلك أجراً معيناً أو نسبة ما، لا يعرف مقدارها على وجه التحديد[٣]. كما عملوا في بعض المجالات الصناعية المهمة في ذلك العصر، وبخاصة صناعة الحرير، التي اشتهر فيها يهود البوجارا بشكل خاص[٤].

---

(١) شكيب أرسلان . المرجع السابق ج١ ص ٤٠٥ . ٤٠٦.

(٢) يوسف أشباخ . المرجع السابق ج١ ص ٤٢٠ . ٤٢١.

(٣) يوسف أشباخ . المرجع السابق ج١ ص ١٣٥.

(٤) روجر أرنالديز . المرجع السابق ص ٤١ . وما بعدها.

وفي الختام نقول، إن كل ما تقدم من معلومات وأخبار عن حياة اليهود في المغرب والأندلس إبَّان العصور الوسطى، لا يشكل إلا جزءاً يسيراً من تلك الأعمال المتعددة التي قاموا بها تحت المظلة العربية الإسلامية، التي وفرت لهم كل أسباب الحياة والحرية. ورغم ذلك ضربوا بكل هذا عرض الحائط، فلم يتأخروا في إنزال الضرر بالعرب، في كل مناسبة ساعدتهم فيها الظروف منذ بداية عهد العرب في الأندلس. مثال ذلك أن دخول العرب شمال أفريقيا، هو الذي جدد آمال اليهود في استعادة مكانتهم المنهارة، عن طريق تحريض العرب على الدخول إلى أوروبا، التي كانت مركز ثقل المسيحية. وكان هدف اليهود الاستراتيجي من وراء ذلك، هو إطالة أمد الصراع بين المسيحية، التي كان اليهود يضمرون لها أقبح النيات، والإسلام الذي أدى ظهوره وانتشاره في المشرق العربي إلى تقليص نفوذهم على كل الصعد، فيخرج الطرفان من النزاع منهوكي القوى، فينقض عليهما اليهود بسهولة، ويقررون ما يرونه مناسباً لمستقبلهم العام.

الفصل الثاني عشر

القسم الحضاري

العلوم التطبيقية في الأندلس

على الرغم من صعوبة وضع العرب في الأندلس في كل فترات حكمهم، ذلك أنهم كانوا على الدوام في حاجة ماسة إلى توجيه مزيد من انتباههم، وتخصيص قدر كبير من أموالهم وجهودهم، لما يدور حولهم من مؤامرات على وجودهم من خلال الدول الإسبانية في الشمال والشمال الغربي، التي حملت لواء حركة الاسترداد كما مر معنا، ومن خلال التعاون الأوروبي بكل أشكاله مع هذه الدول. على الرغم من ذلك فقد استطاعوا أن يجعلوا من الأندلس دوحة مزدهرة في كل مجالات العلم والثقافة، قلّ نظيرها في تاريخ العصور الوسطى، وكانت في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي هي الدوحة الأولى في العالم. ومن هذه الدوحة الطيبة أخذت أوروبا أسس ودعائم نهضتها في بداية العصر، هذه النهضة التي ما تزال مستمرة باضطراد حتى اليوم. من أهم علوم الدوحة الأندلسية في الميدان العلمي البحت، كانت العلوم الطبية، ثم علوم الهندسة بمختلف أشكالها، ثم علوم الزراعة، ثم علوم أخرى متفرقة أقل أهمية.

١ - العلوم الطبية والصيدلانية:

ازدهرت علوم الطب في الأندلس نتيجة الحاجة الماسة إليها، من أجل مكافحة الأمراض في المجتمع بصورة عامة، وهذا بحد ذاته تقدُّم كبير في تاريخ الفكر العربي في الأندلس وغيرها ، وذلك بالقياس مع بعض الأمم الأخرى، التي

كانت وما زالت ترى أن المرض هو ابتلاء من الله، أو بالأحرى هو إرادة الله في عباده، ومن غير الممكن أن يُسمح بمحاربة إرادة الله من خلال معالجة أسباب المرض. فمنذ ظهور الإسلام كانت الصورة واضحة في هذه المسألة المهمة، من خلال تأكيد الرسول الكريم (ص) على ضرورة مكافحة المرض بالعلاج والتداوي، كما أشار عليه الصلاة والسلام إلى مداواة العديد من المسائل المرضية والوقائية، وقد تجسدت هذه المسائل في كتاب الطب النبوي لابن قيم الجوزية. وقد ألمحنا في كتاب تاريخ الأمويين السياسي والحضاري وغيره، إلى أن الفقهاء لم يهاجموا علم الطب كما هاجموا العلوم الأخرى مثل الكيمياء والفلسفة وما يتصل بها من علوم.

لقد مضى على الوجود العربي في الأندلس أكثر من مئة وخمسين عاماً، لم يكن للأطباء العرب أي وجود إبَّانها، وكان الناس يعتمدون فيها على كتب طبية ألفها أصحابها باللاتينية وترجمت إلى العربية، وكان في طليعة هذه الكتب كتاب (باولوس أو روسيوس) الذي اشتهر باسم (هروشيوش) وكتاب (الحشائش) لديسقوريدس، الذي ترجمه ابن جلجل صاحب كتاب (طبقات الأطباء والحكماء) إلى العربية، وأضاف إليه بعض التعليقات على عادة مترجمي مثل هذه الكتب. لكن بعد انقضاء هذه الفترة، بدأت المؤلفات الطبية تصل تباعاً من المشرق العربي إلى الأندلس، وهو أمر كان يحرص عليه الأندلسيون في هذه الفترة، وهي فترة عصر الإمارة الأموية، حتى يضعوا في بلادهم قواعد علمية ثابتة، ولم يكن أمامهم من مصدر غني بالمنجزات العلمية كافة سوى المشرق العربي، الذي نهلوا من مصادره العلمية الشيء الكثير، إلى أن تمكنت جذورهم في هذا المجال الحيوي في عصر الخلافة كما سنرى. وأول كتاب وصل إلى الأندلس كان كتاب (الأدوار والألوف) لأبي معشر البلخي المتوفى سنة ٢٧٢هـ/٨٨٦م، الذي اعتمد عليه ابن جلجل اعتماداً كبيراً، حينما قام بتأليف كتابه (طبقات الأطباء والحكماء) دليل ذلك، أنه ذكر أنه لم يكن في الأندلس حتى عصر الأمير عبد الرحمن بن الحكم المعروف بعبد الرحمن الثاني وبالأوسط، الذي حكم فترة طويلة إلى حدّ ما، بدأت سنة ٢٠٦هـ/٨٢٢م، وانتهت سنة ٢٣٨هـ/٨٥٣م، إلا بعض الأطباء من

النصارى، الذين يعتمدون في عملهم على كتاب مترجم يقال له (الأبريسم) ومعناه المجموع أو الجامع(١).

أيضاً، هذه الفترة أو بعدها بسنوات قليلة، كانت إفريقية (تونس) قد أصبحت مركزاً مهماً لوجود علماء الطب، بفضل التأثير الذي أسهم فيه البغداديون، الذين كانوا يعدّون أن تونس إحدى ولايات الخلافة العباسية. وقد جاء هذا التأثير من خلال إرسال العباسيين للطبيب إسحق بن عمران إلى القيروان عاصمة الأغالبة، الذين كانوا يؤيدون الخلافة العباسية كطرف وحيد في كل أرجاء المغرب الكبير. وقد استطاع إسحق بن عمران بجده وعلمه وإخلاصه، أن يجعل من القيروان مركزاً مهماً في الميدان الطبي العام، فإضافة إلى اشتغاله بالمداواة وصنع الدواء، فإنه استطاع أن يخرّج العديد من الأطباء المهرة، وأن يؤلف بعض الكتب الطبية في القيروان، وهذا ما جعل ابن جلجل يقول عنه إنه أساس ظهور الطب في القيروان(٢).

ومن أشهر تلامذته ابن الجزار أحمد بن إبراهيم القيرواني، الذي يُعد من أهم الأطباء الذين اعتمدت عليهم الأندلس في بداية نهضتها الطبية، فإذا كان أستاذه إسحق بن عمران هو واضع أسس الطب في القيروان، فإنه واضع أسس الطب في الأندلس، وذلك من خلاله كتبه الجمة التي ألفها في مجال الطب والأدوية المفردة، ومن أهم هذه الكتب كتاب (علاج الأمراض)، وهو المعروف بزاد المسافر في جزأين، وهو كتاب في الطب العام والأدوية، ولعله الكتاب الأهم الذي تأثرت به الأندلس(٣). وكتاب في الأدوية المفردة، وكتاب في الأدوية المركبة، ويعرف باسم (البغية)، وكتاب (العدة لطول المدة)، وهو أكبر كتاب له في الطب من حيث

---

(١) ابن جلجل . طبقات الأطباء والحكماء . تحقيق فؤاد سيد. طبعة المعهد الفرنسي. القاهرة ١٩٥٥ ص ٩٢.

(٢) ابن جلجل . المصدر السابق ص ٨٤ وما بعدها.

(٣) ابن جلجل . المصدر السابق ص ١٠٧.

مضمونه ومحتوياته، وكتاب (قوت المقيم)[1]، وكتاب (المعدة وأمراضها ومداواتها)، وكتاب (طب الفقراء)، وكتاب (الفرق بين العلل التي تشتبه أسبابها وتختلف أعراضها)، وكتاب (الخواص)، وكتاب (نعت الأسباب المولدة للوباء في مصر وطريق الحيلة في دفع ذلك وعلاج ما يتخوف منه)، وكتاب (المختبرات) وغيرها.

ورغم تأثير ابن الجزار هذا فقد بقي الأندلسيون إبان عصر الإمارة الأموية في الأندلس، يعتمدون في جزء كبير من طبابتهم على كتاب (الحشائش) لديسقوريدس، الذي قام بترجمته أصطفان بن باسيل[2].

أما بداية الازدهار الطبي في الأندلس، فقد كانت في عصر الخلافة، الذي بدأ في عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله، الذي حكم الأندلس من سنة ٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٣-٩٦٢م، وهذا ما أكده ابن جلجل بقوله: «ثم ظهرت دولة الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد، فتابعت الخيرات في أيامه، ودخلت الكتب الطبية من المشرق وجميع العلوم، وقامت الهمم، وظهر الناس ممن كان في صدر دولته من الأطباء المشهورين»[3].

استطاع ابنه الخليفة الحكم المستنصر أن يتابع هذه المسيرة الخيرة حينما أمر بجلب المؤلفات العلمية المشرقية، حتى ازدانت بها مكتبته الشهيرة، وغدت العاصمة قرطبة من أعظم مراكز العلم والثقافة في العالم في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي[4].

وفي هذا العصر الميمون ازدهر التأليف وأصبح سمة مرافقة لكل الأطباء تقريباً، ولا بد أن ذلك كان بتأثير الروح العلمية المسيطرة على كل الأجواء، فقد

---

(١) القفطي . كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء. وانظر كتابنا معجم أطباء المغرب والأندلس. طبعة دمشق ١٩٩٣ ص ٥٧ وما بعدها.

(٢) ابن أبي أصيبعة . عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج١ ص ٤٦ وما بعدها.

(٣) ابن جلجل . المصدر السابق ص ٩٧ وما بعدها.

(٤) ابن الأبار . الحلة السيراء ج١ ص ٢٠٠ وما بعدها.

قام الطبيب يحيي بن إسحق بتأليف كتاب في الطب سماه (الأبريسم) في خمسة أسفار. وألف ابن جلجل إضافة إلى كتابه الشهير (طبقات الأطباء والحكماء) كتاباً سماه (تفسير أسماء الأدوية المفردة)، وهو تفسير لما ورد في مضمون كتاب (الحشائش) لديسقوريدس[١].

وكتب الزهراوي الذي عُدَّ أعظم أطباء عصر الخلافة على الإطلاق، كتاباً مهماً جداً سماه (التعريف لمن عجز عن التأليف)، وجاء على هيئة موسوعة راقية في الطب، بلغ عدد أجزائه ثلاثين جزءاً، وأهم هذه الأجزاء الجزء السابع والعشرون الذي يتحدث فيه الزهراوي عن كيفية تحضير الأدوية، والجزء الثلاثون الذي يتحدث فيه عن الجراحة العامة، وعن الوسائل والأدوات التي استخدمها في العمليات الجراحية، وهو بذلك يكون أول مؤلف في تاريخ العالم ظهر في ميدان الجراحة بهذا المستوى الرفيع، وبخاصة في مجال استخدامه لتقانات كانت لا تماثلها تقانات أخرى معاصرة. وبهذا يكون الزهراوي هو من جعل الجراحة علماً قائماً بذاته مستقلاً عن الطب، وأقامها على أساس من العلم المتين بالتشريح[٢].

كما اشتهر من الأطباء في عصر الخليفة الحكم المستنصر، الطبيب أحمد ابن يونس الحراني، الذي كان مختصاً بالطب العام وصنع الأدوية، ويبدو أنه كان متضلعاً وحاذقاً في علومه، ودليل ذلك أن الحكم المستنصر جعله طبيب القصر الخاص طوال حياته. وكان إضافة إلى معرفته بالطب العام، يعرف طب العيون أي الكحالة بصورة جيدة، كذلك فإنه كان يصنع الأدوية بنفسه في قصر الخلافة بالزهراء، واشتهر في مجال الأدوية المفردة والأشربة المختلفة[٣].

وكان ابن جلجل سليمان بن حسان من مشاهير أطباء هذه الفترة، ذلك أنه كان خبيراً بالمعالجة والمداواة وتشخيص المرض. عاصر الخليفة المحجور

---

(١) ابن جلجل . المصدر السابق ص ١٠١.

(٢) آنخل جنثالث بالنثيا. تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة حسين مؤنس. طبعة أولى. القاهرة ١٩٥٥ ص ٤٦٥ وما بعدها.

(٣) ابن جلجل . المصدر السابق ص ١١٣ وما بعدها.

عليه هشام المؤيد المتوفى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٣م، الذي كان في خدمته في مجال الطب. وتعود شهرته في المقام الأول إلى كتابه الذي شرح فيه أسماء الأدوية التي وردت في كتاب ديسقوريدس (الحشائش). وقد ذكر عن نفسه أنه كان له شرف معرفة تصحيح هيولي الطب، الذي هو أصل الأدوية المركبة. وله من الكتب كتاب (تفسير أسماء الأدوية المفردة) من كتاب ديسقوريدس، ألفه سنة ٣٧٢هـ/٩٨٣م في مدينة قرطبة. وله أيضاً مقالة في ذكر الأدوية التي لم يذكرها ديسقوريدس في كتابه آنف الذكر[١].

وقد عاصر ابن جلجل عدداً من العلماء الأطباء في قرطبة، اشترك معهم في تعريب كتاب (الحشائش) لديسقوريدس، الذي أرسل نسخة عنه إلى قرطبة الإمبراطور البيزنطي أرمانيوس تعبيراً عن الصداقة مع حكومة قرطبة في عصر الخلافة الأموية، وكانت هذه النسخة مكتوبة باللغة اليونانية، كان منهم الطبيب اليهودي حسداي بن شبروط، الطبيب الخاص للخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله، وفي الوقت نفسه وزيره الأول الذي كان يقابل رئيس الوزراء في المصطلح الإداري المعاصر، والطبيب محمد الشجار، ومحمد سعيد الطبيب. وكان يساعدهم على ما يبدو في أمور الترجمة، إضافة إلى نقولا الراهب الذي أرسله الإمبراطور البيزنطي سابق الذكر إلى قرطبة سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥٢م لمعرفته اللغة اليونانية، كلّ من عثمان الجزار الملقب باليابسة ورجل كان يعرف بالبسباسي[٢].

استمرت هذه الروح العلمية الطبية في عصر الطوائف في الأندلس، على الرغم من انفراط عقد وحدة الأندلس وظهور العديد من الدويلات، التي بقيت تعيش حالة من الاختلاف حتى آخر لحظة في حياتها السياسية، ومرد ذلك أن زعماء دويلات الطوائف كانوا يحرصون على أن تكون دويلاتهم على الدوام، تعج بالعلماء والموهوبين من أجل المفاخرة والمباهاة والظهور بمظهر المتفوق القوي. وتبعاً لذلك

---

(١) ابن أبي أصيبعة . عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج٢ ص ٤٦.

(٢) انظر كتابنا: معجم أطباء المغرب والأندلس ص ٦٣.

فقد اشتهر العديد من الأطباء، نذكر منهم على سبيل المثال عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن وافد، الذي ذاع صيته في طليطلة في ميدان علم الأدوية المفردة، فقد تمكن من إيجاد مواد دوائية جمة، تفوق من خلالها على كل معاصريه من العاملين في هذا المجال، معتمداً في الدرجة الأولى على كتب جالينوس وديسقوريدس في الأدوية المفردة. أضف إلى ذلك أنه اشتهر على الرغم من عمله هذا، بعدم إعطاء الدواء كثيراً إلا في الحالات الصعبة، وكان يبتعد عن المركب منها قدر إمكانه، وكان يفضل أن يستعيض عن الدواء بالاعتماد على الغذاء المنظم. اسم كتابه في هذا المجال (الأدوية المفردة). أما في الطب العام فله كتاب (الوساد في الطب) وكتاب (المغيث). وله في طب العيون كتاب (تدقيق النظر على حاسة البصر)[١]. وعمرو بن أحمد الكرماني الذي تجول كثيراً في المشرق العربي، وحينما عاد إلى الأندلس جلب معه رسائل إخوان الصفا، ويقال إنه هو الذي أدخلها الأندلس لأول مرة. وفي مجال الطب اشتهر بأعمال مثل القطع والشق والكي، وكان مقيماً بسرقسطة في شمال شرق الأندلس[٢].

أما في عصر المرابطين والموحدين، فقد تطور علم الطب في الأندلس حتى غدا يضم جميع الاختصاصات الطبية والصيدلانية، وبلغ الأوج في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. واشتهر في هذا القرن العديد من الأطباء، الذين استدركوا على سابقيهم الكثير من المسائل الطبية المهمة في مجال الأدوية والتشريح ووظائف الأعضاء وأعراض بعض الأمراض والعلاج والوقاية وحفظ الصحة العامة. نذكر من هؤلاء الأطباء، على سبيل المثال، أبا الصلت أمية بن عبد العزيز، الذي ألف كتاب (الأدوية المفردة) على

---

(١) ابن أبي أصيبعة . المصدر السابق ج٢ ص ٤٩. صاعد الطليطلي . طبقات الأمم ص ١٩٥ وما بعدها.

(٢) صاعد الطليطلي . طبقات الأمم ص ١٠٩. وابن أبي أصيبعة . عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج٢ ص ٤٠.

ترتيب الأعضاء المتشابهة الأجزاء والآلية(١)، وابن باجة محمد بن يحيي بن الصائغ الأندلسي، الذي عُدّ نابغة عصره في الفلسفة والطب وغيرهما من العلوم الأخرى المتميزة، ولعل أهم ما أنجزه في ميدان الطب كتابه المعروف بـ (التجربتين على أدوية ابن وافد) ويسمى أحياناً بكتاب (التجارب)، وقد استدرك فيه مسائل لم تذكر في كتاب ابن وافد الطليطلي (الأدوية المفردة) ، ويقال إن سفيان الأندلسي اشترك معه في تأليف هذا الكتاب(٢). وأبو الوليد محمد بن أحمد المعروف بابن رشد القرطبي صاحب كتاب (الكليات) في الطب، الذي عُدّ في العصور الوسطى من أهم المصادر الطبية في التشريح ووظائف الأعضاء والأمراض وأعراضها والأدوية والأغذية وحفظ الصحة وما إلى ذلك(٣).

لكن ريادة علم الطب في عصر المرابطين والموحدين كانت لبني زهر، كأبي مروان بن عبد الملك بن زهر، الذي اشتهر في مجال الطب والأدوية، وكتب عدة كتبها في هذين الموضوعين مثل كتاب (التيسير في المداواة والتدبير)، وكتاب (الأغذية)، وله مقال في (علل الكلى)، وكتاب (تذكرة) يتعلق بعلاج الأمراض(٤). ثمَّ ابنه أبو العلاء ابن زهر المتوفى سنة ٥٢٥هـ/١١٣١م، الذي اشتهر على صعيد تشخيص المرض ووضع العلاج له، وكذلك على صعيد التأليف مثل كتاب (حل شكوك الرازي على كتاب جالينوس)، ومقالة في الرد على أبي علي بن سينا في مواضع من كتاب (الأدوية المفردة) وغيرها(٥). ثم أعظمهم جميعاً أبو مروان عبد الملك ابن أبي العلاء بن زهر، الذي توفي في مراكش سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م. وقد كان من أشهر الجراحين وأمهرهم، ولعله الوحيد من بين أطباء عصره الذي حاول

---

(١) انظر كتابنا: معجم أطباء المغرب والأندلس ص ٥٢.

(٢) ابن أبي أصيبعة . عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج٢ ص ٦٢.

(٣) ابن أبي أصيبعة . عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج٢ ص ٦٢.

(٤) ابن أبي أصيبعة . المصدر السابق ج٢ ص ٦٦.

(٥) ابن أبي أصيبعة . المصدر السابق ج٢ ص ٦٤.

أن ينبه إلى ضرورة فصل الطب عن الصيدلة، حينما ذكر أنه لا يجوز للطبيب أن يكون محضراً للأدوية، وبذلك يكون قد سبق علماء العصر الحديث إلى مفهوم فصل الطب عن الصيدلة. وقد ركز طوال حياته على تأليف كتابه (الاقتصاد) الذي يختص ببحث الأمراض الباطنية. وله كتاب (التيسير) الذي تتجلى فيه شخصيته بوضوح تام، ويُعدّ أفضل ما ألفه العرب في الطب العملي، لأنه يعتمد فيه أسلوب التجربة الحقيقية[١].

أما في الفترة التالية لحكم الموحدين، التي اقتصرت فيها سلطة العرب على غرناطة وما حولها كمالقة والمرية ووادي آش، فإن علوم الطب فيها لم تزدهر كثيراً بالمقارنة مع الفترات السابقة التي ذكرناها، ذلك أن الحالة العامة لم تكن تساعد على الاهتمام بالعلوم وتطويرها، فجميع الإمكانات كانت موجهة للدفاع عن البلاد في وجه الحركة الوطنية الإسبانية المعروفة بحركة الاسترداد. ومع ذلك، فإن الأمر لم يخل من وجود بعض الأطباء الذين اقتصرت جهودهم في المقام الأول على العلاج وتشخيص الأمراض. نذكر منهم على سبيل المثال لسان الدين ابن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٣م، الذي ألَّف رسالة في الطاعون الذي سماه الأوروبيون (الموت الأسود). أثبت فيها أن انتشار المرض المخيف إنما هو بسبب العدوى، وذلك في عصر لم تكن فيه العدوى والجراثيم معروفة لدى أحد من الناس[٢].

ومن الجدير بالذكر، في هذا المجال، أن العديد من الأندلسيين اشتهروا بعلم الطب خارج الأندلس، ولاسيما في المشرق العربي، في مصر وسورية والعراق. فقد بدؤوا يظهرون في هذه البلاد كأطباء مشاهير منذ نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وشغلوا مهام عظيمة كرؤساء لمراكز طبية، وكأطباء في الجيش ومرافقين للحكام، وكمدرسين في كثير من المدارس الطبية المتخصصة.

---

(١) آنخل جنثالث بالنثيا . المرجع السابق ص ٤٦٦ وما بعدها.

(٢) ابن الخطيب . الإحاطة في أخبار غرناطة ج١ ص ٦٦ وما بعدها.

نذكر من هؤلاء الأطباء أبا الحكم تاج الحكماء عبد الله بن المظفر الباهلي، الذي أصبح طبيب البيمارستان الذي كان يحمل مع المعسكر السلطاني في بغداد، وابنه أبا المجد محمد بن عبد الله الباهلي أفضل الدولة، الذي اعتمد كمسؤول عن إدارة البيمارستان النوري في دمشق، لأنه عدَّ في زمانه من أحذق المتخصصين في الطب، وهذا ما جعل مهمته شاقة في دمشق في عصر نور الدين زنكي، فقد كان يعمل في ثلاثة أمكنة في اليوم الواحد، المكان الأول البيمارستان النوري، ومنه ينتقل إلى القلعة حيث الحاكم ومعاونوه، ومن القلعة إلى قاعة التدريس بالبيمارستان النوري، حيث يدرس طلبة الطب هناك لفترة ثلاث ساعات(١). وعبد المنعم الجلياني طبيب صلاح الدين الأيوبي وغيرهم.

أما في مجال علم الصيدلة فقد كانت الأندلس رائدة على كل البلدان بدءاً من نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ذلك أن الأندلسيين ركزوا كثيراً على دراسة الأعشاب والنبات وعالم الحيوان والمعادن والكيمياء، وهي جميعها علوم وثيقة الصلة بعلم الصيدلة الذي يعني علم الأدوية. والأدوية كما هو معروف كانت وما تزال نباتية وحيوانية ومعدنية، وهي تحتاج إلى نسب في التركيب تقتضي المعرفة بالكيمياء. وقد تطورت الصيدلة في الأندلس كما في غيرها مع تطور الطب وتقدمه، لأن العناية بالطب ارتبطت بالعناية بالصيدلة والكيمياء، فكان معظم الأطباء في العصور الوسطى يعرفون تراكيب الأدوية وإعدادها وتجهيزها، وفي الوقت نفسه كانوا على سعة اطلاع بالشؤون الكيمياوية المختلفة. كما اعتنوا بذكر تفاصيل دقيقة عن كل نبات، من حيث أصله وتكوينه العام، وفي النهاية ثمره، كما ركزوا كثيراً على مزايا وأوصاف البيئة التي يعيش فيها النبات، وهذا لم يعرفوه إلا من خلال تجربة طويلة وبحث مستمر، ثم ينوهون بعد كل هذا بالدواء النافع في علاج الأمراض، وكيفية تناوله ومقدار الجرعة إلى غير ذلك من أمور.

---

(١) الصفدي . الوافي بالوفيات ج٤ طبعة دمشق ١٩٥٩ ص ٢٤.

ولعل أشهر الصيادلة العرب كان من الأندلس، وهو عبد الله بن محمد المعروف بابن البيطار، الذي سافر إلى بلاد الإغريق وأقصى بلاد الروم وبلاد المغرب من أجل التعرف على أكبر قدر ممكن من الأعشاب الدوائية، ولما استقر بمصر بمدينة القاهرة أصبح رئيساً لكل العشابين والصيدلانيين في مصر في عصر الأيوبيين. ومن أشهر كتبه في الصيدلة كتاب (الجامع في الأدوية المفردة) الذي يُعد من أكمل ما ألفه العرب في الصيدلة وأكثره تفصيلاً، فلقد اعتمد في تأليفه على كتب من سبقوه من العرب واليونان، وزاد عليهم بـ ٣٠٠ مادة دوائية لم يشر إليها أحد قبله. وله كتاب آخر هو (المغني في الأدوية المفردة)، وهو مرتب حسب مداواة الأعضاء، يتحدث فيه عن الأعشاب من وجهة النظر العلاجية فقط، وقد كان مثالاً حياً على الأهمية البالغة للتجربة العلمية في حياة العلماء العرب في العصور الوسطى، ودليل ذلك أنه توفي في دمشق على حين غرّة متأثراً بعقار سام كان يعمل عليه تجاربه سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م[١].

وهكذا، فإننا نستنتج من كل ما تقدم، أن الطب والصيدلة في الأندلس في العصور الوسطى، كانا من العلوم التي اعتمدت على منجزات العصور القديمة في الطب، وكذلك العربية التي طورت في المشرق وأصبحت أكثر تقدماً من تلك التي كانت في العصور القديمة، وهذا ما ساعد على تقدم هذه العلوم بشكل مميز، فقد وصلت إلى مستوى علمي رفيع، الأمر الذي جعلها قبلة الأوروبيين، الذين اعتمدوا عليها قروناً طويلة.

٢ - علوم الهندسة:

كانت الهندسة من العلوم المهمة، التي وجدت عند العرب في الأندلس بيئة صالحة واهتماماً كبيراً، على الرغم من أن بعض فروعها كان يصنفه الفقهاء المعطلون من علوم الأوائل، وبخاصة الفرع الذي يهتم بإيجاد تقانات جديدة، وهو

---

(١) ابن أبي أصيبعة . المصدر السابق ج٢ ص ١٣٣ . الكتبي . فوات الوفيات ج١ ص ٤٣٤ . المقري . نفح الطيب ج٤ ص ٣٤٨. وانظر كتابنا: الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ص١٣٨ وما بعدها.

الذي كان يسمى في تلك الفترة بعلم الحيل، الذي يعرف اليوم في المصطلح المعاصر بهندسة الميكانيك أو هندسة التقانات. وكان من نتيجة تركيز الأندلسيين على علم الهندسة، أن وصلوا إلى منجزات راقية ومتميزة، ليس في الأندلس وحدها، بل في كل عالم العصور الوسطى، حينما توصلوا إلى أشياء لم تكن معروفة في مناطق أخرى، ما جعل هذه الأشياء بمنزلة قدوة طيبة تحتذى. ومازالت آثار الهندسة الأندلسية باقية حتى اليوم في أماكن عديدة من إسبانيا، وبخاصة في مجال العمارة من مساجد وقصور، وفي مجال هندسة استجرار المياه عبر أنابيب فخارية لمسافات بعيدة بين المدن وبعض المناطق الريفية البعيدة، أو بين أحياء المدن نفسها.

وقد اعتمدت الأندلس في تطوير ثقافتها الهندسية، على ما ورد إليها من أقطار المشرق العربي عبر رحلات علمية قام بها طلبة علم في هذا المجال، ومعظم هذه الثقافة شملها التطور بما ينسجم مع البيئة الأندلسية عبر مئات السنين. ويمكن أن ندرس الهندسة بالأندلس بالاعتماد على فصل فروعها عن بعضها، ودراسة تطور كل فرع بشكل مستقل عن الفرع الآخر. وفي طليعة هذه الفروع، فرع الحيل أو كما يسمى اليوم هندسة الميكانيك أو التقانة، وهو فرع شامل لكثير من الأمور المهمة التي تشكل مجتمعة قوام هذا الفرع، الذي أسهم منذ أول إبداع فيه في تذليل العديد من المصاعب والمتاعب أمام الإنسانية عبر مئات السنين حتى اليوم. وقد قُسّم علم الحيل في الماضي إلى قسمين اثنين، أولهما يبحث في آلات الحركات وصناعة الأواني العجيبة، وثانيهما في جر الأثقال بالقوة اليسيرة، ودرسوا في هذا العلم العديد من الأدوات الميكانيكية مثل الرافعة والإسفين واللولب، والآلات المفرغة للهواء والرافعة للماء وغيرها.

ومن أهم المنجزات العلمية الأندلسية في هذا العلم، أن الأندلسيين حينما عرفوا فكرة الأوزان النوعية[1]، بادروا إلى البدء بتجارب مهمة كان تأثيرها الإيجابي

---

(١) أول من اهتدى لاختراع آلة لمعرفة الوزن النوعي لأي سائل هو محمد بن حسن المعروف بالخازن في أوائل القرن الرابع للهجرة.

بالغ الأهمية في حياة الإنسانية، من ذلك أن فكرة الأوزان النوعية، هي التي حدت بالعالم العربي الأندلسي عباس بن فرناس الذي عاش في عصر الإمارة الأموية في الأندلس في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي إلى التفكير في الطيران، فقد احتال في تطيير جسمه، فكسا نفسه بالريش ووضع لنفسه جناحين، ثم قفز من منارة مئذنة قرطبة العالية في الجو مسافة بعيدة، ولكنه نسي أن يجعل لنفسه ذنباً يحميه من هبوطه، بأن يجعل شيئاً من الموازنة بين مقدمة جسمه ومؤخرته، فوقع على مؤخرته وقوعاً شديداً ومات، وبذلك يكون من أوائل العلماء في العالم، ممَّن دلّ على فكرة الطيران وابتكرها لأول مرة، وكذلك هو من أوائل العلماء الذين أرادوا أن يعتمدوا على نتائج واقعية ثابتة من خلال الاعتماد على البحث والتجربة والاختبار. وقبل هذه التجربة التي استشهد بنتيجتها كان قد أنجز صناعة نوع من المؤقتات على هيئة لم تكن معروفة، وهي التي تقوم مقام الساعة في وقتنا، كما صنع نوعاً من الزجاج الحجري الذي يشبه الكريستال اليوم(١).

ومن الأندلسيين الذين اشتهروا بهندسة الميكانيك، أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت المتوفى سنة ٥٢٩ هـ/١١٣٤ م، الذي اشتهر بعدد من فنون العلم منها علم الميكانيك، الذي أوقعه في حرج في أثناء وجوده بمصر في الإسكندرية في عصر الفاطميين، من خلال حادثة طريفة ومأساوية، إذ اتفق أن غرق على مقربة منها مركب محمل بالنحاس، وكانت الحاجة إلى النحاس ملحة، والزمن زمن الحروب الفرنجية، فقال أبو الصلت للأفضل حاكم الإسكندرية، إنه قادر على رفع المركب من قاع البحر، فأعدّ الأفضل كل ما طلبه أبو الصلت. بنى أبو الصلت مركباً عظيماً وجعله في البحر على موازاة المركب الغارق، ثم ربط المركب الغارق بحبال من الحرير مبرومة، وجعل أطراف تلك الحبال على دواليب، ثم أمر الرجال بإدارة تلك الدواليب. بدأ المركب يرتفع من قاع البحر شيئاً فشيئاً حتى حاذى سطح الماء، فلما تابع أبو الصلت رفع المركب إلى ما فوق سطح الماء، انقطعت الحبال وغاص المركب ثانية.

---

(١) المقري. نفح الطيب ج٣ ص٣٧٤.

إن استخدام البكرات المتعددة بتوجيه من أبي الصلت، يدل دلالة واضحة على المستوى الرفيع الذي وصل إليه أبو الصلت في علم الحيل من الناحيتين العملية والنظرية، ومع ذلك فقد نسي مسألة مهمة، وهي أن ثقل المركب بعد أن ارتفع فوق سطح الماء قد أصبح أكثر مما كان عليه المركب تحت سطح الماء، فكان عليه إما أن يفرغ شيئاً من حمولة المركب، وإما أن يزيد عدد الحبال. وكانت ردة فعل حاكم الإسكندرية كبيرة، فأمر بسجن أبي الصلت إثر هذه الحادثة، وبقي في السجن مدة عشرين عاماً[(١)].

وفي عصر الموحدين صنع المهندس الحاج يعيش المالقي، الذي كان متميزاً في عدد من وجوه الهندسة، رحى في جبل طارق لطحن الأقوات من قمح وشعير وغير ذلك من حبوب أخرى، كانت تعمل على طاقة الريح، وبقيت تعمل طوال فترة إقامته بجبل طارق، ولما عاد إلى مراكش تعطلت وتوقفت عن العمل لعدم وجود خبير يتمكن من تشغيلها وصيانتها. وقد يكون كتاب المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة، هو المصدر الوحيد الذي ينص على وجود رحى تعمل بشدة الريح لتطحن الحبوب بجبل طارق في العصور الوسطى، وقد تحدث كل من دوكانيكوس وبالباس ونوريس عن هذه الرحى نقلاً عن ابن صاحب الصلاة، وإذا صح أن أقدم رحى تعمل بالريح كانت في هنغاريا وترجع إلى القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، فإن أقدم رحى ريح توجد في الغرب هي فيما نعلم هذه الرحى[(٢)].

أما الفرع الثاني من علم الهندسة في الأندلس، فقد ركز ممثلوه من علماء هذا الشأن على المسألة المعمارية والإنشائية. ولكن ذلك لم يزدهر كثيراً في القرون الثلاثة الأولى من عمر الحكم العربي بالأندلس، لأن الأندلسيين في هذه

---

(١) انظر عن ذلك كتابنا: الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق العربي. طبعة دمشق. دار شمأل ١٩٩٥ ص١٩٩ . أمية بن أبي الصلت . الرسالة المصرية . طبعة ثانية مصر ١٩٧٢.

(٢) ابن صاحب الصلاة . تاريخ المن بالإمامة ج٢ ص١٤٢.

الفترة كانوا مازالوا في مرحلة التلمذة والأخذ من علماء المشرق بشكل خاص، أما بعد ذلك فقد تطور الأمر كثيراً وأصبح للأندلس منهجها المتميز في هذا الشأن الهندسي الصعب. وكثيراً ما جمع علماء الهندسة بين الهندسة الإنشائية البحتة وبين الهندسة الفلكية، وهذا ما يجعل معظم المهندسين في الأندلس يشتهرون كعلماء فلك، كما سنرى في بحث علم الفلك. لكن الأمر لا يخلو على الإطلاق من بعض المنجزات الإنشائية في الفترة الأولى، التي حددناها بثلاثة قرون الأولى، من ذلك القنطرة على الوادي الكبير إلى الجنوب من مدينة قرطبة، وهي قنطرة (جسر) كانت بُنيت في ذاك المكان منذ عهد السيطرة الرومانية على الأندلس، وحينما دخل العرب إلى قرطبة واستقروا فيها إلى حد ما، وجدوها مخربة غير صالحة للعبور، فرأوا من الضروري إعادتها إلى الحياة، وتم ذلك من خلال توجيه من الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز لواليه على الأندلس السمح بن مالك الخولاني، الذي أعاد ترميم هذه القنطرة وأصبحت تصل أحياء قرطبة الداخلية بالضاحية الجنوبية لقرطبة، كذلك يمكن أن نذكر في هذا السياق بناء المسجد الأموي بقرطبة، على الرغم من أننا سنبحثه بشيء من التفصيل في بحث لاحق تحت عنوان العمارة في الأندلس أو نحو ذلك.

بدأ النشاط الفعلي لعلم الهندسة الإنشائية في عصر الطوائف، على الرغم من تفتت وحدة الأندلس إلى دول طوائف متعددة، وكذلك على الرغم من الضغوط الكبيرة التي كانت تتعرض لها البلاد من حركة الاسترداد الإسبانية، هذه الحركة التي استغلت حالة تفرق الأندلسيين واختلاف كلمتهم لتحقيق تقدم معين في الأرض والحرب. فقد ظهر في هذا العصر كل من أصبغ بن محمد ابن السمح المهري، الذي تعمَّق في علم الهندسة والفلك، ورغم اهتماماته بالطب وغيره، فإنه ألف في الهندسة كتاباً سماه (المدخل إلى الهندسة في تفسير كتاب إقليدس) وكذلك (الكتاب الكبير في الهندسة)(١).

---

(١) صاعد الأندلسي . طبقات الأمم ص١٦٩ وما بعدها . ابن الأبار. التكملة لكتاب الصلة ج١ ص٢٠٦ . ٢٠٧.

ثم تطور الأمر بشكل خاص في عصر الموحدين، الذي عرف العديد من المهندسين المعماريين المشهورين، الذين جاءت شهرتهم من خلال ما أنجزوه من عمائر مختلفة، نذكر منهم المهندس محمد بن المعلم، الذي لا نعرف عنه شيئاً كثيراً، وقد ذكره ابن صاحب الصلاة صاحب كتاب (المن بالإمامة) على أنه هو الذي قام بعمارة قصور الموحدين بإشبيلية، ويبدو أن عمارته لهذه القصور لم تكن موفقة، ما أثار عليه موجة شديدة من النقد والتجريح في معظم الأوقات[١]، ثم المهندس الحاج يعيش المالقي، الذي كان من ألمع وأشهر المهندسين الذين تألق نجمهم في عصر الموحدين، وقد كانوا يعتمدون عليه في معظم المشاريع المهمة، فهو الذي أنشأ بأمر من الخليفة الموحدي عبد المؤمن ابن علي مقصورة المسجد الجامع بمدينة مراكش، التي أثارت حيرة وإعجاب كل المهتمين بالآثار الموحدية، فقد وضعت على أساس حركات هندسية ترفع بها عند خروج الخليفة وتخفض لدخوله[٢]، كما استعان به الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي، لتخطيط وبناء الحصن الذي قرر بناءه إثر دخول الموحدين الأندلس سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م في جبل الفتح[٣].

وربما يعود إليه إنجاز تلك القنطرة (الجسر) على نهر إشبيلية، وهو نهر الوادي الكبير، الذي تقع عليه هذه المدينة، في سنة ٥٦٧ هـ/١١٧٢ م، كي يتمكن الناس من العبور إلى المناطق المجاورة، وبخاصة إلى منطقة الشرف، التي تقع إلى الشمال الغربي من إشبيلية، وهي منطقة مشهورة بغنى وازدهار زراعتها ولا سيما زراعة الزيتون[٤]. والقنطرة كما مر معنا في المصطلح الأندلسي تعني الجسر، وكانت أقدم قنطرة في الأندلس، تلك التي أقيمت أيضاً على نهر الوادي الكبير

---

(١) ابن صاحب الصلاة . المن بالإمامة ج٢ ص٤٤٨.

(٢) المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة ج٢ ص١٣٨ . ١٣٩.

(٣) مؤلف مجهول . الحلل الموشية ص١٥٥.

(٤) ابن صاحب الصلاة . المن بالإمامة ج٢ ص٤٦١.

جنوب مدينة قرطبة في عصر الولاة في ولاية السمح بن مالك الخولاني، وربما هي أول إنشاء هندسي من هذا النوع. وعاصره المهندس أحمد بن باسة، الذي يعد من أبرز الخبراء الذين اعتمد عليهم الموحدون في مشاريعهم المعمارية الكبرى. وقد استفادوا من خبرته عند صدور الأمر ببناء القصور الملكية بإشبيلية. وكان يسمى شيخ العرفاء (شيخ المهندسين أو كبير المهندسين) في زمانه، وهو الذي نفَّذ بناء جامع إشبيلية الأعظم، وهو الذي أشرف على ترميم وتجديد القصور والمساجد وبقية منشآت الدولة في قرطبة، التي كانت قد تخربت نتيجة الفتن والمصائب التي نزلت بهذه المدينة منذ سقوط الخلافة الأموية، وهو الذي تفرد بتصميم وبناء قصور الموحدين في إشبيلية مثل البحيرة، فأربت على مباني الخورنق والسدير. ويعد هذا المهندس المتميز في عصره من عمدة الخبراء في مسائل هندسة البناء، ما جعل الموحدين يعتمدون عليه في مشاريعهم العمرانية في جبل طارق وقرطبة وقصور البحيرة بإشبيلية، وهو الذي قام سنة ٥٦٧ هـ/١١٧٢ م بتصميم جامع إشبيلية والإشراف على بنائه حتى النهاية، بعد أن استدعى عرفاء البنائين وسائر النجارين من مراكش وفاس وغيرهما[١].

وحينما بدأ الموحدون بناء صومعة المسجد في إشبيلية، ظهر في مكان أساسها ماء غزير، فقام هذا المهندس بردمها بالأحجار والجيار، وبلّط فوق الماء حتى أمن قعود الأساس المذكور، وهذا العمل يشبه الأعمال الهندسية في الوقت الحاضر، حيث يقوم المهندسون في هذه الحالة بردم المكان الذي فيه الماء بكميات مناسبة من البيتون المسلح تسليحاً عالياً. وما تزال أسرة هذا المهندس معروفة إلى اليوم في المغرب[٢].

كان من معاصري أحمد بن باسة، المهندس علي الغماري، الذي قيل عنه إنه هو الذي أكمل بناء صومعة المسجد في إشبيلية سنة ٥٨٤هـ/١١٨٩م من الآجر،

---

(١) ابن صاحب الصلاة . المن بالإمامة ج٢ ص١٣٩ و ١٤٠ و ٢٠٦ و ٤٧٤.

(٢) ابن صاحب الصلاة . المن بالإمامة ج٢ ص١٤٠ و ٤٨٢.

وهو الذي أصلح ما أحل في بلاطات الجامع من جهة الغرب والشرق والشمال، وزود الجامع بالأدراج من الغرب، وهو الذي عمل التفافيح في أعلى رأس الصومعة، وطليت هذه التفافيح بالذهب، وقد انتهى العمل من ذلك سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م[١].

بعد سقوط دولة الموحدين في المغرب والأندلس سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م، اضمحل شأن العلوم الهندسية، فقد انحسر السلطان العربي عن الأندلس كلّها باستثناء منطقة غرناطة، التي لم يحدث فيها من المنشآت سوى قصورها، التي كانت مكاناً لإقامة وحكم سلاطين بني الأحمر، وهي المعروفة بقصور الحمراء.

أما الفرع الثالث من الهندسة، فهو الذي اهتم أصحابه بابتكار أساليب وطرق ناجحة لاستجرار المياه إلى أماكن بعيدة بأمسّ الحاجة إليها. وهذا النوع من الهندسة عُدّ في هذه الفترة من أهم فروع الهندسة، لما له من تأثير بالغ الأهمية في كل مناحي الحياة العامة. وقد تطور هذا الفرع الهندسي في الأندلس بفضل الخبرة العربية، التي انتقلت إلى المغرب في العصر الأموي، ويبدو أن الأمويين لم يكونوا هم الذين اخترعوا هذا العلم، بل هم الذين نقلوه عن العلوم التي كانت في الشام منذ العصر الآرامي، فالآراميون هم الذين علموا الدنيا مفاصل وأسرار هذا العلم، وجاء الأمويون فطوروه وعمموه في كل المناطق التي كانت بحاجة لاستجرار المياه إليها، وكان المغرب من هذه المناطق. ففي عصر الخليفة هشام بن عبد الملك، شقت العديد من أقنية الري في المغرب، وأقيمت الصهاريج (المواجل) لتخزين الماء، وبخاصة في المغرب الأدنى. وبدخول العرب الأندلس، انتقلت هذه الهندسة المتقدمة إليها، وكانت مدينة مدريد (مجريط) أول من استفاد من هذه الهندسة، حينما جلبت إليها المياه من مسافات بعيدة. وكان الأمويون قبل ذلك، قد استفادوا من هذه الهندسة في عصر يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، حينما أمر بحفر قناة سميت باسمه (قناة يزيد أو نهر يزيد)، وهي القناة التي تفرعت عن نهر بردى في موقع الربوة غرب مدينة

---

(١) ابن صاحب الصلاة . المن بالإمامة ج٢ ص٤٨٤.

دمشق، وتمر بأسفل حي المهاجرين، شمال المدينة، ثم بحي الميسات الجديد بأسفل حي ركن الدين من ناحية الجنوب، وتتابع هذه القناة شرقاً لتروي حيزاً مهماً من الأراضي الزراعية والبساتين. وقد سمي يزيد بن معاوية نتيجة ذلك بمهندس بني أمية(١).

بدأت ثمار هذا النظام الهندسي المتقدم تظهر في الأندلس منذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي. ففي هذا القرن توصل المهندسون الأندلسيون إلى ابتكار من أعظم الابتكارات العربية في ميدان هذه الهندسة، وتجسد هذا الابتكار في نظام القنوات الجوفية، الذي ساعد على إيصال المياه إلى مدينة مجريط (مدريد) إثر الانتهاء من بنائها، من وادي الرمل المجاور لها من جهة الشمال. فقد حفرت آبار غزيرة المياه، ووضع في قعرها قنوات تمتد حتى تصل إلى مدريد، وهي تنحدر من الأعلى إلى الأسفل. وقد انتشر هذا النظام فيما بعد في العديد من مناطق الأندلس والمغرب، وتتألف القنوات الجوفية من قناة ضخمة تعد هي (الأم) ومنها تتفرع في داخل المدينة شبكة معقدة من قنوات صغيرة فرعية، وفي كل عقدة يجتمع عندها عدد من تلك الفروع، يقام خزان أو مستودع يجتهد في حمايته ووقايته بالطوب والفخار، وهذه الخزانات هي التي يتحكم منها المهندسون والخبراء في توزيع الماء توزيعاً عادلاً بين الأحياء والمنازل والحدائق العامة والخاصة، وتبنى عليها صهاريج مقفلة بأبواب وقضبان من الحديد، لا يسمح بدخولها إلا للقنواتي، الذي يوكل إليه الصهريج، ويكون مسؤولاً عنه ويحتفظ بمفتاحه. وهناك صهاريج عامة في الشوارع لسقاية الناس والبيوت، وتكون أحياناً على ظهر الأرض، وأحياناً أخرى في باطن الأرض، إذا كانت القناة التي تمده على عمق شديد، وحينئذ لا يوصل إليها إلا بسلالم، تصل بعض الأحيان إلى نحو ستين درجة(٢).

---

(١) انظر كتابنا: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، وكتابنا: تاريخ المغرب الإسلامي.

(٢) انظر خايمه أوليفر آسين . تاريخ اسم مدريد ص٨٩ وكذلك:

F.W.Robins. the story of water supply-oxford university-press-1946. Pp.116-118.

وفي عصر الطوائف في الأندلس، ظهر نظام هندسة الفقارات (مفردها فقارة)، وهي عبارة عن قناة لجر المياه إلى المناطق العطشى أو المحتاجة، وهو نظام انتقل إلى الأندلس من تونس(١).

وفي عصر المرابطين اشتهر في ميدان هذه الهندسة، المهندس عبد الله ابن يونس الأندلسي، الذي نقله المرابطون من الأندلس إلى المغرب بعد فترة وجيزة من دخولهم الأندلس، ليعمل على تنفيذ العديد من المشاريع المائية في المغرب الأقصى، وبخاصة في مراكش عاصمة دولة المرابطين. ففي هذه المدينة قام هذا المهندس بابتكار نظام جديد لجر المياه من الأماكن البعيدة في جوف الأرض، لأن مدينة مراكش كانت تفتقر إلى المياه، حيث لم يكن فيها سوى بعض الآبار. قام المهندس ابن يونس بدراسة طبقات الأرض هناك، وتوصل بعد جهود مضنية إلى اختراع طريقة المجاري الجوفية، فتوجه إلى طرف من أطراف المدينة، يعلو فيه مستوى الأرض على مثله في داخلها، ثم حفر بئراً كبيرة، ثم أوصل من قاعها قنوات تسير تحت الأرض في انحدار حتى توصل الماء إلى مختلف أحيائها قريباً من سطح الأرض.

ويذكر الإدريسي أن السلطان المرابطي أعجب بهذا الإنجاز الهندسي، ومنح صاحبه ابن يونس عطاء كبيراً، ومنذ ذلك الحين بدأ أهل المدينة في بناء قنوات فرعية تستمد من تلك القناة الأم. وهذا ما ساعد على قاعدة عمران مدينة مراكش، وزيادة مروجها وحدائقها، وأصبحت قاعدة وحاضرة للدولتين المرابطية والموحدية، وقد سمي هذا النظام من القنوات (الخطارة)(٢). وما تزال هذه الشبكة الواسعة من القنوات الجوفية باقية بمدينة مراكش، ويبلغ عددها نحواً من ثلاثمئة وخمسين قناة، يصل طول كل منها إلى نحو خمسة كيلومترات، غير أن الإهمال لحقها أخيراً وبطل استعمال عدد منها.

---

(١) محمود علي مكي . مدريد العربية. طبعة وزارة الثقافة بمصر. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ص٥٢.

(٢) الإدريسي . نزهة المشتاق . نشر وترجمة راينهات دوزي خويه ص٦٨.

أما في عصر الموحدين فقد امتاز المهندسون الأندلسيون بمقدرة فائقة في عمليات تسريب المياه في جوف الأرض حسب أصول حسابية دقيقة، وإنَّ مَن يقرأ ما ورد بخصوص إيصال الماء إلى الرباط من عيون غبولة[١] التي تبعد عنها مسافة تسعة عشر كيلومتراً إلى الجنوب الغربي، وحينما تقرر إجراء الماء لسقي البحيرة داخل مدينة إشبيلية، وكذلك حينما أمر الخليفة أبو يعقوب المنصور الموحدين سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م بجلب الماء إلى مدينة سبتة من قرية بليونش، وحينما تقرر جلب الماء لميضأة جامع القرويين في مدينة فاس أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ليشهد بما للمهندسين الأندلسيين من باع في هذا الميدان[٢].

وبالاعتماد على نظام الفقارات والخطارات، فقد تمكن المهندس الأندلسي الحاج يعيش المالقي من بناء خزان للماء داخل مدينة إشبيلية، كما نجح في تسريب المياه لسقي وتزويد قصور البحيرة الملكية وتوصيلها إلى داخل المدينة من منطقة مجاورة هي منطقة قلعة جابر[٣]. وكان الخزان المائي الذي بناه في وسط مدينة إشبيلية في حارة كانت تدعى (ميور).

ويبدو أن هذا النظام الهندسي الراقي في ميدان نقل المياه وتوزيعها، قد انتشر في كل المناطق الأندلسية في ميدان الري وسقاية الأرض الزراعية، والدليل على ذلك، تلك الآثار الكثيرة التي ما زالت باقية حتى اليوم. من ذلك محكمة المياه التي ما زالت تُعقد بمدينة بلنسية بشرق الأندلس حتى اليوم، وهي محكمة أهلية لا تتدخل فيها الحكومة، ومهمة هذه المحكمة توزيع المياه بالتساوي والعدل بين الفلاحين عبر قنوات دقيقة، تفي بأغراض الري والسقاية.

---

(١) تقع عيون غبولة في الجنوب الغربي لمدينة الرباط على بُعد تسعة عشر كيلومتراً منها، وكان تسريب الماء منها إلى الرباط سنة ٥٤٥هـ.

(٢) ابن صاحب الصلاة . المن بالإمامة ج٢ ص ٤٤٨.

(٣) تقع هذه القلعة إلى الجنوب من إشبيلية على مقربة من قرمونة. ابن صاحب الصلاة . المن بالإمامة ج٢ ص ٤٦٨ وما بعدها.

٣ - علم الفلك:

علم الفلك من العلوم المتقدمة التي انتشرت في مجتمع الأندلسيين في العصور الوسطى، على الرغم من المضايقات الكبيرة، التي واجهها المهتمون والمتخصصون بهذا العلم. وقد جاءت المضايقات بالدرجة الأولى من الفقهاء الجهلة، الذين حاربوا هذا العلم، وبخاصة الفرع الذي يركز على دراسة الأفلاك في السماء ورصد حركاتها وما يتعلق بها. وقد مرت بهذا العلم في الأندلس فترات لم يكن يسمح للناس فيها بأن يعرفوا منه إلا ما لا بد منه لتحديد اتجاه القبلة في المساجد، وتعيين مواقيت الليل والنهار على مدار العام لتعرف أوقات الصلوات، فإذا تجاوز الإنسان هذه المطالب من هذا العلم فقد غرر بنفسه.

ونتيجة لهذا، كان الناس يرمون بالزندقة كل من تجشم السير في أوعار هذا الطريق. ومع ذلك، فقد كان جمهور الناس يتجاوزون عن العرافين والمنجمين، ومن يستخرجون الفأل والمتنبئين والسحرة وكتاب الطلاسم والأحجبة. ولهذا فقد ندر اشتغال الناس بالعلوم الرياضية في الأندلس فيما عدا قلة قليلة، حتى زمان الناصر لدين الله في عصر الخلافة الأموية.

مع ذلك فلا بدّ من التنويه بأولئك الذين اشتغلوا في هذا العلم قبل عصر الخلافة الأموية في الأندلس، فكان منهم مسلم الليثي المعروف بصاحب القبلة، الذي تميز بدراسة هذا العلم على أسس علمية معروفة آنذاك، فقد اهتم بشكل الأرض واختلاف المناخ من أرض إلى أخرى ومن بلد لآخر، ورافق ذلك دراسة أخرى هي التنبؤ عن مصير الناس وأرزاقهم من حركات النجوم، أي أن علم الفلك كان مازال مختلطاً بالتنجيم.

وبدأ بالأندلس خلال فترة الإمارة الأموية صنع الساعات لمعرفة الوقت، وقيل إن عباس بن فرناس هو صاحب هذا الإنجاز في هذه الفترة، فقد قام بصنع أول منقالة على غير رسم أو مثال سابق. وقيل عنه أيضاً إنه مثَّل في

بيئة شكل السماء، وأبدع تمثيلها حتى ليخيل للناظر إليها، أنه يرى النجوم والغيوم والرعد والبرق وما إلى ذلك(١).

ثم ظهر أحمد بن نصر المتوفى سنة ٣٣٢هـ/٩٤٤م، واشتهر أمره من خلال كتابه عن (المسألة المجهولة). وظهر كذلك مسلمة بن القاسم ابن إبراهيم بن عبد الله بن حاتم المتوفى سنة ٣٥٣هـ/٩٦٤م من أهل قرطبة، وقد انصرف إلى دراسة الفلك والنجوم وعلوم الغيب، فنسبه الناس جراء ذلك إلى السحر والكذب، وربما جاء ذلك من كونه كان يتعاطى كتابة الطلاسم والرقى والتعاويذ(٢).

وكان أحمد بن محمد الأنصاري من المتقدمين في علم الفلك في الأندلس، وكان يدرسه في قرطبة، وعليه تتلمذ مسلمة بن أحمد المجريطي، الذي حاز السبق في الفلك وسائر العلوم الرياضية(٣).

كان من نتائج سياسة التسامح والعناية بالثقافة ورعايتها في عصر الخلافة الأموية في الأندلس، أن ظهرت المدارس واجتمع المشتغلون بكل علم من العلوم بعضهم إلى بعض. وكان الخليفة الحكم المستنصر نفسه من المهتمين بالدراسة، وكان يحيط نفسه بأهل العلم، وجمع في قصره مكتبة كبيرة زاخرة، واجتهد في الحصول على الكتب اليونانية، وسمح لعلماء الفلك والرياضيات العمل في مجال علومهم وتدريسها لجمهور الدارسين وتطويرها. فظهرت مدرسة الرياضي الفلكي المشهور مسلمة المجريطي المتوفى سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٤م.

---

(١) خير الله طلفاق . حضارة العرب في الأندلس. طبعة دار الحرية. بغداد ١٩٧٧ ص ١٥٦ وما بعدها.

(٢) ابن الفرضي . تاريخ علماء الأندلس، الترجمة رقم ١٤٢١ . آنخل جنثالث بالنثيا . المرجع السابق ص ٤٤٧ . ٤٤٨.

(٣) صاعد الأندلسي . طبقات الأمم ص ١٦٦ . ١٦٧.

الذي يُعد من أوائل العلماء في الأندلس، وإمام الرياضيين فيها. وله الفضل في دخول علوم الفلك والكيمياء إلى الأندلس، لكن معظم اهتماماته كانت بعلم الفلك موضوع هذا البحث، فأصبح إمام هذا العلم وأعلم من كان قبله بالأفلاك وحركات النجوم، وكانت له عناية برصد الكواكب، كما اهتم بدراسة كتاب بطليموس المعروف بالمجسطي، وله كتاب ممتاز بعلم العدد يعرف بـ (المعاملات)، وكتاب اختصر فيه تعديل الكواكب من زيج العالم البتاني، وعني بزيج محمد بن موسى الخوارزمي، ونقل تاريخه الفارسي إلى التاريخ العربي، وزاد فيه جداول حسنة، وله رسالة في الإسطرلاب، إلى غير ذلك. وقد أنجب تلامذة لم ينجب عالم في الأندلس مثلهم[١].

وعلى الرغم من اضطهاد المنصور محمد بن أبي عامر لرجال العلم والفلسفة تقرباً وتحبباً إلى الفقهاء وعوام الناس، فقد ظهر بعض العلماء في علم الفلك، مثل عبد الرحمن بن إسماعيل بن زيد المعروف بالإقليدسي، الذي قيل عنه، إنه كان من المتقدمين المشاهير في الفلك والهندسة، ورحل إلى المشرق وتوفي هناك[٢]، وسعيد بن فتحون بن مكرم المعروف بالحمّار السرقسطي، الذي كان متمكناً من علم الفلك بالإضافة إلى المنطق والموسيقا والفلسفة، وله رسالة في تعديل العلوم وكيف درجت إلى الوجود من انقسام الجوهر، وقد تعرض لمحنة صعبة، فدخل السجن وعذّب وهرب إلى صقلية بعد خروجه من السجن، وربما يكون سبب ذلك اهتمامه بعلوم الفلسفة والمنطق[٣].

---

(١) صاعد الأندلسي . طبقات الأمم ص ١٦٨ . ١٦٩ . آنخل جنثالث بالنثيا . تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٤٨.

(٢) صاعد الأندلسي . طبقات الأمم ص ١٦٧ . ١٦٨ . آنخل جنثالث بالنثيا تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٥٠.

(٣) صاعد الأندلسي . طبقات الأمم ص ١٦٨.

بعد وفاة المنصور محمد بن أبي عامر في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي تحسنت الأوضاع العامة في الأندلس، من حيث نظرة الحكام إلى العلوم الرياضية، ما ساعد على ظهور بعض العلماء المميزين بالفلك، كان منهم أحمد بن عبد الله بن عمر المعروف بابن الصفار، الذي تعمق كثيراً في علم النجوم وقام بتدريسه بقرطبة. وله زيج اختصره على مذهب (السند هند) وكتاب في العمل بالإسطرلاب، جاء موجزاً سهل العبارة والفهم وقد غادر قرطبة في الفتنة، واستمر في مدينة دانية بشرق الأندلس، قاعدة الأمير مجاهد العامري، وتخرج عليه تلامذة كثر سنأتي على ذكر أهمهم فيما بعد(١).

وفي عصر الطوائف في الأندلس، استمر التحسن باتجاه الأفضل على الرغم من الانقسام الذي حصل هناك، فقد تجزأت الدولة إلى عدد كبير من الدويلات، واقتصرت كل دويلة على مدينة معينة مع بعض الأراضي المجاورة التي تتبع لها. فظهر عدد مهم من العلماء الذين اهتموا بالفلك، ساعد على ذلك اهتمام حكام الطوائف بالنواحي العلمية على مختلف أنواعها، فقام بعضهم بشراء عدد مهم من الكتب العلمية على مختلف أنواعها، وبخاصة الكتب العلمية النادرة والفلسفية، التي قدِّر لها أن تنجو من الحرق والتهشيم، الذي أمر به المنصور محمد بن أبي عامر إرضاء للعامة من جهلة الناس، الذي كان من أسوأ أعماله. وتجددت الرغبة في طلب العلم، وبخاصة في مجال العلوم التطبيقية، لكن ذلك لم يتم على الوجه الذي كان مأمولاً بسبب ما تعرضت له الأندلس من ضغوط الإسبان، الذين استغلوا حالة تفرق كلمة الأندلسيين. ورغم ذلك، فقد ظهر كل من أصبغ بن محمد بن السمح المهري، الذي تعمق في علم الهيئة والنجوم، وألف كتابين في الآلة المسماة بالإسطرلاب، أحدهما في التعريف بصورة صنعتها، والآخر في العمل بها والتعريف بجوامع ثمارها. كما ألف زيجاً على أحد مذاهب الهند، والمعروف بالسند هند، وهو كتاب كبير مقسم إلى جزأين، أحدهما في

---

(١) صاعد الأندلسي. طبقات الأمم ص ١٧١.

الجداول والآخر في رسائل الجداول[١]. ومختار بن عبد الرحمن بن مختار الرعيني، الذي كان بصيراً بالفلك بالإضافة إلى علوم أخرى. ويحيى بن أحمد، أبو بكر، المعروف بابن الخياط أحد تلامذة مسلمة المجريطي، الذي عُرف بعلم النجوم بالإضافة إلى الطب والهندسة والحساب، لكن عمله كان في حقل علم النجوم عند الأمير سليمان بن الحكم بن الناصر لدين الله وغيره من الأمراء[٢]. وعبد الله بن أحمد السرقسطي، الذي اشتهر بإتقانه للفلك والحساب والهندسة، وكان متفرغاً لتدريس هذه العلوم بمدينة بلنسية. وقد ذكر تلميذه علي بن نجدة بن داود المهندس، أنه ما رأى أحداً أحسن تصرفاً في هذه العلوم منه. وقال صاعد الأندلسي، إنه رأى له رسالة كتب بها إلى أبي مسلم بن خلدون الإشبيلي؛ ذكر فيها فساد (السند هند) في حركات الكواكب والتنبيه على خطأ المنجمين[٣]. وأحمد ابن يوسف التنوخي الإشبيلي المعروف بابن الكماد، الذي كان من أهل المعرفة بالعدد والفلك، واشتهر بأزياجه المسماة (القبس) و(المستنبط) على أرصاد أبي إسحق الطليطلي المعروف بالزرقالة[٤].

ولعل أفضل عالم فلكي إبَّان عصر الطوائف في الأندلس، كان إبراهيم بن يحيى التجيبي النقاش المعروف بابن الزرقالة أو الزرقالي. وربما تعود شهرته في هذا العلم أنه اختص به، وركز على مسائله دون غيره، وكذلك لوضوح منهجه العلمي الثابت، وهذا ما ساعده على استخراج حقائق من تجاربه المباشرة، فقد وضع جداول فلكية، وركَّب إسطرلاباً، واخترع أجهزة دقيقة كالزرقالية والصفيحة. وابتكر في الفلك نظريات جديدة مهمة عن الكواكب

---

(١) ابن الأبار . التكملة لكتاب الصلة ج١ ص ٢٠٦ . ٢٠٧ صاعد الأندلسي. طبقات الأمم ص ١٦٩.

(٢) ياقوت الحموي . معجم الأدباء ج١٩ طبعة دار إحياء التراث. بيروت ص ٣١٣ . ٣١٤.

(٣) صاعد الأندلسي . طبقات الأمم ص ١٧٥.

(٤) ابن الأبار . التكملة لكتاب الصلة ج١ ص ٢٩.

السيارة والحركات الدائرية للنجوم، ولكن معاصريه من العلماء تعصبوا عليه بسبب ما جبلوا عليه من تعصب في مسائل العلم، ورفضوا أن يقبلوا منه ما قاله معارضة لما ذكره بطليموس في المجسطي. ولكن ألفونسو العاشر وعلماءه في الفكر، استخدموا كتب الزرقالي ككتاب (الأفق) أو كتاب (أفق الدنيا) ورسالته في العمل في الصفيحة، وطريقة عمل الإسطرلاب لرصد الكواكب السبعة وأفلاكها، وكان ميدان عمله في الفلك في طليطلة وقرطبة، وتوفي سنة ٤٩٣هـ/١١٠٠م(١).

وعلى الرغم من أن اهتمام ابن باجة الأندلسي، كان في المقام الأول في الفلسفة العقلانية المتطورة، إلَّا أنَّه كان مهتماً كثيراً بالرياضيات والفلك، الأمر الذي ساعده على التوصل إلى معرفة وقت كسوف البدر(٢).

ولا بد أن نذكر أن عدداً كبيراً من العلماء العرب في الأندلس وغيرها، لم يؤمنوا بعلم النجوم، من هؤلاء ابن حزم الأندلسي الذي ذكر أن النجوم لا تؤثر في أعمال الإنسان، فليس لها عقل تدبرنا به إلا إذا كان المقصود أنها تدبرنا طبيعياً، كتدبير الغذاء وتدبير الماء والهواء، ونحو أثرها في المد والجزر، وتصعيد الرطوبات. كما أن النجوم لا تدل على الحوادث المقبلة(٣).

ويبدو أن الموحدين لم يكونوا مهتمين بعلم الفلك، كما كان الأمر في مجال الهندسة المعمارية وغيرها، لذلك فإن عصرهم لم يشتهر فيه كثيراً علماء الفلك، وكل مَن عرفناه من المهتمين بهذا العلم، كانوا غير متخصصين بالفلك، كأولئك الذين ذكرناهم حتى الآن، ومنهم محمد بن أحمد بن رشد، أبو

---

(١) ابن الأبار - التكملة لكتاب الصلة ج١ ص ١٣٨ - ١٣٩. تاريخ الفكر الأندلسي ص ٥٤١.

(٢) المقري ، نفح الطيب ج٧ ص ٢٥ وما بعدها.

(٣) عبد الحليم منتصر . أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ص ٢٠٥.

الوليد، الذي أمر أبو يوسف يعقوب الموحدي بإحراق كتبه، باستثناء تلك التي تبحث في الطب والحساب. ورغم ذلك، فإنه توصل في علم الفلك والنجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار، وسمت القبلة، فانتشرت هذه الكتب في سائر البلاد، وعمل بمقتضاها(١). وابن سهل الضرير من أهل غرناطة المتوفى سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٥م، وجابر بن أفلح الإشبيلي، الذي حاول أن يتحقق من علامات تغير الفصول، ومنازل الشمس، فقام بتجارب ودراسات خرج منها بملاحظات وآراء شخصية أثبتها في مؤلفيه كتاب (الفلك) وكتاب (الهيئة) أو إصلاح المجسطي. وأبو إسحق البطروجي، الذي ابتكر نظرية في حركة النجوم. وأفضل ما قدمه في خدمة العلم، هو نقضه نظرية بطليموس عن العالم من أساسها، وعارضه في أخص آرائه، كقوله بالحركة البيضوية للكواكب ودورانها حول الشمس وحركات الأفلاك المتقابلة(٢). وأبو بكر بن الطفيل المتوفى سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م، الذي رأى من خلال اهتمامه بالهندسة والفلك على الرغم من تركيزه على علوم أخرى، أن كل جسم متناهٍ لأنه قد فرضت فيه الخطوط، ولأن كل جسم لا تفرض فيه الخطوط باطل، وعلى هذا تكون الأجرام السماوية متناهية، ويكون العالم بجملته متناهياً. ودلل ابن الطفيل على كروية العالم بقوله، إن الكواكب التي تُرى من الشرق ثم تغيب في الغرب، إذا طلعت على سمت الرأس، أي عمودية على الرأس الواقف، كانت الدائرة التي تقطعها أكبر من الدوائر التي تقطعها الكواكبُ والنجوم التي تطلع عن يمين الواقف أو عن يساره، ثم إن الكواكب إذا طلعت معاً فإنها تغرب معاً أيضاً، ولو كانت تسير في أفلاك مختلفة. وكان ابن الطفيل يرى ضعف نظام بطليموس، فأشار على تلميذه نور الدين البطروجي أبي إسحق بإصلاحه، واقترح عليه طريقة الإصلاح، فكتب البطروجي كتاب (الهيئة)، وحاول أن

---

(١) عبد الواحد المراكشي . المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٣٠٦.

(٢) آنخل جنثالث بالنثيا . تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٥٦ وما بعدها.

يتخيل للأجرام السماوية دوراناً لولبياً، غير أنه لم يزد الأمر إلا تعقيداً، لأنه ظل يفترض أموراً خيالية[١].

هذه المنجزات الفلكية التي كانت في غاية الأهمية والتقدم في عصرها، لم تأت إلا من خلال استخدام تقانات ذلك العصر، وهذه التقانات تجسدت في عدد من الآلات، نذكر منها، الإسطرلاب الذي كان يُعد من أهم الآلات الفلكية في مجال الرصد والبحث، وقد استخدمت هذه الآلة في قياس الارتفاعات والمسافات، وارتفاع النجوم والكواكب السيارة والثابتة، وتحديد أوقات الصلاة. وقد أخذ الأوروبيون عن عرب الأندلس هذه الآلة، واستخدموها في ميدان الملاحة البحرية أكثر من أي استخدام آخر[٢]. وكلمة إسطرلاب مؤلفة من «إسطر» بمعنى النجم «ولاب» بمعنى علم النجوم، وتعني الكلمة مجتمعة مقياس النجوم، ونعتها العرب بالآلة الشريفة، وذات الحلق، وهي خمس دوائر مصنوعة من نحاس، دائرة نصف النهار، وهي مركوزة على الأرض، ودائرة معدل النهار، ودائرة منطقة البروج، ودائرة العرض، ودائرة الميل، والدائرة الشمسية. ويعزى إلى العالم العربي عباس بن فرناس اختراعها وإدخال تعديل عليها، إذ يروى أنه صنع هذه الآلة وقدمها إلى الأمير الأموي عبد الرحمن بن الحكم. والميقاتة التي تدل على الجهات وتحديد أوقات الصلاة، يعزى صنعها أيضاً إلى عباس بن فرناس. وذات السمت والارتفاع، وهي نصف حلقة قطرها سطح من سطوح أسطوانة متوازية السطوح يعلم بها السمت. هذا بالإضافة إلى عدد آخر من آلات الرصد المتنوعة[٣].

وكانت هذه الآلات وغيرها معروفة في كل المراصد التي قامت في الأندلس، وهي مراصد أقامها العلماء المشاهير، كأبي إسحق النقاش المعروف

---

(١) عمر فروخ . المرجع السابق ص ١٧٥ . ١٧٦.

(٢) إبراهيم شركة . مجلة المجمع العراقي العلمي المجلد ١٩.

(٣) أنور الرفاعي . الإسلام في حضارته ونظمه. طبعة دار الفكر ١٩٧٣ ص ٦٧٠.

بالزرقالي المتوفى سنة ٤٩٣هـ/ ١١٩٩م. وكنتيجة لأرصاده، ألف كتاب (الصحيفة الزيجية) يبين فيه استعمال الإسطرلاب على منهاج جديد بأسلوب سهل، ويبدو أنه أدخل تحسينات على الإسطرلاب نفسه، وهو أول من جاء بدليل على أن حركة (ميل) أوج الشمس بالنسبة للنجوم الثوابت، تبلغ بالثواني ١٢.٠٤ بينما هي في الحقيقة ١١.٨[١].

٤ - العلوم الزراعية:

اهتم العرب بالعلوم الزراعية اهتماماً كبيراً في فترة العصور الوسطى، ذلك أنَّ الاقتصاد في ذلك الوقت كان يعتمد اعتماداً كبيراً على الإنتاج الزراعي، لكن الذي حدث أن المؤلفات في هذا المجال، على الرغم من أهميته، لم تظهر إلا في أواخر القرن الثالث الهجري، حينما ظهر أول مؤلف عربي باسم (الفلاحة النبطية) لابن وحشية، وظهر بعده بأمد قصير كتاب (الفلاحة الرومية) لمؤلفه قسطوس الرومي، وقام بترجمته من اليونانية إلى العربية سرجيس بن هليا الرومي.

بعد ذلك الوقت اختفى الإنتاج في هذا الميدان إلى حين، وحينها بدأ في الظهور من جديد، ظهر كموضوع ضمن موضوعات أخرى مختلفة.

لكن التأليف في هذا المجال بلغ القمة في الأندلس، ما جعلها تتفوق على غيرها من بلدان المشرق والمغرب، وذلك على صعيد الكم والكيف. وربما كان مردّ ذلك إلى ظروف الأندلس السياسية والاجتماعية، وبخاصة منها ما نبع عن شعور العرب المقيمين فيها بالانقطاع عن المشرق لبعد الأندلس، ومحاولتهم أن يقيموا في الأندلس جواً محيطاً شبيهاً بالجو الذي تركوه في المشرق. ويظهر ذلك من خلال حديث كثير من أصحاب المصادر الأندلسية عن مشاعر الأمير الأموي الأول في الأندلس عبد الرحمن الداخل في المغترب، الأمر الذي يفسر

---

(١) عمر فروخ . المرجع السابق ص ١٧٥ وما بعدها .

محاولته إنشاء ما يشابه الرصافة على الفرات في العاصمة قرطبة، على بُعد ثلاثة كيلومترات عنها إلى الشمال، وسماها «منية الرصافة»، وهي عبارة عن قصر ريفي يتألف من بناء صغير مع حدائق واسعة، ضمت الكثير من النباتات والأشجار التي كانت معروفة في المشرق، وبخاصة الأشجار المثمرة، مثل الحمضيات والزيتون والرمان والباذنجان والأرضي شوكي (الخرشوف) وما إلى ذلك[١]. ومنذ ذلك الوقت بدأت «المنى» تظهر بكثرة في الأندلس، بناها علية القوم من أمراء وحجاب وموظفين كبار، كما يستدل على ذلك من أسماء المنى التي حول قرطبة وغيرها من مدن الأندلس. وقد كانت هذه المنى توضع تحت إشراف رجال بارعين في الشؤون الزراعية، فزرعوها بمختلف النباتات إرضاء لسادتهم، وكانت هذه المنى تشبه المشاتل في عصرنا الراهن.

وفي القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ظهرت دول الطوائف في الأندلس، وقاد كل دولة منها حاكم مستقل، فكان يحاول بدوره أن يقلد الأمراء والخلفاء الأمويين في كل شيء، ومن جملتها أن يكون له قصر تتبعه حدائق غناء، دُعيت هذه الحدائق باسم (جنة السلطان) أو (بستان السلطان). وتروي لنا الأخبار أنهم أوكلوا أمر العناية بهذه البساتين والجنات إلى جماعة، كان منهم خبراء بارعون في الزراعة، كان منهم أطباء مهتمون بالنباتات ذات الخصائص العلاجية. وقد جمع بعضهم خبرة الأجيال السابقة في ممارسة الزراعة لدى السلاطين، إضافة إلى العلم النظري، الذي أخذوه من المؤلفات المشرقية سابقة الذكر. هذا بالإضافة إلى التراث الإسباني في هذا الميدان المتمثل بمؤلف عالم الزراعة اللاتيني. وقد توافرت في كل دولة من دول الطوائف منطقة مشهورة بالزراعة، كمنطقة الشرف بإشبيلية، وحوض نهر التاجة بجوار طليطلة، وغوطة غرناطة. ففي طليطلة عاش إلى جانب ملكها المأمون بن ذي النون، ابن وافد الطبيب المولع بالنبات، فعينه المأمون لرعاية

---

(١) المقري . نفح الطيب ج٢ ص ١٤ . ١٥.

(منية السلطان)، وألف لسيده كتاب (المجموع في الفلاحة) الذي ترجم إلى القشتالية في العصور الوسطى.

وفي مدينة طليطلة أيضاً عاصره محمد بن إبراهيم بن البصال، الذي تفرغ نهائياً للزراعة، وألف لحاكم طليطلة المأمون بن ذي النون (ديوان الفلاحة)، ثم اختصره فيما بعد باسم كتاب (القصد والبيان). وقد بقي هذا المختصر ونشر بالعربية وترجم إلى القشتالية. ولكن ابن البصال غادر طليطلة بعد أن تمكن الإسبان من احتلالها سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٦م، وتوجه إلى إشبيلية حيث تقرب من حاكمها المعتمد بن عباد، وأقام له حديقة ملكية، وقد رافقه من طليطلة عدد من الخبراء الذين كانت لهم خبرة في الميدان الزراعي. وفي إشبيلية، وجد الفرصة ملائمة جداً للعمل بحرية، فهذه المدينة تمتلك السهول الواسعة المجاورة لنهر الوادي الكبير، وفيها أو بالأحرى بقربها «الشرف» الذي يُعد موطناً لنباتات كثيرة، وكان منها المحلي ومنها المجلوب[1].

وكان في طليعة من التقى بهم ابن البصال بإشبيلية أبو عمر أحمد بن الحجاج الإشبيلي صاحب كتاب (المقنع) الذي ألفه سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٧٣م. ويتميز هذا الكتاب بأنه يحمل بقسوة على أقوال وأعراف المزارعين، فوصفهم بالغباء والضحالة، ونوه بأقوال بعض المؤلفين اللاتين، كما اعتمد من جهة أخرى على نتائج تجاربه بإشبيلية، وبخاصة في منطقة الشرف الغنية. كذلك التقى ابن البصال بالعالم النباتي محمد بن مالك التفتري[2] الغرناطي، الذي اشتهر برسالة ألفها في الزراعة لأحد حكام المرابطين الأوائل، وهي (زهرة البستان ونزهة الأذهان).

---

(١) انظر عنه كتابنا: معجم أطباء المغرب والأندلس. طبعة دمشق ١٩٩٤.

(٢) نسبة إلى قرية تيفتار إلى جوار غرناطة.

وفي نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وفي النصف الأول من القرن الذي يليه، الثالث عشر الميلادي، ألف يحيى بن العوام الإشبيلي كتابه المطول (الفلاحة)، وهو عبارة عن مواد مجموعة لما كان قد وضعه قدماء اللاتين واليونان، إضافة لما توصل إليه أسلافه الأندلسيون. لكنه لم يخلُ من التجربة الشخصية للمؤلف، التي يذكرها في آخر كل بحث من أبحاث الكتاب. واشتهر هذا الكتاب في صفوف المغاربة والأندلسيين، إلى درجة أن العالم العربي ابن خلدون، لم يجد ما يستحق أن يتحدث عنه من الأندلسيين في ميدان الزراعة، سوى ابن العوام هذا[(١)].

وفي الفترة الأخيرة من حكم العرب في الأندلس، بدأ بعض علماء الزراعة ينظم معلوماته شعراً، كما فعل سعد بن ليون التجيبي المتوفى سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م، الذي ألف كتاب (إبداع الملاحة وإنهاء الرجاحة في أصول صناعة الفلاحة) واعتمد في هذا المؤلف على مؤلفات ابن البصال والتفتري الغرناطي.

كان من أهم المزايا، التي كانت قاسماً مشتركاً لهذه المؤلفات، أن أصحابها ضمنوها نتائج خبراتهم العملية والتجريبية في كل المناطق التي أجروا تجاربهم فيها. ولعل خير مثال على هؤلاء العلماء، محمد بن مفرج النباتي المعروف بابن الرومية، الذي اشتهر بمعرفته الوافية بعلم النبات، وبمعرفة تركيب الأدوية ومنافعها واختلاف مناطق وجودها ومواصفاتها العامة، ففي سنة ٦١٣هـ/١٢١٧م زار مصر والشام والعراق، وأمضى في هذه البلاد مدة سنتين اطلع فيها على العديد من نباتاتها غير المعروفة في المغرب والأندلس[(٢)].

ومن مزايا هذه المؤلفات أيضاً، أنها كانت شاملة تضمنت كل شيء يتعلق بأمور الزراعة، بما كان يسمى (فلاحة الأرضين) أي بحث أنواع التربة

---

(١) انظر عن ذلك مقدمة ابن خلدون.

(٢) انظر عن هذا كله كتابنا: معجم أطباء المغرب والأندلس.

والمياه والتسميد وزراعة الحقول بشتى الزراعات، مثل الخضراوات والحبوب والأشجار المثمرة مثل الزيتون والكرمة والتين، وطرق العناية بهذه الزراعات مثل التشذيب والتطعيم، وكذلك تربية الحيوان بمختلف أنواعه، ومعرفة أكيدة بعلم البيطرة لمداواة ومعالجة هذه الحيوانات من الأمراض التي تصيبها عادةً.

وهذا كله يدل دلالة واضحة على أن العلماء العرب، كانوا في طليعة العلماء الذين اعتمدوا التجربة والمشاهدة في أبحاثهم وحياتهم العلمية. وكان ابن البصال من أهم الأمثلة على هذا الواقع العظيم، فقد جرب بنفسه كل المسائل العلمية الزراعية التي تطرق إليها، التي جاءت باستنتاجات ناضجة، ذلك لأنها تميزت بالاتساع والعمق والتركيز، وقد بدأت هذه التجربة كما ذكرنا في مدينة طليطلة في حقول خصيبة على نهر التاجة، وبخاصة في جنة المأمون أو بستان الناعورة للمأمون بن ذي النون، وبعد ذلك انتقل إلى إشبيلية حيث الظروف مواتية لكل ما يريده. وكان ابن وافد من طراز ابن البصال، فهو الذي أشرف على جنة المأمون بعد انتقال ابن البصال إلى إشبيلية، وربما هو الذي كان يشرف عليها حتى قبل انتقال ابن البصال. وينفرد ابن البصال بصفة خاصة، به وبخاصة في مؤلفاته، وهي أنه يبتعد عن ذكر أي شيء لا يكون قد جربه أو شعر أنه جُرّب على أرض الواقع. وهذا ما جعله يلجأ لعرض وجهات نظر، دلل على صحتها العلم الحديث، مثال ذلك قوله عن الخضراوات، إنها إذا ما دفنت في الأرض فإنها تصبح سماداً نافعاً لها.

ولم يقتصر علماء الأندلس على تبني آراء ابن البصال فحسب، بل أكثروا من النقل عن كتبه، كما فعل ابن العوام الإشبيلي في كتابه الكبير، حينما نوه بالأساس التجريبي الذي يقوم عليه كتاب ابن البصال، وينقل منه كثيراً ويشير إليه كثيراً. كما أثرت آراء ابن البصال في كل الناس المعتنين بالزراعة، ذلك أنها برهنت على نجاعتها وصحة ما جاء فيها، والدليل على ذلك أنها انتقلت إلى المغرب الكبير من خلال بعض الأندلسيين الذين هاجروا إلى هناك.

ترافق هذا الواقع الإيجابي الطيب تطوير كبير في أساليب الري والسقاية، وأبدع الأندلسيون في هذا الميدان شيئاً كثيراً، ومازالت آثارهم باقية حية إلى الآن، تشهد عليها محكمة المياه، التي لا تزال تعقد بمدينة بلنسية بشرق إسبانيا حتى اليوم من أجل توزيع المياه على الفلاحين، وهي محكمة أهلية لا دخل للحكومة فيها، وحكمها نافذ في إسبانيا. ويروي المؤرخون أن صاحب الأندلس في أواخر القرن الرابع الهجري، وهو المنصور محمد بن أبي عامر، أمر بإلغاء النظام الإقطاعي العسكري فيها، واستبدل به جيشاً نظامياً يتقاضى كل فرد فيه مرتباً شهرياً من الدولة بحسب رتبته بدلاً من استغلاله للإقطاع. واستمر الحال كذلك إلى أن جاء المرابطون في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. ولا شك أن نظام الإقطاع العسكري، لم يساعد في يوم من الأيام على النهوض بالزراعة بشكل ملحوظ وواضح، وأن الدولة العربية الإسلامية في العصور الوسطى كانت تلجأ إليه في أثناء الحاجة، وبخاصة في حالات الضعف، كوسيلة للاحتراس والدفاع.

وقد استخدمت مثل هذه الوسائل المتطورة في العديد من الحدائق والمنى، التي أقيمت بقرطبة وإشبيلية وبلنسية. ، فتميزت بالبهاء والروعة. وسبب ذلك أن هذه الحدائق، لم يكن والاهتمام بها من منطلق فردي، مثال ذلك أن عبد الرحمن الداخل لم يكن الوحيد الذي اتصل بالمشرق من أجل استجلاب الزروع والأغراس المتفرقة، فقد كان هناك كثيرون أسهموا في هذا المجال عن طريق الإتصال بأقربائهم وذويهم، والدليل على ذلك كثرة الحدائق (المنى) التي أنشأها الأمراء والحجاب وكبار الموظفين.

ووضعت هذه الحدائق، كما ذكرنا، تحت إشراف رجال بارعين في علوم الزراعة، حاول هؤلاء الرجال إرضاء أصحاب الحدائق عن طريق استنبات الزراعات الغريبة، التي تنافس زراعات الحدائق المماثلة. وأصبحت الحدائق في قرطبة وغيرها بمنزلة مشاتل حقيقية تشبه تلك التي في عصرنا، التي تُعد أمكنة

مهمة لإجراء البحوث العلمية الزراعية الجادة، وفي الوقت نفسه هي حقول لإجراء التجارب على البذور والشتول، التي جلبت من مختلف البلدان. وهي تحقّق المتعة والراحة والاستجمام. وقد ذكر الرحالة عن أحد ملوك الطوائف في الأندلس، وهو المعتصم بن صمادح صاحب المرية بجنوب الأندلس، أنه أمر بإحضار العديد من الزراعات النادرة إلى حديقته الملكية بمدينة المرية، مثل الموز وقصب السكر وغير ذلك.

إضافة إلى ما ذكرنا من علماء اختصوا بالتطوير الزراعي العام، من حيث النوع والكم، فإن بعض العلماء في الأندلس، اشتهر بتخطيط البساتين وإعدادها للزراعة المثمرة بشكل خاص، نذكر منهم المهندس محمد بن يحيي بن خلف القلعي المعروف بالحوفي، الذي كان مشهوراً، إضافة إلى عمله بالقضاء بمدينة إشبيلية، بمعرفته الممتازة بعلوم المساحة والتكسير والفلاحة، وقد مات في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. ومحمد بن يحيي التميمي من أهل إشبيلية، ويعرف بابن الحذاء، ويشبه ابن الحوفي في علومه، وبخاصة تلك التي تتعلق بالمساحة والتكسير. وبما أنهما كانا مقيمين بإشبيلية، فقد أوكل إليهما الحاكم الموحدي آنذاك أي سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م بعد أن سمع بأمانتهما وفضلهما وعملهما، أن يختطا له ما يتصل بقصور إشبيلية من الأرض البيضاء من أجل غرسها بالزيتون والأعناب وبعض أشجار الفاكهة الملائمة لبيئة إشبيلية(١).

وقد اختص بعض علماء الزراعة باستخلاص الدواء من الأعشاب، مثل عبد الرحمن بن الهيثم الذي كان قد شارك في ترجمة كتاب (ديسقوريدس) وكتب عدة مؤلفات في الأدوية المفردة. وكان الطبيب الخاص للمنصور محمد بن أبي عامر. وكذلك العالم النباتي سليمان بن حسان بن جلجل، ثم الطبيب عبد

---

(١) ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة ج٢ ص ٤٦٥ وما بعدها.

الرحمن بن وافد اللخمي، الذي ألف كتاباً ضخماً عن الأدوية المفردة، استغرق في تأليفه وقتاً طويلاً لأنه جاء خلاصة لتجاربه[١].

ويمكن أن نعد من هؤلاء العلماء، العالمين الجغرافين أبا عبيد البكري الأندلسي المتوفى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، وكتابه عن (أعيان النبات والشجيرات الأندلسية)، ثم الشريف الإدريسي المتوفى سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م صاحب الموسوعة الجغرافية الشهيرة (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، الذي كتب في مجال الزراعة كتاباً سماه (الجامع لصفات النبات وضروب أنواع المفردات من الأشجار والأثمار والأصول والأزهار). كما طاف أنحاء المغرب والأندلس ودرس نباتاتهما، وقدم خواصها الطبية في كتابه (جامع الأدوية المفردة)[٢]. ثم تبعهما عالم أندلسي زراعي متفوق، هو ضياء الدين بن البيطار الإشبيلي المتوفى بدمشق سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٩م، وألف كتاباً رائعاً هو كتاب (الجامع لمفردات الأغذية والأدوية)، وسمي كذلك لأنه جمع بين الدواء والغذاء.

وعموماً، فإن علم الزراعة في العصور الوسطى، كان قد تطور كثيراً في الأندلس. ولا بد أن السبب في ذلك يعود بشكل كبير إلى اهتمام العرب في بلاد الغربة به وتحسسهم لمرارة الغربة وفراق الأهل والأصحاب والديار، فاهتموا بالزراعة، وحاولوا أن يكثروا في البلاد الجديدة الزراعات والنباتات والأغراس في حدائق قصورهم وأماكن إقامتهم، تيمناً بواقع الحال في تلك المناطق التي تركوها في المشرق، ومحاولة إقامة أماكن مماثلة لها في الموطن الجديد، هذا الأمر المهم هو الذي جعل أمراء بني أمية، يهتمون بتشجيع الزراعة وتطويرها.

---

(١) سعيد عاشور . دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٣٨٧ . آنخل جنثالث بالنثيا . تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٦٩.

(٢) عادل أبو النصر . تاريخ الزراعة القديمة ص ٣٢١.

بقي أن نذكّر بأن جميع العلوم التطبيقية في الأندلس، أصابها البوار بعد سقوط دولة الموحدين في المغرب والأندلس، فقد اضمحل شأن العلوم الهندسية والطبية والفلكية والزراعية في هذا البلاد، ويعود سبب ذلك إلى سقوط معظم المعاقل العربية في الأندلس، حيث لم يبق في أيدي العرب سوى الزاوية الجنوبية الغربية في غرناطة وما حولها، ومع أن غرناطة لم تقصر في شيء من العلوم على الرغم من أنها شغلت على الدوام بالدفاع عن وجودها ضد الإسبان، لكنها لم تتمكن من المحافظة على ذلك الزخم العلمي الذي ظل قوياً في الأندلس حتى نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. وما حصل في الأندلس حصل في المغرب الكبير، حيث تجزأ هذا المغرب إلى دويلات ثلاث لم تتمكن إحداها من الأخذ بأسباب العلم، باستثناء بعض العلماء الذين كانوا حالات فردية لا يمكن التعميم بموجبها. حتى إن الأندلسيين الذين هاجروا إلى المشرق في هذه الفترة، لم يهتموا بالعلوم التطبيقية بسبب الحالة التي كانت تسيطر على الأجواء الثقافية في عصر المماليك، وهي الحالة التي كانت تشجع العلوم النظرية الدينية واللغوية على حساب العلوم الأساسية.

الفصل الثالث عشر

العلوم النظرية والنقلية في الأندلس

لقيت هذه العلوم اهتماماً بالغاً من الأندلسيين، وبخاصة أولئك الذين أقبلوا على العلم. لقد كان معظمهم يفضل أن يدرس علماً من هذه العلوم، ولا سيما العلوم الدينية من فقه وحديث وقراءآت وتفسير. وقد شجع على دراسة هذه العلوم في المقام الأول، أنها أسهل وأيسر من حيث الفهم والتحصيل، وتكاد تلائم استعداد الجميع، على العكس من العلوم التطبيقية التي تحتاج إلى مزيد من الاجتهاد والتركيز والاستعداد، هذا بالإضافة إلى أنه للأسف كان قد ساد في فترة العصور الوسطى اعتقاد لا يمتُّ إلى الحقيقة بصلة، هو أن العلم في المجالات الدينية والفقهية هو سيد العلوم، وتطرق أصحاب هذا الاعتقاد بقولهم، إن من يستحق أن يطلق عليه اسم عالم هو الذي يختص في مجال من مجالات علوم الدين. وللحفاظ على ذلك الوهم وقف الفقهاء أنفسهم ضد معظم العلوم التطبيقية، حتى لا تتقدم على علومهم التي جعلتهم أصحاب مراتب ومقامات مهمة في مجتمع العصور الوسطى، إن لم يكن على صعيد الحكام فعلى الأقل في نظر العامة من الشعب.

وهكذا، ازدهرت العلوم اللغوية والاجتماعية والدينية في الأندلس منذ بداية عصر الخلافة الأموية. وكان الأندلسيون قبل ذلك يشتغلون بالدراسة والتحصيل في مختلف أقطار المشرق العربي، ولعل أهم فترة حصلت فيها هذه المسألة في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، حينما بدأ اهتمام الأندلسيين بالعلم من كل جوانبه، فجاء الكثيرون منهم إلى المشرق وأخذوا ما استطاعوا من علومه

المتنوعة، واصطحبوا معهم إلى الأندلس العديد من الكتب المهمة في مختلف العلوم، ووصل إلى الأندلس عدد من العلماء المشارقة للإسهام في عملية التثقيف والتعليم(١).

ويمكن أن نتحدث عن فروع هذه العلوم بشيء من التفصيل تحت عناوين منفصلة.

١ - العلوم الاجتماعية:

ونقصد بهذه العلوم، بالتحديد، التاريخ والجغرافيا والفلسفة وعلم الاجتماع وما يتعلق بها من أمور. سندرس كل قسم منها بشكل مستقل عن الآخر.

آ - التاريخ:

بدأت الكتابات التاريخية بالظهور في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. وقد اشتهرت في هذه الفترة عائلة الرازي في قرطبة، مثل أحمد الرازي الذي ألف عن خطط قرطبة العامة، وعيسى الرازي الذي كتب عن وزراء الأندلس وعن تاريخ الأندلس. ثم ظهر بعد ذلك كتاب في التراجم هو كتاب (تاريخ العلماء ورواة العلم بالأندلس) لابن الفرضي. ثم تتابع ظهور العديد من الكتب التاريخية في مختلف الموضوعات، وفي مختلف الأنواع والأساليب.

ففي التاريخ العام كانت المؤلفات قليلة للغاية، ولا نعرف لذلك سبباً سوى أن الأندلسيين، رأوا ضرورة الاهتمام بتاريخ بلادهم بالدرجة الأولى. وكان عريب ابن سعد أول الأندلسيين الذين كتبوا في هذا الميدان، ومع ذلك فإن ما كتبه كان جزءاً بسيطاً تجسد بأن كتب ذيلاً على تاريخ محمد بن جرير الطبري، ضمَّن هذا الذيل أحداثاً معينة تتعلق بالأندلس، وربما فعل ذلك بعد أن وجد أن الطبري لم يذكر شيئاً في كتابه عن الأندلس(٢).

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في كتابنا: الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام. طبعة دار طلاس ١٩٨٩ . الفصل الخاص بالعلاقات الفكرية.

(٢) ابن الكردبوس. تاريخ الأندلس. تحقيق أحمد مختار العبادي. طبعة مدريد ١٩٧١ ص٢٢-٢٣.

كذلك كتب لسان الدين بن الخطيب كتاباً سماه (أعمال الأعلام). ويُعد هذا الكتاب من الكتب المهمة، التي تناولت تاريخ الدول الإسلامية في العصور الوسطى. ألفه ابن الخطيب قبيل موته مقتولاً في المغرب بمدينة فاس. وقسمه إلى ثلاثة أقسام، الأول، وخصصه لتاريخ المشرق العربي، والثاني أفرده لتاريخ الأندلس منذ الفتح حتى عصر السلطان محمد بن يوسف الغرناطي، والثالث وهو أهم ما في هذا الكتاب بالنسبة لتاريخ المغرب، فقد أرخ فيه للأحداث المغربية منذ قيام الدولة الأغلبية حتى قيام الدولة الموحدية، وكان ينوي أن يستكمل هذا الكتاب حتى عصره، لكن النكبات التي حلت به حالت دون ذلك(١).

أما في مجال تاريخ الموضوعات فقد كان الأمر مختلفاً، لأن معظم إنتاج الأندلسيين في التاريخ كان من هذا النوع. ولكثرة ما ألفوا فيه فإننا سنقتصر على ذكر أهم هذه المؤلفات وهي:

(تاريخ افتتاح الأندلس) لابن القوطية القرطبي، الذي تحدث فيه منذ بداية فتح العرب للأندلس حتى نهاية القرن الثالث الهجري. وفي هذا الكتاب يظهر ابن القوطية شيئاً من التعصب ضد العرب متأثراً بنسبه الإسباني من جهة أمه سارة حفيدة الملك القوطي غيطشة، وبهذا يشير إلى بداية ظهور هذا التيار، الذي يشبه ذلك التيار الذي ظهر في العصر العباسي الأول، وهو تيار الشعوبية والتعصب ضد العرب. وكتاب (أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها) لمؤلف مجهول، ويبدأ بعهد موسى بن نصير وينتهي بوفاة الخليفة الأموي الناصر لدين الله سنة ٣٥٠هـ/٩٦٢م. ويعد ما جاء في مضمون هذا الكتاب من أهم ما جاء عن هذه الفترة في المصادر الأخرى، لأنه يتميز بالدقة والجدية والإحاطة بكل أجزاء الخبر، وهو عكس تاريخ ابن القوطية في تعصبه للعرب وإلحاقهم في الحكم والسيادة. وكتاب (المقتبس في أخبار بلد الأندلس) الذي يتكلم فيه عن الحوادث منذ بداية فتح الأندلس حتى نهاية القرن الرابع

---

(١) نشره الأستاذان الدكتور أحمد مختار العبادي ومحمد الكتاني في مدينة الدار البيضاء ١٩٦٤.

الهجري/العاشر الميلادي، ويظهر من القطع التي بقيت من الكتاب مدى الرصانة والحرص على إبراز الحقائق بهيئتها الكاملة، على الرغم من أن صاحبه ابن حيان القرطبي كان متعصباً للأمويين، الذين كتب عن أهمهم، مثل الحكم الربضي، وعبد الرحمن الأوسط، وعبد الرحمن الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر(١). ولابن حيان الكثير من الكتب المهمة، ولكنها لاتزال بحكم الضائعة، مثل كتاب (المتين) الذي قيل إنه في ستين جزءاً، وما موجود منه عبارة عن فقرات في كتب أندلسية متفرقة. وكتاب (البطشة الكبرى) وهو مؤلف عن الدولة العامرية، وكتاب (انتخاب من أخبار القضاة). وتوجد عدة كتب لابن حزم الأندلسي مثل كتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) وفيه يتحدث عن كل المذاهب والفرق الدينية مقارناً بعضها بالآخر، وهو من الكتب المهمة في هذا المجال، لأنه الأول من نوعه لما يُعرف اليوم بالتاريخ المقارن للأديان. وكتاب (جمهرة أنساب العرب) الذي يتحدث فيه عن أصول وأنساب عرب الأندلس. وكتاب (تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين...) لعبد الملك بن صاحب الصلاة المتوفى سنة ٥٦٨هـ/١١٧٣م، والموجود من هذا الكتاب هو الجزء الثاني فقط، وقد حققه عبد الهادي التازي. ويبحث ابن صاحب الصلاة في هذا الجزء فترة مهمة من تاريخ الدولة الموحدية من سنة ٥٥٤ إلى سنة ٥٦٨هـ. وفي هذا الجزء الكثير من المعلومات التي شهدها ابن صاحب الصلاة، أي أنه كان شاهد عيان عليها. ومثل هذه المعلومات يصنف عادة على أنه تاريخ أصلي. وكتاب (العبر) لابن خلدون الذي يبحث فيه الأسباب البعيدة لقيام الدول وسقوطها وكيفية انتعاش العمران فيها، وما إلى ذلك. وقد ألف لسان الدين ابن الخطيب العديد من الكتب، التي تندرج في قائمة كتب الموضوعات، نذكر منها كتاب (اللمحة البدرية في الدولة النصرية) ويتحدث فيه بشكل خاص عن أهل غرناطة وصفاتهم وتقاليدهم. وكتاب (نفاضة الجراب في علالة الاغتراب)،

---

(١) ابن حيان . المقتبس في أخبار بلد الأندلس . تحقيق عبد الرحمن علي الحجي. بيروت دار الثقافة ١٩٦٥ ص١٢ وما بعدها.

وفي هذا الكتاب ينوه ابن الخطيب بما رآه بالمغرب في أثناء مغادرته غرناطة. وكتاب (رقم الحلل في نظم الدول)، وهو مختصر تاريخي بحث فيه عدداً من دول العصور الوسطى، وأهداه إلى أحد حكام بني مرين.

إلى جانب ذلك، فقد اهتم الأندلسيون بنوع آخر من التاريخ، هو تاريخ التراجم، وقد ظهر في البداية في القرن الرابع الهجري، وكان ابن الفرضي أول من كتب في هذا النوع، وتتالت بعده المؤلفات التي يمكن أن نذكر أهمها وأشملها، وهي: كتاب (القضاة بقرطبة) لمحمد بن حارث الخشني المتوفى سنة ٣٦٠هـ، الذي ألفه في عصر الخليفة الحكم المستنصر الأموي، وهو كتاب يحتوي على مسائل مهمة في الميدان الاجتماعي، أوردها الخشني في سياق حديثه عن قضاة قرطبة. وكتاب (التكملة لكتاب الصلة) لمحمد بن عبد الله المعروف بابن الأبار البلنسي المتوفى سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م، وهو كتاب تراجم للعلماء الأندلسيين وغيرهم من الذين كانت لهم صلة بالأندلس، غطى فيه رجال القرن السادس وثلثاً من القرن السابع الهجري. وقد عُدَّ مكملاً لابن الفرضي وابن بشكوال كما يظهر من تسميته. وله كتاب (الحلة السيراء) أي الثوب المزركش، وفيه يؤرخ لأخبار الأندلس والمغرب من القرن الأول إلى منتصف القرن السابع الهجري، من خلال تراجم للسياسيين والعلماء ومن في حكمهم، أوردهم حسب القرون التي عاشوا فيها. وكتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) للسان الدين بن الخطيب، الذي ضمنه مجموعة كبيرة من تراجم الملوك والأمراء والأعيان والفضلاء والقضاة والمقرئين والمحدثين والفقهاء والكتاب والشعراء، ثم العمال الأمراء ثم الزهاد والصلحاء والصوفية، ويعد من أهم الكتب التي أرخت للمدن بعد تاريخ بغداد للبغدادي، وتاريخ دمشق لابن عساكر. وكتاب (المرقبة العليا فيمن يستحق الفتيا) لأبي الحسن النباهي، وهو وثيقة مهمة عن تاريخ القضاء في الجناح الغربي من ديار العرب في العصور الوسطى، ذلك لأنه يؤرخ لفترة طويلة امتدت منذ فتح العرب للمغرب والأندلس إلى القرن الثامن الهجري، أضف إلى ذلك أن النباهي صاحب هذا الكتاب، كان من رجال وأعيان دولة بني الأحمر المعروفين

في غرناطة. ويتضمن هذا الكتاب تراجم القضاة، الذين عرفتهم الأندلس والمغرب حتى وقت متأخر من القرن الثامن الهجري(١).

أما كتب الطبقات في الأندلس فقد كانت قليلة جداً، اقتصرت على كتاب طبقات الأمم لصاعد بن أحمد بن عبد الرحمن الأندلسي المتوفى سنة ٤٦٢هـ. وفي هذا الكتاب قام صاعد الأندلسي بذكر سبع أمم هي: الفرس، والكلدانيون، واليونانيون، والقبط وأجناس الترك، والهند والسند والصين. ووجد أن هذه الأمم مقسومة إلى طبقتين، طبقة تابعت العلوم وانكبت عليها، وتتمثل بالهند والفرس والكلدان واليونان والروم وأهل مصر والعرب، وطبقة لم تهتم بالعلوم وهي بقية الأمم، ووصفهم بالغباء والبهيمية. وفيه ذكر لأهم أطباء ومهندسي وفلكيي الأندلس وعلمائها حتى عصره تقريباً. وكتاب (طبقات الأطباء والحكماء) لابن جلجل الأندلسي، الذي يُعد فريداً في بابه واختصاصه في الأندلس، في عصره وفي العصور التالية.

لم تكن كتب التاريخ وحدها، هي التي تناولت تسجيل تاريخ الأندلس، بل شمل ذلك حيزاً مهماً من كتب الجغرافيين الأندلسيين، ولا سيما ما يتعلق بأخبار المدن والقرى والبلدان. وكان في طليعة الجغرافيين الأندلسيين في هذا المجال، عبيد الله البكري المتوفى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م. وكانت إقامة البكري بمدينة قرطبة في ظل حكم بني جهور، وفيها اتصل بالمؤرخ القرطبي المشهور ابن حيان، وكان لهذا الاتصال على ما يبدو نتائجه الإيجابية في تكوينه التاريخي. وأخيراً، استقر البكري بمالقة لفترة وجيزة، انتقل بعدها إلى إشبيلية فاستقر فيها في كنف حاكمها المعتمد بن عباد. ومن أهم كتب البكري التي تحتوي معلومات تاريخية متفرقة، كتاب (المسالك والممالك)، ولا سيما الجزء المسمى (المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب). وقد استقى معظم هذه الأخبار من المؤرخ محمد بن يوسف الوراق المغربي، الذي كان قد هاجر من مدينة القيروان إلى قرطبة.

---

(١) النباهي . المرقبة العليا. طبعة بيروت من دون تا ص١.

وفي المشرق العربي، وبخاصة في عصر الأمويين والمماليك، اشتهر عدد من الأندلسيين، الذين ألفوا بعض الكتب التاريخية عن المشرق أحياناً وعن الأندلس أحياناً أخرى، ولكن هذه الكتب لم تصل إلى مستوى الكتب التي ألفت في الأندلس، مع وجود بعض الاستثناءات القليلة. نذكر من هذه الكتب كتاب (المغرب في أخبار محاسن أهل المغرب) كتبه اليسع بن عيسى بن حزم الغافقي الجياني لصلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م، ولم يمدحه أحد في العصور الوسطى، وسبب ذلك أنه لم يكن فيه من المعلومات الصحيحة سوى القليل النادر كما ذكر الجزري في طبقات القراء[١]. وكتاب (سراج الملوك) لأبي الوليد الطرطوشي نزيل مدينة الإسكندرية، وهو من الكتب الفريدة في بابها ومقصدها في ميدان الآداب السلطانية، فهو يحتوي على كل الصفات التي يجب أن تتوافر في الحكام، وما هي الأعمال الواجبة عليهم إلى غير ذلك من أمور، كما أنه أفرد حيزاً مهماً من كتابه للحديث عن الوسائل الحربية، التي كانت معروفة في عصر الأمويين بالأندلس. وكتاب (عيون الأثر في فنون المغازي والشمايل والسير) لابن سيد الناس الأندلسي المتوفى بمصر سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٤م. ويبحث هذا الكتاب في حروب الرسول ومغازيه وما يتصل بذلك. وكتاب (النضار) لأبي حيان الأندلسي المتوفى بالقاهرة سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٥م، وهو كتاب يحتوي أخباراً تاريخية متنوعة وتراجم لشخصيات مختلفة في مصر والأندلس والمغرب[٢].

ب - الجغرافيا:

كانت الجغرافية من العلوم التي حظيت باهتمام الأندلسيين منذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، حينما بدأت المؤلفات الجغرافية المختصة بالبلدان تظهر على أيدي عائلة الرازي التي اختصت أيضاً بالتأليف التاريخي كما ذكرنا. فكتب أحمد الرزاي كتاباً عن جغرافية الأندلس[٣]. وأوصافها. وكتب ابن الوراق عن طرق

---

(١) الجزري . غاية النهاية في طبقات القراء ج٢ ص ٣٨٥ . ٣٨٦.

(٢) ابن حجر العسقلاني . الدرر الكامنة ج٥ . ص ٧٣ . ٧٤.

(٣) اسم كتابه (في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها).

ومسالك إفريقية. وتطور الأمر إلى ظهور كتابات واهتمامات بارزة في مجال الجغرافيا الاقتصادية، وهو أمر كان في ذلك العصر شيئاً متقدماً للغاية، وكان من أبرز من اهتم بهذا الفرع الحيوي من الجغرافيا، الجغرافي إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي، الذي كان يعمل بالتجارة خارج الأندلس، فزار كلاً من فرنسا وهولندا وألمانيا وبلغاريا وبولندا ودول البلقان وغيرها، وقد اهتدى إلى تدوين مشاهداته في هذه البلدان، وبخاصة في ميدان النشاط الاقتصادي العام.

وفي القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ظهر أبو عبيد عبد الله البكري المتوفى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، الذي يُعد من كبار الجغرافيين الأندلسيين، وقد ألف كتابين، الأول هو (المسالك والممالك)، وفي هذا الكتاب يبحث البكري الطرق البرية والبحرية والخلجان والمرافئ، والثاني هو (معجم ما استعجم) ويحاول فيه أن يصحح أسماء المواقع مما انتابها من عمليات تحريف وتبديل.

وفي القرن السادس الهجري، بدأت أعمال الرحلة من الأندلس إلى أقطار المشرق العربي وغيرها، وهي مرحلة متطورة في ميدان الجغرافيا، لأنها تساعد على معرفة أقاليم ومناطق جديدة لم تكن معروفة من قبل بين الأندلسيين. وأول من بدأ في هذا المجال من الأندلسيين، كان أبو حامد الغرناطي، الذي زار المشرق لفترة قصيرة، فزار الإسكندرية والقاهرة ودمشق والموصل سنة ٥١٢هـ/١١١٩م، واهتم بشكل خاص بأهرامات مصر وفيضان النيل. أما معظم حياته فقد أمضاها في خوارزم وجنوب الاتحاد السوفييتي سابقاً والمجر، وألف كتابه المشهور (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب) عن مشاهداته في تلك البلاد، فذكر أشياء من الجغرافيا الوصفية والبشرية، وأشار إلى أشياء لها صلة بطبقات الأرض وعلم الحياة، فهو يتكلم مثلاً عن صفة البحار وعجائب حيواناتها، وما في جزائرها من النفط وغيره، كما يتضمن صفات الحفائر والقبور وما احتوته من العظام وغير ذلك[(١)].

---

(١) حسين مؤنس . تاريخ الجغرافيا والجغرافيين بالأندلس. طبعة مدريد ١٩٦٧ ص ٣١٠ وانظر كتابنا: الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق ص ١٨٠.

تلا رحلة أبي حامد الغرناطي رحلة ابن جبير محمد بن أحمد الكناني الأندلسي، التي قام بها إثر سماعه خبر تحرير بيت المقدس، فانطلق من غرناطة سنة ٥٨٥هـ/١١٩٠م، فزار بلاد الشام ومصر والحجاز، وقد سجل كل شيء عن مشاهداته في تلك البلاد، ولا سيما الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والمنشآت العمرانية والعلمية، وفي بعض الأحيان كان يتحدث عن الأوضاع السياسية إلى غير ذلك. وقد شكلت هذه الرحلة بحد ذاتها موسوعة عن المشرق العربي، اشتملت على جميع مناحي الحياة(١).

جـ- الفلسفة العقلانية:

كانت الفلسفة الأندلسية من أهم الفلسفات التي أينعت ثمراً طيباً على العالم برمته، ذلك أنها منذ بدايتها اتخذت لنفسها منهجاً عقلانياً متنوراً، يتسم بالجرأة والوضوح والسهولة والابتعاد عن المسائل الغيبية التي لا تلتصق بالواقع والحياة. وقد شقت هذه الفلسفة العظيمة طريقها في الأندلس نحو النجاح، على الرغم من وقوف الفقهاء المعطلين ضدها منذ الوهلة الأولى، بحجة أنها خطر على الشريعة والدين برمته، مع أن معظم فلاسفة الأندلس كانوا من كبار علماء المالكية في مجال العلوم الدينية كافة، وقد حاولوا طوال حياتهم أن تكون فلسفتهم أداة طيبة للتوفيق بين الدين والفلسفة والعلم كما سنرى في الصفحات التالية.

أول ما ظهرت الفلسفة العقلانية في الأندلس في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي على يد الفيلسوف ابن مسرة، الذي يُعد أول من قال بالقدرية هناك، أي خلق الإنسان لأفعاله، وأن صفات الله هي عين ذاته. لكن فلسفة ابن مسرة لم توفق لأن تأخذ طريقها إلى النهاية المفرحة، لأن الفقهاء وجهوا إليها سهامهم بلا رحمة دون أن يفهموا مقاصدها الإيجابية العامة، بعد أن لاقت قبولاً محترماً في عصر الخليفتين الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر. وقد وقف معاضداً الفقهاء في حربهم ضدّ الفلسفة العقلانية، بعد

---

(١) انظر رحلة ابن جبير ص ١٣ وما بعدها.

موت الحكم المستنصر، الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر، الذي حكم الأندلس فترة طويلة، فأحرق كل كتبها التي كانت قد تجمعت بكثرة في خزائن مكتبة الحكم المستنصر، ولم تستطع أفعال المنصور الإيجابية، على الرغم من كثرتها وأهميتها في حياة الأندلس، أن ترمم ما خربته يداه في الميدان العلمي، وبخاصة في ميدان الفلسفة العقلانية، التي كانت تريد أن تزرع في عقول الناس ونفوسهم مبدأ الأخذ بأسباب العلوم التي تعتمد التجربة والعقل والواقع، وأن تنزع من عقولهم ونفوسهم في الوقت نفسه مبدأ التمسك بالمسائل الغيبية المعطلة، وكذلك المسائل الجامدة التي لا تقبل التطور أو التغيير.

وجاء عصر الطوائف في الأندلس، وهو عصر التجزؤ والانقسام في حياة الأندلسيين، ومع ذلك فإنه كان عصر الحرية بالنسبة للفلسفة وغيرها من العلوم، التي لم تتمكن عقول الفقهاء المتحجرة أن تقبل بها أو توافق على دراستها وتعميمها في حياة المجتمع. وساعدت هذه الحرية على بزوغ شمس الفلسفة العقلانية من جديد، ومع ذلك فقد ظلت المنجزات العلمية في هذا الميدان متواضعة ولا تدعو للتفاؤل على الإطلاق، لكنها مع ذلك شكلت قاعدة مهمة انطلق منها الفلاسفة اللاحقون، وبخاصة ابن باجة الفيلسوف الأندلسي الذي عاش في النصف الأول من القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، وهو موسوعي عبقري متعدد الثقافات، ألف في كل نواحي المعرفة والعلم، بما في ذلك الفلسفة. وكان قد درس واطلع على جميع العلوم اليونانية، وكذلك على مؤلفات الفارابي والغزالي وابن سينا. ورغم كثرة كتبه في الفلسفة العقلانية لم يبق منها سوى (كتاب السماع الطبيعي)، وهو شرح لكتاب أرسطو و(رسالة الوداع) التي احتوت الكثير من آرائه الفلسفية، ورسالة (تدبير المتوحد) التي تُعد من أهم مؤلفاته في هذا الميدان[١].

اشتهر، بعد ابن باجه، الفيلسوف ابن طفيل المولود في قرية قريبة من غرناطة في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، والمتوفى بمراكش في أواخر القرن المذكور.

---

(١) أحمد بدر . المغرب والأندلس ص ٧٤.

ويُعد هذا الفيلسوف أحد ثلاثة فلاسفة أندلسيين، ابن باجه، ابن طفيل، ابن رشد، يؤمن بضرورة التوفيق بين العقل والشريعة، لأنه كان يعتقد اعتقاداً جازماً أن العقل وحده والعلم والحدس العقلي هو الطريق الوحيد للوصول إلى الحقيقة.

وأما ابن طفيل فهو صاحب الكتاب الوحيد الذي نعرفه له، وهو كتاب (حي بن يقظان)، وهو عمل فلسفي وأدبي وديني وتربوي ونفساني في وقت واحد. يقول فيه، إنه عن طريق التأمل والزهد والملاحظة والحدس العقلي يصل الإنسان إلى معرفة وجود الله، وابن طفيل يفضل الإنسان الذي يصل إلى الاعتقاد عن طريق العقل على المؤمن عن طريق التلقين. وإن الأخلاق الدينية عنده هي حرية التفكير من أجل الوصول إلى الحقيقة. وهو يدعو في هذا الكتاب إلى الحب والخير والأصالة والجمال والإيمان بالله[١].

لكن أعظم الفلاسفة الأندلسيين على الإطلاق في العصور الوسطى، كان ابن رشد الذي يُعده البعض أعظم فلاسفة العصور الوسطى في الأندلس وخارجها، فقد تتلمذ على ابن طفيل، وقد وصف بأنه أكبر شارح لفلسفة أرسطو، ويكفي ابن رشد فخراً أنه تجرأ على إطلاق حرية الفكر لنفسه، ونادى بها للجميع، على الرغم من وجوده في عصر كان مثل هذا الفكر يجلب لصاحبه المذلة والمهانة والتحقير. وقد عانى من ذلك كثيراً، لكنه مضى على طريقته الرائعة فأعلن رأيه بشجاعة وصراحة وقوة، حتى عدَّه الأوروبيون مثلاً خالداً على حرية الفكر، وقد عبّر عن أفكار أرسطو تعبيراً صادقاً بإعلانه أن العقل العام المطلق أبديّ قابل للانفصال عن الجسم، وأنكر الخلود والبعث وقال، يجب على المرء ألا ينتظر ثواباً أو عقاباً غير ما يلقاه في الحياة الدنيا. وتعرض للفلسفة الخلقية والاجتماعية، فأعلن كرهه للظلم والاستبداد، ورأى عدم وجود اختلاف بين الرجال والنساء في الطبع، إنما الاختلاف بينهما في الكم. ولشدة ما تأثر به الأوروبيون قالوا عنه، إنه ينتسب إلى أوروبا والفكر الأوروبي أكثر من انتسابه إلى الشرق والفكر العربي الإسلامي. وبذلك أقدم الأوروبيون على دراسة

---

(١) عمر فروخ. المرجع السابق ص ٢٩٠. جورج حداد. المدخل إلى تاريخ الحضارة ص٥٢٧.

فلسفة ابن رشد، ورحبوا بكتبه ترحيباً كبيراً، فأسهمت بإخراجهم من الظلمات إلى النور[١]. وكان الأوروبيون عظاماً حينما خرجوا على تعاليم الكنيسة، التي كانت تعارض فكراً متقدماً وعقلانياً كفكر ابن رشد، وتمسكوا بمبدأ حرية الفكر وتحكيم العقل على أساس المشاهدة والتجربة التي نادى بها ابن رشد. ومن جهة أخرى، فقد كان العرب مغفلين حينما لم يتمكنوا من الأخذ بهذه الفلسفة الفكرية العقلانية المتقدمة، وانقادوا لإرادة التغييب والتعطيل في مجالات الفكر كافة، التي مثلها رجال الدين في العصور الوسطى، وهي إرادة ما تزال موجودة حتى الآن رغم ما أصاب الأمة العربية من نكبات وويلات، لم تتمكن من أن تثني المعطلين عن السير في طريقهم الهدام. وكانت الخسارة جسيمة إلى حد كبير، وستكون هذه الخسارة مطلقة إذا بقي العرب يستمعون لآراء الفقهاء ورجال الدين، الذين لم يتغيروا إلا باتجاه الأسوأ، حتى غدا بعضهم أخطر على الفكر العقلاني التجريبي من أولئك الذين حاربوا فكر ابن باجة وابن طفيل وابن رشد في العصور الوسطى. ومسألة تجرؤ الفقهاء على محاربة الفكر المتطور، أصبحت من أخطر ما تواجهه الأمة في هذا العصر، لأنها تشكل دعماً قوياً لكل الحركات المعادية لهذه الأمة، وبخاصة ما يأتي منها من خارج البلاد. فتطور الأمة من خلال نبذ الجمود والتعطيل الفكري، هو في نهاية الأمر تحصين بلاد العرب وحمايتها من كل الوجوه، ولعل ذلك من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية الحقة على الإطلاق.

فمن المحزن والمعيب في الوقت نفسه، أن الفقهاء جندوا كل قواهم المؤثرة في الحكام وغيرهم، حتى تمكنوا من قتل معظم فلاسفة الأندلس، وبخاصة ابن باجة وابن رشد، اللذان يعدان من المفكرين الإنسانيين العالميين، الذين أغنوا الإنسانية بفكرهم المتنور النافع، ونقلوها من عالم الجهل والضياع إلى عالم النور والحقيقة الساطعة. وتبدو عظمة الجريمة التي اقترفها الفقهاء بحق فلاسفة الأندلس العقلانيين ومن ثمّ بحق الأمة التي ينتمون إليها وهي أمتنا العربية، من

---

(١) ابن رشد . كتاب الكليات ص١١ . ١٧.

خلال معرفة أن ألد أعداء هذه الأمة في الماضي والحاضر وهم اليهود، أقبلوا على أخذ ما جاء به فلاسفة الأندلس وتعمقوا في فكرهم، لأنهم رأوا فيه الفكر الأمثل والأنفع لحياتهم ومستقبلهم. وكان في طليعة هؤلاء اليهود موسى بن ميمون، الذي كان يشغل مكانة رفيعة المستوى في حياة اليهود في العصور الوسطى، ذلك أنه سخَّر حياته برمتها من أجل خدمة أبناء جنسه اليهود، وبخاصة في الأندلس، في المجالات الدينية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية. وهو معاصر لابن رشد، وأول من أيّد فكره العقلاني المتطور، ودرس هذا الفكر دراسة متعمقة متأنية، لأنه وجد فيه الفكر الأعظم للإنسانية. وقد انطلق في ذلك من إيمانه بنفع هذا الفكر على الرغم من أنه كان المرجع الديني الأكبر لليهود في عصره، وتجمعت في شخصيته بعد دراسة فكر ابن رشد، ما يسمى بتراكيب الروح العلمية الرشدية والروح اليهودية الربانية. وفي رأي ابن ميمون أنه ليس ثمة فرق بين تعاليم أرسطو والإلهيات. وقد عدَّ النفس خالدة وأنها لا تبعث. وأهم مؤلفاته الفلسفية (مقالة في صناعة المنطق) و(دلالة الحائرين)[١].

وقد حاول ابن ميمون التوفيق بين الدين والعقل، كما فعل ابن حزم الأندلسي وابن رشد. وكان من المدافعين عن التفكير العلمي تجاه التعاليم التقليدية عن التوراة، لذلك كان علماء الدين اليهود من المتعصبين والجهلة يسمون كتابه (دلالة الحائرين) بـ (ضلالة الحائرين). وكان تأثير ما كتبه في الفكر العقلاني كبيراً على اليهود والمسيحيين، وبخاصة على جماعة من الدومنكان مثل ألبرت الكبير ودونس سكوتس، وعلى فلاسفة العصور الحديثة مثل سبينوزا وكانط[٢].

ويمكن القول إن ابن ميمون هذا، قد تتلمذ على فلسفة ابن رشد وفكره، وكان على الدوام يعتد ويفاخر بهذه التلمذة، لأن فلسفة ابن رشد كانت دعامة الفكر الفلسفي اليهودي وغيره حتى عصر النهضة، لأن ابن رشد كان أكبر

---

(١) موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين ص ٧٣.

(٢) جورج حداد . المرجع السابق ص٥٢٨ . ٥٢٩.

فلاسفة العرب المسلمين، الذين نالوا حظاً وافراً من الترجمة اللاتينية، وقد بلغ عدد هذه الترجمات نحو ٣٨ ترجمة، وعول فيها على الأصول العربية ما أمكن. وكان تمسك اليهود بفلسفة ابن رشد وتبنيهم لها قوياً جداً، فجمعوا كل مصادرها وترجموها إلى العبرية. وبالعموم، يمكن أن يقال عن فلسفة اليهود، إنها كانت رشدية خالصة، وهذا ما كون لديهم فكراً شحذهم وشجعهم على الأخذ بأسباب التقدم والفكر العقلاني المتطور [١].

٢ - العلوم الدينية:

وهذه العلوم تنقسم عادة إلى القراءات والفقه والتفسير والحديث. وهي مسائل نالت من اهتمام الأندلسيين شيئاً كثيراً، إلى درجة أنها غلبت على كل اهتماماتهم العلمية الأخرى، وأثرت من ناحية ثانية على نشاط بعض العلوم التطبيقية المتعلقة بالهيئة والفلك والنجوم والفلسفة وما يتصل بذلك من فكر وثقافة، وكان هذا التأثير قاسياً في سلبيته، والسبب في ذلك أن الفقهاء ادعوا ظلماً أن العلوم العقلانية تشكل خطراً على العلوم الشرعية، مع أنه لا يوجد في كل تفاصيل الشريعة ما يدعو إلى ذلك، لأن الشريعة الإسلامية ربما تنفرد عن بقية الشرائع بدعوتها للأخذ بأسباب العلم والتقدم والازدهار.

تنفرد العلوم الدينية في الأندلس بسمة خاصة، هي تأثرها الكبير بما جاء عن الإمام مالك بن أنس، بعكس ذلك الذي حدث في المشرق حيث تأثرت العلوم الدينية بكل ما جاء عند الأئمة مجتمعين. وقد ساد ذلك في الأندلس منذ فترة حكم هشام الرضا ثاني أمراء بني أمية هناك. فقد بدأت فترة حكمه سنة ١٧٢هـ/٧٨٩م، فمنذ تلك السنة لم تقم قائمة لأي مذهب من المذاهب إلا للمذهب المالكي، وعمّ ذلك المغرب الكبير على الرغم من انتقال المذهب الحنفي إلى المغرب الأدنى في ظل حكم الأغالبة هناك.

---

(١) إبراهيم مدكور . في الفلسفة. بحث منشور في كتاب: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية. طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ ص ١٥٥.

ففي مجال الفقه بقي الفقهاء ملتزمين بحدود المذهب المالكي، الذي يقوم على منهج ثابت هو الاعتماد في استنباط الأحكام الفقهية من القرآن الكريم، ثم السنة النبوية وأعمال الصحابة وأقضيتهم وعمل أهل المدينة المنورة ثم القياس.

لكن الالتزام في ذلك لم يكن مطلقاً، فقد ظهر بين الفينة والأخرى بعض الفقهاء الذين خرجوا عن هذا الالتزام، ما جعلهم يصطدمون بالفقهاء الآخرين، الذين شكلوا قوة فاعلة في كثير من الأحيان، وبخاصة أمام الفقهاء الذين شكلوا ظواهر فردية في توجههم. وكان الفقهاء المالكية في الأندلس لا يرحمون من يقف في وجههم مهما كانت مكانته العلمية ومقدرته الفكرية والإبداعية، ورفضوا كل تجديد في الحياة العامة، وأبقوا على مظاهر الجمود والتقوقع قدر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. نضرب على ذلك مثلاً ساطعاً تجسد في موقفهم من الفقيه الكبير ابن حزم الأندلسي، الذي فاجأ الفقهاء في الأندلس بمذهب فقهي جديد، هو المذهب الظاهري الذي ظهر أول مرة في المشرق على يد داود بن علي الأصبهاني، ثم انتقل إلى الأندلس، وكان ابن حزم من كبار معتنقيه، ومن كبار المحاولين تعميمه في الأندلس. ويقوم هذا المذهب على التمسك بظاهر القرآن أي بمعناه اللفظي. ولم يتمكن ابن حزم من نشر هذا المذهب في عصره، وهو الذي عاش في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، لأن الأغلبية العظمى من الفقهاء الأندلسيين وقفت ضده وحاربته بشدة بشتى وسائلهما. وردَّ عليهم ابن حزم بشدة أيضاً، وكان هجومه عليهم بالغ القسوة والعنف، لكنهم في نهاية الأمر تمكنوا من تطويق نشاطه، بأن أقنعوا الناس بعدم حضور محاضراته بجامع قرطبة الكبير، ووصل الأمر بالمعتضد بن عباد صاحب إشبيلية في عصر الطوائف، أن أمر بحرق كتبه هناك. وفي ذلك يقول ابن حزم الذي تأثر بهذا الموقف المخزي:

إن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينزل إن أنزل ويدفن في قبري

واضطر في نهاية الأمر أن يعتزل الناس في بيته بلبلة بجوار إشبيلية حتى توفي سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م. وقد ركز الفقهاء هجومهم عليه من خلال كتابه الشهير (طوق الحمامة في الألفة والألاف) فاتهموه بالترويج للحب المباح وما إلى ذلك من أكاذيب ومظالم، فهذا الكتاب هو أول محاولة من نوعها في علم النفس التحليلي للعاطفة والمحبين[١].

ويؤخذ على الفقهاء المالكيين أنهم لم يبدعوا في مجال الفقه، وبقوا طوال حياتهم في الأندلس متعلقين بفروع الإمام مالك بن أنس، هذه الفروع التي كانت غير مرنة على الإطلاق، فجاؤوا، أي الفقهاء، فزادوها جموداً وتقوقعاً وتشدداً، وهذا ما شجع الغزالي على أن يشنّ هجوماً ساحقاً ضد الفقهاء الأندلسيين، الذين عاصرهم في عصر المرابطين، فاتهمهم بالضعف والضحالة والهشاشة، وتعمق في اتهاماته لهم بأن وصفهم بأنهم ليسوا أكثر من مجموعة تهتم بمصالحها الشخصية، متخذة من الغطاء الديني المعتمد على الفرع دون الأصل عاملاً مساعداً لها وعلى عادة المتعصبين في أي مجال، ردوا عليه رداً قاسياً، وتصرفوا حيال كتابه (إحياء علوم الدين) تصرفاً غير لائق على الإطلاق في المجال العلمي، فأفتوا بإحراقه حيثما وجد في الأندلس، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ضعف شديد في بضاعتهم العلمية وغيرتهم الدينية. وقد جاء هذا التصرف الأحمق من أنهم كانوا ممسكين ومسيطرين على مصادر القرار السياسي في الأندلس في عصر المرابطين، الذين ساروا وراء الفقهاء شوطاً بعيداً، دون أن يتنبهوا إلى مقاصد هؤلاء وما ينتج عن تصرفاتهم.

وفي عصر الموحدين أبدوا بعض المرونة، حينما بدؤوا بالاستفادة من تعاليم المذاهب الأخرى، بما يخدم التوجه العام الذي رسمه محمد بن تومرت للدعوة الموحدية، فقد استفادوا من العقلانيين، واستفادوا من الشيعة، وأخذوا من المذهب الظاهري، إلى غير ذلك.

---

(١) أحمد مختار العبادي . المرجع السابق ص٣٢٢.

مظاهر الحياة الأدبية في الأندلس

بدأ الأندلسيون حياتهم الأدبية مقلدين للأدباء والشعراء المشارقة، وهي مسألة كانت معروفة عندهم في شتى مجالات العلم والثقافة، ذلك أنهم كانوا يرون في المشارقة مثالاً إيجابياً يحتذى، ويرون في المشرق العربي مصدراً ثرّاً لجميع العلوم والفنون والآداب، وستبقى هذه الحالة مسيطرة على عقول الأندلسيين حتى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، حينما بدأ الأندلسيون يقفون بقوة أمام المشارقة في مجالات العلم والإبداع، وقد تميزت الأندلس بشكل خاص، بأن الشعراء فيها كانوا كثراً وأن أغراض شعرهم كانت متعددة الوجوه، فقد ظهر في طبقة الحكام شعراء مجيدون، وكذلك في طبقة الوزراء والموظفين وطبقة العامة.

ساعد على هذه الحالة الإيجابية المزدهرة، أن الأندلس كانت بيئة مشجعة، فهي تمتاز بطبيعة حافلة بالمفاتن والجمال، يجد فيها الشعراء مادة عظيمة لإهتماماتهم وموضوعاتهم. أضف إلى ذلك أن حكام الأندلس، أقبلوا على قول الشعر في بعض الأوقات، كما أقدموا على تعيين بعض الشعراء في الوظائف العليا كالوزارة وغيرها، كما كانوا على الدوام يكرّمون الشعراء ويغرقونهم بالهدايا والمكافآت المجزية، كل ذلك ساعد الشعراء أن يهتموا بشعرهم من حيث موضوعه وشكله ومضمونه. وعلى الرغم من أنهم عاشوا حياة رفاه وبحبوحة، فإنهم كانوا يتعرضون في بعض الأوقات لمحن صعبة، كثيراً ما أدت بهم إلى الموت بطريقة مأساوية لافتة، كما حدث لابن زيدون في دولة بني جهور بقرطبة، ولابن الخطيب في دولة بني الأحمر بقرطبة، ولابن عمار في دولة المعتمد بن عباد بإشبيلية.

لكن هذه الحالة لم تكن عامة على الإطلاق، فقد بقي العديد من الشعراء الأندلسيين المجيدين مغمورين مهملين على الرغم من قوة شعرهم وجزالته وأهمية موضوعاته، لأنهم كانوا يرون أن وجودهم في بلاطات الحكام امتهاناً لكرامتهم وسقوطاً لإنسانيتهم.

ومهما كانت صورة الأمر فإن الأندلسيين، كانوا يرون في الشعر ثقافة عالية مهمة، فأقبلوا على دراسة الشعر والعربية إلى جانب القرآن الكريم. وقد انعكس ذلك في أقوال بعض الفقهاء المتعصبين، رغم أنهم كانوا يرون في الشعر ضرباً غير محبوب، فقد كان الفقيه أبو بكر العربي الذي عاش في القرنين الخامس والسادس الهجريين (٤٦٨هـ-٥٤٣هـ)، يشيد ويثني على طريقة وأسلوب الأندلسيين الذي يتجسد في إقبالهم على دراسة الشعر قبل دراسة أي علم آخر، فكان يدعو على الدوام إلى ضرورة قراءة الشعر في البداية، ذلك لأن الشعر في نظره هو ديوان العرب[١].

وهكذا، كان الأندلسيون، يقدمون على دراسة الشعر الجاهلي والأموي والعباسي، هذا الشعر الذي حفل بالعديد من الضروب والفنون الإنسانية الجميلة، الأمر الذي انعكس إيجاباً على الشعر الأندلسي بعامة، فجاء شعراً حافلاً بكل ألوان القوة والجزالة والمعاني الإنسانية الراقية. ومما كان يدرس في مدارس الأندلسيين من دواوين الشعر وكتب الأدب، كتاب سقط الزند واللزوميات للمعري، وكتاب الحماسة لأبي تمام، والنقائض لجرير والفرزدق، وكتاب اليتيمة للثعالبي، وديوان ذي الرمة، ودواوين الأعشى وأبي تمام والمتنبي والصنوبري وأبي العتاهية، وكتاب طبقات الشعراء لابن قتيبة، وكتاب الطبقات لابن النحاس، وغير ذلك من كتب أدبية متفرقة كثيرة[٢]، مثل الكتب التي ضمت أشعار أبي نواس وابن الرومي والبحتري والمتنبي وابن المعتز، هذه الأشعار التي أثارت احترام وإعجاب الأندلسيين المهتمين في الشأن الأدبي العام.

أدت حالة انكباب الأندلسيين على دراسة أشعار المشارقة وآدابهم إلى بروز شعراء كبار، ظهروا في كل طبقات المجتمع الأندلسي دون تفريق، ذلك أن المدارس الأندلسية ودور العلم، كانت تقبل كل الراغبين في العلم دون

---

(١) ابن خلدون . المقدمة ص٥٣٩.

(٢) الرافعي . تاريخ آداب العرب ج٣ ص٣٣٢ وما بعدها.

استثناء، فعلى سبيل المثال ظهر شعراء من بين فاقدي البصر، الذين حملوا ألقاباً مثل الضرير أو المكفوف، مثل النحوي المشهور ابن سيدة الذي عاش بمرسية بشرق الأندلس، والشاعر الأعمى التطيلي. وظهر شعراء من الطبقة العاملة في حقل الزراعة، وهؤلاء الشعراء اشتهروا بوصف الطبيعة وصفاً دقيقاً بحكم تعاملهم معها وعيشهم في أحضانها، ومن أشهر هؤلاء الشعراء نذكر الشاعر ابن خفاجة، الذي اتسم شعره بالرقة والعذوبة، وابن عمار الذي عاش في أحضان الطبيعة، وغيرهما كثير(١).

إلى جانب ذلك، لم يبتعد السياسيون عن مسألة قرض الشعر، بل شارك فيه قادة أندلسيون مثل الأمير عبد الرحمن الداخل، والمظفر بن المنصور، ومحمد بن أبي عامر، والخليفة المستظهر بالله، والمعتضد بن عباد، وابنه المعتمد بن عباد، الذي اجتمع في شعره العديد من ضروب وفنون الأدب الأندلسي، ما جعله يقبل على تشجيع أصحاب الشعر، حتى أصبحت إشبيلية في عصره قاعدة شعرية مهمة مرموقة.

إن ما حدث في الأندلس في مجال الشعر والأدب، كان ظاهرة فريدة لم تحدث في أي صقع آخر كالمشرق على سبيل المثال، فالشعر في نظر الفلاح في الأندلس، كان هروباً من تأثير المتاعب، وكان في نظر الحاكم هروباً من متاعب الحكم والإدارة، وكان في نظر الشاعر المحترف مصدراً للرزق والتكسب، وبذلك يمكن القول، إن الشعر عند الأندلسيين كان مفخرة كبيرة ومصدر اعتزاز عظيم(٢).

وهناك ظاهرة أخرى في مسيرة الأدب الأندلسي، لا بد من ذكرها لأهميتها البالغة في المسيرة الخالدة، هي أن الشعراء الأندلسيين حتى نهاية عصر الخلافة الأموية(٣) كانوا ينحون بشكل عام نحو المشرق، ساعد على ذلك أن

---

(١) جودت الركابي . المرجع السابق ص٧٧.

(٢) جودت الركابي . المرجع السابق ص٧٨ وما بعدها.

(٣) انتهت هذه الخلافة سنة ٤٢٢ هـ.

الأمراء الأمويين وكذلك الخلفاء، كانوا يحلمون على الدوام باللحظة التي ينطلقون فيها إلى المشرق لإعادة ما كان لأجدادهم من حكم الدولة، لهذا نرى أن اتصالاتهم المختلفة لم تنقطع مع المشرق طوال هذه الفترة على الصعد كافة، هذا في الوقت الذي كانت فيه الهجرة مستمرة من المشرق إلى الأندلس وبالعكس، هذا بالإضافة إلى كل وسائل الاتصال الأخرى بين الطرفين(١). أما في الفترات التالية، فقد بدأت الأندلس تسير في اتجاه مستقل، ساعد في ظهور فنون أدبية جديدة مبتكرة، كان من أهمها الموشحات الأندلسية التي سادت لفترة طويلة وعلى نطاق واسع في الحياة الأدبية الأندلسية. اشتهر في الأندلس شعراء كبار، طارت سمعتهم في كل البلاد العربية، والبلاد التي كانت تنتسب إلى الثقافة العربية، وقد كان هؤلاء الشعراء من حيث شهرتهم وإنتاجهم، يشبهون إلى حد كبير شعراء المشرق وأدباءه، مثل ابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨هـ/٩٤٠م، والذي نال في عصر بني أمية في الأندلس دنيا عريضة من الاهتمام والإعجاب والرعاية، ذلك لأنه كان من أهم أبناء الأندلس في أوائل عصر الخلافة الأموية، فقد جمع بين الشعر والنثر، وكان كتابه (العقد الفريد) في النثر من أهم ما كتبه الأندلسيون في بابه، فهو كتاب يتضمن أخبار المشارقة فقط، لأنه كان يعد الشرق موئل كل شيء بما في ذلك الأدب. وابن هانئ الأندلسي المتوفى سنة ٣٦٣هـ/٩٧٤م، الذي عدّ في طليعة شعراء الأندلس في عصر الخليفة الناصر لدين الله، الذي لم يستطع أن يحميه من الفقهاء المتعصبين، الذين تكالبوا عليه واتهموه على عادتهم في حرب خصومهم بالمجون واللهو وترويج الفلسفة، فاضطر للجوء إلى المغرب، فاستقبله الفاطميون، الذين كانوا يشجعون كل العلماء المتنورين، بغض النظر عن عقائدهم وانتمائهم، وتوفي وهو في طريقه إلى مصر في بلدة برقة بشرق ليبيا. وقد كان حزن الفاطميين عليه كبيراً، تجلى في قول الخليفة الفاطمي المعز لدين الله حينما سمع خبر وفاته: «وكنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك» وذكر ابن خلكان أنه كان عند الأندلسيين بمنزلة

---

(١) انظر تفاصيل واسعة في كتابنا: الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام. طبعة دمشق ١٩٨٩.

المتنبي عند أهل المشرق(١). ويوسف بن هارون المعروف بالشاعر الرمادي المتوفى سنة ٤٠٣ هـ/١٠١٣م. وأبو بكر عامر بن شهيد الذي اشتهر برسالته (التوابع والزوابع) التي قيل عنها أنها تشبه رسالة الغفران للمعري(٢).

وفي عصر الطوائف في الأندلس، اشتهر العديد من الشعراء الذين طبعوا هذا العصر برونق شعرهم، وجذبهم الحكام إلى مقرات حكمهم لاستخدامهم كوسائل إعلامية ناجحة ضد الآخرين، ولعل خير مثال على ذلك أن المعتضد العبادي حاكم إشبيلية، كان قد خصص يوم الاثنين لاستقبال الشعراء في مقر حكمه، يتبادل معهم كل ألوان الشعر والأدب. ولما توفي خلفه في هذه المسألة ابنه المعتمد بن عباد، وتفوق عليه في قضية قرض الشعر والاهتمام به(٣).

وكان من أهم مظاهر اهتمام الناس في الشعر في عصر الطوائف، أن النساء أقبلن بشكل لافت على نظم القصائد الجميلة في مختلف الموضوعات. ومن الشاعرات اللواتي اشتهرن، حسانة التميمية، وأم السعد بنت عصام الحميري، وأم العلاء بنت يوسف الحجازية، والشاعرة الغسانية البيجانية، نسبة إلى مدينة بيجانة، وأم الكرام بنت المعتصم بن صمادح، ونزهون الغرناطية، وحفصة الحجازية، والرميكية زوج المعتمد بن عباد، وحفصة الركونية، ومهجة القرطبية، وولادة بنت المستكفي(٤). وفي أواخر عصر الطوائف وفترة طويلة من عصر المرابطين، بدأ الشعراء من خلال شعرهم، يعكسون واقعهم المعيشي وحال بيئتهم العامة، ولعل من أهم هؤلاء الشعراء إضافة إلى ما ذكرناه، الشاعر ابن حمديس الذي صور البيئة المغربية بكل ما فيها من جدة وحداثة خير تصوير، كما اشتهر عنه وصفه للطبيعة

---

(١) جودت الركابي . المرجع السابق ص٨٨.

(٢) المقري . نفح الطيب ج٢.

(٣) قام المصريان أحمد بدوي وحامد عبد الحميد جمع قصائد المعتمد بن عباد في ديوان يعرف بديوان المعتمد سنة ١٩٥١ بالقاهرة.

(٤) جودت الركابي . المرجع السابق ص٩٨.

في مختلف مظاهرها. والشاعر ابن خفاجة، الذي تميز عن غيره بدقة وصفه للطبيعة وبيئة بلاد الأندلس، وكذلك حبه لكل ألوان المرح والتمتع بالحياة، وقد لقب بالبستاني وأماكن الشجر، لأن مثل هذه الأماكن الطبيعية كانت في نظره مصدر الحياة المفرحة البعيدة عن كل ألوان الإزعاج والتضجر (١).

أما في العصر الموحدي وما تلاه، فقد تابع الشعراء برمتهم ما بدأه ابن حمديس وابن خفاجة، فركزوا على تعميق الحداثة والجدة وتجذيرها في الحياة الأدبية الأندلسية، وشمل ذلك تصوير البيئة بما فيها من موجودات، ولعل أهم الشعراء الذين تمثلت في شعرهم هذه الناحية المهمة، ابن عبدون وابن سهل ولسان الدين بن الخطيب وابن زمرك وغيرهم.

ويمكن أن نلخص ضروب الشعر الأندلسي وأغراضه في عدة ضروب، مثل المديح والرثاء والهجاء والحكمة والزهد والتصوف والحماسة والوصف والغزل، وهي أغراض كانت لا تختلف كثيراً عن ضروب الشعر وأغراضه في المشرق، وإن كان الشعر الأندلسي قد تميز برقته الممزوجة بالجزالة، وبخاصة في ميدان وصف الطبيعة. وإذا شئنا أن نوضح طبيعة كل غرض من هذه الأغراض نقول: أن المدح شمل وصف الطبيعة والخمر، وضم العديد من صور التملق والتعطف بعيداً عن الحقيقة، وإن الرثاء ركز على وصف المصيبة وإبراز المناقب، لكن رثاءهم للأماكن التي وقعت في قبضة العدو كان مؤثراً، عبروا فيه عن عظيم النكبة وجسامة الحدث، فجاء شعرهم مثيراً للحزن والبكاء، ولعل أهم رواد الرثاء في الأندلس كان الشاعر ابن اللبانة الذي بكى دولة ابن عباد، وابن عبدون الذي بكى دولة بني الأفطس، وأبو البقاء الرندي الذي بكى الأندلس برمتها في القصيدة التي مطلعها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان	**فلا يغر بطيب العيش إنسان**
هي الأمور كما شاهدتها دول	**من سره زمن ساءته أزمان** (٢)

---

(١) سيد نوفل . شعر الطبيعة في الأدب العربي ص٢٧٠ وما بعدها.

(٢) المقري . نفح الطيب . ج٦ ص٢٣٢ طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد.

وأمَّا الهجاء فلم يشتهر كبقية الضروب، ذلك أنَّ العرب ابتعدوا عن هذه المسألة لأنهم كانوا يشعرون أنهم في خطر ضمن ما يسمى بشبه الجزيرة الإيبيرية، وما كان من هذا في شعر الأندلسيين، كان موجهاً للأعداء وأما الحكمة فبدت ساذجة هشة بعيدة عن العمق والتأني والزهد كان منتشراً وسائداً بتأثير رجال الدين الذين دعوا الناس إلى الانصراف عن مباهج الدنيا، والاهتمام بما يعزز الحياة الآخرة عندهم. وشغل الشعراء دوراً مهماً في هذا الميدان، فأنشدوا أعظم القصائد وأعذبها. وشعر الحماسة اقتصر عند الأندلسيين على مدح رجال الحكم والسلطان، وغدا الغرض من شعر الحماسة في المقام الأول هو تقديم المديح لا غير، وقد تجسد ذلك بصورة لافتة في شعر الأندلسيين في عصر الطوائف. أما الوصف فأظهر فيه الأندلسيون عبقرية متميزة، وبخاصة في مجال وصف الطبيعة ووصف المنجزات العمرانية ومجالس الأنس والغناء والطرب وما إلى ذلك. والغزل كان من الشعر الأندلسي الراقي، ساعد على ذلك بيئة الأندلس الجميلة المليئة بمباهج الحياة والرفاهية، ومع ذلك فقد جاء الشعر الغزلي مقيداً بالعادات والتقاليد، باستثناء بعض التجاوزات في عصر الطوائف[١].

وعموماً فإن الشعر الأندلسي في مختلف أغراضه وأشكاله وموضوعاته لم يكن مختلفاً كثيراً عن شعر المشارقة، سوى أنه تميز برقته الممزوجة بالجزالة، وكذلك بتميز شعر الطبيعة الذي اشتهر فيه كما رأينا شعراء كبار، كان في طليعتهم ابن حمديس وابن خفاجة.

---

(١) انظر عن ذلك جودت الركابي. المرجع السابق ص١١٤ وما بعدها.

الفصل الرابع عشر

تطور العمران وهندسة البناء في الأندلس

كان الاهتمام بالعمران والبناء في الأندلس من السمات البارزة للعرب هناك، على الرغم من أن الأندلس كانت من أحفل البلاد بالعمارة والبنيان ولا بد أن ذلك يعود في الأساس إلى التوجه الحضاري الذي تحكم بالمسيرة العربية العامة حتى وقت متقدم من العصور الوسطى. وقد تفوق عرب الأندلس في هذا المجال إلى حدّ كبير، وتمثل تفوقهم في بناء العديد من المدن التي ما تزال قائمة حتى يومنا في إسبانيا، ويُعد بعضها من أحسن المدن الأوروبية، وكذلك في بناء الكثير من القصور الملكية، التي ما تزال شامخة حتى اليوم تشهد على حضارة مبدعة ومتقدمة. هذا بالإضافة إلى بناء المساجد العملاقة في حجمها واتساعها وهندستها ورونقها. وسندرس كل فرع من هذه الفروع العمرانية بشكل مستقل عن الآخر، حتى نقف على حقيقة وعظمة ما أنجزه العرب في الأندلس في هذا المجال، وعلى ما يدره ما تبقى من هذا المنجز الحضاري على إسبانيا من مال وخير، لأن السياحة الثقافية التي تشكل الآثار العربية الباقية أساسها، تشغل حيزاً كبيراً في حركة السياح من مختلف أنحاء العالم باتجاه إسبانيا، حتى يقف هؤلاء السياح على بعض منجزات حضارة كانت سيدة حضارات العالم في عصر ازدهارها.

١ - المدن:

لم تكن الأندلس بحاجة إلى بناء وإقامة مدن جديدة، حينما دخلها العرب في أواخر القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، لذلك نرى أن العرب هناك

سيبقون أكثر من مئة سنة دون أن يتحركوا في هذا الاتجاه، لأن المدن التي كانت قائمة في الأندلس كانت كافية لاستيعاب كل الأنشطة العربية. لكن الأمر تغير منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي بسبب تأثير بعض العوامل، التي تتعلق بالتطور العام في تلك الفترة من الزمن، التي يمكن أن نحددها بعوامل عسكرية، وعوامل اجتماعية، وأخرى اقتصادية بحتة، وكذلك سياسية. وسنشير إلى كلّ هذه العوامل في سياق الحديث التفصيلي عن هذه المدن.

بدأ ظهور المدن التي بناها العرب في الأندلس في عصر الإمارة الأموية. فبنيت ثلاث مدن هي مجريط (مدريد) ومرسية وطلمنكة. فمدينة مدريد بنيت في الأساس لتؤدي وظيفة عسكرية بحتة من خلال موقعها المتقدم باتجاه شمال شرق وشمال إسبانيا، فهي قريبة من الثغرين الأعلى والأوسط. وكانت أهميتها العسكرية بالغة، ذلك أنها شكلت إلى فترة زمنية طويلة قاعدة حشد عسكرية للجيوش العربية، التي كانت تنفذ عمليات عسكرية في شمال وشمال غرب إسبانيا، حيث تجمعت نواة المقاومة الإسبانية، ضد الوجود العربي. إذا أردنا أن نفصل في عملية بناء مدينة مدريد، فلا بد من القول إن فكرة بناء هذه المدينة تعود إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي كما ذكرنا، حينما تبين للعرب المسلمين أن الخط الدفاعي الواصل بين سرقسطة وطليطلة، لم يعد من القوة والمنعة بحيث يستطيع أصحابه الوقوف أمام اشتداد شوكة حركة الاسترداد الإسبانية، التي بدأت متماسكة وقوية في عصر ألفونسو الثالث الملقب بالعظيم، الذي حكم من سنة ٢٥٢هـ/٨٦٧م حتى سنة ٢٦٩هـ/٨٨٣م. فقد تمكن هذا الحاكم الإسباني أن يسيطر على معظم شمال إسبانيا، وأصبح يشن هجمات قوية على مواقع العرب المجاورة. ولم يكن أمام الأمير الأموي محمد بن عبد الرحمن سوى التصرف بسرعة للرد على هذا الواقع الخطير، وتجسد رده في تعزيز قواته العسكرية في مدن الثغر من خلال العديد من القلاع والحصون.

كانت مدينة مدريد في بداية أمرها حصناً كبقية الحصون المجاورة لها، لكن سرعان ما تطور هذا الحصن حتى أصبح مدينة مهمة كما يؤكد معظم الجغرافيين العرب، وكان اسمها القديم (مجريط)، وتتألف هذه الكلمة من

مقطعين (مجرى) وهو لفظ عربي خالص، و(يط) ومعناه الكثير، وبهذا يكون معنى الكلمة، المدينة التي تكثر فيها القنوات الجوفية، التي كانت تزود أهل المدينة بما يحتاجون من المياه[١].

إن أهم صعوبة واجهها العرب في مدينة مجريط، هي ندرة الماء فيها، الأمر الذي حدا بهم للبحث الجاد عن مصدر مائي يزود المدينة بالمياه اللازمة، وتمكنوا من خلال معرفتهم الهندسية في مجال تمديد المياه، أن يتغلبوا على هذه المعضلة، بأن عملوا على استنباط المياه من جوف الأرض ورفعها بآلات تشبه السواقي، التي كانت تستخدم على ضفاف الأنهار الكبرى في المشرق بخاصة، وهذه الآلات كانت تسمى النواعير. كذلك فقد زودوا مدينة مجريط بجزء من المياه التي عملوا على تجميعها في بحيرة اصطناعية قرب جبل (وادي الرمل)، وجُرَّت من هذه البحيرة إلى مدريد بوساطة قناة طويلة. وقد تجمعت مياه البحيرة من آبار غزيرة المياه حفرت في منطقة وادي الرمل، وكانت أعلى من مدينة مدريد لتأمين انسياب المياه بسهولة، وقد عُدَّ هذا النظام الهندسي من مفاخر الابتكارات الهندسية العربية في إسبانيا في العصور الوسطى. وتألفت مدينة مجريط عند بنائها من قسمين رئيسين هما: القصبة، وهي أمنع مواقع المدينة، وتقع على ربوة مرتفعة تطل على السهل المنبسط الذي يدعى الفحص، وفي شمال هذا الجزء يقع قصر الحاكم العربي، وهو الذي يقوم في موضعه الآن القصر الملكي. وإلى الجنوب الغربي من أسوار القصبة يقع باب الفحص، يقابل هذا الباب من ناحية الشرق باب داخلي، ويسمى باب المدينة. أما المدينة فكانت تقع إلى الجنوب الشرقي من القصبة، وكانت محوطة بالأسوار، ولها أربعة أبواب.

ومع مرور الأيام تحولت مدينة مجريط (مدريد) إلى مدينة كبيرة، وأخذت تتحول من ثغر عسكري إلى مدينة آهلة بكل أنواع السكان، من تجار وحرفيين وعلماء وغير ذلك، فقد ذكروا أن تعداد بيوتها وصل إلى نحو ٢١٦٨ بيتاً، ووصل

---

(١) F. W. Robinsthe story of water supply. Oxford University Press 1946. Pp.116 – 118.

عدد سكانها إلى نحو ١٣.٠٠٠ نسمة[١]. وشهدت حركة اقتصادية نشطة، وبخاصة في مجال التجارة والصناعة، ودليل ذلك أن شوارعها القديمة، لاتزال تحمل حتى اليوم أسماء أصحاب الصناعات المختلفة. واشتهر من هذه الصناعات على وجه الخصوص صناعة الأسلحة، فكما ذكرنا، أنشئت المدينة لتكون ثغراً أو قاعدة عسكرية متقدمة، كما اشتهرت صناعة الفخار والأدوات المنزلية[٢].

ولمدينة مدريد العربية ماضٍ تليد فيه ذكريات طيبة، وتعكس بشكل خاص عظمة هذه المدينة وأهميتها في فترة الازدهار العربي. من ذلك أنها كانت في عصر محمد بن أبي عامر، الذي حكم الأندلس معظم سني النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، كانت من أهم الثغور وأحبها إلى قلبه، فكثيراً ما انطلق منها في رحلات نضالية مظفرة، وكثيراً ما عاد إلى قرطبة عن طريقها[٣].

ومن مدينة مدريد انطلقت ثورة عبيد الله بن عبد الجبار على الخليفة الأموي المستكفي بالله، الذي حكم قرطبة سنة ونيف من ٤١٤ -٤١٥ هـ/١٠٢٤- ١٠٢٥ م، وكان يعرف قبل قيامه بهذه الثورة بالغلام العطار [٤] .

وفي عصر دول الطوائف كانت مدريد من نصيب طليطلة، التي كان يحكمها بنو ذي النون، وقد سيطر الإسبان على مدريد سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٦ م بقيادة ألفونسو السادس، بعد أن سيطر على الكثير من البلدان من حولها، مثال ذلك وادي الحجارة وطلمنكة وغيرهما، ولم يفلح المرابطون بعد نصرهم في معركة الزلاقة في إعادة مدريد إلى أيدي العرب، وكذلك الموحدون، على الرغم من المحاولات التي قام بها المرابطون بصورة خاصة[٥]. منذ ذلك الحين

---

(١) محمود علي مكي . مدريد العربية طبعة. وزارة الثقافة المصرية ص٧٤ وما بعدها.

(٢) محمود علي مكي . المرجع السابق ص٨٣ وما بعدها.

(٣) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٢٦٥.

(٤) ابن حزم . جمهرة أنساب العرب. نشر ليفي بروفنسال. طبعة القاهرة ١٩٤٨ ص٩٢.

(٥) ابن أبي زرع . روض القرطاس ج٢ ص٨٥ . السلاوي . الاستقصا ج٢ ص٥٩.

أصبحت مدينة مدريد مركزاً استراتيجياً له خطره الكبير على الوجود العربي في إسبانيا، حينما كانت غارات الإسبان تنطلق منها.

من ناحية أخرى، كانت مدريد مركز استقطاب لعدد كبير من الشخصيات العربية التي اهتم أصحابها ونذروا أنفسهم لأعمال المرابطة والنضال ضد حركة الاسترداد الإسبانية، التي كانت تهدف في المقام الأول إلى إنهاء الوجود العربي في إسبانيا. نذكر من هؤلاء إبراهيم بن محمد المعروف بابن القزازة. وعلى الرغم من علو مكانته في ميدان الفقه، فقد آثر حياة الجهاد والنضال والمثاغرة، فخرج إلى مدريد ومعه خمسة من تلاميذه القرطبيين، لكنه مات وهو في الطريق إلى مدريد[(١)].

ومن هؤلاء المثاغرين محمد بن حنين الأشنجي، الذي كان مرابطاً بمدريد حتى وفاته، في أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وموسى بن قاسم الطليطلي الذي كان من كبار علماء الحديث، انتقل إلى مدريد للجهاد والمثاغرة في الفترة التي سبقت سقوطها، وقد استشهد في الفحص (السهل) الذي يقع جنوب شرق مدريد[(٢)].

ومن المغرب الكبير جاء إلى مدريد للمرابطة والجهاد نفر، يمكن أن نذكر منهم جساس الزاهد، الذي بقي بمدريد وقتاً طويلاً يمارس ما نذر نفسه له، وهو الجهاد في سبيل الحرية[(٣)].

ومن مدريد أيضاً خرج العديد من العلماء، الذين طارت شهرتهم في عالم العصور الوسطى، وما زالوا يذكرون في ميدان العلم حتى اليوم، لعل في طليعتهم شهرة وعالمية العالم الفلكي مسلمة المجريطي، الذي قدم للإنسانية علماً جماً في مجال الفلك والتعرف على كثير من مظاهر الفضاء، وقد تطور علمه

---

(١) ابن الأبار . التكملة لكتاب الصلة. الترجمة رقم ٢ . ابن القوطية . تاريخ علماء الأندلس الترجمة رقم ١٠.

(٢) ابن بشكوال . كتاب الصلة. الترجمة رقم ١٢١٩.

(٣) محمد علي مكي . صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، عن كتاب أحكام السوق ليحيى بن عمر الأندلسي. طبعة ١٩٥٦ ص٨٢.

وتبلور في العديد من الحقائق العلمية التي استفادت منها أوروبا والعالم على يد العالم الزرقالي فيما بعد.

هذه هي مدريد التي تعد من أوائل المدن العربية، التي شيدها العرب في الأندلس في العصور الوسطى، وبقيت في أيديهم حتى أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، التي تطورت فيما بعد حتى أصبحت من أعظم مدن إسبانيا على الإطلاق، بعد أن اختيرت لتكون عاصمة البلاد السياسية، وما تزال هكذا حتى اليوم.

المدينة الأخرى التي بنيت في عصر الإمارة كانت مدينة مرسية بشرق الأندلس. وقد بنيت قبل مدينة مدريد، ومع ذلك فقد تحدثنا عن مدريد في البداية، منطلقين في ذلك من أهمية هذه المدينة في الماضي والحاضر. لقد بنيت مدينة مرسية في عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط، الذي حكم من سنة ٢٠٦هـ/٨٢٢م حتى سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢ م، وكان بناؤها على أنقاض مدينة قديمة هي مدينة تدمير، التي كانت من نصيب المصريين، حينما قام أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي بتوزيع أجناد الأندلس على الأقاليم والمدن الأندلسية، بما يتناسب مع بيئة هذه الأجناد قبل انتقالها إلى الأندلس، وقد حصل ذلك كما مرّ معنا في أواخر عصر الولاة.

وقصة بناء هذه المدينة أن فتنة قوية اشتعلت على أساس قبلي عصبي، بين القيسية واليمنية بتدمير في عصر عبد الرحمن الأوسط، واستمرت هذه الفتنة من سنة ٢٠٧ - ٢١٣ هـ/٨٢٣ - ٨٢٩ م، ولم تهدأ حتى قام الأمير عبد الرحمن الأوسط بإعطاء أوامر بهدم مدينة تدمير وبناء مدينة جديدة هي مدينة مرسية، التي لاتزال قائمة حتى اليوم في شرق إسبانيا(١)، وقد تم بناء هذه المدينة في سنة ٢١٦ هـ/٨٣١ م.

---

(١) الحميري . الروض المعطار ص١٨١- ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص١٢٤ وما بعدها.

أما في عصر الخلافة الأموية فقد بنيت عدة مدن ملكية وعسكرية وتجارية، اندثر بعضها وما يزال بعضها الآخر يعج بكل ألوان الحياة في إسبانيا. من أهم هذه المدن مدينة الزهراء، التي بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله، الذي كان في عصره من أعظم ملوك الدنيا، الأمر الذي جعله ينزع إلى تحقيق شيء على الأرض يعكس هذه العظمة، فأمر ببناء مدينة الزهراء لتكون دار الخلافة الجديدة التي أعلنها في الأندلس.

مهما يكن، ففي الحديث عن بناء مدينة الزهراء وبانيها عبد الرحمن الناصر لدين الله، لا بد من القول أن الوقوف أمام ذلك البناء الرائع، وأمام تلك الحضارة المتقدمة التي أنشأته، وأمام العزيمة القوية والصادقة التي أوجدت تلك الحضارة، ليس لأجل المباهاة والمفاخرة بالمجد العظيم الذي كان لأجدادنا، لأن في ثنايا ذلك المجد والتفاخر البراق اعترافاً بالمهانة والتقصير، يسبب لنا الألم والحزن العميق، وإنما ما ننشده ونريده من خلال استعراض هذه الزاوية الصغيرة من تاريخنا المشرق، هو أن نتذكر ونحن نعيش وقتاً من أصعب الأوقات التي مرت بها أمتنا العربية، إلى أي مدى استطعنا أن نقود العالم ونوجهه في ميدان المدنية والعمران، وهاهي المنجزات التي خلفناها، ومنها مدينة الزهراء.

تولدت فكرة بناء الزهراء عند الناصر لدين الله بعد مرور ربع قرن تقريباً على وجوده في حكم الأندلس، ففي سنة ٣٢٥ هـ/٩٣٧ م ماتت له سرية فتركت مالاً كثيراً جداً[١] فأمر الناصر أن يفك بذلك المال أسرى من العرب، لكنه لم يجد أسيراً واحداً، فشكر الله على ذلك. وكانت الرغبة في العمران مستقرة يومئذ في قلوب رجال الدولة العربية وعقولهم، فقالت له الزهراء زوجته: «اشتهيت لو بنيت لي مدينة سميتها باسمي وتكون خاصة لي»، فكان ذلك أحد الأسباب القوية في دفع الناصر لدين الله إلى البدء بعملية بناء مدينة الزهراء. وأما السبب الرئيس في ذلك فيعود إلى رغبة أكيدة تولدت عند الناصر لدين الله، يخلد نفسه

---

(١) المقري . نفح الطيب ج١ ص٥٢٣.

من خلالها، ولا بد أن هذه الرغبة تطورت أكثر بعد إعلان نفسه خليفة، الأمر الذي يفرض عليه أن يحيط نفسه بأبهة معينة من قصور وبناء للخدم والحشم والنساء ورجال الدولة من وزراء وغيرهم.

بنيت مدينة الزهراء إلى الشمال من مدينة قرطبة في السفح الجنوبي لجبل عروس على هيئة مستطيل طوله نحو ١٥٠٠م وعرضه ٧٥٠م، وعلى ثلاثة مسطحات متدرجة في الارتفاع. وتبعد عن قرطبة نحو خمسة أميال، يجري بينهما نهر الوادي الكبير، الذي تقوم الزهراء على ضفته(١). وقد احتوت على أبنية وقصور مختلفة للخليفة والوزراء والنساء على هيئة ما كان بقرطبة.

والحقيقة أن بناء الزهراء كان أعجوبة من أعاجيب الدنيا في ذلك الحين، لم يخطر مثل مخططها على بال أحد المهندسين. فإذا خرج الإنسان من باب قرطبة الشمالي في الطريق الذي تقع على يساره رصافة عبد الرحمن الداخل سائراً على ضفاف الوادي الكبير، بين غابات كثيفة ورياض غناء واسعة، لا يلبث ساعتين أو ثلاث حتى يبدو له باب هائل في هيئته، وهو باب مدينة الزهراء الذي يتصل به من جانبيه سور عظيم يحيط بالمدينة وفيه ثلاثمئة برج حربي، فإذا دخل من هذا الباب، وصل حدائق غناء وساحات رحبة واسعة الأرجاء، تطل عليها من قصور أعيان المملكة ورجال الدولة مبانٍ رائعة. بعد ذلك ينتقل إلى باب الأقباء، وهو أول أبواب القصر الخلافي، ثم بعد ذلك يأتي باب السدة الأعظم إلى غير ذلك من أمكنة(٢).

وفي مدينة الزهراء قصر الخلافة، الذي صُرف عليه الكثير من المال لشراء الذهب والرخام المتنوع والقرميد والعاج والآبنوس، وما إلى ذلك. وبالقرب من هذا القصر مسجد كبير، فرش جميعه بالرخام الخمري، تخير له الناصر

---

(١) ابن عربي . محاضرة الأبرار ج١ طبعة دار السعادة بالقاهرة ١٣٢٤ هـ ص١٤٩ . المقري نفح الطيب ج١ ص٥٢٣.

(٢) ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٥ ص٢٦.

لدين الله خطيباً عُرف بالصراحة والتقى وعدم المحاباة، هو القاضي منذر بن سعيد البلوطي، الذي وجه انتقاداته اللاذعة للخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله نتيجة صرفه على بناء هذه المدينة، وكان الخليفة يتقبل هذه الانتقادات بشيء من القبول والابتعاد عن ردات الفعل القوية(١).

اشتهرت مدينة الزهراء إضافة لما تقدم بأنها احتوت على حديقة للحيوانات، ربما كانت الأولى من نوعها في العصور الوسطى. كما اشتهرت بخزانتها العلمية التي أسسها الخليفة المتنور الحكم المستنصر، التي وصفت بأنها من أعظم خزانات الكتب في العالم آنذاك، فقد احتوت على ٤٤ فهرسة في كل فهرسة ٢٠ ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط. ساعد على ذلك اهتمام الخليفة الحكم المستنصر بالعلم بصورة مميزة عن جميع حكام الأندلس، فقد كان عالماً صافي السريرة، عمل على جلب العديد من المؤلفات العلمية من خارج الأندلس غير مهتم بما يصرف على ذلك من أموال جمة(٢).

استمرت عملية البناء فترة طويلة من الزمن، دامت أكثر من خمسة وعشرين عاماً، وقدرت النفقة عليها بثلاثمئة ألف دينار في كل عام، أي أن هذه النفقة بلغت في عصر الناصر لدين الله سبعة ملايين دينار ونصف المليون(٣).

ومنذ فترة تسعين عاماً مضت، كانت مدينة الزهراء لاتزال مندثرة بعد ذلك الذي حصل لها من تدمير في الفتنة، فبدأت الحكومة الإسبانية مشروعاً للبحث والتنقيب عن موقع هذه المدينة، معتمدة على ما جاء بشأنها من أوصاف دقيقة في مؤلفات العلماء العرب، وبخاصة عند الإدريسي الجغرافي الشهير، وقد تمكن المنقبون بقيادة المهندس الإسباني (بلاسكث بوسكو) من اكتشاف بعض أسوار

---

(١) ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص٢٨ . المقري . نفح الطيب ج١ ص٥٢٧.

(٢) ابن الأبار . التكملة لكتاب الصلة ج١ ص٢٧٦ . ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٢٣٣ . النبهاني . المرقبة العليا ص٦٩ . ٧٠.

(٣) المقري . نفح الطيب ج١ ص٥٦٤ . ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٥ ص٢٦.

وأعمدة وجدران تتعلق بالمدينة نفسها أو بالقصور الملكية، التي كانت قد أقيمت فيها، هذا بالإضافة إلى العديد من الأواني الخزفية وبعض الزخارف وقطع الرخام[١]. وتعد الآثار المكتشفة في هذه المدينة على قلتها عامل جذب كبير لمجموعات سياحية ضخمة، تعول الحكومة الإسبانية عليها، هي وغيرها، كمصدر مهم من مصادر الدخل القومي الإسباني.

وعموماً فإن مدينة الزهراء الأندلسية من المدن القليلة التي شيدها العرب في الأندلس، وهي إضافة لذلك تعد من روائع ما أنتجته الهندسة العربية على الأرض الأوروبية في العصور الوسطى، خططها وأبدعها عقل عربي متحضر في زمن كان فيه العرب يتطلعون دوماً إلى زيادة مجدهم وإنتاجهم العلمي المتميز، بعد أن سيطر تيار العلم وزخمه على تفكيرهم وعقولهم وتصرفاتهم، فارتفعوا عن الصغائر والترهات، وظلوا هكذا حتى سقوط دولة الخلافة على حين غرّة، وفي غفلة من غدر الزمن، حينما عادوا للتمسك بالقبلية والطائفية والعصبية، ومازالوا حتى اليوم يتخبطون في مستنقع السقوط هذا، في وقت وصلت فيه الأمم التي كانت تحت أيديهم إلى ذروة المجد والحضارة والتقدم.

اهتم الناصر لدين الله ببناء مدينة عسكرية مهمة، هي مدينة سالم، حتى يجعلها قاعدة دفاعية في مواجهة دولة قشتالة الإسبانية، التي كانت تتطور بسرعة فائقة نحو تشكيل جبهة قوية من الإسبان، من أجل التخلص من الوجود العربي في شبه الجزيرة الإيبيرية. وتقع مدينة سالم إلى الشمال من مدينة مدريد بنحو ١٥٣كم على الطريق المؤدي من مدريد إلى سرقسطة في شمال شرق إسبانيا. وكانت هذه المدينة في العصر الروماني معروفة باسم أوسيليس. وحينما دخل العرب الأندلس تحول اسم هذه المدينة وتغير، وحملت اسم رجل مغربي قام بتطوير عمارتها، وهذا الرجل هو كما ذكرت المصادر الأندلسية سالم بن ورعمال المصمودي، المعروف أيضاً باسم القائد سالم. ولكن هذه المدينة

---

(١) أحمد مختار العبادي . المرجع السابق ص٢٠٥.

المثاغرة تخربت وتهدمت معظم أحيائها في عصر الأمير الأموي عبد الله، الذي حكم الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وفي فترة حكم الناصر لدين الله، الذي خلف ذاك الأمير. أعيد ترميم هذه المدينة وبناؤها من جديد بإشراف أحد قادة الناصر العسكريين المشهورين، وهو مولاه غالب أو كما يعرف أحياناً القائد غالب، الذي أصبح قائداً لهذه المدينة كونها ثغراً ورباطاً متقدماً في مواجهة قشتالة، التي مثلت الخطر الأكبر على الوجود العربي منذ عصر الناصر لدين الله. وستبقى مدينة سالم من أهم ثغور الأندلس في عصر الخلافة، وبخاصة في ظل قائدها المولى غالب، الذي انتهى حكمه على هذه المدينة سنة ٣٦٧هـ/٩٧٨ م نتيجة خلافه مع الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر[1]. ويبدو أن المنصور كان يحب هذه المدينة المثاغرة، لأنه كان من أشهر الذين حكموا الأندلس اهتماماً بالجهاد والمرابطة والمثاغرة، فاختار أن يدفن فيها بعد مرض انتابه وهو في طريق عودته من إحدى غزواته الشهيرة سنة ٣٩٢هـ/١٠٠٢م.

ومن المدن التي بناها الناصر لدين الله أيضاً، مدينة المرية على الساحل الجنوبي للأندلس بالقرب من غرناطة. وكان بناء هذه المدينة دليلاً كبيراً على ازدهار الاقتصاد العربي في الأندلس في عصر الخلافة الأموية، وبخاصة التجارة، فقد أصبحت المرية من أهم الموانئ الأوروبية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في مجال التصدير والاستيراد.

شيدت هذه المدينة بأمر من الناصر لدين الله سنة ٣٤٤هـ/٩٥٦م، وربما اختيرت لأن تكون المرفأ الأكبر والأشهر في الأندلس، لأن هذا المرفأ محوط بكل عوامل الأمان الطبيعية، فهو محمي ضد هذه العوامل، وبخاصة الرياح، مما يجعل السفن تقصده وترسو فيه بأمان. وكانت المراكب تقصد هذه المدينة من الشام والمغرب تحمل إليها البضائع وبالعكس. وما كثرة الفنادق المخصصة

(١) ابن حزم . جمهرة أنساب العرب ص٤٦٦ . ابن عذاري . البيان المغرب.

لنوم الوافدين إليها واستراحتهم سوى دليل أكيد على غزارة ما يؤمها من التجار من المشرق والمغرب(١).

وتطورت مدينة المرية بسرعة فائقة بعد بنائها كما يشير الحميري في الروض المعطار بقوله: «وقد كانت مراكب التجار من الإسكندرية والشام تقصد مدينة المرية وهي كثيرة الخيرات وفيها ألف فندق إلا ثلاثون فندقاً»(٢).

ازدادت أهمية هذه المدينة مع مرور الأيام، ليس فقط لأنها أهم الموانئ البحرية على سواحل الأندلس من الناحية التجارية، بل لأنها أصبحت أيضاً مدينة صناعية من الدرجة الممتازة، ما عزز مركزها التجاري بشكل أكبر من ذي قبل. ففي الربع الأخير من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وهي فترة حكم المرابطين الأولى، كانت المرية قد أصبحت مستقراً لكل الصناعات في الأندلس تقريباً. يقول الحميري في الروض المعطار عن ذلك: «وكانت المرية أيام الملثمين مدينة الإسلام، وبها من كل الصناعات كل غريبة، وكان بها من طراز، الحرير ٨٠٠ طراز وتعمل الحلل والديباج والأصبهاني والجرجاني والستور الملكية والثياب... وكانت فيما تقدم تصنع بها من صنوف آلات النحاس والحديد ما لا يحد»(٣).

ويمكن أن نذكر للناصر أيضاً بناء مدينة لم تشتهر كثيراً، هي مدينة الفتح التي بناها سنة ٣١٨هـ/٩٣١م مقابل مدينة طليطلة أو بالقرب منها، وكان ذلك إثر فشله في دخول مدينة طليطلة، التي استعصت عليه في البداية، فما كان منه إلا أن بنى هذه المدينة، وظل مقيماً فيها يشرف على حصار طليطلة حتى سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م، حينما تفاقمت أمور الطليطليين فسلموا مدينتهم لعبد الرحمن الناصر، على الرغم من طلب المعونة من الإسبان(٤). ومنذ ذلك الحين

---

(١) الإدريسي . صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس. طبعة ليدن ١٨٦٤ ص١٩٢.

(٢) الحميري . الروض المعطار ص٥٣٨.

(٣) الحميري . الروض المعطار ص٥٣٨.

(٤) ابن حيان . المقتبس ص٨٤.

لم يعد لهذه المدينة أي ذكر على الإطلاق، ولا بد أن ذلك يعود إلى شهرة وعظمة طليطلة كقاعدة للثغر الأوسط في الأندلس.

كانت مدينة الزاهرة آخر المدن التي أنشئت في هذا العصر، أي عصر الخلافة الأموية في الأندلس. بناها الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر بتأثير عقدة النقص عنده، وكذلك حب الظهور والمفاخرة والتشبه بالآخرين، ولا سيما الخلفاء الأمويون. فحينما نجح في الوصول إلى حكم الأندلس سنة ٣٦٧ هـ/٩٧٨م أحب أن يخلد نفسه من خلال بناء هذه المدينة، كما فعل الناصر لدين الله صاحب مدينة الزهراء سابقة الذكر، فقرر بناء مدينة جديدة إلى الشرق من مدينة قرطبة بنحو ستة كيلومترات، لتكون قاعدة لحكمه تقيه شرَّ المعارضة التي كان على الدوام، يتوجس منها خيفة، وقد عاش ومات وهو يعاني من هاجس هذه المعارضة، فقد كان يشعر بعدم شرعية حكمه على الإطلاق لأنه ليس من العائلة الأموية.

استمر بناء مدينة الزاهرة نحو ثلاث سنوات، وانتهت في سنة ٣٧٠هـ/٩٨١م، وقد ضمت قصر الحكم وقصور الوزراء ومكان إقامة الموظفين الآخرين، كما ضمت العديد من المنشآت والمرافق على غرار ما كان بالزهراء، ولكن ليس تماماً من حيث البذخ والفخامة وما إلى ذلك. وقد أقام فيها المنصور محمد بن أبي عامر طوال فترة حكمه، وكذلك ابنه عبد الملك وابنه عبد الرحمن شنجول حتى أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. ولكنها لم تلغ دور العاصمة الأولى قرطبة، وبقيت كما بقيت الزهراء من قبلها عبارة عن قصر كبير للحكم في ضاحية قرطبة الشرقية(١).

وقد دمرت هذه المدينة في الفتنة الكبرى في الأندلس، التي أدت إلى سقوط الخلافة نهائياً. ويبدو أن التدمير كان كبيراً وشاملاً، ذلك أنه أتى على

(١) الحميري . الروض المعطار ص٥٦ وما بعدها. ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص٢٠٠ وما بعدها . ابن حزم . جمهرة أنساب العرب ص٤٦٦.

المدينة برمتها، وهذا ما يعكس ضخامة الحقد على العامريين الذين اغتصبوا حق الخلفاء الأمويين بالحكم. ولم يتمكن المنقبون الآثاريون من أن يحصلوا على شيء من أساس أو بنيان هذه المدينة كما حصل بالنسبة لمدينة الزهراء التي اكتشف مخططها العام وبعض موجوداتها الأخرى.

وهكذا، فإن ذكر هذه المدن في هذا الوقت بالذات، ما هو إلا مثال حي يعيدنا بسهولة ويسر إلى بعض الماضي العربي الحافل بالمجد والعطاءات، التي كانت نتيجة إيجابية من النتائج التي تمخضت عن تماسكنا ووحدتنا وسعينا لبناء ما ينفع الإنسانية جمعاء. فما أحوجنا، نحن عرب هذا الزمن، إلى روح التعاون والتعاضد والوفاق، لا لأجل السيطرة على شعوب الدنيا من جديد، بل لنشارك ولو بجزء يسير في عملية بناء صرح الحضارة الإنسانية المتسارعة النمو، التي نقف على هامشها متفرجين، لا نملك عمل شيء بعد أن تقطعت أوصالنا بخناجر الفرقة والتشتت والإقليمية البغيضة.

٢ - بناء المساجد:

رغم أن الأمويين لم يكونوا يعطون المسألة الدينية ذلك الاهتمام الكبير، وكانوا أقرب إلى العلمانية أو ما يسمى بفصل الدين عن الدولة، رغم ذلك التوجه الطيب فإنهم صرفوا أموالاً طائلة على بناء المساجد، التي كانت تؤدي عدة وظائف اجتماعية في الأندلس في عصرهم، مثل تأدية فرض الصلاة وممارسة عملية التعليم، ذلك أن المسجد في العصور الوسطى، بقي المكان الأهم لممارسة عملية التدريس والتعليم بشكل عام.

ومن أهم المساجد التي بنيت في الأندلس في الفترة الأولى من حكم العرب هناك، كان مسجد قرطبة الذي بدأ بتطويره ووضع أسسه الأمير الأموي الأول عبد الرحمن الداخل، الذي أراد أن يحاكي ما فعله أجداده الأمويون في المشرق، ولا سيما الوليد بن عبد الملك الذي بنى المسجد الأموي بدمشق، والمسجد الأقصى بالقدس، ووسع المسجد النبوي بالمدينة المنورة. وقد أراد عبد الرحمن الداخل أن يكون مسجد

قرطبة صورة طبق الأصل عن مسجد بني أمية بدمشق، إذ حاول على الدوام، أن يجسد الحياة الشامية على أرض الأندلس قدر إمكانه في المجالات كافة. انتهى عبد الرحمن الداخل من بناء هذا المسجد سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م، وجاء بناؤه مشابهاً إلى حدّ كبير بناء مسجد دمشق الكبير، وبخاصة في بناء العقود المزدوجة التي تساعد على ارتفاع السقف، ثم في وضع المئذنة، وفي نواحٍ أخرى(١).

وتتالت الزيادات على هذا المسجد في عصر الأمراء والخلفاء الأمويين، الذين رأوا في هذه الزيادات ضرورة دينية كبيرة، وبخاصة بعد أن ساد المذهب المالكي في الأندلس كمذهب وحيد(٢). ويرى فقهاء هذا المذهب أنه لا يجوز للمسلمين أن يصلوا صلاة الجمعة إلا في مسجد واحد ضمن المدينة الواحدة، هذا بالإضافة إلى أن أعداد المسلمين كانت في حالة ازدياد مع مرور الزمن، ولم تنته الخلافة الأموية في الأندلس حتى أصبح مسجد قرطبة من أعظم مساجد الدنيا في العصور الوسطى، من حيث ضخامته واتساعه، ومن حيث رونقه ودقة صنعته وتنفيذه وكلفته المادية.

وحينما جاء الأمير هشام الرضا إلى الحكم بعد وفاة والده عبد الرحمن الداخل، اهتم بمسجد قرطبة الكبير الذي أسسه والده اهتماماً كبيراً، وتجسد ذلك على أرض الواقع بتوسيعه هذا المسجد، فأضاف إليه المئذنة والميضأة وبعض السقائف. وهذا الأمر ليس غريباً على الأمير هشام الرضا، إذا عرفنا أنه كان رجلاً متديناً، عكس والده، وعكس ابنه الحكم الربضي.

وفي عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط، جرت على المسجد الأموي بقرطبة زيادة كبيرة، من ناحية المحراب باتجاه الجنوب، وقيل إن عرض هذه الزيادة بلغ خمسين ذراعاً، وبلغ طولها مئة وخمسين ذراعاً، وبلغ عدد السواري في هذه الزيادة ثمانين سارية، ثم أمر بعد ذلك بنقل المحراب القديم إلى نهاية جدار القبلة الجديد الذي وصلت إليه الزيادة، وقد حصلت هذه الزيادة المهمة سنة ٢٣٤هـ/ ٨٤٩م، أي

---

(١) ابن عذاري ـ البيان المغرب ج٢ ص٧٢.

(٢) بدأت هذه الزيادة منذ عصر الأمير هشام الرضا الذي حكم من ١٧٢ ـ ١٨٠هـ.

قبل وفاة الأمير عبد الرحمن الأوسط بأربع سنوات[١]. كذلك اهتم الخلفاء الأمويون بزيادة هذا المسجد أحياناً وبترميمه أحياناً أخرى، ففي عصر الخليفة الناصر لدين الله وُجد أن المئذنة التي بناها الأمير هشام الرضا، بدأت بالتصدع فأمر الخليفة الناصر بإزالتها نهائياً وبنائها من جديد وزيادة ارتفاعها السابق الذي وصل إلى أربعين ذراعاً فأصبحت ثمانين ذراعاً، وبلغ عدد أدراج كل مطلع حتى نهاية المئذنة مئة وسبع درجات، وحصل ذلك سنة ٣٤٠هـ/٩٥٢م.

لكن ما حدث في زمن ابنه الحكم المستنصر كان أكبر بكثير، وقد تجسد ذلك بزيادة كبيرة بهذا المسجد في قسمه الجنوبي، وهي زيادة جاءت لتواكب الزيادة الكبيرة في عدد المصلين في هذا المسجد. كما زوده بالماء العذب من عين ماء بجبل قرطبة، عبر الهندسة المائية التي كانت متقدمة في هذا العصر، كما سبق وتحدثنا عنها بالتفصيل، وهي هندسة الفقارات والخطارات، التي اعتمدت أنابيب من فخار وغيره[٢].

أما الزيادة الأخيرة في مسجد الأمويين بقرطبة، فقد نفذها الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر في الجانب الشرقي من المسجد، ما اضطره إلى هدم العديد من البيوت في هذه الجهة، بعد التعويض لأصحابها بما يوازي قيمة بيوتهم، وقد حصلت هذه الزيادة سنة ٣٨٠هـ/١٠٠١م[٣] وكان المنصور يريد على الدوام أن يرضي رجال الدين والعامة، لذلك فإن إقدامه على هذه الزيادة المكلفة مالياً، كان من أجل ذلك.

هذا ومن الجدير بالذكر، أن الحكام الأندلسيين حتى عصر الخلافة، لم يحصروا اهتمامهم بمسجد قرطبة فحسب، بل أمروا ببناء العديد من المساجد في قرطبة وخارجها، وشاركهم في ذلك بعض نسائهم وجواريهم.

---

(١) ابن عذاري. البيان المغرب ج٢ ص ٨٢ و ٢٣٠. عبد العزيز سالم. المساجد والقصور في الأندلس ص ١٩ وما بعدها.

(٢) أحمد مختار العبادي. المرجع السابق ص ٢١٢.

(٣) ابن عذاري. البيان المغرب ج٢ ص ٢٨٨. ابن الخطيب. أعمال الأعلام ص ٧٦.

لكن العصور التالية لم تشهد ذلك الاهتمام ببناء مساجد تماثل مسجد قرطبة، باستثناء عصر الموحدين الذي شهد بناء مسجد كبير بإشبيلية، قيل إنه يفوق في حجمه واتساعه أي مسجد آخر في الأندلس. وقد بني هذا المسجد في الفترة بين ٥٦٧ - ٥٧٠هـ. وفي عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م أمر الخليفة أبو يعقوب المنصور ببناء ملحقات لهذا المسجد، وأشرف على ذلك المهندس الذي اشتهر في عصر الموحدين، وهو أحمد بن باسة، الذي أبدع بصنع المصاعد إلى أعلى مئذنة بالجامع على طريقة السطوح المائلة، كما صنعت صومعة لهذا المسجد قيل إنه لا يوجد نظير لها في المساجد الأخرى، فهي متميزة في ارتفاعها، وفي طريقة صنعها العجيبة. وما زالت هذه الصومعة قائمة بإشبيلية، ويسميها الإسبان الخيرالدا أي الدوارة(١).

٣ - القصور:

كانت عادة بناء القصور في الأندلس، وبخاصة في عصر الإمارة والخلافة الأموية، استمراراً لما كان سائداً في عصر الأمويين في المشرق، حيث بنوا العديد من القصور في سورية والأردن وفلسطين وغيرها، وأمضوا معظم حياتهم في هذه القصور رغم ازدهار عاصمتهم دمشق. وكان عبد الرحمن الداخل مؤسس الإمارة الأموية في الأندلس، أول من بنى قصراً إلى جوار العاصمة قرطبة تقليداً لأجداده الأمويين، فهذا الأمير كان يريد أن يجسد الحياة الأموية في المشرق على أرض الأندلس، متأثراً بتيار حنين إلى المشرق لم يفارقه طوال حياته، رغم ما كان ينعم به في الأندلس من حياة رافهة، في طبيعة مناسبة، وفي بيئة جميلة بكل مظاهرها وأشكالها.

ويظهر ذلك الواقع من خلال التسمية التي أطلقها على أول قصر ريفي في تاريخ العالم الغربي، فقد سماه قصر الرصافة أو منية الرصافة، وذلك تيمناً برصافة جده هشام بن عبد الملك الذي تربى في كنفه بمحافظة الرقة السورية اليوم. وتقع هذه المنية إلى الشمال الغربي من قرطبة في سفح جبل قرطبة، وكان عبد الرحمن الداخل

---

(١) ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة ص ٤٦١ وما بعدها.

يقضي فيها معظم أيام الصيف، وكانت تؤدي وظيفة مهمة بالنسبة له، وهي الرغبة في الابتعاد عن أماكن الازدحام، والخلود إلى حياة الهدوء والاستمتاع بمباهج الطبيعة غير المتكلفة أو المصطنعة. كما قام ابنه عبد الله ببناء منية أخرى ببلنسية سماها أيضاً منية الرصافة، التي ما تزال موجودة حتى اليوم[١].

يتتالى بعد ذلك ظهور القصور الريفية أو المنى، وذلك تقليداً لعبد الرحمن الداخل الذي يُعد الرائد في مجال نقل الكثير من مظاهر الحياة المشرقية إلى الأندلس. فقد بنى عبد الرحمن الأوسط قصراً جديداً إلى جوار قصر الإمارة بقرطبة، وقد اعتنى ببنائه أكثر من عبد الرحمن الداخل، الذي كان قصره أقرب إلى حياة البساطة والابتعاد عن مظاهر الترف والبذخ. بنى عبد الرحمن الأوسط العديد من الأبراج في قصره، وغطاها بالزجاج الشفاف ليتمكن من كشف المناظر الطبيعية، التي يطل عليها القصر، ولا سيما منظر السفن وهي تمخر الوادي الكبير. وأضاف إلى ذلك أن أمر ببناء قصر لبعض جواريه المحببات إلى قلبه، سماه قصر أو دار المدنيات[٢]، وقد بني هذا القصر بمدينة قرطبة حباً وتقديراً من الأمير عبد الرحمن الأوسط لمسائل الموسيقا والغناء وما يتصل بذلك، لأن اللواتي نزلن به كنَّ من المغنيات المقربات إليه، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على مدى الرقي والتقدم الذي وصل إليه العرب المسلمون في الأندلس، فكانوا رسل حضارة حقيقيين إلى أوروبا والعالم. وحينما خبت هذه الروح الطليعية المتحضرة، خبت شمس العرب وبدا ظلامهم قاتماً عكسته مظاهر الجهل والتعصب الديني والتغييب المستمر، وهي مظاهر كلفت الأمة العربية كثيراً، حينما سببت لها مزيداً من القهر والذلة والتقهقر والتدهور، وما إلى ذلك من أمور مجحفة ومؤلمة.

نشطت عملية بناء القصور في عصر دويلات الطوائف، حتى أصبح ذلك ملمحاً مميزاً لحكام هذا العصر غير الميمون. ويرجع سبب هذا النشاط في المقام الأول إلى حب الظهور والتميز، ذلك أنَّ حكام دويلات الطوائف كانوا

---

(١) أحمد مختار العبادي. المرجع السابق ص ١٠٨.

(٢) انظر عن ذلك كتابنا: الاصطلاحات الحضارية. مادة دار المدنيات.

غير متوافقين، ومن ثمَّ سعى كل واحد منهم بشتى الطرق لأن تبدو دولته بمظهر عام يتميز عن كل الدويلات المجاورة. وقد انعكس هذا الواقع في جزء كبير منه في إقدام حكام الطوائف على التنافس في بناء القصور الحكومية، التي أرادوا من خلالها أن يبرهنوا على عظيم سيادتهم وسلطانهم. ورغم أن كل حاكم من هؤلاء الحكام بنى لنفسه قصراً، كي يكون داراً لحكومته وعاصمة لدولته، فإن بعض هذه القصور تميز عن البقية بعدد من الملامح التي جعلته محور اهتمام الكتاب والمهتمين، على الرغم من أن هناك عبارة عامة، كثيراً ما ذكرها الكتاب حينما كتبوا عن هذه القصور، هي (تحار فيه الأبصار). ومن أمثلة هذه القصور المتميزة، قصر أبي يحيي محمد بن معن بن صمادح حاكم المرية، الذي قام ببناء قصر بديع في موقعه العام وفي أجزائه المختلفة، فقد حرص أن يكون هذا القصر في موقع متوسط بين الجبل والبحر، وأن يكون وسط بستان ذي أرض خصبة، تجود فيها كل الثمار التي جلبت إليه من الشرق والغرب. وكان على عدة طوابق بحيث كان الجالس في أحدها، يتمتع بسهولة بمشاهدة ما يجري في مرفأ المرية من حركة للسفن القادمة والمغادرة، كون مرفأ المرية أصبح منذ بنائه في عصر الناصر لدين الله الأموي، أحد أكبر وأنشط المرافئ جنوب غرب أوروبا، أي في إسبانيا والبرتغال. وقد بُلطت أرض هذا القصر بالرخام الجميل، وزينت جدرانه بالنقوش والزخارف الأنيقة، وكان من بينها زخارف ذهبية(١).

وحينما انفرد المأمون بن ذي النون بحكم مدينة طليطلة في عصر الطوائف، بنى لنفسه قصراً بديعاً للغاية، عكس صورة البذخ الكبيرة التي ركز عليها المأمون، فاستخدم في هذا القصر الكثير من المرمر في العديد من أقسامه، وكذلك الزجاج الملون بعدة ألوان، وزينت أماكن عديدة أيضاً في هذا القصر بالذهب والفضة وصور الطيور والحيوانات(٢).

---

(١) العذري . ترصيع الأخبار ص٨٤ . ٨٥.

(٢) ابن بسام . الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ف ٤ ج ١ ص ١٠٢ وما بعدها.

كما بنى المعتمد بن عباد في إشبيلية قصراً مماثلاً من حيث البناء والحجم، ولكنه كان متفوقاً من حيث مظاهر الترف والبذخ، فقد احتوى هذا القصر على تمثال لفيل يقذف منه الماء باتجاه بركة القصر، وتمثال لجمل صنع من البلور، كانت عيناه عبارة عن ياقوتتين جميلتين، أضف إلى ذلك أنه زُين بنفائس أخرى(١).

لم يقتصر البذخ في هذه القصور على الملامح الخارجية منها، بل شمل ذلك الحياة اليومية التي كانت تعاش وتمارس داخل هذه القصور. نذكر من ذلك حرص المعتمد بن عباد على تحقيق حلم جاريته الرميكية، التي كان يهيم بها غراماً وحباً، وقد تجسد حلم هذه الجارية بإعادة صورة حياتها السابقة قبل أن تأتي إلى قصر المعتمد، بأن يهيئ لها أرضاً موحلة تخوض فيها كما كانت تفعل في الماضي، فأمر لها المعتمد بذلك، لكنه أمر بأن يكون الطين من معجون الكافور والعنبر، وقد كانت تجري بعض الصور المشابهة في قصور بني ذي النون وغيرها(٢).

وقد تطورت هذه القصور مع الأيام، حتى أصبحت في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي مراكز بحوث متقدمة من أجل تطوير الزراعة بكل أنواعها، وكان من رواد هذا البحث، العالمان العربيان ابن البصال وابن العوام، اللذان شكلا ثورة علمية حقيقية في مجال التطوير الزراعي في الأندلس، ساعدهما في ذلك أن القصور، وبخاصة في بإشبيلية وطليطلة، كانت تمتلك الأراضي الخصبة المناسبة لإجراء التجارب الزراعية على مدار السنة.

وفي أواخر الحكم العربي في الأندلس، الذي مثله بنو الأحمر في غرناطة وما حولها، شهدت غرناطة عملاً هائلاً في مجال القصور الحكومية، تجسد على أرض الواقع في قصور بني الأحمر في منطقة الحمراء بغرناطة نفسها.

---

(١) المقري. نفح الطيب ج٥ ص٣٩٣ وما بعدها.

(٢) ابن بسام. المصدر السابق ق٤ ج١ ص١٠١ . ١٠٢.

الفصل الخامس عشر

مظاهر الإدارة العامة في الأندلس

تعد الإدارة في الأندلس مظهراً مهماً من مظاهر الحضارة، لأنها شغلت دوراً عظيماً في ترتيب البيت العربي الأندلسي على أساس من القوة والسير نحو التطور والازدهار. فحينما كانت الإدارة حريصة وحازمة وجادة، كانت الدولة العربية قوية في كل المجالات، كما حدث في النصف الأول من فترة حكم الأمراء الأمويين، وكما حدث في عصر الخلافة الأموية، ففي هاتين الفترتين كانت الإدارة العربية حذرة وحريصة وجادة إلى حد كبير، الأمر الذي ساعد على استمرار الحكم دون أيّ معوقات تذكر على الصعيدين السياسي والاقتصادي.

كذلك، فقد كانت الأمور في العصور التالية، باستثناء عصر الطوائف، تسير باتجاه الأفضل ولا سيما في عصر المرابطين والموحدين، وفي عصر بني الأحمر بغرناطة. فقد توافر في حكام هذه الفترات مقدار كبير من الحزم والعمل المستمر في طريق الحفاظ على الحكم قوياً، ودليل ذلك صنع وحدة المغرب الكبير مع الأندلس في عصر المرابطين والموحدين.

ففي مجال انتقال السلطة بين الحكام، لم تعرف الأندلس قاعدة ثابتة يمكن تحديدها، بل كانت هذه المسألة تابعة على الدوام لمشيئة وقرار الحاكم، فكان بعض الحكام يعطون الحكم أو يوصون به لأبنائهم من بعدهم، وهي الحالة التي حدثت في معظم الأوقات، وكان بعضهم يورثون الحكم لإخوتهم أو بعض أقاربهم أو بعض معاونيهم، أي بحسب ما كانوا يرونه مناسباً أو بحسب الظروف التي كانت تتحكم بالموقف السياسي العام.

وقد تبلورت هذه الأمور على هذه الشاكلة منذ عصر الإمارة الأموية، فعلى الرغم من قوة الأمراء الأمويين، فإنهم لم يتطرفوا في إعطاء أنفسهم مزيداً من الألقاب السياسية والدينية، وربما فعلوا ذلك بسبب حرصهم الشديد على عدم إثارة الآخرين ضدهم[١]. ونجح الأمراء الأمويون إلى حد كبير في كبح جماح العصبية القبلية في مجتمعاتهم، لأنهم رأوا فيها خطراً كبيراً على وحدة الدولة واستقلالها. وجعلوا مكان هذه العصبية مبدأ الطاعة والولاء لشخص الأمير الذي يقوم بدوره بتطبيق القانون العام الناظم لكل شؤون ومصالح الدولة. لكن ينبغي أن نبيّن أن الأمراء الأمويين الذين تمكنوا من تنفيذ هذه السياسة، هم فقط الأمير المؤسس عبد الرحمن الداخل، وابنه هشام الرضا، والحكم الربضي، وعبد الرحمن الأوسط، أما بقية الأمراء فلم يتمكنوا من كبح جماح التمردات والانفصالات التي حدثت في الأندلس في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي.

لكن هذه الأمور لم تكن تحصل بصورة طبيعية في معظم الأحيان، فعلى الرغم من قوة الأمراء الأمويين الأوائل وجبروتهم، فإنهم واجهوا العديد من الحركات المعارضة، التي قادها رجال من أقربائهم كانوا يرون أنفسهم أجدر من الأمراء لمسألة الحكم، لكن كل هذه الحركات آلت إلى الفشل، وانتهى قادتها نهايات مختلفة فبعضهم قُتل، وبعضهم سُجن، وبعضهم هرب إلى غير ذلك من أمور.

وفي عصر الخلافة سار الخلفاء على هذه القاعدة وطبقوها في حيواتهم السياسية إلى أبعد الحدود. لكنهم زادوا على الأمراء بأن أعلنوا أنفسهم خلفاء وأعطوا لشخصياتهم ألقاباً خلافية، مثل الناصر لدين الله، والمستنصر، والمؤيد، وطبقوا كل ما يستوجب هذه الألقاب من تصرفات وتقاليد، وكان إعلانهم الخلافة رداً على إعلان الفاطميين الخلافة في المغرب، وكذلك رداً على تحكم الأتراك الغرباء بالخلافة العباسية.

---

(١) ابن خلدون . المقدمة، ص ٢٢٨.

وفي عصر دويلات الطوائف انهارت وحدة الأندلس ومزقت شر ممزق، وأصبحت في كل مدينة دويلة تختلف عن الأخرى في توجهها وتركيبتها، ومع ذلك فقد أبقى حكام دويلات الطوائف على مسألة إبقاء الحكم في أقربائهم دون بقية الشعب.

أما في عصر المرابطين فقد سقطت كل دول الطوائف في الأندلس، وكونت الأندلس مع المغرب الكبير دولة موحدة تحت سلطة الأمراء المرابطين، الذين أعلنوا تبعيتهم للخلافة العباسية الاسمية، ما جعل الخلفاء العباسيين يعطون الأمير المرابطي لقب أمير المسلمين في المغرب، كما كان يسمي نفسه منذ البداية.

وقد اختلف هذا الواقع في عصر الموحدين، حينما أعطى الحكام الموحدون لأنفسهم ألقاباً خلافية مستقلة عن العباسيين وغيرهم، وكانوا يرون في أنفسهم الأنموذج القريب للصحة والحقيقة. وعُرف من ألقابهم الخلافية المنصور والناصر والمستعين إلى غير ذلك. ومع ذلك فقد فشلت الخلافة الموحدية في جمع كلمة المسلمين تحت راية واحدة، كما فشلت قبل ذلك الخلافة العباسية والخلافة الأموية والخلافة الفاطمية، وهذا يدل بوضوح على أن الدين لم يكن أكثر من ستار أو واجهة معينة لتحقيق مآرب سياسية ومصلحية بعينها.

وبصورة عامة، فقد كانت كل الخلافات في الأندلس والمغرب من النوع الإشكالي، ذلك لأنها جميعها قامت على أساس عدم احترام ما يماثلها، وسقطت سقوطاً هائلاً حينما اعتمدت الخلاف المذهبي أساساً لشرعيتها وحقها في الحكم والسلطة. فالمذهبية كانت ولا تزال وستبقى من أخطر ما يمزق شمل الأمة ويبدد جهودها العامة، دون الوصول إلى نتيجة إيجابية. وبذلك تكون هذه الخلافات برمتها، قد ابتعدت عن سيرة الخلافة الراشدية الأولى، التي اعتمدت على مبدأ الشورى، الذي لم يكن أكثر من مبدأ ظاهري براق، ذلك لأن الشورى في الخلافة الأولى، لم تكن شورى كاملة أي لم يشترك كل المسلمين في قضية انتخاب الخلفاء الراشدين. وكانت الخلافة بعد الراشدين أقرب إلى الملكية منها

إلى الشورى والانتخاب، الأمر الذي جعلها مسألة غير محترمة في نظر الكثيرين، لأنها أصبحت لا تمثل مصالح الأكثرية بقدر ما تمثل مصلحة القلة، وهذه القلة تتمثل بالخليفة وأقربائه من أهله وعائلته.

بقي أن نقول إن الخلافة في الأندلس، سواء منها الأموية أو الموحدية، كانت تختلف عن الخلافة العباسية في قضية رئيسة، هي أن الخلافة العباسية في نظر أصحابها، كانت خلافة تتعلق بالحق الطبيعي الموروث، بمعنى أن العباسيين جاؤوا إلى الأرض ليمثلوا العناية الإلهية فيها، بإرادة هذه العناية ومشيئتها على حد قولهم.

كانت الوزارة في الأندلس قد شغلت المنصب الإداري الثاني، الذي يلي مباشرة منصب الحاكم أو الأمير أو الخليفة. والوزارة في الأندلس كانت تعرف بالحجابة، فالحاجب هو الوزير، وكبير الحجاب هو بمنزلة رئيس الوزراء أو الوزير الأكبر.

ظهر منصب الحاجب (الوزير) أول مرة في عصر الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط، الذي أولاه عناية فائقة ورعاية كبيرة، لما تشغله الوزارة من أهمية بالغة في إدارة الدولة ورعاية شؤونها، فلم يكتف بوزير واحد أو وزارة معينة، بل قام بتعيين عدد من الوزراء يقوم كل واحد منهم بمهمة تختلف عن الآخر، كما هو قائم في عصرنا الراهن. وكان هؤلاء الوزراء يحضرون يومياً إلى قصر الإمارة بقرطبة لمعاضدة الأمير في حل مشكلات الدولة، وكان لهم في القصر جناح خاص يمارسون فيه نشاطاتهم، عُرف ببيت الوزارة(١). وقد بلغ عدد الوزراء في عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط تسعة وزراء، لكل واحد اختصاصه المعين، فكان هناك وزير للمالية، ووزير للترسيل والمكاتبات، ووزير للنظر في قضايا وحاجات الناس ومظالمهم، ووزير للنظر في شؤون الثغور، إلى غير ذلك. وكبير الحجَّاب كان صلة وصل مستمرة بينهم وبين الحاكم. وذكر أن راتب الوزير في عصر الإمارة بلغ ثلاثمئة دينار في الشهر الواحد.

---

(١) ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص ١٢١.

وعلى الرغم من أسبقية المشرق العربي في قضية ظهور الوزارة، فإن الأندلسيين سبقوا المشارقة في مسألة تعدد الوزراء وتوزيعهم بحسب مهماتهم واختصاصهم، ولا بد أن هذا النظام كان متقدماً جداً في ذلك العصر، لأنه يشبه تماماً الأنظمة المعاصرة. وقد انحصرت الوزارة للأسف في العائلات الأرستقراطية، التي شغلت أدواراً مختلفة في عصر الأمويين بقرطبة وغيرها، ويرجع ذلك إلى أن غالبية، إن لم يكن كل هذه العائلات، من الموالين للأمويين. نذكر من هذه العائلات على سبيل المثال، عائلة بني فطيس، وعائلة بني شهيد، وعائلة أبي عبدة، وعائلة بني حدير وغيرها(١).

وفي عصور الحكام الذين جاؤوا بعد عبد الرحمن الأوسط، تطورت الوزارة من خلال الوزراء أنفسهم، وبخاصة من خلال عملهم الذي أصبح متنوعاً، وفي غير اتجاه. فغدا الوزير يعمل قائداً لمجموعة عسكرية يقودها لتنفيذ مهمة معينة، وفي أحيان أخرى يعمل في السفارة أو في مهنة علمية كالطب أو غير ذلك.

ومن الجدير بالذكر أن الوزارة بدءاً من عصر الخلافة الأموية في الأندلس، لم تعد حكراً على العائلات العربية الأرستقراطية، أو العائلات التي ذكرنا أنها كانت من موالي الأمويين. فقد شغل الوزارة في عصر الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر بعض اليهود، وهو حسداي بن إسحق بن شبروط المتوفى بقرطبة سنة ٣٥٩هـ/٩٧٠م، وقد ساعده للوصول إلى هذا المنصب الرفيع تعمقه في شتى أنواع الثقافة العربية، وكذلك التسامح العربي الواسع في عصر الخلافة مع أهل الذمة، الذين أعطوا حريات واسعة لم توازيها فترة أخرى من فترات السيادة العربية في الأندلس أو في غيرها. وكان هذا اليهودي بمنزلة وزير للخارجية بالمفهوم المعاصر، فكثيراً ما كان يشاوره الناصر لدين الله في مسائل الدولة الكبيرة الخارجية منها والداخلية، هذا بالإضافة إلى أنه كان طبيبه الخاص(٢).

---

(١) المقري . نفح الطيب ج١ ص ١٩٩ وما بعدها . ابن خلدون المقدمة ص ٢٣٩.
(٢) صاعد الأندلسي . المصدر السابق ص ٣٠٣ . ٣٠٤.

أما فيما بعد هذه الفترة، فقد اختلف الأمر بصورة جذرية، فحينما سقطت الخلافة الأموية في الأندلس، وظهر عدد كبير من دويلات الطوائف، كان التناحر والتقاتل القاسم المشترك فيما بينها، الأمر الذي أدى إلى استخدام العناصر غير العربية في مجال الوزارة، وبرز اليهود بشكل خاص في هذا المجال. ولا يرجع بروز اليهود على هذا الصعيد إلى تغافل زعماء الطوائف عن بعض المسائل المهمة فحسب، بل إنه يرجع أيضاً إلى أن هؤلاء الزعماء ورثوا من الذين سبقوهم في الحكم في العصور السابقة، مسألة التعامل مع السكان في دولهم على أساس إنساني يؤمن بحق العيش للجميع، طالما أن الحقوق السياسية محفوظة ومصونة، لذلك فقد استخدموا اليهود على هذا الأساس، الذي يدل على عمق النظرة العربية، التي تقوم على حق الحياة للجميع دون النظر إلى الأصول الدينية أو العرقية.

ورغم هذه النظرة الإنسانية المتقدمة للعرب، فإنهم للأسف لم يوفقوا إلى جعل الآخرين، وبخاصة اليهود منهم، يعملون وفاقاً لها، كأن يقوموا على الأقل بشيء من رد الجميل للعرب بالوقوف معهم وقفة صدق وإخلاص، وقد حدث العكس تماماً حينما استغل اليهود وجودهم في أعلى المناصب الإدارية، فأساؤوا للعرب من خلال الوقوف ضد مصالحهم الوطنية والاقتصادية والإنسانية(١).

وكان أحدهم وهو إسماعيل بن نغريلة بمنزلة رئيس وزراء للزيريين، تحكم في كل شيء في غرناطة، وحاول مرة أن يسلم غرناطة لابن صمادح صاحب المرية، لكن المؤامرة التي أعدّ لها بعناية اكتشفت في الوقت المناسب، ورغم ذلك فإن الحاكم الزيري، لغبائه وجبنه، لم يصدق أن رئيس وزرائه يعمل ذلك، ما جعل هذا الأخير يستمر في غيّه وتحكمه في أمور غرناطة، من خلال اعتماده على جواسيس وصلوا إلى حدّ معرفة ما يفعله الحاكم الزيري في أثناء خلوته، وتطور الأمر ليشمل قضايا أكثر حساسية ودقة وتأثيراً، فقد كان لباديس بن حبوس ولد اسمه بلقين، وكان مرشحاً للحكم من بعده، يكره الوزير

---

(١) ابن بسام الشنتريني – الذخيرة ق ١ ج٢، ص ٢٦٦ وما بعدها.

اليهودي ابن النغريلة كثيراً، وفي إحدى الليالي استدرجه إلى وليمة في بيته، ووضع له السم في كأس الشراب، ومات إثر ذلك، وحينما سأل والده عن سبب وفاته أقنعه الوزير اليهودي بأن بعض فتيانه، وربما بعض جواريه، دسوا له شيئاً من السم فمات، فقام باديس بقتل العديد من الجواري والفتيان، ومن أبناء عمومته، ومرّ وقت طويل حتى انكشفت له الحقيقة فأمر بقتل مجموعة كبيرة من اليهود في طليعتهم الوزير ابن النغريلة(١). ولا شك في أن استهانة الزيريين بالكوادر العربية المحلية وعدم الاعتماد عليها، ظناً منهم أنها لا تفي بالغرض المطلوب، هي التي ساعدت الوزير اليهودي، سابق الذكر، على التمادي في أعماله وتصرفاته.

ومع ذلك الذي حدث فإن الزيريين بقوا يعتمدون على اليهود في وزارتهم مستبعدين العرب والمغاربة على حدّ سواء، إيماناً منهم بأن اليهود لا يطمعون في الحكم بعكس العرب والمغاربة، فعينوا لوزارتهم صموئيل هاليفي الذي عُدَّ في عصره من كبار مثقفي الأندلس، وسار في الوزارة عكس الوزير سابق الذكر، فصار يستعمل في مراسلاته كل العبارات التي يفضلها العرب والمسلمون، وكان يكرم العلماء والشعراء وأهل المعرفة، وكان يسهل مصالح أبناء جنسه من اليهود، ويعنى عناية فائقة بالشبيبة اليهودية، ويتفقد الفقراء منهم بسدّ حاجتهم في كل المجالات، واهتم بنسخ المشنا والتلمود وتوزيعها على تلاميذ اليهود، وشملت مساعداته ومكارمه أهل صقلية والمغرب والمشرق، فاعترف له الجميع بالولاء والمحبة والجميل، ومنحوه لقب (ناغد) أي زعيم اليهود في غرناطة(٢).

ويمكن أن نستنتج من سيرة الوزير صموئيل هاليفي، أن الوزراء اليهود لم يكونوا ملتزمين بحدود ما كلفوا به من عمل، مثل تسيير أمور ومصالح الدولة العامة، بل استغلوا مناصبهم ومراكزهم في أعلى الهرم الإداري في الدولة لتطوير

---

(١) – الأمير عبد الله – كتاب التبيان، ص٤٨ وما بعدها. ابن عذاري – البيان، ج٣، ص٢٦٤.

(٢) - دوزي . ملوك الطوائف ص ١٣٩.

وإصلاح أحوال أبناء جنسهم من اليهود في حدود ما تسمح لهم قدرتهم على ذلك، كما يفعلون اليوم في كل أنحاء العالم، فهم لا يعطون أي ولاء أو تأييد لأي أمر من الأمور مهما كان صغيراً وتافهاً، إلا إذا كان ذلك يعود عليهم بالنفع والفائدة.

ولم يكن الوزراء اليهود هم وحدهم، الذين تدخلوا في المسألة السياسية في الأندلس لصالحهم، بل شمل ذلك العرب الذين شغلوا الوزارة في عصور مختلفة. ففي عصر الخلافة الأموية في الأندلس، أدَّى بعض الوزراء دوراً بالغ الأهمية في السياسة العامة للدولة، نضرب على ذلك مثلاً ما فعله الوزير جعفر بن عثمان المصحفي بعد وفاة الخليفة الحكم المستنصر، الذي كان يعمل كبيراً لوزرائه خلال فترة حكمه التي استمرت ستة عشر عاماً. فقد حاول هذا الوزير أن يضع حداً لتدخل الصقالبة في الحكم، حينما أجهض أول محاولة سياسية لهم كانوا قد عينوا بموجبها خليفة للحكم المستنصر، هو المغيرة بن عبد الرحمن الناصر، فقام جعفر ابن عثمان المصحفي بحبك مؤامرة بالتعاون مع وزير آخر هو محمد بن أبي عامر ضد مرشح الصقالبة، فقتلوه وعينوا بدلاً عنه ابن الحكم المستنصر هشاماً المؤيد، وهي أول عملية من نوعها يقوم بها الوزراء في الأندلس[١].

أما التدخل الأكبر في شؤون الحكم فقد نفذه الوزير محمد بن أبي عامر بعد وفاة الخليفة الحكم المستنصر، حينما سيطر على الأمور السياسية في الأندلس، وقاد البلاد باسم الخليفة هشام المؤيد فترة طويلة من الزمن، حاول إبانها خلق نوع من التوازن في المجتمع الأندلسي، كلفه الكثير من الجهد والسهر والمحاباة، ما أدى إلى ضرب الروح العلمية والحضارية، التي كانت في أوج ازدهارها حينما انفرد بحكم الأندلس، فقد اضطر كما مرّ معنا إلى مجاراة رجال الدين في قضايا حساسة، انعكست سلباً على المجتمع العربي في مختلف الحقول، وذلك من أجل أن يقفوا في صفه ويؤيدوه في مسألة اغتصابه سلطة

---

(١) ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص ٤٤.

الخلفاء الأمويين، وهي عملية جاءت فريدة في تاريخ الأندلس، ذلك لأنها عكست تسلط وانتصار الوزارة على الخلافة لأول مرة في تاريخ الحكم العربي في الأندلس حتى النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي[١]. وقد سببت هذه الحادثة نكسات كثيرة مع مرور الأيام، أدت إلى سقوط الخلافة الأموية وسيادة حالة من التجزؤ والتشرذم والانحطاط والهزيمة، تمثلت بدويلات الطوائف التي عجزت عن الدفاع عن الأندلس العربية.

وفي عصر الطوائف تمكن بعض الوزراء من الانفراد ببعض المناطق، واستقل بها كنتيجة للخلافات التي وقعت بينهم وبين رجال الحكم. وقد مثل ذلك التيار الوزير ابن عمار، الذي كان وزيراً محبباً ومقرباً من المعتمد بن عباد حاكم إشبيلية، وبفعل الوشايات حدثت الفرقة بين الطرفين، وانقلبت المحبة إلى كراهية وهاجم كل طرف الآخر، واستقل ابن عمار بمرسية مدة من الزمن، تنقل بعدها في العديد من مناطق الأندلس، حتى وقع أسيراً بيد الإسبان الذين سلموه للمعتمد بن عباد بعد أن دفع مبلغاً كبيراً من المال، فوضعه في السجن، وكاد أن يعفو عنه لولا بعض الحساد والمتربصين كابن زيدون وابن عيسى وغيرهما، الذين نجحوا في حقن ابن عباد بمزيد من الحقد على الوزير ابن عمار، حتى أقدم على قتله بيده، لتنتهي حياة واحد من ألمع الوزراء في عصره ثقافة وكياسة وسياسة[٢]. وتعد هذه الحادثة فريدة من نوعها في تاريخ الصراع بين الوزراء والحكام في الأندلس، سقط فيها المعتمد بن عباد في مستنقع الجريمة والوحشية.

اضمحل شأن الوزارة في عصر المرابطين والموحدين في الأندلس، ففي عصر المرابطين سيطر الفقهاء على مصدر القرار المرابطي، فقد اعتمد الحكام المرابطون اعتماداً كبيراً على مشورة الفقهاء، الذين نصبوا أنفسهم مكان الوزراء، وحلوا محلهم في كل شيء، انطلاقاً من أنهم ادعوا لأنفسهم المعرفة العلمية

---

(١) انظر عن محمد بن أبي عامر . ابن عذاري . البيان المغرب ج٢ ص ٢٨٦.

(٢) دوزي . ملوك الطوائف ص ٢٥٦ وما بعدها.

والسياسية، وهي مزية توافرت في كل الوزراء الذين شغلوا هذا المنصب الرفيع في العصور السابقة. وكانت سيطرة الفقهاء شبه كاملة، ما جعل العصر المرابطي يدعى بعصر سيطرة الفقهاء.

كذلك استمر هذا الاضمحلال في العصر الموحدي، لكن سببه لم يكن متعلقاً بالفقهاء كما في العصر المرابطي، بل كان يتعلق بوجود مؤسسات ظهرت لأول مرة في هذا العصر، حلت بشكل أو بآخر مكان الوزراء، وهذه المؤسسات هي المجالس التي أحدثها مؤسس الدعوة الموحدية محمد بن تومرت في بداية أمره، نذكر منها مجلس العشرة ومجلس العشرين ومجلس الخمسين، وكانت تتألف من كبار الشخصيات، الذين كانوا يجتمعون برئاسة الخليفة لحل المشكلات المهمة، أو البت في القضايا الملحة، الأمر الذي أدى إلى ضعف منصب الوزارة.

أما في عصر بني الأحمر بغرناطة، فقد عادت الوزارة إلى سابق عهدها من الأهمية والقوة والازدهار. وشغل الوزراء في هذا العصر دوراً مهماً في الحياة السياسية والعسكرية والعلمية، وأدت شهرة بعضهم إلى إثارة مخاوف الحكام، فأمروا بقتلهم، كما حدث للوزير الشهير لسان الدين بن الخطيب، الذي كان من أفضل ما عرفته الوزارة في الأندلس علماً وجاهاً وسياسة وخبرة في ميدان الإدارة والسفارة، ومع ذلك نجح الواشون والحاسدون في تعكير صفو حياته، حينما أقنعوا حاكم غرناطة الغني بالله بخطورته على حكمه بشكل عام، مع أنه لم يكن يفكر بذلك على الإطلاق، ذلك لأنه عاش طوال حياته متمتعاً بالمال والجاه والقدر العظيم، وحاول ابن الخطيب أن يهرب إلى المغرب الأقصى، إلى حاضرة بني مرين، عله يجد فيها الحماية وراحة البال، مما كان يدور حوله من مؤامرات على حياته قادها ضده تلميذه ابن زمرك، وقاضي الجماعة بغرناطة أبي الحسن النباهي[(١)]، ولكنها لم تحمه سوى لفترة وجيزة، حيث لاقى فيها حتفه مقتولاً نتيجة فتوى ظالمة، أفتى بها جماعة من فقهاء

(١) محمد عبد الله عنان. لسان الدين بن الخطيب. طبعة أولى القاهرة ١٩٦٨ ص٣٧ وما بعدها.

السوء على عادتهم القبيحة في ملاحقة العظام والمتنورين. وبذلك انتهت حياة وزير جليل، كان شعلة من نور في عصر خيم عليه ظلام ليل الفقهاء، وكان أحد أعلام الأمة دون منازع، وأعظم من ظهر في الأندلس في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وكان عبقرية لا تنتهي في الطب والفلسفة والأدب والتاريخ والسياسة والسفارة والإدارة والوزارة.

ومن اللافت للانتباه في مرتبة الوزارة في الأندلس في العصور الوسطى، أن معظم الذين شغلوها كانوا من العلماء والأدباء المتفوقين، الأمر الذي مكنهم من النجاح في كل أعمالهم وممارساتهم، حتى اليهود منهم كانوا من المتضلعين بشؤون العلم والثقافة والفكر، وبخاصة صموئيل هاليفي الذي تفوق على معاصريه في الإقبال على ثقافة العرب وحضارتهم. كل ذلك يدل على مكانة الوزارة وأهميتها في حياة الأندلسيين في العصور الوسطى.

أما المنصب الإداري المهم الذي جاء بعد الوزارة من حيث الأهمية، فكان منصب القضاء، الذي كان وما يزال يمثل ركناً من أهم الأركان، التي يقوم عليها بناء المجتمعات والأمم في كل زمان ومكان، فإذا كان القانون هو الذي يحدد المسار العام، الذي يجب على الجميع احترامه والسير بمقتضاه، فإن القضاء هو الذي يشرف بأمانة على تطبيق القانون، ويجعله دوماً يسير على الطريق القويم دون محاباة لأحد، مهما كانت ظروفه ومواقعه وأحواله.

وقد ثبت بالتجربة والبرهان والواقع، أن الأمم التي نجحت وأصبحت عبر تاريخ الإنسانية الطويل ذات مكانة مرموقة تحت الشمس لها وزنها ودورها الدولي، ثبت أن وراء ذلك قضاء نقياً طاهراً ليس عند أصحابه سوى تطبيق القانون والتشريع على جميع أفراد الدولة والمجتمع. وثبت أيضاً أن وراء انهيار بعض المجتمعات وتأخرها عبر التاريخ حتى يومنا هذا، كان القضاء الفاسد الذي لم يحترم القانون، فرجح أصحابه الباطل على الحق، والظلم على العدل فانتشرت الفوضى، وسقطت كل القيم الإنسانية العظيمة.

نظراً لخطورة منصب القضاء في حياة المجتمعات، فقد حرص الأندلسيون على التأكيد على مسألة اختيار القاضي، التي كانت تخضع لقواعد صارمة من أجل أن يبقى منصب القضاء محافظاً على استقلاله وهيئته وتقديره، كما كان في العصر الأموي بالمشرق(١). وقد استمر ذلك طوال عصر الولاة في الأندلس الذي انتهى سنة ١٣٨هـ/٧٥٦م بوصول عبد الرحمن الداخل إلى سدة الحكم وإعلانه الإمارة الأموية فيها. وعلى الرغم من أن عصر الولاة تميز بالقلق والاضطراب وعدم الاستقرار، إلَّا أن القضاء ظل معروفاً أكثر من غيره في ميدان الإدارة، وبقي صورة صادقة لما كان يجري في بقية الولايات العربية في ظل الحكم الأموي، باستثناء التسمية التي أطلقت على القاضي، ففي حين كان يسمى في المشرق قاضياً، كان يسمى في الأندلس قاضي الجماعة(٢).

أما أساليب القضاة في عصر الولاة في مجالسهم القضائية، فلم تكن جميعها على وتيرة واحدة، كأن نقول إنه كانت لهم طريقة أو قانون يسيرون بهديه ويطبقون ما يحتويه، إنما اختار كل منهم أسلوبه الخاص المميز من حيث متابعة القضايا أو من حيث المكان الذي كانوا يقضون فيه، أو من حيث الأبهة أو المظهر العام للقاضي، الذي كان له بالغ الأثر في نفوس المتقاضين والمتخاصمين. فقد كان القاضي مهاجر بن نوفل القرشي على سبيل المثال يتبع أسلوباً رائعاً في مجلس قضائه، هو أنه كان يبدأ استجواب المتهمين بتخويفهم وترهيبهم، ولا سيما الذين كانوا يدعون الباطل، بأنهم سينالون عقوبات كبيرة في الدار الآخرة، ثم يقوم بعد ذلك بالبكاء المر، فكانوا يتأثرون بذلك فيلجؤون إلى الصلح ومسامحة بعضهم بعضاً(٣).

أما الفترة التالية لعصر الولاة فيمكن تقسيمها من حيث تطور القضاء إلى قسمين متميزين، الأول وينتهي سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م على يد المرابطين، الذين

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب. كتاب العمر. طبعة أولى بيروت دار الغرب الإسلامي ص٢٢٠.
(٢) خير الله طلفاق. حضارة العرب بالأندلس. طبعة دار الحرية بغداد ١٩٧٧ ص١٢-١٣.
(٣) الخشني. قضاة قرطبة ص ١٢. ١٣.

قدموا من المغرب الكبير لنصرة الأندلسيين ضد حركة الاسترداد الإسبانية، بعد أن وصلت أحوالهم إلى أعلى درجات الذلة والمهانة والاضطراب. وقد شهدت هذه الفترة الطويلة عدة أنواع من الحكم والدول، مثل دولة الإمارة والخلافة الأموية ودويلات الطوائف. وفي هذه الفترة أصبحت خطة القضاء في الأندلس من أعظم الخطط عند الخاصة والعامة لتعلقها بأمور الدين، وكون السلطان يمثل أمام القاضي عند الضرورة(١).

في بداية الحديث عن هذه الفترة، يمكن أن ننوه بأهم مصادر التشريع، التي كان يعتمد عليها القضاة من أجل استنباط الأحكام الصحيحة. كان في مقدمة هذه المصادر القرآن الكريم، ثم السنة النبوية الشريفة، كما جاء في رسالة موجهة من عقبة بن الحجاج إلى القاضي مهدي بن مسلم حين ولاه القضاء، ونقلها الخشني في كتابه (قضاة قرطبة) التي تقول: «وأمره أن يتخذ كتاب الله وسنة نبيه محمد (ص) إماماً يهتدي بنورهما، وعلماً يعشو إليهما، وسراجاً يستضاء بهما، فإن فيهما هدى من كل ضلالة، وكشفاً لكل جهالة، وتفصيلاً لكل مشكل، وإبانة لكل شبهة، وبرهاناً ساطعاً ودليلاً شافياً ومناراً عالياً، وشفاء لما في القلوب وهدى للمؤمنين»(٢).

والتزم بذلك جميع قضاة الأندلس، لكن الشيء الثابت أن مذهب الإمام مالك هو الذي ساد الأندلس منذ النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد. وبقي هذا المذهب وحيداً لم تقم لغيره قائمة إبَّان العصور الوسطى، فكان الأندلسيون يقولون: «لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ الإمام مالك»، وسائر المغرب إلى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي. وبنظرهم كان الأئمة اثنين، أبو حنيفة لأهل المشرق ومالك لأهل المغرب(٣).

---

(١) شكيب أرسلان . الحلل السندسية ج١ ص ٢٥٢.

(٢) الخشني . قضاة قرطبة ص ٦.

(٣) شكيب أرسلان . المرجع السابق ص ١٢.

أما عن صفات القاضي في هذه الفترة، فقد اتفقوا على أوصاف معينة كانت شبه ثابتة، حددها بالأندلس الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز إبان عصر الولاة، الذي اشتهر عنه قوله بالشخص المرشح لتسلم القضاء: «لا يصلح للقضاء إلا القوي على أمر الناس، المستخف بسخطهم وملامتهم في حق الله، العالم بأنه مهما اقترب من سخط الناس وملامتهم في الحق والعدل والقصد، استفاد بذلك ثمناً ربيحاً من رضوان الله»(١).

على هذا كان اختيار القاضي صعباً، يعتمد على أسس قلما تبدلت في تاريخ النظام القضائي في الأندلس، وكثيراً ما كان القاضي يُختار من الشخصيات العلمية والأخلاقية المتميزة. ولأهمية هذا الأمر عند حكام الأندلس، قام الأمير الأموي الحكم بن هشام باعتماد يحيى بن يحيى الليثي في مسألة اختيار القضاة، فكان لا يُعيِّن قاض في كل بلدان الأندلس إلا بمشورته واختياره، وكان لا ينوه إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه من المؤهلين لمنصب القضاء، وتعززت ثقة الحكم به، بعد أن رفض منصب القضاء على أهميته وجلالته(٢).

في مستهل حكم الإمارة الأموية في الأندلس حصل تطور حضاري مهم في ميدان تسمية كبير القضاة، ففي حين كان يسمى في عصر الولاة (قاضي الجند) فإنه في هذا العصر أصبح يسمى (قاضي الجماعة)، الذي يوازي قاضي القضاة في المشرق في عصر العباسيين، ويوازي في عصرنا وزير العدل أو مدير القضاء العسكري. وظهر ذلك لأول مرة في بداية حكم الأمير عبد الرحمن الداخل، حينما عيّن على قضائه يحيى بن يزيد التجيبي الذي كان قاضياً على الأندلس قبل وصول الداخل إليها، فلم يعزله، وظل حتى كان الصراع بين الداخل والفهري، حينما طُلب ليقضي بينهما، ومنذ ذلك الحين سمي قاضي الجماعة(٣). وينفرد ابن القوطية برواية

---

(١) النباهي . المصدر السابق ص ٣.

(٢) سعد زغلول عبد الحميد . هامش على مصادر الإباضية في المغرب ص ٧٥.

(٣) الخشني . المصدر السابق ص ٢٤ . النباهي . المصدر السابق ص ٢١.

أخرى، يحدد فيها ظهور تسمية قاضي الجماعة في زمن عبد الرحمن الثاني، وإن أول من تسمى بقاضي الجماعة في الأندلس هو سليمان بن أسود البلوطي إبان القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي(١).

مهما كان عليه الأمر فإن هذا النظام، هو نظام متقدم مثالي وعصري، لكن تسمية قاضي الجماعة اقتصرت على قضاة قرطبة، حتى جاءت دول الطوائف، التي ظهرت كل منها في مدينة كبيرة، تتبعها عدة ضواحٍ وبلدان مثل غرناطة وإشبيلية وسرقسطة إضافة إلى قرطبة.

والجيد في القضاء الأندلسي، أن القاضي لم يكن الوحيد الذي ينفرد في إصدار الأحكام، بل كانت إلى جانبه هيئة شورى تتألف من عدد من الفقهاء يدعون (بالمشاوَرين) وهم جماعة من الفقهاء المتمكنين من مسائل الشرع والفقه، ومهمتهم الرئيسة النظر في المسائل الصعبة، التي يتعذر على القاضي إيجاد حل لها، ومن ثمّ إصدار حكم بشأنها. وكانت هذه الهيئة تدقق في أحكام القضاة للتأكد من صحتها وعدالتها أو عدم ذلك. وأقدم إشارة عن وجود هذه الهيئة المتطورة، تعود إلى سنة ١٧٦هـ/٧٩٣م، حينما كُلف أبو محمد عبد الله بن فروح برئاستها، فهرب إلى المشرق لعدم رغبته في العمل في هذا المجال. وهي تشبه ما يسمى في أيامنا محكمة النقض أو الاستئناف أو مجلس القضاء الأعلى(٢).

من ناحية أخرى لم يلتزم قضاة الأندلس إبَّان هذه الفترة بالمهمات التي حددها لهم قانون القضاء العام، بل راحوا يتدخلون في مسائل جانبية وفرعية متعددة، لأنهم كانوا يرون أنفسهم مسؤولين عن حل كل معضلة في مجتمعاتهم، التي كثرت مشكلاتها وتشعبت بسبب التطور الذي كان مستمراً من دون توقف، وبخاصة في أثناء فترة الانتعاش الاقتصادي والعلمي في القرنين

---

(١) ابن القوطية. المصدر السابق ص ٩٣ . ٩٤.

(٢) ابن بشكوال. المصدر السابق ج٢ ص ٤٧٦ و ٥٠٧ و ٥٤٧ و ٥٧١ . المالكي. رياض النفوس ج١ ص ١٧٦ . ١٧٧.

الثالث والرابع الهجريين، فمثلاً كان القضاة يكلفون، إضافة إلى أعمالهم القضائية، بأعمال حربية محضة[١].

امتاز قضاة الأندلس في هذه الفترة بصلاحياتهم الواسعة، التي شملت عدداً مهماً من قضايا المجتمع والدولة. فكان باستطاعة القاضي بقرطبة تعيين صاحب الصلاة في أي مسجد كان من هذه المدينة. كما كان يرى نفسه معنياً بملاحقة الفلاسفة والضرب على أيديهم، ومنع بعض الناس من الحج بعد المرة الأولى[٢].

وفي ميدان التحقيق مع المتخاصمين، اتبع القضاة في الأندلس أساليب مختلفة، فسار كل قاض على طريقة معينة كان يراها ناجعة في هذا المجال المهم. ففي البداية كان الأمر يتطلب الفصل بين المتخاصمين عند إجراء التحقيق معهم، ليتضح وجها الاتفاق والاختلاف في أقوالهم، وتدوين ما يقولونه بشأن الأشياء المتنازع عليها، إذا كان التخاصم متعلقاً بسلعة ما أو وديعة، بعد ذلك يؤتى بالشهود، وهؤلاء يجب أن يكونوا من أهل العدالة والرضا، وكان بعض القضاة يكتفون بشاهد واحد، كما كان يفعل صاعد بن أحمد التغلبي المتوفى سنة ٤٦٢هـ/١٠٧٠م، لكنه كان يدعم ذلك باليمين. وبصورة عامة، فقد كان القاضي هو الذي يقر صلاحية العدول أو الشهود لتأدية مهمتهم، فيقر بأنهم جاهزون وصالحون لذلك. وبعد الشهادة تأتي البينة، وأخيراً يكون اليمين أو القسم في حالة افتقاد البينة، وهو على المدعى عليه، وفي بعض الحالات المعينة، كان يمكن للقاضي الأخذ بشهادة غير العدول من الشهود مثل العبيد والنساء[٣].

---

(١) النباهي . المصدر السابق ص ٥٣ . ٥٤.

(٢) ابن الدباغ . معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ج٢ . تحقيق مصطفى عوض الحكيم . طبعة أولى . الخرطوم ١٩٥٤ ص ٢٩١ . ٢٩٢ . النباهي . المصدر السابق ص٧٨.

(٣) ابن بشكوال . المصدر السابق ص ٢٣٦ . ٢٣٧ . ابن الخطيب . الإحاطة في أخبار غرناطة ص ١٨٧.

وسمح كثير من القضاة للمتهمين بالدفاع عن أنفسهم في الجرائم، التي تستوجب الحدود، كالقتل والسرقة والزنا وشرب الخمر، فإذا ثبتت جريمة المتَّهم حكموا عليه بما حكم الله به، فينفذ الإمام والولاة على النواحي حكم القضاء، لا يتهاونون في إقامة حدود الله. وبعضهم كان يلجأ إلى وسائل الترهيب المختلفة من أجل إصلاح ذات البين بين الخصوم. وحتى لا يحتج المتخاصمون على مسألة تقديم بعضهم على بعض فقد كان بعض القضاة يلجأ إلى كتابة أسماء المتقاضين على رقاع صغيرة، فيخلطها القاضي مع بعضها بعضاً ويعيد ترتيبها من جديد، ويضعها أمامه ويبدأ بقراءة الأسماء المكتوبة واحداً تلو الآخر دون تدخل من أحد، أي بما يشبه القرعة[١].

كانت العقوبات الصادرة عن قضاة الأندلس قاسية بصورة عامة، لكنها كثيراً ما كانت تعتمد على حكم الشرع، ففي السرقة كان حكم قطع اليد معمولاً به في كثير من المناطق الأندلسية، وغير معمول به في مناطق أخرى. ولم يكن حكم قطع اليد مقتصراً على الذين يسرقون، بل طبقه بعض القضاة على بعض كتاب الوثائق، الذين كانوا يلجؤون للتدليس والتزوير. إلى جانب عقوبة السرقة كانت هناك عقوبات أخرى متعددة كالحبس والقتل، وهي عقوبات عرفت في ميادين القضاء الأندلسي[٢].

ولم يكن القاضي وحيداً في عمله، بل كانت تساعده هيئة إدارية أخرى، كانت تتألف من نواب القاضي وكتَّابه. فكان يُعيَّن لكل قاض عدة نواب يساعدونه في إنجاز أعماله الكثيرة، فعلى سبيل المثال كان يساعده نائب في الأحكام والشروط والأنكحة، التي تشمل مسائل الزواج وعقوده، بما يشبه قاضي الشرع في هذه الأيام. أما الكتَّاب فقد انحصرت مهمتهم تحديداً في كتابة

---

(١) محمد علي دبوز . المغرب الكبير ص ٧٦ . الضبي . بغية الملتمس . دار الكاتب العربي ١٩٦٧ ص ١٤٤ . الخشني . المصدر السابق ص ٦٧ وما بعدها.

(٢) النباهي . المصدر السابق ص٤٨.

ما يمليه عليهم قضاتهم في أثناء إجراء المحاكمات. وإن كان بعض الكتاب قد ناب عن القضاة. وكان في دائرة كل قاضٍ ديوان فيه عدد من الموظفين، يعتمدون سجلات خاصة لتدوين القضايا المثارة أمام القاضي، وتسجيل كل ما يتعلق بها من حيثيات وأحكام كما هو حال قضاء هذه الأيام(١).

إلى جانب دائرة القضاء كانت هناك دائرة أخرى مستقلة، هي خطة المظالم، وهي هيئة قضائية تعالج كل المسائل التي يعجز القاضي عن البت فيها، فينظر فيها من هو أقوى يداً منه، وذلك إن كان التنازع بين ضعيفين قوّى أحدهما القاضي، أو بين قويّ وضعيف أو قويين قوة أحدهما في الولاية، كظلم الأمراء للعمال. وقد ظهرت خطة المظالم بالأندلس أول مرة في عصر الأمير الأموي هشام الرضا، الذي اتخذ مكاناً للمظالم بالقرب من القصر الحكومي بقرطبة على الرصيف المشرف على النهر الكبير، في أحد المساجد، وكان الأمير هشام الرضا، هو الذي ينظر في المظالم ابتغاء وجه الله كما قال المقري في نفح الطيب(٢).

إضافة إلى خطة المظالم كانت خطة المناكح، التي كانت تتبع للقاضي الذي يُعين لها من يراه مناسباً، وهي تشبه ما يسمى اليوم بدائرة القضاء الشرعي في مسائل الزواج والطلاق، وما إلى ذلك. وإبان حكم الأمويين في الأندلس، استحدثت خطة قضائية أخرى، لم يسمع بمثلها في الأندلس، هي خطة (قضاء قريش) التي اقتصرت أعمالها على الأمويين الأندلسيين، الذين كانوا يعتزون بانتمائهم إلى قبيلة قريش، وعُرفت هذه الخطة بصورة خاصة في مدينة قرطبة، حاضرة الحكم الأموي في الأندلس، ومجمع رجاله وأتباعه، وكانت من مهام قاضي الجماعة بقرطبة(٣).

---

(١) الغبريني . عنوان الدراية ص ٦٣ . المالكي . رياض النفوس ج٢ ص ٣٩٧.

(٢) المقري . نفح الطيب ج١ ص ٦٥ و ٤٨٢.

(٣) ابن عذاري . البيان المغرب ج١ ص ١٩٥ . ابن بشكوال . المصدر السابق ص ٥٠٤.
أبو العرب . طبقات علماء إفريقية . تحقيق علي الشادي ونعيم الباقي ١٩٦٨ ص ١٨٠.
ابن الدباغ . المصدر السابق ج٢ ص ٢٤٢.

أما الفترة الثانية فتبدأ من الربع الأخير من القرن الخامس الهجري، وتنتهي أواخر القرن التاسع الهجري. وكان السبب المهم الذي جعلنا نبحث قضاء هذه الفترة بشكل مستقل عن الفترة السابقة، أن القضاء في عصر المرابطين والموحدين، تأثر منذ البداية بالجو العام المتشدد، الذي اتخذه المرابطون بشكل خاص، ما أعطى فقهاء هذه الفترة سلطات واسعة جداً، وبخاصة في عصر المرابطين، فطبقوا مالكية من نوع صارم للغاية. فكان علي بن يوسف بن تاشفين لا يقطع أمراً في جميع ممتلكاته دون مشاورة الفقهاء، فإذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه، ألا يقطع أمراً ولا يبت حكماً في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء[١]. يضاف إلى كل هذا أن القضاء الموحدي، لم يكن واضح المعالم بسبب تحيز القضاة الموحدين لمذهبهم، فقد جاء الموحدون إلى الحكم بعد سحقهم لنظام مالكي صارم، ولذلك اتهموا بعدائهم للمالكية، وشملت التهمة موظفيهم أيضاً، على الرغم من أنهم جميعاً كانوا على المذهب المالكي.

في هذه الفترة أضيفت إلى بعض القضاة مهام أخرى إدارية كبيرة، مثل الحسبة والشرطة. وشارك القضاة في الأعمال الحربية والسياسية. وفي هذه الفترة أيضاً استمرت تسمية كبير القضاة، التي كانت كما رأينا (قاضي الجماعة) وظلت حكراً على الحواضر الكبرى، التي كانت في تلك الفترة بالمغرب. وبقيت خطة الشورى من الخطط المهمة الملحقة بالقضاء، لكن تطوراً لافتاً طرأ عليها هو أن أعضاء هذه الخطة، كانوا في الماضي أدنى مرتبة من قاضي الجماعة، أما في هذه الفترة، فقد أصبح رأي قاضي الجماعة مرهوناً بموافقة أعضاء هذه الخطة[٢].

وحافظ القضاة على المسيرة العامة لأسلوب وأصول المحاكمات، لأن المذهب المالكي بقي المذهب الوحيد في الأندلس، وهذا ما جعل العقوبات هي نفسها التي ينص عليها هذا المذهب، لكن ذلك لم يكن بصورة مطلقة، بل وُجد

---

(١) الحميري . الروض المعطار ص ٨٥.
(٢) ابن الدباغ . المصدر السابق ج١ ص ٣٣٢ . ٣٣٣.

من القضاة من شذَّ عن ذلك، وكانت عقوباتهم تصل إلى حد البشاعة والشناعة، ما كان يؤدي إلى تحريك غيرة الحكام وحرصهم على حياة الناس، فيقومون بعزل مثل هؤلاء القضاة[١].

وبقي القضاء محافظاً على قدره واحترامه ومكانته حتى نهاية عصر الموحدين أو قبل ذلك بقليل، ودليل ذلك أن عظماء وكبار الحكام كانوا يقفون بخشوع واحترام أمام إرادة القضاة من خلال أحكامهم الرائدة، مثال هؤلاء الحكام الخليفة المنصور الموحدي. لكن الأمر لم يكن كذلك في الفترة التي أعقبت حكم الموحدين، فلم يبق القضاة سائرين على الدرب الذي كان يسير عليه أسلافهم، الذي تجسد بالاستقامة والصلابة والجرأة في مسألة اتخاذ الأحكام دون خوف من أحد، هذا بالإضافة إلى المعرفة العلمية المكينة، التي كانت من أهم شروط المرشحين للقضاء، أصابها هي الأخرى بعض الإهمال. وصار القضاة ألعوبة بأيدي الحكام وبعض الوزراء المتنفذين، الأمر الذي جعلهم ينفذون كل ما يُطلب منهم، مهما كان قبيحاً وخطراً. وفي هذا الصدد يقول صاحب كتاب (التاج المكلل) في ترجمة الوزير الأندلسي لسان الدين بن الخطيب، بعد أن ذكر مقتله سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م: «إن قتله كان من المجازفات التي صار يرتكبها قضاة المالكية ويريقون بها دماء المسلمين بلا قران ولا برهان»[٢].

وتمتاز هذه الفترة عن سابقتها بظهور تسمية جديدة، أُطلقت على بعض فروع القضاء، وهي تسمية (قاضي العسكر)، الذي كان يرافق القوات العسكرية في حلها وترحالها، ومهمته حل كل ما يحدث في صفوف العسكريين من

---

(١) ابن دحية . المطرب من أشعار أهل المغرب . تحقيق مصطفى عوض الكريم. طبعة أولى . الخرطوم ١٩٥٤ ص (و).

(٢) القنوجي . التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول. طبعة بومباي ١٩٦٣ ص ٤٤٠-٤٤١.
النباهي . المصدر السابق ص ١٣٩ . ١٤٠.

مشاحنات وخصومات، وهو نفسه الذي كان يسمى في الفترة السابقة (قاضي الجند) حينما لم تكن الحياة المدنية قد استقرت، وتشعبت مصالح الناس، بعد أن كثرت جموعهم ومن ثمَّ تعقدت مشكلاتهم العامة والخاصة[١].

بقي أن ننوه بفرع آخر من فروع القضاء في الأندلس إبَّان العصور الوسطى، هو قضاء أهل الذمة، فقد برهن المسلمون في الأندلس على أنهم كانوا خير من تمثل روح الإسلام في ميدان التعامل مع غير المسلمين من مسيحيين ويهود على جميع الصعد، فما حدث في الأندلس على هذا الصعيد، لم يحدث نظير له في منطقة عربية في العصور الوسطى، وهذا ما يقودنا لتأكيد فكرة مهمة، هي أن عرب الأندلس استطاعوا أن يتفوقوا في مسألة تطبيق تعاليم الإسلام الصحيحة، التي تؤكد على التعايش الإنساني والحضاري مع كل الشعوب.

طبق المسلمون في الأندلس جميع الشروط التي أقرها الشرع الإسلامي، وزادوا على ذلك بإعطاء أهل الذمة حريات واسعة جداً، توجب السماح لهم بممارسة القضاء على مذاهبهم الدينية، والحكم بين المتخاصمين بمقتضى قوانين هذه الأديان وتشريعاتها. وهذا لم يحصل له نظير في منطقة أخرى غير الأندلس. وظل ذلك مرعياً راسخ الجذور طوال فترة الحكم العربي هناك تقريباً. وقد حكم النصارى في دوائر قضائهم بموجب القانون القوطي، وكان قاضيهم يسمى قاضي النصارى وقاضي العجم. وكذلك كان لليهود تنظيم قضائي وإداري[٢]، وكانوا يعينون لهم حكاماً من أبناء جلدتهم، عهدوا إليهم بسن الضرائب المطلوبة والإشراف على النظام والأمن في المنطقة. ولم يكونوا يلجؤون للقاضي المسلم إلا في مسائل القتل، فكانوا يتقدَّمون إليه ويعرضون أدلتهم، وكانت المحاكم الذمية تقبل شهادة المسلم على الذمي.

---

(١) المقري. نفح الطيب ج٥ ص٣٨٦.

(٢) عمر فروخ. العرب والإسلام في الحوض الغربي للبحر المتوسط. بيروت. طبعة ثانية ١٩٨١ ص١٨٤.

أما في الحالات التي كان الذميون يقدمون فيها على شتم الرسول الكريم (ص) أو التقليل من قدر الدين الإسلامي، فكانوا يحالون إلى القاضي المسلم. مثال ذلك ما حدث سنة ٢٣٥هـ/٨٥٠م في عصر الإمارة الأموية، حينما قام المستعربون بحركتهم المعادية للعرب المسلمين في الأندلس، واستهلوها بشتم الرسول الكريم (ص) والقول إن الدين الإسلامي دين يقوم على الوهم والخيال، فأُحيل عدد كبير منهم إلى قاضي المسلمين. لكن، وعلى الرغم من بشاعة جرمهم في ذلك الوقت، فقد أمر الأمير الأموي عبد الرحمن الثاني بإعطاء المتهمين فرصة كبيرة للدفاع عن أنفسهم بتوكيل من يدافع عنهم، وإخضاع الأحكام إلى درجات حتى لا يظلم أحد منهم، فكان لذلك أثره الإيجابي في نفوس المستعربين، الأمر الذي جعلهم يخففون من غلواء ثورتهم، ويعدَّون أن من مات في هذه الحركة ليس من الشهداء[١].

وإذا كان أحد أطراف القضية رجلاً مسلماً، وهو المعتدي، فقد كانت القضية تحال إلى قاضي المسلمين للفصل فيها بحسب معطيات الشرع الإسلامي، الذي لا يفرق بين المتخاصمين إلا بالحق.

وقد عرفت في عصر الخلافة الأموية في الأندلس بعض أسماء القضاة المسيحيين، الذين كانوا على علاقة طيبة مع بعض خلفاء هذه الفترة، نذكر منهم القاضي أصبع بن عبد الله بن نبيل، قاضي النصارى في عصر الخليفة الحكم المستنصر، وأصبع بن سلمة، وهو الذي استعان به المنصور محمد بن أبي عامر حاكم الأندلس سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م لحل خلاف وقع بين ألفونسو وبعض المتنفذين من المسيحيين في جليقية، وقد حلّه القاضي المذكور[٢]. ووليد بن خيرون الذي أدَّى دور المترجم بين الحكم المستنصر والوفود الأوروبية التي حضرت إلى قرطبة.

---

(١) خير الله طلفاق . المرجع السابق . ص ١٦٩.

(٢) النباهي . المصدر السابق . ص ٥٦ . ٥٧ . ابن خلدون . العبر ج٢ ص ٣٩٠.

وسلك القضاة المسلمون مع المتهمين الذميين بالإستهتار بجوهر الدين الإسلامي مسلكاً طيباً، فكان القاضي المسلم يطرح على المتهم مسألة اعتناق الإسلام، فإن قبل بها نجا وبرئت ساحته، وإن رفض طبقت بحقه العقوبة المنصوصة على جرمه، وهي الموت في حالة شتمه الرسول الكريم (ص)(١).

وكان القضاة العرب المسلمون، يقفون أمام مقدسات المسيحيين باحترام بالغ، لا سيما حينما كانوا يلجؤون لأخذ اليمين منهم، فقد كانوا يبحثون عن أهم المقدسات المسيحية في البلدان التي كانوا يعملون فيها من أجل أن يحلف المسيحيون في قضية معينة، فكانوا يخيرون في الذهاب إلى أقدس مركز ديني ومعهم نائب عن القاضي المسلم، يرافقه أحد الشهود فيحلف اليمين وتنقضي المشكلة(٢).

وهناك حالة أخرى كانت تستوجب إحالة المتهم إلى القاضي المسلم، وهي التعامل مع الإسبان في الشمال، فقد واجه القاضي أبو الوليد بن رشد واحدة من هذه الحالات، حينما أُحيلت إلى دائرته القضائية جماعة من المعاهدين الإسبان، فحكم على جميع أفرادها بالنفي إلى المغرب وتفريقهم في نواحيه، وهو أحق ما يؤخذ به في عقابهم، وكان أفراد هذه الجماعة قد اتصلوا مع إسبان الشمال، وشجعوهم على غزو العرب المسلمين سنة ٥١٩هـ/١١٢٦م(٣).

وفي حال عدم وجود قاضٍ ذمي في أي مدينة، كان قاضيها المسلم يكلَّف بالنظر في شؤون أهل الذمة، كما فعل القاضي منذر بن سعيد البلوطي، حينما كان قاضياً للجزر الأندلسية الشرقية، أي قبل أن يصبح قاضياً للجماعة بمدينة قرطبة إبَّان القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي(٤).

---

(١) المالكي . رياض النفوس ج٢ ص ٣٥٩.

(٢) شجرة النور الزكية ص ١٧٧.

(٣) مؤلف مجهول . المصدر السابق ص ٨٠ . ٨١.

(٤) ابن الأبار . التكملة لكتاب الصلة ج١ ص ٢٩٣.

وبالعموم، فقد توافرت في القضاة الأندلسيين في العصور الوسطى كل الصفات الطيبة والإنسانية الخالصة، واقتفوا في أحكامهم المثل الصالح في عهد النبوة والراشدين، وكأنهم كانوا يرون ويعلمون بدقة أنه لا صلاح لمجتمع مهما كانت إمكاناته المادية والعلمية دون قضاء محايد يأخذ الحق للضعيف من القوي.

هذا وقد عرفت الأندلس العديد من الوظائف الإدارية الأخرى، كانت في معظمها وظائف مكملة للوظائف التي ذكرناها. وسنقتصر على ذكر أهمها لكثرتها وتعددها. فمن هذه الوظائف كانت وظيفة صاحب السوق، ومهمة صاحبها مراقبة الأسواق مراقبة دقيقة كعمليات البيع والشراء. وقد تطورت هذه الوظيفة إلى أن أصبحت تعرف بالحسبة وصاحبها المحتسب، الذي كان من حيث أهميته يأتي بعد القاضي.

فالاحتساب في الأندلس كان من أهم الخطط، التي يتقلدها أهل العلم والمعرفة، وكأن صاحبها قاض. والعادة فيه أن يمشي بنفسه راكباً إلى الأسواق وأعوانه معه، وفي أثناء جولته كان يراقب كل ما يجري في الأسواق من نشاط اقتصادي وخدمي، بما يشبه اليوم وزير التموين والصحة والاقتصاد، فيقمع كل المخالفات في وقتها دون اللجوء إلى أي سلطة أخرى، ولهذا كان المحتسب يُعد بمنزلة قاضٍ متجول.

ووظيفة الشرطة العليا والشرطة السفلى، وهي وظيفة كانت عظيمة في الأندلس عند أهل الحكم، وكذلك عند عامة الناس، فصاحب الشرطة هو الذي كان ينفذ الأوامر التي تصدر عن الحاكم أو عن القاضي، وكانت هذه الوظيفة على نوعين: الشرطة العليا أو الكبرى، ومهمتها ضبط الأمن في البلاد وملاحقة المجرمين والعابثين، لكنها اهتمت بشكل خاص بأمن الحاكم وقصوره وأهل بيته وكبار. الناس بعد الحكام. والشرطة الصغرى أو السفلى، كانت مسؤولة عن أمن عامة الناس في أسواقهم وأحيائهم(١).

---

(١) ابن حيان. المقتبس ص ١٧٠.

ووظيفة صاحب المدينة التي تشبه اليوم وظيفة المحافظ، أو عمدة البلد أو المدينة كما في تصنيفات إدارية أخرى، وكانت من الوظائف المهمة في الأندلس، لأنها تهتم بكل المرافق العامة بالمدينة.

وهناك وظائف أخرى كثيرة أقل أهمية من الوظائف المذكورة، نذكر منها وظيفة الأمين، ومهمة صاحبها أن يقوم بتدبير شؤون المال في منطقة معينة، من جمع للضرائب ودفع رواتب الموظفين والجند وما إلى ذلك، وكان يساعد الأمين مجموعة من الموظفين من جباة وحسّاب ومشرفين، وهم أشبه بالمفتشين الماليين. وكان كبير الأمناء يسمى خازناً ومقره العاصمة قرطبة، وكان يقيم في مبنى خاص ملاصق لقصر الحاكم، ومدخله عن طريق باب السدة. والخازن في الأندلس يوازي اليوم وزير المالية، وقد وصل عددهم في بعض الأحيان إلى ثلاثة[١]، لكن أحدهم كان يسمى الخازن الأكبر. ووظيفة العلامة التي ظهرت في عصر الموحدين في الأندلس والمغرب، وهي تشبه الختم في أيامنا، وكانت في عصر الموحدين عبارة عن عدة كلمات هي (الحمد لله وحده)، اختارها للموحدين صاحب دعوتهم محمد بن تومرت، وهذه العلامة يضعها السلطان أو أحد كتَّابه الموثوقين[٢]. ووظيفة كاتب ديوان التمييز، وهي وظيفة اشتهرت في عصر الموحدين في الأندلس والمغرب، وكانت مهمة القائمين عليها تسجيل أفراد الجيش وإحصاءهم وتوزيع الرواتب عليهم. وكان صاحب هذه الوظيفة يسمى أحياناً كاتب العسكرية. وعلى ذلك، فإن كلمة تمييز تعني التوزيع، الذي لم يكن يقتصر على توزيع الأموال والأرزاق، بل شمل أيضاً توزيع العتاد على العسكريين من خيول ورماح ودروع وسيوف وغير ذلك[٣]، ووظيفة الكتابة التي كانت في الأندلس من الخطط الكبرى، ودليل ذلك أن صاحبها كان في عداد

---

(١) ابن الأبار . الحلة السيراء ص ٢٤١.

(٢) ابن خلدون . التعريف بابن خلدون ورحلته ص ٨١٣ وما بعدها.

(٣) ابن صاحب الصلاة . المصدر السابق.

الوزراء، ذلك لما تتطلبه من معرفة وحذق في مسائل الكتابة والترسل والإنشاء، وما إلى ذلك. لكن هذا الأمر لم يكن قانوناً ثابتاً على الدوام. وكانت الكتابة قسمين منذ عصر الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط، الأول للكتابة عند الأمير، والثاني للكتابة عند الوزراء. وكانت الكتابة نفسها قسمين، أولها وأعلاها مرتبة كتابة الرسائل، وكان صاحبها مبجلاً عند أهل الأندلس، وأحسن أسمائه (الكاتب)، وثانيها كتابة الزمام. وفي الفترة الأخيرة من العصور الوسطى، أصبحت الكتابة في الأندلس تساوي مثيلتها في المشرق، باستثناء بعض الفروق البسيطة في التسمية، ففي حين كان صاحب هذه الوظيفة في المشرق يسمى كاتب السلطان، كان في الأندلس يسمى صاحب القلم الأعلى، وفي أحيان كثيرة كان يسمى كاتب الإنشاء كما كان الحال في المشرق[١]. هذا بالإضافة إلى وظائف أخرى متفرقة مثل وظيفة الأشغال، التي كانت من الوظائف الرفيعة في عصر الموحدين، وكانت مهمة صاحبها الانفراد بولاية العمال وعزلهم ومحاسبتهم على الجباية بوجه خاص[٢]. ووظيفة المكاس، وهي وظيفة تتعلق بالشؤون المالية، وتقابل في عصرنا وظيفة وزير المالية أو وظيفة مدير الجمارك العامة، فصاحبها كان يهتم بجمع المكوس (الضرائب) المتنوعة، التي كانت تفرض حسب قواعد وأسس مدروسة، وكان بعضها يلغى نهائياً أو مؤقتاً، أو تُزاد إليها مقادير أخرى، إلى غير ذلك[٣]، ووظيفة المزوار وغيرها.

---

(١) ابن الأبار . الحلة السيراء ج١ ص ١٤٠.

(٢) ابن خلدون . التعريف بابن خلدون ورحلته ص ٥٠٨.

(٣) الغبريني . عنوان الدراية ص ١٩١.

الفصل السادس عشر

مؤثرات الحضارة العربية الأندلسيَّة

في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى

كانت الأندلس في العصور الوسطى الجسر أو المعبر الأهم لنقل الحضارة العربية بصورة عامة إلى أوروبا، ساعدها على ذلك مجموعة من العوامل المهمة، منها أنها قطعة أساسية من أوروبا تقع في الزاوية الجنوبية الغربية، وقد قُدِّر لها أن تكون قاعدة علمية متقدمة فاقت كل القواعد العربية الأخرى بدءاً من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، حينما تمكن علماؤها في مختلف فروع العلم من أن يضيفوا أشياء جديدة إلى تلك التي عرفوها عن علماء المشرق، فجاءت هذه الأشياء رائدة ومبتكرة، وعمّ نفعها أرجاء الدنيا، وبخاصة القارة الأوروبية، وبالأخصّ ما جاء به ابن رشد وابن باجة وابن خلدون. كذلك يمكن أن نذكر التجارة بين عوامل انتشار ثقافة العرب الأندلسيين في أوروبا، فقد وصل تجار الأندلس إلى مختلف المناطق الأوروبية، وكانت أنشطتهم متميزة في جنوب فرنسا الشرقي، وفي شمال غرب إيطاليا، وفي سويسرا وبعض المناطق الأخرى مثل منطقتي اللورين الفرنسية والألمانية(١). كما كانت السفارات الدبلوماسية والبعثات العلمية من أهم الوسائل التي نقلت ثقافة الأندلسيين إلى الأوروبيين، ومنها أيضاً عن طريق عمليات الترجمة العربية إلى اللاتينية وغيرها،

(١) هناك منطقة تدعى اللورين شرق فرنسا وأخرى في غرب ألمانيا.

فكانت في الأندلس عدّة مدارس للترجمة نذكر أهمها، وهي مدرسة ترجمة مدينة طليطلة، التي شغلت دوراً رائداً في ميدان الترجمة العامة(١).

وعموماً فقد أدى اختلاط الأوروبيين بالعرب الأندلسيين عبر كل الوسائل والطرق، التي أشرنا إليها، إلى اقتباسهم شيئاً كثيراً من الحضارة العربية الإسلامية في مختلف الميادين، ولاسيما في ميدان العلوم الرياضية والفلكية والطبية والصيدلانية والفلسفية والجغرافية، ما جعل القارة الأوروبية في جزئها الغربي، تنتقل من مرحلة نومها الطويل عبر قرون مديدة مظلمة، إلى مرحلة أكثر وضوحاً وإشراقاً وتأثيراً في جميع مناحي الحياة العامة بصورة إيجابية(٢). وهذا ما سيكون محور حديثنا في الصفحات التالية، من أجل أن تتضح الصورة ويبرز الواقع على حقيقته الخالدة، التي لا يمكن لأحد أن ينكرها أو يشيح النظر عنها. ونبدأ بالتأثير الحضاري العربي في مضمار علم الطب والصيدلة وصنع الدواء.

ففي ميدان الطب يمكن أن نذكر بادئ ذي بدء، أن العرب في الأندلس استطاعوا أن يرفعوا كرامة مهنة الطب من مستوى وضيع جداً إلى مركز رفيع، فقد كان لعلمائهم الفضل الكبير في نشر علم الطبابة القديم، إذ كشفوا فيه أموراً أحدثوها، وهذبوا مسائله وحسنوا فصوله، وهم الذين نقحوا التعاليم القديمة، واقتفوا آثارها على أساس منطقي، وأضافوا إليها تجاربهم فجعلوها ملائمة لأيامهم، وبلغ من رقي ثقافتهم أن الطبيب العربي، كان لا بد له، علاوة، على معرفته، من الإلمام بكل فروع العلم الأخرى(٣).

---

(١) محمد السويسي . العلوم العربية بالأندلس. بحث منشور ضمن كتاب: الثقافة العربية الإسبانية عبر التاريخ. طبعة دمشق ١٩٩٠ ص٥٢٢ وما بعدها.

H. Haskin studies in the history of medieval science p.18.

(٢) ألكسندر ستيبتشفيتش . تاريخ الكتاب . ترجمة محمد الأرناؤوط. طبعة الكويت. عالم المعرفة ١٩٩٣ ص ٢٤٦ . عمر الإسكندري وسليم حسن . تاريخ أوروبا الحديثة وآثار حضارتها. مطبعة المعارف القاهرة ١٩١٧ ص ٥ . ٦.

(٣) زكي بك علي . الطب العربي وتأثيره في مدنية أوروبا . المجلة الطبية العلمية العدد ١١ مطبعة السبيل. بيروت ١٩٣٩ ص٤٢٤.

وقد ساعدهم على هذه الأعمال الجليلة، كما قال المؤرخ الغربي (لكلرك)، أنه في ختام القرن الثامن الميلادي، كان كل ما في أيدي العرب من العلوم ترجمة لمؤلَّف في الطب وبضعة كتب في علم الكيمياء، ولكن ما كاد القرن التاسع الميلادي يوشك أن ينتهي حتى كان العرب قد امتلكوا ناصية كل علوم اليونان وثقافة الأقدمين، ونبغ فيهم عدد جمّ من المؤلفين. ويقول بعضهم الآخر، إن المدنية الأوروبية بل في الحقيقة إن المدنية الغربية كلها مدينة للعرب بميراث حكمة الأقدمين، وإن فتوحات العرب الحضارية لهي إحدى أعاجيب التاريخ. ومن أشد العجب حماسهم العظيم وسرعتهم البالغة في تحصيل العلوم، وتكوين الثقافة اللازمة لعظمتهم، حتى وصلوا فيها إلى مستوى عالٍ في مئة سنة، بينما نرى أن الجرمانيين لما فتحوا الإمبراطورية الرومانية، قضوا ألف عام قبل أن يقضوا على الوحشية وينهضوا لإحياء العلوم[١].

فالغرب برمته مدين للعرب بأنهم الذين أدخلوا فكرة امتحان الأطباء المتخرجين لمزاولة مهنة الطب، وأيضاً نهضوا بالمستشفيات وأنفقوا عليها بسخاء عظيم. كانوا أول من أدخل الرسومات والأشكال المنظمة في كتبهم الطبية، وكل ذلك دخل أوروبا عن طريق التلاقح الحضاري، الذي نحن بصدد البحث بشأنه في هذا المقام[٢].

وكثيرون هم الأطباء العرب الذين أسهموا في تقدم الغرب الأوروبي في ميدان الطب، نذكر منهم الطبيب أحمد بن إبراهيم القيرواني المعروف بابن الجزار المتوفى سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥م، الذي أفاد أوروبا من خلال كتابه العظيم (زاد المسافر) الذي يحتوي على أوصاف ممتازة لعدد كبير من الأمراض، وهو في مجلدين قام بترجمته قسطنطين الأفريقي إلى اللاتينية، فاشتهر هذا الكتاب مع صاحبه في كل أنحاء أوروبا خلال العصور الوسطى[٣].

---

(١) زكي بك علي . المرجع السابق ص ٤٢٥ . ٤٢٦.

(٢) زكي بك علي . المرجع السابق ص ٤٢٥.

(٣) موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين ص ٧٤ . معجم أطباء المغرب والأندلس ص٥٧. ابن أبي أصيبعة . المصدر السابق ج٣ ص ٩٠.

وكان الزهراوي خلف بن أحمد المتوفى سنة ٤٠٠هـ/١٠١٠م، الذي عاش في فترة من أزهى عصور العرب في الأندلس، وهو عصر الخلافة الأموية، من أكبر الأطباء الذين استفادت أوروبا من علمهم وإبداعهم، وقد تجسد ذلك بشكل خاص من خلال كتابه (التصريف لمن عجز عن التأليف) ولا سيما الجزء السابع والعشرون منه، الذي يحتوي على معجم أبجدي للأدوية المفردة مع إعطاء المرادفات للكثير منها، وخاصة في اللهجتين الأندلسية والمغربية. وكذلك الجزء الأخير، الذي يتحدث فيه الزهراوي عن الجراحة بمستوى جعل بعض الدارسين المختصين، يعدّونه أكبر جراح عربي في العصور الوسطى، إذ يتحدث فيه عن بعض العمليات الجراحية التي قام بها، ويقدم إيضاحات مهمة عن الأدوات المستعملة فيها. وقد قام بترجمة هذا الكتاب (جيراردو الكريموني) إلى اللاتينية، وطبع منه الجزء الخاص بالعقاقير بمدينة البندقية سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م، وطبع الجزء الخاص بالجراحة عام ٩٠٣هـ/١٤٩٧م. وفيما بعد، طبع الجزء الخاص بالأمراض الباطنة بألمانيا. كما ترجم الكتاب أيضاً إلى بعض اللغات الأوروبية الأخرى، وأصبح من الكتب المعمول بها في كليات طبية معروفة في أوروبا مثل سالرنو ومنتيلر وغيرهما، وظلت مكانته تحاط بالاهتمام الأوروبي على صعيد الطب والمداواة أكثر من خمسة قرون متوالية، حتى إن العالم الأوروبي BROWN قال عنه، إنه أشهر جراح أنجبه العالم العربي على مرّ العصور، وهو أول من علّم أوروبا والعالم تفتيت الحصاة داخل المثانة واستخراجها، وكذلك هو الذي أشار إلى استخدام مساعدات وممرضات من النساء في حال إجراء عملية جراحية لامرأة، لأن ذلك أدعى للطمأنينة والرقة(١).

كما كان لعبد الملك بن زهر المتوفى سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م شأنه البارز على صعيد التأثير الطبي في أوروبا. فعلى الرغم من أن أعماله لم تدرس كما يجب، فقد انتشر في أوروبا انتشاراً واسعاً، وقامت على أعماله مدرسة كاملة في

---

(١) موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين ص ١٠٥. معجم أطباء المغرب والأندلس ص ١١٢ فيليب حتي . لمحة تاريخية في الطب العربي. المجلة الطبية العلمية ج١١ بيروت. المطبعة الأدبية ١٩٣٤ ص ٦٢٣.

فرنسا هي مدرسة مونبلييه، وأخذ عنه ديه شولياك سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨م في عمليات الختن والعيون. وأخذ عنه الطبيب لانفراشي من ميلانو وسائل ربط الأوعية الدموية[١]. ونسب إليه الكثيرون شرف اكتشاف جرثومة الجرب، على الرغم من أن البحث الحديث، أثبت أن أحمد الطبري الذي اشتهر إبان النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، سبق ابن زهر إلى اكتشاف جرثومة هذا المرض وذكرها في كتابه (المعالجة الأبقراطية)[٢]. والحق، أنَّه كان لابن زهر أبلغ التأثير وأعظم النفوذ على أوروبا من الناحيتين الطبية والعلمية في العصور الوسطى، واستمرت إنتاجاته العلمية تدرس في جامعات أوروبا قروناً عديدة[٣].

ومن غير الممكن أن نغض الطرف عن إسهامات عربية أخرى في ميدان الطب، على الرغم من أن اهتمام أصحابها لم يكن مقتصراً على الطب وحده، كما هو أمر من ذكرناهم حتى الآن. نذكر من هؤلاء ابن رشد وابن ميمون وابن طفيل، فقد أتحف هؤلاء العالم بقسط غير زهيد من العلم الطبي، فذكر ابن رشد في كتابه (الكليات في الطب) أن المصاب بالجدري مرة لا يصاب به ثانية. وقال مواطنه ومعاصره ابن ميمون صاحب كتاب (الفصول في الطب) إنَّ البواسير هي نتيجة لقبض المعدة والإمساك، ونصح بأكل الخضار والفواكه، كما قام بتحسين وتطوير عملية الختان. وقام الوزير الكاتب لسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦هـ /١٣٧٣م بوضع رسالة في الطاعون الذي كان يجتاح أوروبا في عصره، أثبت فيها أن انتشار هذا المرض المخيف، الذي سماه الأوروبيون (الموت الأسود) إنما هو بوساطة العدوى، وذلك في عصر لم تكن فيه العدوى ولا الجراثيم معروفة لدى أحد من الناس[٤].

---

(١) موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين ص ١٠٤.

(٢) فيليب حتي . المرجع السابق ص ٦٢٣.

(٣) زكي بك علي . المرجع السابق ص ٤٢٥ معجم أطباء المغرب والأندلس ص ٩٥ وما بعدها.

(٤) فيليب حتي . المرجع السابق ص ٦٢٣. ابن الخطيب . الإحاطة في أخبار غرناطة ج١ ص ٦٦ وما بعدها.

وطالما أن هذه الاكتشافات مبتكرة في حد ذاتها، فلا بد أن أوروبا برمتها كانت قد استفادت منها، مثلها في ذلك مثل كل المبتكرات العربية، التي انتقلت إلى أوروبا عبر طرق مختلفة ومتشعبة. ويجب ألا ننسى أن الأندلس، إضافة إلى ما قدمته للأوروبيين من معارف طبية من خلال علمائها سابقي الذكر، شكلت معبراً نشطاً لنقل مؤلفات الأطباء العرب المشارقة ومبتكراتهم الرائعة في هذا المضمار إلى أوروبا، وهناك ترجمت وأصبحت ملكاً لأبناء الغرب الأوروبي، وبذلك تمت حلقات سلسلة الاتصال بين الطب اليوناني القديم والطب العربي المتوسط والطب الأوروبي الحديث[١].

ولم يقصر العرب في الجانب الآخر، الذي لا بد منه لكل طبيب ممارس، وهو علم الأدوية أو الصيدلة، لكنهم لم يصلوا من حيث تأثيرهم في الغرب الأوروبي إلى ما وصلوا إليه في ميدان الطب العام والخاص. ولعل الطبيب الصيدلاني أبا جعفر الغافقي المتوفى سنة ١١٦٥م، هو الذي وسع الخطا في اتجاه تقدم علم خصائص النبات الطبية من خلال كتابه (الأدوية المفردة)، وهو الكتاب الذي بنى عليه مواطنه ابن البيطار المتوفى بدمشق سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٩م[٢] شهرته الواسعة. فابن البيطار هذا حسب ما أثبت البحث النقدي مدين لسلفه الغافقي بالشيء الكثير. لقد حوى كتاب الغافقي أسماء أهم النباتات في إسبانيا وأفريقيا الشمالية باللغتين العربية واللاتينية، مع وصف علمي لكل منها. ثم جاء ابن البيطار وأضاف إليها في مؤلفه (الجامع في الأدوية المفردة) حصة من نباتات مصر والشام وآسيا الصغرى التي ساح فيها[٣].

ومع تميّز ابن البيطار وشهرته العريضة كرائد من رواد علم الصيدلة والأدوية في العصور الوسطى، فإنه لم يؤثر في أوروبا القرون الوسطى التأثير

---

(١) فيليب حتي . المرجع السابق ص ٦٢٤.

(٢) ابن أبي أصيبعة . المصدر السابق ج٢ ص ١٣٣. آنخل جنثالث بالنثيا . المرجع السابق ص ٤٧٩.

(٣) فيليب حتي المرجع السابق ص ٦٢٤.

الواجب، وربما يكون ذلك لبعده المكاني، حيث كان يقيم في المشرق، ولتأخره الزماني عن حركة النقل، ولتأخر ترجمته إلى اللاتينية. ولكن كتابه (المغني في الأدوية المفردة)، وهو في عشرين فصلاً، ترجم بعد ذلك إلى الفرنسية والألمانية، ودُرس في الجامعات الأوروبية[١].

ومن المفيد هنا القول، إن الأندلسيين تفوقوا في مجال علم الأدوية على معاصريهم، سواء كان ذلك في الشرق أو الغرب، ودليل ذلك ما نقل عن البيروني في سياق عتاب شديد لعلماء زمانه (القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) ما مفاده، لو كان ديسقوريدس الإغريقي في نواحينا، لصرف جهده إلى تعرّف ما في جبالنا وبوادينا، ولكانت حشائشها كلها أدوية، ولكن ناحية المغرب والأندلس فازت به وبأمثاله، وأفادتنا بمشكور مساعيهم علماً وعملاً. وأما ناحية المشرق فليس فيها من يهتز لعلم غير الهند[٢].

وعلى أساس هذا الواقع الإيجابي، الذي تجسد في الأندلس في هذه الفترة، ليس غريباً أن تكون أوروبا قد تأثرت بصورة فعالة بما أنتجه العقل العربي على صعيد علم الصيدلة والدواء، وبخاصة بما أدخلوه من المستحضرات اللطيفة والحلوة المذاق، إلى غير ذلك من المسائل المتصلة بهذا العلم العظيم.

أما في ميدان علم الفلك، فقد كان الأمر مدعاة للفخر والاعتزاز بما قدمه العرب المسلمون للأوروبيين من معارف وفوائد فلكية، عمَّ نفعها على كثير من وجوه حياتهم العامة، وقد بدأت طلائع هذه الفوائد تعبر إلى أوروبا منذ القرن الحادي عشر الميلادي، ذلك أن طلاب العلم في غرب أوروبا عرفوا بعض المصطلحات العربية، مثل الإسطرلاب وأسماء النجوم ومجاميعها، وصارت هذه المعارف تشتد وتزدهر إبَّان القرن الثاني عشر الميلادي.

---

(١) انظر كتابنا: الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ص ١٣٨ وما بعدها . موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين ص ٦٦.

(٢) فاضل السباعي . الرحلة النباتية للصيدلاني الإشبيلي ابن الرومية . بحث منشور في كتاب الثقافة العربية الإسبانية. طبعة دمشق ١٩٩٠ ص ٥٤١.

ومن أهم الفلكيين العرب، الذين أفادوا الغرب الأوروبي بعلمهم وإبداعهم أبو القاسم مسلمة المجريطي المتوفى سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٩م، الذي قام بتصحيح وضبط زيج الخوارزمي، وانتقل ما أنتجه المجريطي إلى أوروبا عن طريق الأندلس، بعد أن ترجمه إلى اللاتينية، وكان المجريطي هذا يُعرف بالحاسب لعلمه بالرياضيات(١).

جاء بعده في هذا الشأن مواطنه أبو إسحق إبراهيم بن يحيى القرطبي المعروف بالزرقالي، من علماء القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، الذي اشتهر من خلال أزياجه التي عرفها الأوروبيون باسم (الجداول الزرقالية) أو (جداول طليطلة)، وقد وضعت هذه الجداول على أساس دراسات وملاحظات عملية، اعتمدت على جداول سابقة كجداول بطليموس والخوارزمي. وقام بترجمة هذه الجداول في القرن الثاني عشر الميلادي جيراردو الكريموني إلى اللغة اللاتينية، ولم يبق منها سوى هذه الترجمة، التي اطلع عليها كوبرنيكوس. ويُعد ابن الزرقالة من أوائل الذين أثبتوا حركة أوج الشمس بالنسبة للنجوم، وقد بلغت هذه الحركة في قياساته ١٢.٤ دقيقة بينما هي في الواقع ١١.٨ دقيقة. كذلك كان من أوائل من أيقنوا أن مسارات الكواكب إهليلجية لا دائرية، وعادوا إلى المسارات الأولى(٢). كذلك نرى في القرن الثاني عشر مؤلفات (ريمون المرسيلي) وقد أُخذت من جداول الزرقالي، الذي قدّر طول البحر المتوسط بنحو ٤٢ درجة، بينما جعلها بطليموس ٦٢ درجة. وكان الزرقالي إضافة لذلك أعظم راصد للنجوم في عصره، ووضع إسطرلاباً متقناً سماه (الصفيحة)(٣). والحق فإن أقل ما يقال بشأن علم الزرقالي إنه جاء مبنياً على العلوم الرياضية والطبيعية لا على الجدل وعلم الكلام(٤).

---

(١) موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين ص ١٦٠ . جورج حداد . تاريخ الحضارة ص ٥٢٢.

(٢) موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين ص ١٠١.

(٣) جورج حداد . المدخل إلى تاريخ الحضارة ص ٥٢٣.

(٤) محمد السويسي . المرجع السابق ص ٥١٩.

جاء بعد ذلك العالم جابر بن أفلح صاحب كتاب (الهيئة) المتوفى سنة ١١٠٥م، الذي ترجمه أيضاً جيراردو الكريموني إلى اللاتينية، وقد انتقد بطليموس، وضمَّن كتابه هذا فصلاً مهماً عن المثلثات المسطحة والمثلثات الكروية(١).

تلاه بعد ذلك في هذا الشأن نور الدين البطروجي المتوفى سنة ١٢٠٤م، وهو تلميذ ابن طفيل. وقد ترجم مؤلفه كتاب (الهيئة) إلى اللاتينية ميشيل سكوت سنة ١٢١٧م، وفيه وصف الأجرام السماوية وبعض الأنظمة الفلكية، وهو يمثل ذروة المعاكسة لبطليموس(٢).

وما يبرهن على أن البوصلة اختراع عربي انتقل إلى أوروبا عن طريق الأندلس، ما كان يستعمل من ذي قبل من الألفاظ لوصف اتجاه الإبرة الممغنطة، مثل قولهم (الشارون) للدلالة على الشمال (والأفرون) للدلالة على الجنوب، وهي ألفاظ اشتقت من العربية(٣)، ولا بد أن أسماء النجوم العربية، التي انتقلت إلى أوروبا العصور الوسطى، كانت عن طريق الأندلس، مثل العقرب والجدي والطير والفرقد والذئب، وكذلك بعض الأسماء الفنية مثل السموت AZIMATH والنظير NADIR إلى غير ذلك(٤).

ومن الخير أن نقول، إن أوروبا مدينة للعرب ولدورهم المبدع في علم الفلك، فقد استطاعوا أن يحتفظوا بشعلة العلم حية متوقدة لقرون عديدة، ولا يمكن أن ننكر أنهم تعاملوا مع الفلك بشكل كلي، وهكذا سلموه إلى الأوروبيين. وحتى نكون منصفين يجب أن نذكر أن العرب، اعتمدوا على الثقافة اليونانية وطوروها بإبداعهم وابتكارهم

---

(١) جورج حداد . المرجع السابق ص٥٢٣ . محمد السويسي . المرجع السابق ص ٢٥١.

(٢) جورج حداد . المرجع السابق ص ٥٢٣.

(٣) يوسف أشباخ . تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين. ترجمة محمد عبد الله عنان طبعة القاهرة ١٩٤١ ص ٣٦٠.

(٤) جورج حداد . المرجع السابق ص ٥٢٣.

وباعتمادهم على بعض الثقافات الأخرى كالهندية والفارسية، مثال على هذا الواقع أنهم قاموا بترجمة ثلاثة كتب مهمة هي المجسطي والفرائض والتدرجات.

أما في حقل الرياضيات، فإن الأندلس لم تبرز فيه كما حدث في الحقول سابقة الذكر، وربما اقتصر دورها على نقل المعلومات العربية المتطورة، التي ظهرت في الجناح الشرقي من ديار العرب، وبالطبع فإن هذه المعلومات نقلت عن طريق الترجمة التي نشطت بصورة عجيبة في الغرب الأوروبي.

من الاستثناءآت الضئيلة على هذا الصعيد، ظهر مسلمة المجريطي إمام الرياضيين في الأندلس، وبعض تلامذته من النجباء، مثل ابن السمح المتوفى ١٠٣٤م، وابن الصفار والكرماني وأمية بن أبي الصلت وغيرهم[١].

تعلم الأوروبيون من الأندلسيين على ما يبدو نظام الأعداد الهندي، الذي كان يمثل ثورة شاملة في علم الحساب، ويتضح لنا تسهيل هذا النظام العددي للعمليات الحسابية، إذا قارنا بينه وبين النظام العددي الروماني. فنظام الأعداد الجديد الذي عرفته أوروبا عن العرب، يمكن فيه أن يتغير الرقم الواحد حسب وضعه في خانة الآحاد أو العشرات أو الألوف أو الملايين، في حين أن قيمة الرقم لا تتغير في النظام الروماني بتغير خانته، فرقم (٥) مثلاً لا يمكن أن يعني خمسين أو خمسمئة أو خمسة آلاف[٢].

وهنا لا بد من الاعتراف أن الأعداد الجديدة المستخدمة حالياً في الغرب، ليست من اختراع العرب، إذ من المرجح أنها هندية الأصل كما أشار العلماء العرب أنفسهم، لكن فضل العرب تجسد بأنهم أوصلوا هذه الطريقة الجديدة إلى أوروبا، ورحموا الأوروبيين من تعقيد النظام العددي الروماني العقيم، وبذلك سهلوا العمليات الحسابية وساعدوا على تقدم الرياضيات[٣].

---

(١) أحمد أمين . ظهر الإسلام ج٣ ص ٢٧٠ وما بعدها.

(٢) سعيد عاشور . المرجع السابق ص ٢٨٠.

(٣) سعيد عاشور . المرجع السابق ص ٢٨١.

كما يجب ألا ننسى في هذا المقام، أن الأرقام المستخدمة اليوم في جميع أنحاء العالم مقتبسة من (حروف الغبار) التي استخدمت أولاً في الأندلس قبل زحفها إلى سائر الأقطار، وبذلك سميت بالأرقام العربية[١].

أمَّا علم الجبر فلا يزال محتفظاً حتى يومنا هذا باسمه العربي في اللغات الأوروبية كافة (Algebra-Algebre) بعد أن أخذه الأوروبيون عن العرب[٢].

ولعل في مقدمة الإنجازات العربية على هذا الطريق، أن العرب علموا الغرب الأوروبي طريقة استخدام الصفر في الأعداد منذ القرن الثاني عشر الميلادي، وعرف باللفظ الأوروبي Cipher وهو يعني في اللغات الأوروبية (لا شيء أو عديم القيمة) فاستخدمه مارتن لوثر للتعبير عن ضعف الأساقفة أمام البابا فقال، إنهم كالأصفار. وفي القرن السادس عشر، استخدم اللفظ الأوروبي للصفر للدلالة على الكلمة الغامضة أو الشفرة Chaffer في حين استخدم لفظ Zero بمعنى لا شيء[٣].

أما عن أثر العرب الأندلسيين في التفكير الفلسفي لأوروبا، فقد كان عظيماً إلى درجة يمكن القول بشأنها، إنه كان من أغزر ما خلفه الأندلسيون العرب للفكر الأوروبي. ولا بد أن سبب ذلك يعود في معظمه إلى أن الفلسفة كانت من أهم المسائل الفكرية التي شغل بها العلماء في الأندلس، الذين قاموا بنقل الفلسفة اليونانية كما عرفوها إلى الغرب، بعد أن أضافوا إليها ناحية التوفيق بين الإيمان والعقل وبين الدين والعلم[٤].

ومن أهم فلاسفة الأندلس سليمان بن جابيرول المتوفى سنة ١٠٥٨م ببلنسية، وكان أول فيلسوف قام بتعليم الأفلاطونية للغرب الأوروبي، وهو يشبه سلفه ابن مسرة

---

(١) محمد السويسي . المرجع السابق ص ٥٣٠ . ٥٣١.

(٢) سعيد عاشور . المرجع السابق ص ٢٨٣.

(٣) سعيد عاشور . المرجع السابق ص ٢٨٢.

(٤) كان الفلاسفة يعتقدون أن فلسفة أفلاطون وأرسطو هي الحقيقة، وأن القرآن هو الحقيقة أيضاً، فلذلك وجب التوفيق بينهما.

المتوفى سنة ٩٣١م، الذي أدخل إلى الغرب نظاماً باطنياً للكتابة، حيث تتخذ الكلمات معنىً داخلياً غامضاً لا يفهمه إلا العارفون بالأسرار. وكتاب ابن جابيرول الهام هو (ينبوع الحياة) وقد ترجم إلى اللاتينية سنة ١١٥٠م[١].

وقد ازدهرت الفلسفة بصورة مميزة إبَّان القرن الثاني عشر الميلادي في الأندلس بظهور عدد من الفلاسفة الكبار، الذين أثرت فلسفتهم في الغرب الأوروبي أكثر من تأثيرها في العالم الإسلامي. من هؤلاء الفلاسفة أبو بكر محمد بن باجة المتوفى بمدينة فاس سنة ١١٣٨م، وكان فيلسوفاً وعالماً وطبيباً ومفسراً لفلسفة أفلاطون، وعاش في غرناطة وسرقسطة، وقد أثر في ابن رشد، وأهم كتبه الباقية (تدبير المتوحد) الذي يقول فيه، إن غرض الفلسفة هو كمال النفس البشرية التدريجي، الذي يحصل بالاتحاد مع الكائن الإلهي. وظهر تأثير فلسفة ابن باجة في الغرب الأوروبي في بعض نواحي فكر توماس الأكويني وألبرتو ماغنون[٢].

لكن الفيلسوف الأهم على صعيد التأثير الأندلسي في الغرب الأوروبي في ميدان الفلسفة، هو ابن رشد الذي وصف بأنه أكبر شارح لفلسفة أرسطو، كما ويكفي ابن رشد فخراً واعتزازاً، أنه تجرأ على إطلاق حرية الفكر لنفسه ونادى بها للجميع، على الرغم من وجوده في عصر كان مثل هذا الفكر يجلب لصاحبه المذلة والمهانة والتحقير. وقد عانى من ذلك كثيراً، لكنه مضى على طريقته الرائعة، فأعلن آراءه بصراحة وقوة حتى عدّه الأوروبيون مثلاً خالداً على حرية الفكر[٣]. وقد عبّر عن أفكار أرسطو تعبيراً صادقاً بإعلانه أن العقل العام المطلق أبدى قابلاً للانفصال عن الجسم، وأنكر الخلود والبعث وقال، يجب على المرء ألا ينتظر ثواباً أو عقاباً غير ما يلقاه في الحياة الدنيا. كما تعرض

---

(١) جورج حداد . المرجع السابق ص ٥٢٧.

(٢) عبد الواحد المراكشي . المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٨٥ . معجم أطباء المغرب والأندلس ص ٥٣ وما بعدها.

(٣) ابن رشد . كتاب الكليات ص ١١ وما بعدها.

للفلسفة الخلقية والاجتماعية، فأعلن كرهه للظلم والاستبداد، ورأى عدم وجود اختلاف بين الرجال والنساء في الطبع، إنما الاختلاف بينهما في الكم[١]. ولشدة ما تأثر به الأوروبيون قال عنه (جيوم)، إنه ينتسب إلى أوروبا والفكر الغربي أكثر من انتسابه إلى الشرق والفكر العربي الإسلامي. وبذلك أقدم الأوروبيون على دراسة فلسفة ابن رشد، ورحبوا بكتبه ترحيباً كبيراً، فأسهمت بإخراجهم من القرون المظلمة. فقد ترجم ريجر الباراتيني كتاباته إلى اللاتينية على الرغم من معارضة توماس الأكويني الشديدة، وانتشرت هذه الكتابات بوجه خاص في بادوا بإيطاليا. وتكررت طبعاتها اللاتينية في البندقية.

وقد كانت الحقيقة عند ابن رشد مزدوجة، دينية وعلمية، وانتقلت هذه النظرة منه إلى أوروبا، ولم تتخل عنها المسيحية إلا في القرنين الأخيرين[٢].

وقد أثرت فلسفة ابن رشد في الأوروبيين إلى حدّ أن كثيراً منهم خرج على تعاليم الكنيسة، فتمسكوا بمبدأ حرية الفكر وتحكيم العقل على أساس المشاهدة والتجربة، التي نادى بها ابن رشد، وقد مثل هذا الخروج بشكل بارز القديس توما الأكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤م) الذي كتب فصولاً في العقيدة والعقل وعجز العقل عن إدراك الأسرار الإلهية، وهي التي تقابل كتابات ابن رشد في باب (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة). وبلغ من تأثر توما بفكر ابن رشد أن كتاب (الخلاصة) لتوما يحوي آراء عربية إسلامية الأصل، ما يدل على أن الأثر الذي تركه ابن رشد في عقلية الغرب، لم يكن مجرد شرح لكتابات أرسطو، وإنما كان أبعد وأعمق من ذلك بكثير[٣].

---

(١) ابن رشد. كتاب الكليات ص ١٢ وما بعدها.

(٢) موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين ص٦٨ . معجم أطباء المغرب والأندلس ص ١٠٠ وما بعدها. عمر الإسكندري وسليم حسن . تاريخ أوروبا الحديثة وآثار حضارتها. مطبعة المعارف بالقاهرة ١٩١٧ ص ٥ . ٦.

(٣) موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين ص ٦٨ . معجم أطباء المغرب والأندلس ص١٠٠ وما بعدها.

أما الفيلسوف الآخر فهو أبو بكر محمد بن طفيل المتوفى ١١٨٥م، الذي عمل وزيراً وطبيباً لدى أبي يعقوب يوسف الموحدي. وقد اشتهر بمؤلفه (حي بن يقظان) وهو عبارة عن قصة فلسفية ممتعة، ومن أكثر القصص ابتكاراً في أدب العصور الوسطى. والفكرة الأساسية في هذه القصة، أن القدرة البشرية يمكن أن تبلغ معرفة العالم الأسمى دون مساعدة خارجية، وأن تكتشف بالتدريج اعتمادها على الكائن الأعلى. وعلى الرغم من أهمية هذه القصة لا يبدو تأثيرها الواضح في أوروبا العصور الوسطى، بل نرى ذلك التأثير فيما بعد، فقد قام إدوارد بوكوك بترجمتها إلى اللاتينية سنة ١٦٧١م ونشرت في إكسفورد مع ترجمتها، كما ترجمت فيما بعد إلى لغات متعددة كالهولندية والروسية والإسبانية والإنكليزية(١).

من ناحية أخرى، استفاد الغرب الأوروبي من العرب الأندلسيين على صعيد الصناعة، ونقلت عنهم صناعات متعددة إلى أوروبا، كان لها الأثر الطيب في تقدم شعوبها. ففي الأندلس ازدهرت صناعات النسيج بأنواعه، وصناعة الزجاج، وبعض الصناعات التعدينية. وإن أهم ما استفادته أوروبا كان صناعة الورق عبر الأندلس. وفي الواقع، فإن أول إشارة حول هذا الأمر نجدها لدى الإدريسي، الذي يذكر سنة ١١٥٠م مدينة شاطبة، حيث الورق الذي لا يوجد له مثيل في العالم المتمدن، ويصدَّر إلى الشرق والغرب. ففي القرن الثالث عشر الميلادي انتشر الورق خارج العالم العربي إلى أوروبا، وبذلك انتهى تقريباً احتكار العرب لإنتاج الورق والإتجار به، بعد أن بقي في أيديهم ٥٠٠ سنة(٢).

وكانت أولى المصانع التي أقامها العرب لصناعة الورق في الأراضي الأوروبية في صقلية وإسبانيا، فمن صقلية انتقلت صناعة الورق إلى إيطاليا، ومن إسبانيا انتقلت هذه الصناعة إلى غرب أوروبا، وحينما تعلم الأوروبيون

---

(١) جورج حداد . المرجع السابق ص ٥٢٧ . معجم أطباء المغرب والأندلس ص ١٧٨.

(٢) انظر: تاريخ الكتاب ص ٢٣٦.

صناعة الورق، استخدموه في الكتابة محل الرقائق الجلدية باهظة الثمن. وبذلك يكون العرب قد أدوا لأوروبا برمتها خدمة جليلة، لأنهم علموا الغربيين طريقة أسهل وأفضل في الكتابة. ويشهد على أثر العرب في هذه الناحية، تعدد المصطلحات العربية المتعلقة بالورق وصناعته، والتي ما يزال بعضها مستعملاً بلفظه العربي في اللغات الأوروبية مثل لفظة (رزمة) (١).

ونقل الغرب أيضاً عن العرب صناعة الخزف، التي انتشرت في إسبانيا منذ القرن العاشر الميلادي، وما تزال المتاحف الأوروبية تحوي كثيراً من الأواني الخزفية التي صنعت تقليداً لأواني عرب الأندلس، ويستدل على هذا التقليد مما عليها من كتابات عربية محرفة. وقد نشأ هذا التحريف من أن صانعي الخزف الأوروبيين اتخذوا من زخارف الأواني العربية نماذج يحاكونها دون فهم ما عليها من كتابات، فشوهوا الكتابات العربية لجهلهم بها، ولم ينكر الأوروبيون إعجابهم بالصناعة العربية، وتقليدها، إذ يروى عن الكاردينال اكسيمينزا أنه قال عن الصناع العرب في الأندلس «ينقصهم إيماننا وتنقصنا صناعاتهم»(٢).

كما استفاد الأوروبيون من العرب الأندلسيين على صعيد صناعي آخر، كانت وما زالت له أهميته القصوى في الحياة الاقتصادية، تمثل في صناعة السفن، فعن العرب أخذوا صناعة طراز من السفن سمي (العشاري)، وهو طراز متوسط الحجم، كان يستعمل في الأنهار والبحار للرحلات الصغيرة، وقد تلحق بالسفن الكبيرة لتكون قوارب نجاة، وسميت في إيطاليا باسمها العربي (Usciere أوشييري)، وفي إسبانيا Esquire nave. ويبدو أنها سميت عشاريات لأنها كانت تتسع لعشرة أشخاص(٣).

وللأندلسيين فضل السبق في تعليم الغربيين صناعة الزجاج والكريستال، التي ابتكرها ودل عليها العالم العربي الأندلسي عباس بن فرناس إبَّان القرن التاسع

---

(١) جورج يعقوب . أثر الشرق في الغرب ص ٥٥.

(٢) زكي محمد حسن . فنون الإسلام ص ٦٦٣. لوبون . حضارة العرب ص ٥٤٥.

(٣) ابن الأبار . الحلة السيراء ج١ ص ٢٩٧.

الميلادي، الذي أشار إلى هذه الصناعة جراء استخدام الحجارة، إلا أن إنتاج الأوروبيين من الزجاج، لم يتمكن من أن يصل إلى مستوى الإنتاج العربي[١].

وقام الأندلسيون كذلك بتعليم الغرب الأوروبي طريقة تبليط الدور والشوارع وإنارتها في الليل، حيث كان بمقدور السائر أن يمشي في شوارع قرطبة وأريافها على ضوء السرج المتصلة مسافة عشرة أميال[٢]. وكذلك طريقة صناعة السكر، وطريقة استخدام الريح وتحريك الطواحين الهوائية، التي اخترعت في آسيا الصغرى بادئ ذي بدء، ونقلت إلى إسبانيا، ومن هناك إلى أوروبا، وأنشئت أول طاحون منها في أوروبا سنة ١١٠٥م في مقاطعة نرمندية[٣].

كما أسهموا في تطوير بعض الصناعات الأخرى الخفيفة، مثل استخراج القطران من شجر الصنوبر والبلوط، الذي يكثر في المنطقة، وكانوا يستخدمونه في قلفطة السفن. ودليل علاقة هذه الصناعة بالعرب، أنَّها استمرت بعدهم واضحة باستخدام أهلها لكلمة القطران العربية بدلاً من كلمة Guodran الفرنسية. كما أنهم صنعوا الساعات منذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي أيام عباس ابن فرناس. وقد عثر على بعضها ألفونسو السادس غازي مدينة طليطلة[٤].

ولم يقصر العرب في مجال الزراعة، فعن طريق الأندلس وصقلية، تعلم الأوروبيون منهم كيفية حفر الترع والقنوات، وإنشاء المجاري المعقوفة التي كانت مجهولة قبلهم، كما أدخلوا زراعات جديدة لم تكن معروفة في غرب أوروبا كزراعة القطن وقصب السكر والسمسم والأرز والليمون والبطيخ والثوم والباذنجان والسبانخ، وكثير من التوابل والعقاقير النباتية والأصباغ، وطوروا إلى

---

(١) الزبيدي . طبقات النحويين ص ٢٦٨ . ٢٧٠ . زكي محمد حسن . فنون الإسلام ٢٣٦.

(٢) أحمد زكي . رحلة إلى الأندلس. طبعة دمشق. وزارة الثقافة السورية ١٩٩٠ ص ٤١١.

(٣) عمر الإسكندري وسليم حسن . المرجع السابق ص ٥ . ٦.

(٤) الزهري . كتاب الجغرافيا ص ٨٣ وما بعدها.

جانب ذلك الدورات الزراعية وفن استخدام الأراضي الزراعية على الوجه الصحيح من أجل محصول وافر غزير(١).

وقد كان الأدب العربي في الأندلس من الآداب المهمة التي تأثر بها الأوروبيون في العصور الوسطى، واستمر ذلك إلى العصر الحديث، وكان ذلك التأثير في فروع الأدب الرئيسة، كالشعر والنثر، وسبب ذلك أن الأوروبيين لم يكونوا مبدعين على هذا الصعيد فاتجهوا شطر الأدب العربي المعروف بخصوبته وإبداعه وروعته، وهذا ما صوره جب بقوله: «إن خير ما أسدته الآداب الإسلامية لآداب أوروبا، أنها أثرت بثقافتها وفكرها العربي في شعر العصور الوسطى ونثرها»(٢).

ومن تأثيرات العرب في الأدب الأوروبي ظهور شعر التروبادور، الذي اقتبس عن الأدب العربي الذي امتاز بالرومانتكية البالغة في الغزل الرقيق والرثاء، وغير ذلك. وقد ظهر هذا النوع من الشعر في الشمال الإسباني وإقليم بروفانس بجنوب فرنسا، وذلك منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، وانتشر بعد ذلك في مختلف الدول الأوروبية، ولا سيما في إيطاليا، حتى إن العلماء أثبتوا أن غزل الفروسية الذي انتشر بعد ذلك في ألمانيا متأثر إلى حد كبير بأشعار التروبادور التي تغنى بها فرسان فرنسا. وما يبرهن على أن شعر التروبادور متأثر بالشعر العربي، أنه يمتاز بالصقل وقوة الخيال، فضلاً عن عفته إلى درجة أن مثله الأعلى في الزوجة الوفية المثالية، وهذه الأمور لم تعرفها أوروبا في العصور الوسطى، التي لم تقم وزناً للمرأة، وقد حالت الكنيسة دون التغزل بها(٣).

---

(١) جورج يعقوب . أثر الشرق في الغرب ص٩٧ . سعيد عاشور . المرجع السابق ص٢٦٢ . ٢٦٣.

(٢) جب . تراث الإسلام ص ١٨٩ . ١٩٠.

(٣) أحمد أمين . ظهر الإسلام ج٣ ص ٣٨٧ . جب . تراث الإسلام ص ١٦٠ وما بعدها. ومن الجدير ذكره أن هذا الأدب انتقل إلى أوروبا من خلال الإسبان الذين استعربوا وخضعوا للعرب، وقاموا بنقل بذور الثقافة العربية إلى البلاد المجاورة لإسبانيا.

وعرفت أوروبا العصور الوسطى الشعر المقفى، الذي لم تكن تعرفه قبل وصول العرب إلى إسبانيا، وأدى دخول القافية الشعر الأوروبي، إلى وجود موسيقا جميلة يحسها القارئ في شعر غوته الوجداني، وشعر بلاتن، ونثر ستفن وغيرهم من رواد الأدب الأوروبي(١).

هذا من ناحية الشعر، أما أثر العرب الأندلسيين في النثر الأوروبي فليس فيه مجال للريبة. فقد اهتم الأوروبيون بالقصص العربية ذات المغزى الأخلاقي، أو تلك التي تتخذ الحيوان موضوعاً لها. وأول البوادر من هذا النوع ما نقله بطرس ألفونس من العربية إلى الإسبانية، وهي مجموعة قصص هندية، عرفت باسم (التعاليم الكنسية). وفي سنة ١٢٥١م ترجمت من العربية إلى الإسبانية أيضاً مجموعة من القصص الهندية(٢) المعروفة باسم (كليلة ودمنة) ثم ترجمت إلى الفرنسية سنة ١٣١٣م. وكذلك ترجمت إلى اللاتينية، وعنها إلى لغات أخرى أوروبية، ولاقت قبولاً شعبياً منقطع النظير، حتى إن بيورو باسكوال أسقف مدينة جيان الغيور على المعتقد الكاثوليكي، حارب هذه القصة لأنه رأى فيها خطراً يهدد سلامة العقيدة الكاثوليكية(٣).

وكانت قصة (السندباد) من القصص التي وصلت إلى الغرب الأوروبي، وهي هندية الأصل، وقد ترجمت إلى الإسبانية سنة ١٢٥٣م بتوجيه من الأمير فادريكي أخي ألفونسو الحكيم. ثم ظهرت بعدئذ في آداب أوروبا قصص منسوجة على شاكلتها دون الإشارة إليها، مثل قصص بوكاشيو الإيطالي بعنوان (الليالي العشر)، لكنها اختلفت من حيث مغزاها وطبيعتها وهدفها، ففي حين كان طابع قصص سندباد نمطياً وأخلاقياً، كان طابع بوكاشيو إباحياً.

---

(١) جورج يعقوب . المرجع السابق ص ٨٤.

(٢) بعضهم يقول إن أصل هذا القصص فارسي.

(٣) محمود مكي . مقال في كتاب: أثر العرب والإسلام في الحضارة الأوروبية ص٧٠ وما بعدها.

وربما كان أهم مجالات التأثير العربي في فكرة الكوميديا الإلهية لدانتي، الذي لم يكشف أمره إلا في مطلع القرن العشرين، حينما ظهرت نظرية آثين بلاثيوس القائلة، إنَّ الكوميديا الإلهية مقتبسة من الأدب العربي الإسلامي بفروعه الدينية والصوفية والأدبية(١). وقد تأثر دانتي في هذا الميدان بقصة المعراج الواردة في (الفتوحات المكية) لابن عربي.

وهكذا، استطاع الأدب العربي الأندلسي، أن يؤثر تأثيراً واضحاً في القصص الأوروبي، الوسيط والحديث على حدٍ سواء، وأدى ذلك إلى ظهور القصة الحديثة في الأدب الأوروبي. يتجلى تأثير الأدب العربي في أوروبا في وجه آخر، هو أن اللغتين الإسبانية والبرتغالية تحتويان على ألفاظ جمة من أصل عربي، وكذلك الأمر كان بالنسبة للغة الفرنسية، ولا سيما في الجهات الجنوبية. أما اللغة الإنكليزية ففيها وحدها ما يقرب من ألف كلمة مشتقة من أصل عربي(٢).

وهكذا، فقد كان تأثير العرب هائلاً في نواحي العلم المختلفة، من طب وصيدلة ورياضيات وفلك وفلسفة، وفي الأدب من قصة وشعر ورواية، وأيضاً في الصناعة والزراعة، وكان تأثيرهم ضعيفاً جداً في ناحيتي اللغة والفن، ومعدوماً في مجال الدين. وأدى ذلك التأثير الإيجابي للعرب إلى توسيع مدارك الأوروبيين وأخذهم بأسباب النهضة في مطلع العصور الحديثة، التي أينعت وأثمرت ثمراً طيباً، تجسد في ما يشهده العالم المتقدم من إنجازات حضارية، لم تعرف البشرية نظيراً لها، وما زالت تتقدم بسرعة مذهلة، بينما تقهقر العرب إلى آخر الدرك الحضاري، فأصبحوا على هامش الشعوب المتحضرة.

---

(١) أحمد بدر . تاريخ الأندلس ص ٤١٦ وما بعدها.

(٢) لوبون . حضارة العرب ص ٤٦٦ وانظر كذلك:
Walt Taylor-Arabic words in English p.56 .

فهرس المصادر والمراجع

- ابن الأبار . التكملة لكتاب الصلة . مطبعة السعادة. القاهرة ١٩٥٦.

الحلة السيراء . تحقيق حسين مؤنس. طبعة أولى. الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٣.

كتاب المعجم، أصحاب القاضي أبي على الصدفي. مجريط ١٨٨٥.

- ابن الأثير . الكامل في التاريخ ، دار صادر. بيروت ١٩٦٥ و ١٩٦٦.
- ابن الأحمر الغرناطي . أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن الهجري. تحقيق محمد رضوان الداية. مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٦.
- الإدريسي . صفة المغرب وأرض مصر والأندلس. مطبعة بريل. ليدن ١٩٦٤.
- ابن أبي أصيبعة . عيون الأنباء في طبقات الأطباء. الطبعة الأولى . المطبعة البهية ١٨٨٢ والطبعة الثانية. بيروت ١٩٨٢.
- ابن أبي الصلت (أمية) الرسالة المصرية، الطبعة الثانية. مصر ١٩٧٢.
- ابن بطوطة . مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . دار صادر. بيروت ١٩٦٤.
- البكري . جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك تحقيق عبد الرحمن علي الحجي . الطبعة الأولى، دار الإرشاد. بيروت ١٩٥٣.
- بلانثيا (آنجل جنثالث) تاريخ الفكر الأندلسي . ترجمة حسين مؤنس. الطبعة الأولى. مكتبة النهضة. القاهرة ١٩٥٥.
- ابن جبير (محمد بن أحمد) الرحلة، دار صادر. بيروت ١٩٥٩.
- الحميري (محمد بن عبد المنعم) الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق الدكتور إحسان عباس . دار العلم للطباعة. بيروت ١٩٧٥.
- ابن حوقل (محمد الموصلي) صورة الأرض، ليدن ١٩٣٨.

- الخشني (محمد بن حارث) قضاة قرطبة . الدار المصرية للتأليف والترجمة. القاهرة ١٩٦٦.
- ابن الخطيب (لسان الدين) الإحاطة في أخبار غرناطة. تحقيق محمد عبد الله عنان . مكتبة الخانجي. القاهرة ١٩٥٥.
أعمال الأعلام. تحقيق أحمد العبادي ومحمد الكتاني. دار الكتاب الدار البيضاء ١٩٦٤.
- ابن خلكان (أحمد الإربلي) وفيات الأعيان . تحقيق إحسان عباس، دار صادر. بيروت ١٩٧٠ و ١٩٧١.
- ابن خلدون (ولي الدين عبد الرحمن) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت. بدون تاريخ.
التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً. تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة ١٩٥١.
- ابن الدباغ . معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان. تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ماضور . الطبعة الثانية. مكتبة الخانجي. القاهرة ١٩٧٢.
- ابن دحية . المطرب من أشعار أهل المغرب . تحقيق مصطفى عوض الكريم . الطبعة الأولى. جامعة الخرطوم ١٩٥٤.
- سعد زغلول . تاريخ المغرب العربي ، القاهرة ١٩٦٥.
- ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب . تحقيق شوقي ضيف . المكتب التجاري. القاهرة ١٩٦٤.
كتاب الجغرافيا تحقيق إسماعيل العربي . الطبعة الأولى. المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت ١٩٧٠.
- شكيب أرسلان . تاريخ غزوات المغرب ، مصر ١٩٥٢.
- الصفدي (صلاح بن أيبك) الوافي بالوفيات ، إستانبول ١٩٥٩. طبعة دمشق ١٩٥٩ وطبعة بيروت ١٩٦٩ و ١٩٨٣.
- الضبي (أحمد بن يحيى) بغية المتلمس. دار الكتاب العربي. القاهرة ١٩٦٧.
- الطرطوشي (محمد بن الوليد) سراج الملوك. المطبعة الوطنية. الإسكندرية ١٢٨٩هـ.

- الطليطلي (صاعد بن أحمد) طبقات الأمم. مطبعة السعادة. طبعة القاهرة. دون تاريخ.
- عاشور (سعيد عبد الفتاح) العصر المماليكي في مصر والشام. الطبعة الأولى. القاهرة ١٩٦٥.
- العبادي (أحمد مختار) في تاريخ المغرب والأندلس . طبعة دار المعارف.
- (عبد العزيز سالم) تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام. جامعة بيروت العربية ١٩٧٢.
- ابن عذاري المراكشي . البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق س. كولان وليفي بروفنسال وإحسان عباس ، ليدن ١٩٤٨ وبيروت ١٩٦٧.
- عمر فروخ . العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط. طبعة ثانية. بيروت . دار الكتاب العربي ١٩٨١.

تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية. طبعة رابعة. دار العلم للملايين. بيروت ١٩٧٩.
- عنان (محمد بن عبد الله) عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس. طبعة لجنة التأليف والترجمة. القاهرة ١٩٦٤.
- الغبريني (أحمد بن أحمد) عنوان الدراية. تحقيق رابح بونار. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر ١٩٧٠.
- ابن فضل الله العمري . التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة ١٩٨٥.
- القاضي عياض . ترتيب المدارك وتقريب المسالك. تحقيق أحمد بكير محمود. دار مكتبة الحياة. بيروت ١٩٦٧.
- القفطي (علي بن يوسف) إخبار العلماء بأخبار الحكماء. عني بنشره محمد أمين الخانجي. مطبعة السعادة ١٣٢٦ هـ.
- ابن القوطية (محمد بن عمر) تاريخ افتتاح الأندلس. تحقيق عبد الله أنيس الطباع. بيروت ١٩٥٧.
- ابن الكردبوس . كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء. طبعة جديدة ١٩٦٥. قام بنشرها أحمد مختار العبادي.

- ليفي بروفنسال . تاريخ الإسلام في المغرب والأندلس. ترجمة محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي . القاهرة دون تاريخ.
- المراكشي (عبد الواحد) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة ١٩٦٣.
- المراكشي (محمد بن عبد الملك) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة. تحقيق إحسان عباس. دار الثقافة بيروت ١٩٦٥.
- المقري التلمساني (أحمد بن محمد) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق إحسان عباس ، دار صادر. بيروت ١٩٦٨.
- مؤلف مجهول . الأخبار المجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم ، مدريد ١٩٦٧.
- مؤنس (حسين) تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس. منشورات معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ١٩٦٧.
- يوسف فرحات . غرناطة في ظل بني الأحمر. طبعة أولى. دار الجيل. بيروت ١٩٩٣.

المصادر الأجنبية:

- CF. Edward Gibbon-the decline and fall of the Roman empire-London 1902.
- jan Read. the moors in Spain and Portugal.
- F.W. Robins-The story of water supply oxford universty press 1946.
- Montgomery watf-a history of Islam Spain.
- H. haskin . studies in the history of medieval science.
- vasiliev-history of the Byzentine empire.
- walt taylor - Arabic words in english.

المحتوى

الصفحة

مقدمة ٥

الفصل الأول : جغرافية الأندلس وحالتها العامة قبل الفتح العربي ٩

الفصل الثاني : فتح العرب الأندلس ١٧

الفصل الثالث : عصر الولاة في الأندلس ٣٣

الفصل الرابع : عصر الإمارة الأموية في الأندلس ٤٩

الفصل الخامس: عصر الخلافة الأموية في الأندلس ٧٩

الفصل السادس: عصر دويلات الطوائف في الأندلس ١١٥

الفصل السابع: عصر المرابطين في الأندلس ٤٨٥-٥٤٣هـ/١٠٩٢-١١٤٩م ... ١٣١

الفصل الثامن : عصر الموحدين في الأندلس ١٥٣

الفصل التاسع : عصر بني الأحمر في غرناطة ١٧١

الفصل العاشر: ظهور حركة الاسترداد في الأندلس وتطورها حتى نهاية القرن التاسع الهجري ودور المغاربة في كبح جماحها......... ١٨٣

الفصل الحادي عشر: دور اليهود في الأندلس في مختلف الوجوه ٢٠٧

الصفحة

الفصل الثاني عشر : العلوم التطبيقية في الأندلس ٢٣٣

الفصل الثالث عشر: العلوم النظرية والنقلية في الأندلس ٢٧١

الفصل الرابع عشر : تطور العمران وهندسة البناء في الأندلس.............. ٢٩٥

الفصل الخامس عشر : مظاهر الإدارة العامة في الأندلس ٣١٥

الفصل السادس عشر: مؤثرات الحضارة العربية الأندلسيَّة في الغرب
الأوروبي في العصور الوسطى ٣٤١

المراجع ٣٦٠

د. علي أحمد

- أستاذ في جامعة دمشق – كلية الآداب.
- عضو لجنة كتابة تاريخ العرب في جامعة دمشق.
- عضو اتحاد الكتاب العرب.

صدر له:

- الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، دار طلاس، دمشق ١٩٨٩م.
- مظاهر التعريب في الدولة العربية في العصور الوسطى، إصدار خاص ٢٠٠٩م.
- المؤثرات الثقافية العربية في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى، دار حسان، دمشق ١٩٩١م.
- مظاهر الإبداع في حل الأزمة الوطنية في الدولة العربية في العصور الوسطى، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٦م.

٢٠٢٢م